دراسة في السيرة

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
الفصل الاول : محمد صلى الله عليه وسلم بين الميلاد والنبوة
الفصل الثاني : الدعوة في عصرها المكي
الفصل الثالث : مسائل من العصر المكي
الفصل الرابع : تحليل للهجرة
الفصل الخامس : دولة الاسلام في المدينة
الفصل السادس : الصراع مع الوثنية (المرحلة الاولى)
الفصل السابع : الصراع مع الوثنية (المرحلة الثانية)
الفصل الثامن : العلاقات بين الاسلام والجبهة البيزنطية – النصرانية
الفصل التاسع : الصراع ضد اليهود
الفصل العاشر : حركة النفاق في العصر المدني
الخاتمة
المصادر والمراجع

المقدمة

هذا كتاب دراسي (أكاديمي) أُريد منه بالدرجة الأولى عرض وتحليل الهيكل الاساسي المتفق عليه لأحداث سيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) ، وتوزيع مساحات البحث بشكل متكافىء على كافة جوانب الموضوع. وهذا الكتاب يجيء ثمرة طبيعية لتدريس هذه المادة في كلية الآداب ما يزيد على الست سنوات ، الأمر الذي أتاح لي احتكاكا علمياً مباشراً بالموضوع، ودفعني للبحث عن أشد الصور المنهجية ملائمة لتوصيل المادة للطالب الجامعي ، وتمكينه من الاحاطة بوحداتها الأساسية إحاطة علمية مركزة ومتوازنة ، ترفض الجنوح صوب الخيال القصصي الإسرائيلي ، والتهويل الأسطوري ، أو التطرف – في الوقت ذاته – صوب النظرة المادية التي تقتل في السيرة روحها وتطمس على شخصيتها.

كما ان هذه الدراسة تسعى لتجاوز منطق الدفاع – قدر الإمكان – لكي تجعل الحقائق المجردة نفسها تشكل في ذهن الدارس النسق الحقيقي للسيرة ، وتدفع كل ما علق بها في الماضي والحاضر من تهاويل واضافات ومفتريات ما كان لها أنَّ تصمد أمام (الواقعة) التاريخية نفسها ، وليس غير الواقعة التاريخية حكماً وقاضياً. ومن ثم كان الرجوع إلى طبقة المصادر الأساسية في الموضوع (وبخاصة سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي وأنساب البلاذري وصحيح البخاري ...) ، والتعامل المباشر معها. وتجاوز (التضّخم) الذي عانته المصادر المتأخرة ، (والارتجال) الذي مارسته المراجع الحديثة ، أمرين لازمين لبناء صورة أقرب إلى الواقع التاريخي قدر المستطاع[1]. إن سيرة رسولنا (صلى الله عليه وسلم) تجربة غنية بأحداثها ، زاخرة بدلالاتها ، متنوعة بمعطياتها ، وما كان لباحث يسعى الى إيفائها حقها من البحث والتحليل الا أنَّ يوسع نطاق رؤياه ويصب اهتماماته على هذه الجوانب جميعا ؛ حركية وسياسية وعسكرية وشخصية وفقهية وروحية وواقعية وغيبية وعقيدية وحضارية.

ولم اشأ – من اجل تركيز الصورة وتحديد ابعادها بدقة – أنَّ التزم الخط الزمني لأحداث السيرة ، ذلك الخط الذي وقع في أسره معظم الباحثين ، فضاعت في مجراه حقائق ، وطمست دلالات وقيم ، ماكان لها أنَّ تضيع أو تنطمس لو قسمت وقائع السيرة الى وحدات متجانسة

---

(١) عن نقد مصادر السيرة انظر جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ، الفصل الأول ، ص ٦–٣٥ ومقاله القيم في مجلة (المجمع العلمي العراقي) المجلد الأول ، السنة الأولى.

خصص لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث ، استقصيت فيها سائر جوانبها ونسقت جل وقائعها ، وحللت معظم دلالاتها وقيمها.

ومعروف أنَّ التزام المجرى الزمني يدفع الباحث الى أنَّ يحشر في النقطة الواحدة ، أو المقطع الواحد ، مجموعة أحداث ووقائع متنافرة متقاطعة غير متجانسة ، ويلجئه احياناً أخرى الى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة لايضمها إطار واحد ولا يوحدها تجانس نوعي ، وهذا – بطبيعة الحال – نتيجة محتمة للسعي وراء منطق التقسيم الرياضي الصارم للأيام والسنين ، وهو الاسلوب الذي اعتمده مؤرخونا القدماء وعرفوه باسم (الحوليات) ، حيث لم يكن علم التاريخ ولا مناهج البحث فيه قد استكملت أسبابها بعد.

من أجل ذلك جاء هذا البحث يعرض أحداث السيرة كوحدات محددة الأبعاد وبخاصة في عصرها المدني حيث تكثر الروايات وتتكاثف الأخبار وتزدحم التفاصيل .. تناولت فيها على التوالي : محمد بين الميلاد والنبوة ، الدعوة في عصرها المكي ، تحليل للهجرة ، دولة الاسلام في المدينة ، الصراع مع الوثنية ، العلاقات بين الاسلام والجبهة البيزنطية – النصرانية ، الصراع مع اليهود ، ثم حركة النفاق في العصر المدني. وبقدر ما رأيت في بعض الروايات والأخبار قوة واهمية ، فوقفت عندها طويلا محللاً مستنتجاً ، رابطا اياها في نسقها النوعي من الوقائع ، بقدر ما لمست في روايات وأخبار اخرى ضعفا وانعدام أهمية فأغفلتها أغفالاً تاما ، أو مررت بها مرورا سريعاً معتمداً في ذلك على المقياس الصارم وهو قبول كل ما لا يتعارض مع آيات القرآن الكريم ومعطيات السنن الصحيحة ، ورفض ماعدا ذلك أو – على الأقل – عدم التسليم المطلق به.

إن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من مصادر المتاخرين (كالحلبي وأبي الفدا والمقريزي وابن الأثير .. الخ) كمصادر محورية ، وتغافلهم عن واحد أو اكثر من المصادر الأساسية الواردة ، آنفاً ، جعلهم يتركون ثغرات عميقة في صلب أبحاثهم ، كما دفعهم الى سرد الكثير من الاضافات (المتأخرة) التي لاتعرفها المصادر الاولى ، ومن ثم تضخيم وقائع السيرة إلى أضعاف حجمها الحقيقي على حساب الوقائع نفسها. لذا كان لابد – مرة أخرى – من عرض كافة الروايات على معطيات القرآن والسنة والمصادر الاولى على ما في الأخيرة من إضافات وثغرات – وعلى مقولات العقل الخالص ، ثم على الارضية التاريخية التي تحركت فوقها الأحداث ، ونمت ، واكتسبت ملامحها النهائية. وكل مالا ينسجم مع هذا أو مع ذاك كان

له أنَّ يلغى من حساب المؤرخ الجاد ، أو ينسحب – على الأقل – الى الخط الثاني من روايات السيرة ووقائعها الغنية المتشابكة.

إن النبي العربي – يقول الدكتور جواد علي[٢] – هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. وهو عبد الله ورسوله ، ونبي وبشر مثل سائر البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه. فقد ورد في القرآن الكريم : ((**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**))[٣]. وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتاريخها ، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى ، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ ، وجعل السيرة النبوية ، سيرة حية : سيرة نبي مرسل بالمعنى الاسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة. ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الإسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الاسلام ، والذي لايتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن ، لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين احكاماً وآراء أساءت إلى الإسلام ، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة والمسلمين[٤].

ويؤكد المؤرخ المذكور أنَّ ((في أغلب الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبار أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي ، وهم من مسلمة يهود ، أو غيرهم من مسلمة أهل الكتاب طابع القصص الإسرائيلي ، وفي اغلبه دسّ على الرسول وعلى الإسلام ، كما في قصة الغرانيق وفي أمور اخرى ... ويظهر من دراسة هذا النوع من القصص أنَّ أصحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وإدخاله بين المسلمين أمراً ، وان قلوبهم لم تكن مسلمة كألسنتهم ، وانهم كذبوا على ما يبدو)) .. ويمضي الى القول بأن مما يلاحظ ((أنَّ هذا القصص المتقدم هو مايرد في الكتب المتأخرة ، أما الكتب الواصلة الينا من أول عهد المسلمين بالتدوين ، فقد كانت تتحاشاه في الغالب ، ولا تميل اليه ولا الى الخوارق والمعاجز ، وهو قصص مخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسول ولحديث الرسول ، ولروح الإسلام ، ولهذا وجب أنَّ يكون

---

(٢) تاريخ العرب في الاسلام ، الجزء الأول ، وهو من أدق المراجع الحديثة في السيرة ، ولا تقل عنه دقة وأهمية أبحاث كل من : صالح أحمد العلي ومحمد عزة دروزة وابراهيم احمد الشريف ومحمد الغزالي في الطبعات الأخيرة لكتابه (فقه السيرة) التي خرّج الشيخ الألباني أحاديثها ، ومحمد سعيد رمضان ومحمود شيت خطاب ، انظر قائمة المصادر والمراجع).

(٣) سورة الكهف ، (الآية ١١٠).

(٤) جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ٧٥/١.

اعتماد المؤرخ على هذه الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقاد أمثال : كتب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن))[٥].

وعلى المستوى الحربي يقول محمود شيت خطاب ، بصدد المنهج الذي اعتمده في كتابه عن (الرسول القائد) : ((وقد أغفلت ذكر الحوادث التي لا يمكن أنَّ تحدث في الحرب فعلاً، تلك الحوادث التي يرددها بعض المؤرخين ليثبتوا للناس أنَّ انتصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان بالخوارق غير الاعتيادية بالدرجة الاولى ، لا بتطبيق مبادىء الحرب. ومن الغريب أنهم يعتبرون ذلك من مظاهر الإيمان برسالة النبي .. لقد كان محمد واقعياً بعيداً عن الخيال ، وكان إذا أراد شيئا هيّا له أسبابه .. وقد عمل بكل مبادىء الحرب المعروفة ، إضافة الى مزاياه الشخصية الأخرى في القيادة ، لهذا انتصر على اعدائه ، ولو أغفل شيئا من الحذر والحيطة والاستعداد لتبدّل الحال غير الحال))[٦].

ونحن نلتقي بهذا التحذير من تضخيم السيرة ، وبخاصة فيما قبل البعثة ، بحشد من القصص والإسرائيليات والخوارق ، في كتاب محمد عزة دروزة القيّم (عصر الرسول) فهو يقول : ((من العجب أنَّ يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة ، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن ، بل ما تتناقض معه. فأذا كنت ممن تسنى لهم أنَّ يستمعوا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد ، فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلو الذي يكاد يجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية ، ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشرّاحها في هذا الغلوّ (وبخاصة مايتعلق بالميلاد) دون أنَّ يكون لذلك اصل من قرآن أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق معقول. ويبدو أنَّ غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يتجلى

---

(٥) جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ١/٣٣-٣٤.

(٦) الرسول القائد ، المقدمة ، ص ٦-٧.

بالتميز في معظم الخلق وصفاء النفس وكبر القلب وقوة الإيمان ، والمهمة العظمى التي اضطلع بها ، ورأوا أنه لابد أنَّ يكون من لوازم نبوته واصطفائه أنَّ تكون ثمة مقدمات وبشائر))[٧].

لكن أياً من المؤرخين السابقين ، أو غيرهم من المؤرخين الجادّين ، لم يقل إن الضرورة المنهجية الملحة لرفض الإسرائيليات والقصص والخوارق تدعونا أنَّ نقطع السيرة عن أية صلة لها بعالم الغيب – كما يرغب دعاة التفسير المادي للتاريخ أنَّ يكون – لأن معنى هذا بوضوح نكران لنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتصاله – عن طريق الوحي غير المرئي – بعالم (الغيب) في السماء ، كما أنهم لم يقولوا – ولا أي من المؤرخين الجادين – أنَّ رفض القصص والخوارق يدعونا بالضرورة الى رفض الاعتقاد بأن الله (سبحانه وتعالى) طمس على أعين المشركين الذين حاصروا دار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قبل هجرته ، سعياً وراء قتله ، أو انه صدّهم عن إلقاء القبض عليه وهو مختبىء وصاحبه في الغار ، أو انه انزل ملائكته من السماء لتنصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة في معركة بدر ، ومعارك اخرى تلتها ..

إن كثيراً من وقائع السيرة ، واخبارها أوضح من ان تتكلف فيها الشروح والتفاسير والتعليقات ، ومن ثم فهي لن تحتاج إلا إلى قدر معقول من تنسيق المادة الأولية وترتيبها ، قائم على منهج علمي في الانتقاء والاستبعاد ، ليس كذلك الذي اعتمده كثير من الباحثين المحدثين ، وبخاصة طبقة المستشرقين الأولين التي حكمت الظن وانساقت وراء الهوى ، وهي تنتقي وتستبعد، أو تحلل وتستنتج وفق منهج بحث لاتقرّه بداهات العلم.

وهنا أحب أنَّ اقف بعض الوقت لأعرض بإيجاز لهذه المسألة المنهجية ، التي سوف لا أعود اليها مرة اخرى إلا لماماً ، خوف أنَّ تندّ بي عن المنهج الموضوعي في دراسةالسيرة من مصادرها (الاساسية) وبيئتها (الواقعية) بعيدا عن الرؤى والإسقاطات المعاصرة شخصية ومذهبية ، مما يتطلب بحثاً آخر يضم مطولات من الردود والأثباتات والتحليل والمناقشات أحسب انها تتم فعلاً وأنها في طريقها الى الظهور[٨].

يقول الدكتور جواد علي ((.. أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تاريخ الإسلام ، وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الاحيان ، وحكمهم

---

(٧) عصر الرسول ١/٢٥-٢٦.

(٨) يذكر أحد الأساتذة أنَّ صديقه الدكتور حسين مؤنس أخبره أنه يعكف منذ مدة ليست بالقصيرة على دراسة كافة معطيات المستشرقين في حقل السيرة ، ومناقشتها مناقشة شاملة في بحث مستقل.

بموجبه ، ولإصدارهم احكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو المتشابه ، مع قولهم بوجوب استعمال النقد ، وباحتراسهم في الأمور ووجوب التأكد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه .. وآية ذلك أنَّ معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات (اللاهوت) وأنهم إن تطرقوا الى الموضوعات الحساسة من الاسلام حاولوا جهد إمكانهم ردّها إلى أصل نصراني. وطائفة المستشرقين من يهود وخاصة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ، يجهدون أنفسهم لرد كل ماهو إسلامي وعربي لأصل يهودي ، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء))[٩].

ويمضي الدكتور جواد علي إلى القول بأن كثيراً من المستشرقين ((غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية ، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتى في أسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي. وطريقة مثل هذه دفعتهم الى الأستعانة بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور. واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً ، أو من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا الى نشوزه ، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك. ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء .. والذين يؤاخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد يؤاخذون كذلك من يحاول من المسلمين كتابة التاريخ متأثراً بعاطفته وهواه. فهم لايريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم لتأثرهم بعاطفتهم ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف))[١٠].

فالمنهج العلمي هو المنهج العلمي ، والخروج عنه هو خروج عن العلم الصحيح سواء مارسه رجل في أقصى الغرب أم في أقصى الشرق ، وسواء كان وراءه إنسان يتعبد في كنيسة أم يصّلي في مسجد .. والرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه يقول (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .. ولم يحدد (صلى الله عليه وسلم) هوية الكاذبين وانتماءاتهم الدينية والجغرافية.

ويحدثنا الدكتور (صالح أحمد العلي) كيف أنَّ بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كانت قد جانفت العلم كثيراً ، ثم

---

(٩) تاريخ ١/٨-٩.

(١٠) تاريخ ١/٩-١١.

بدأت تعتدل شيئا فشيئاً ، ((لقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما تناولوا من الأبحاث عن التاريخ الإسلامي. ولا شك أنَّ التعصب والتحامل كانا يغطيان على كتابات المستشرقين القدامى نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطرا ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية ، ونظرا لضعف معرفتهم باللغة العربية ، وقلة المصادر المتوفرة لديهم. غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الإسلام[١١] ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها ، وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق ذاته متّبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً من التقدم في الغرب. ومع أنَّ فريقا منهم لم يتقن كل ذلك ، إلا أنَّ عدداً غير قليل كان يتميّز بسعة الأطلاع ، وبعد النظر ، وعمق التفكير ، مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم أنه لايمكن القول بأن أحكامهم نهائية))[١٢].

ويعود جواد علي ليبين لنا كيف أنَّ (كايتاني) وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كان يعتمد منهجا (معكوسا) في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي ، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه إذ أنهم يبيّتون فكرة مسبقة ثم يجيئون الى وقائع التاريخ لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك. فلقد كان كايتاني ((ذا رأي وفكرة ، ووضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها ، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها ، ولا سيما ما يلائم رأيه ، لم يبالِ بالخبر الضعيف بل قواه وسنده وعدّه حجة ، وبنى حكمه عليه. ومن يدري ؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث ؟))[١٣].

ومن المستشرقين أنفسهم من دفعهم جدّهم وموضوعيتهم – وهم ليسوا بالقليل – إلى نقد وتفنيد الأخطاء المنهجية التي مارسها رفاقهم في دراسة التاريخ عامة وحياة الرسول (صلى الله

---

(١١) انظر عنهم تور اندريه : محمد ، ص ٢٤٣-٢٤٧.

(١٢) محاضرات في تاريخ العرب ١/٢٥٥-٢٥٦.

(١٣) تاريخ ١/٩٥.

عليه وسلم) خاصة ، والى تعرية الدوافع التي تكمن وراء موقفهم هذا ، سواء كانت محتشدة في الوعي أو منسربة في اللاشعور .. ((لقد رأى (دينيه) أنه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل، أنَّ يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة ، وانه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشي على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فإننا نلمس من خلال كتاباتهم محمدا يتحدث بلهجة المانية ، إذا كان المؤلف المانياً ، وبلهجة ايطالية إذا كان الكاتب إيطاليا ، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب. وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإننا لانكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة ! إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال (وولتر سكوت) و(إسكندر ديماس) وذلك أنَّ هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أنَّ يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة ، أما المستشرقون فلم يمكنهم أنَّ يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصوروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري. وأن الدكتور (سنوك هير غرنجة) ليقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق غريم (إننا نرى أنَّ الأستاذ غريم لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها بعمق لكان أفضل ، وأن الثمار التي كان يمكن أنَّ يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخّاها ، ولكنه ظن أنَّ هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أنَّ يطرف الناس بنبأ جديد ففشل في وضع السيرة النبوية) ..))[١٤].

وفي ختام كتاب (آتيين دينيه) القيم (الشرق كما يراه الغرب) ترد بعض الآراء حول (المنهج) حيث يقول ((لقد أصاب الدكتور سنوك هير غرنجة ((إن سيرة محمد الحديثة تدل على أنَّ البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأي سابق)). هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أنَّ يضعوها نصب أعينهم ، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلفهم من الجهود ما يجاوز حدّ الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة[١٥] فقد يحتاجون في

---

(١٤) آتيين دينيه : محمد رسول الله ، مقدمة عبدالحليم محمود ، ص ٢٧-٢٨ وانظر عن بعض نماذج تخّبط المستشرقين في دراسة السيرة : المقدمة نفسها ص ٢٨-٣٣ وهوامشها ، وعن موقف القسيس لامانس (النموذجي) من السيرة انظر : المقدمة ، ص ٣٥-٤١.

(١٥) انظر رأي جواد علي في كايتاني قبل قليل.

تأييد رأي من الاراء الى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم إلى بناء اخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لاريب مستحيل. إن العالم في القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن والبيئة والإقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول .. إلخ لاسيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لاتقع تحت مقاييس المعقول والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات)). ثم ما يلبث دينيه أنَّ يضرب (مثلاً عكسيا) فيقول : ((ما رأي الأوربيين في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عن مؤرخي الفرنسيين ويمحصها بمنطقها الشرقي البعيد ، ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشيليو) كما نعرفها ، ليعيد لنا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه !؟ إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويخيل إلينا أننا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم إما باللهجة الألمانية أو البريطانية أو الفرنسية ولا نتمثله قط – بهذه العقلية والطباع التي ألصقت به – يحدث عرباً باللغة العربية)) ، وينتهي المستشرق الفرنسي – الذي أعلن اسلامه – إلى القول ((إن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجلّ وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد))[١٦].

ويحدثنا المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات) في كتابه (محمد في مكة) كيف ((إن عزيمة محمد في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته ، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به ، وكان لهم بمثابة القائد ، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة ، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع ، فأتهام محمد بأنه دجّال Imposteu يثير من المشاكل أكثر مما يحل ، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد. فلقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد. وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه)). ثم يقدم (وات) قاعدة منهجية تكاد تكون بديهية من بداهات المنهج الأساسية ، إلا انها في موقف الغربيين إزاء شخصية محمد تضيع ويوقف العمل بها .. ((فإذا أردنا أنَّ نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده ، فيجب علينا في كل حالة من الحالات ، لا يقوم الدليل

---

(١٦) دينيه : محمد ، المقدمة ، ص ٤٣-٤٤.

القاطع على ضّدها ، أنَّ نتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب علينا ألا ننسى أيضا ان الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه))[١٧].

وفي مكان آخر يضرب (وات) بالمستشرق الفرنسي (لامانس) مثلاً على الانحرافات المنهجية التي يمارسها كثير من المستشرقين ، وبخاصة ذلك (الخطأ) الذي سبق أنَّ ذكرناه والذي يقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالا انتقائياً للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدد سلفاً. إن لامانس ((للأسف !! يتجاوز الأدلة كثيرا في ناحية اخرى ، إذ أنَّ طريقته العابثة (!!) في المعالجة ليست طريقة علمية (!!) ، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته ، دون أنَّ يعبأ بالموضوعية. ففي عبارة (الأحابيش وعبيد أهل مكة) نجد أنَّ (الواو) تفسيرية تشير إلى أنَّ الأحابيش من ضمن العبيد ، بينما نجد في عبارة (الأحابيش ومن أطاعهم – أي القرشيين – من قبائل كنانة وأهل تهامة) أن (الواو) تدل على تمييز تام. ولكن لماذا يفعل لامانس ذلك ؟ يبدو أنه يؤكد تحقيق النظرية التي يحاول التدليل عليها))[١٨].

ونحن نستطيع أنَّ نحصل على عشرات ، بل مئات ، من هذا (الانتقاء الكيفي) أو التفسير (الاختياري) للنصوص التاريخية في كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم الاولى. فبروكلمان – على سبيل المثال – لا يشير الى دور اليهود في تأليب الاحزاب على المدينة ، ولا الى نقض بني قريظة عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أشد ساعات محنته ، ولكنه يقول ((ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال)) [١٩]. ويتغاضى (إسرائيل ولفنسون) عن حادثة نعيم ابن مسعود في معركة الخندق كسبب من انعدام الثقة بين المشركين واليهود[٢٠] ، ولعله يريد أنَّ يوحي بذلك أنَّ اليهود لا يمكن أنَّ يخدعوا !!

ودرمنغم يشير هو الآخر ، وبوضوح أشد ، الى الأزمة المنهجية التي تعرّض معظم البحاث الغربيين عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأخطاء لن يغفرها العلم ، وكيف أنها – في العقود الأخيرة – بدأت تخف تدريجياً. إن سيرته – يقول درمنغم – ((تحاط في زماننا

---

(١٧) محمد في مكة ، ص ٩٤.

(١٨) محمد في مكة ، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(١٩) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٥٣-٥٤.

(٢٠) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٤٥-١٤٦.

بكثير من التحفظات ، ولا ريب في مجاوزة النقد للحد أحياناً على وجوه مختلفة مع الأسف ، ولكن من المؤكد أنه لا يحدث اليوم عن حياة محمد بتعابير ووجهات نظر كالتي جاءت في كتب التراجم الأخيرة التي ظهرت في المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة ككتاب واشنطن أرفنج)) ، ويمضي درمنغم الى القول بأنه ((جد في البحث العلمي بعض العلماء في القرن التاسع عشر ومنهم كوسان دوبرسفال وموير وفيسل ومرغليوث ونولدكه وشبرنجر وهورغرنجه ودوزي ، ثم تناوله – أي النبي (صلى الله عليه وسلم) – مؤخراً كايتاني ولامانس وماسنيون ومونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسيه وغريم وغولد سيهر وغودفروا ومونبيه وغيرهم. ومن المؤسف حقا أنَّ غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد احياناً ، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص .. ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى اليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي ، وليس من مقاصد كتابي أنَّ يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة .. ومن دواعي الأسف أنَّ كان الأب لامانس ، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين ، من أشدهم تعصبا ، وأنه شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام فعند هذا العالم اليسوعي أنَّ الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن ، فلا ادري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة ، بدلا أنَّ يؤيد أحدهما الآخر ؟))[٢١].

وهذا يقودنا الى موقف بعض المستشرقين من القرآن ، كمصدر أساسي من مصادر السيرة ، ذلك أنَّ اعتماد القرآن في هذا المجال يمكن أنَّ يعتبر سلاحا ذا حدين ، اعتمد جانبه الإيجابي مؤرخون كجواد علي وصالح أحمد العلي ومحمد عزة دروزة واعتمد الجانب السلبي مستشرقون كوات وشبرنجر ، وولفنسون وغيرهم ، وذلك بنفي الكثير من أحداث السيرة ، مادامت لم ترد في القرآن الكريم ؛ وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) !! وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبي ومعاكس ، وهي التشكيك ورفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن ، إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، أو إذا كان في نفيها تأكيد لأحدى وجهات النظر الاستشراقية.

فمثلاً نجد Sprenger يرى أنَّ اسم النبي ورد في أربع سور من القرآن هي آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح ، وكلها سور مدنية ، ومن ثم فإن لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول

---

(٢١) حياة محمد : المقدمة ، ص ٨ ، ١٠-١١.

قبل الهجرة ، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى[٢٢]!! واذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقط اسم (محمد) من خلال قراءته لنبوءات الإنجيل فأين ذهب إذا (محمد) الحقيقي الذي بشر به العهدان القديم والجديد ؟

وهناك مثل آخر ، إن اسرائيل ولفنسون يشير ، بصدد مهاجمة يهود بني النضير ، إلى أنَّ مؤرخي العرب يذكرون سببا آخر لإعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((لكن المستشرقين – يقول ولفنسون – ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير .. والذي يظهر لكل ذي عينين (!!) أنَّ بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره[٢٣] ولو انهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لإلقاء الصخرة عليه من فوق الحائط ، كان في استطاعتهم ان يفاجئوه وهو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه))[٢٤] ، ويبدو أنَّ ولفنسون يغفل هنا مسألة التركيب النفسي (لليهودي) وتجنبّه المعروف لأية مجابهة حقيقية !!

إننا في مجال الانتقاء والتفسير والنفي الاعتباطي هذا ، نرجع – مرة اخرى – إلى عبارة (وات) الذكية والتي قالها في هذا الصدد ، لكنه لم يلتزم العمل بها دائماً !! .. ((.. إذا أردنا أنَّ نصحّح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد ، فيجب علينا في كل حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدها أنَّ تتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب ألا ننسى أيضاً أنَّ الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً ، وإنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه))[٢٥].

وفضلا عن هذا ، نجد أن الطابع العلماني ، الوضعي ، للمناهج الغربية في تعاملها مع تاريخنا ، أوقع عدداً من المستشرقين في خطأ آخر مفاده أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يخطو خطوة واحدة وهو يعلم مسبقاً ما الذي يليها !! أي إن نشاطه كانت توحي به الظروف (الراهنة) ومتطلباتها ولوازمها. وأبرز مثل في هذا المجال ما ذكره (فلهاوزن) وعدد من رفاقه حول

---

(٢٢) انظر جواد علي : تاريخ ٧٨/١ وهوامشها.

(٢٣) وهل كانت سايكولوجية الاغتيال ترتكز دائماً على حسابات عقلية ؟

(٢٤) تاريخ اليهود ، ص ١٣٥–١٣٧.

(٢٥) محمد في مكة ، ص ٩٤.

قومية الحركة الإسلامية في عصرها المكي ، وأنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية – في العصر المدني – إلا بعد أنَّ اتاحت لها (الظروف) ذلك ، ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليفكر بذلك من قبل ، وما قالوه حول أعتماد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسلوب (اللاعنف) في العصر المكي وتحوله إلى القوة بعد أنَّ شكل دولة في المدينة وتجمع حوله المقاتلون ((لقد كان في وسع محمد – يقول فلهاوزن – من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم ، أنَّ يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولاكانت ذات صبغة خارجية عارضة ، هذا هو الذي جعلها لاتتسع لقبول عنصر غريب عنها ، ولكن محمداً لم يرد ذلك. ومن الجائز ايضاً أنه لم يكن يستطيع أنَّ يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم))[٢٦].

وفي مكان آخر يقول ((وليس ثم ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه – أي محمد – أنه حقق إنشاء مملكة الله في الأرض على الأساس الطبيعي الذي وجده أمامه ، فهو وإن كانت الضرورات العملية ، في كثير من الأحيان ، قد اضطرته أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدّسة ، من غير أنَّ يسند ذلك إلا إلى الله ، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أنَّ يعتبره منافقاً))[٢٧].

ويرفض (سير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) هذه الرؤية الخاطئة فيقول ((من الغريب أنَّ ينكر بعض المؤرخين أنَّ الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أنَّ يكون ديناً عالميا برغم هذه الآيات البينات[٢٨] .. ومن بينهم السير وليم موير إذ يقول ((إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وأن هذه الفكرة ، على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كانت الفكرة غامضة ، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أنَّ هذا الدين الجديد لم يهيّأ إلا لها. وأن محمداً لم يوجه دعوته ، منذ بعث إلى ان مات ، إلا للعرب دون غيرهم)). وهكذا نرى أنَّ نواة

---

(٢٦) الدولة العربية وسقوطها ، ص ٤.

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٢.

(٢٨) يستشهد أرنولد بالآيات التالية : سورة ٣٦ (آية ٦٩–٧٠) ، سورة ٢١ (آية ١٠٧) ، سورة ٢٥ (آية ١) ، سورة ٢٤ (آية ٧) ، سورة ٦١ (آية ٩) ... الخ.

عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فإنما يرجع هذا الى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج))[٢٩].

وفي مكان آخر يقول أرنولد ((لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها ، ولم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة))[٣٠].

ولم يقف أرنولد وحده ؛ بمواجهة هذا الخطأ الواضح إنما هناك كولدزيهر[٣١] ونولدكه[٣٢] وسخاو[٣٣] الذي يؤكد ((أنَّ الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوفات ، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقاً. وقد كان لمحمد بوصفه رسولاً من الله ، حق المطالبة بهذه الطاعة ، وقد كان عليه أنَّ يطالب بها ، وهذا ما ظهر من أول الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء ..))[٣٤].

ويرفض أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أنَّ محمداً قد تحول الى القوة بمجرد أنَّ واتته الظروف ، وهو رأي قد صرّح به – نقلاً عن فلهاوزن – بعض الباحثين ولاسيما ميور عندما تحدث عن مذبحة بني قريظة فقال ((إن الدعائم التي سار عليها محمد قدماً كانت سياسية محضة، إذ انه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة اكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه ..))[٣٥] .. إذ يقول أرنولد ((إنما المهم أنَّ نتبين كيف أنَّ محمداً ، عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحوّل دفعه واحدة ، كما قد يريدنا البعض على الأعتقاد ، من داعية مسالم إلى متعّصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع ، وقد أكد الكتّاب الأوربيون على ذلك مراراً))[٣٦].

---

(٢٩) Annali dell Islam : : وكايتاني آخر من يؤكد هذا الراي : The Caliphate : . pp. 43-44
Vol, V.pp.323-324 عن أرنولد : الدعوة إلى الإسلام هامش ٢ ، ص ٤٩–٥٠.

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٤٨.

(٣١) عن ، أرنولد : الدعوة : هامش ! ص Vorles ungen uber den Islam P.2548

(٣٢) عن المصدر السابق ، نفس الصفحة والهامش.

WZKM, vol,xxi , pp.307-308

(٣٣) عن المصدر السابق ، نفس الصفحة والهامش.

(٣٤) أرنولد : الدعوة ، هامش ١ ، ص ٤٨.

(٣٥) المصدر السابق ، هامش ١ ، ص ٥٤.

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٥٣–٥٤.

إلا أنَّ ارنولد لم ينج من الوقوع في الخطأ نفسه عندما يقول ((كانت رغبة محمد ترمي إلى تأسيس دين جديد ، وقد نجح في هذا السبيل ، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً. وكانت رغبته بادىء الأمر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله))[٣٧].

غير أنَّ أسوأ نموذج يمكن أنَّ نجده لهذه الانحراف المنهجي ، حول مسألة تأثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالظروف الراهنة ، وتحركه وفق مستلزماتها ، ما ذكره بندلي جوزي ، أحد رواد التفسير المادي للتاريخ الإسلامي ، في كتابه (من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) حيث يقول ((إن سياسة النبي مع المكيين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختبار وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة ، وكان من نتائجها أنَّ النبي أخذ يلطف من سياسته نحو إخوانه المكيين ، كما أنَّ أصحاب السلطة في مكة رأوا – بعد ما أصابهم في موقعة بدر ، وبعد ما لحق بتجارهم من الخسائر – أنَّ يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ماكانت عليه قبل الإسلام ، وأن يشملهم بالعفو – إلا بعض اشخاص – ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيراً لأنفسهم. وربما كان من شروط التفاهم[٣٨] [٣٨] أنَّ يبقى النبي في المدينة وأن لايتعرض في كلامه لأمورهم المالية ، فكانت الحديبية ، وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة اخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل (Compromis) فصار الناس (**يدخلون في دين الله أفواجاً**) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيىء القليل ، بل عن رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد ، وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة من أجيال. يخيل لي – يقول جوزي – إن من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية أو في زمان ومكان آخرين ، أنَّ يكفّ النبي عن الطعن في الملأ المكي ، وأن لايحرض صعاليك العاصمة الحجازية وأرقاءها عليه ، وهذا – على ما يظهر لي – أحد أهم أسباب خلو السور المدنية ، ولاسيما تلك التي نزلت في الدور الأخير ، من

---

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٥٢.

(٣٨) أي تفاهم هذا ؟ وفي أي زمان ومكان تم ؟ وأية رواية أوردته ؟ وفي أي مصدر على الإطلاق ؟

العبارات القارصة والطعن في سكان مكة[٣٩]. وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الآن ، وهو أنَّ حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت – كما هو معلوم – تغيراً ظاهراً أدى الى تغيير نفسيته. فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر (؟) أنَّ بعض إصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة ، وفيها شيء مما يدعوه الأوربيون : التساهل))[٤٠].

ويمضي بندلي جوزي إلى القول بأن ((الدور المكي كان دور تمهيد واستعداد ، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الأمة ، دور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه ، مخلص في عمله ، وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد ، فهبّت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه ، دور جهود وأحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأسا على عقب. ما أجمل هذا الدور وما أعظمه وما أحلى تلك الأحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها !! وأما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم ، ودور حروب وافتتاحات ، ودور سياسة ومكاشفات أدت إلى تساهل من الطرفين. ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب أو مبادىء أو التلطف في الطلب ، والرجوع عن بعض الافكار ، أو وضعها في قالب يرضاه الفريقان. وهذا ماكان من أمر النبي العربي ، ورئيس جمهورية مكة (أبو سفيان) الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي ، هذا يعترف بسيادة النبي الروحية والعالمية ، ويهجر الأوثان ، ويؤدي الزكاة ويقيم الصلاة ، وذاك يتعهد أنَّ تبقى مكة مركز البلاد العربية الديني وأن يجعل لأعيان مكة وقادة أفكارها حظاً في إدارة المملكة أو الجمهورية الروحية الجديدة ، وأن يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاؤون. أما الفريق الثالث (أي الفقراء) ، وهو الطرف الذي استعرت الحرب لأجله ، وظهرت الدعوة لتحسين أحواله ، فقد أرضوه في بادىء الأمر بشيء من الصدقات والزكاة ثم نسوه أو تناسوه بعد وفاة النبي وخلفائه الأولين ، فرجع إلى حالته الأولى بل إلى ما هو أسوأ منها))[٤١].

---

(٣٩) هذه غاية ما يمكن أنَّ يصل اليه مؤرخ من خروج على مستلزمات البحث العلمي ، وعبث صريح بالوقائع التاريخية ، وإلا ففي أي زمان ومكان وضعت هذه الشروط ؟ وأين هي من شروط صلح الحديبية التي تواترت بنصوصها الحرفية في كافة المصادر والمراجع ؟

(٤٠) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، ص ٤٩–٥٠.

(٤١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، ص ٥١–٥٣.

إن فهم السيرة لايمكن أنَّ يتم إلا وفق نظرة شمولية تدرس حركة الإسلام كخطوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله ، ومحدّد في قرآنه ، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن سوى منفّذ لهذا البرنامج بأسلوب يعتمد على قدراته وأخلاقيته وذكائه وإمكاناته الفذة في التخطيط والتنفيذ .. ورغم أنَّ القرآن الكريم نزل منجّماً ، وراحت آياته تنزل على مكث لكي تلامس الأحداث وتعلق عليها (بعد وقوعها) إلا انه بمجموعه كمبدأ (أيديولوجية) لا يخرج عن نطاق كونه برنامجاً إلهياً شاملاً ترتبط ممارساته الجزئية بكليات شاملة محددة سلفا في علم الله. ومن ثم فإن (الظروف الراهنة) ليست هي الحتمية المؤقتة التي تحدد مسار الإسلام وخطى رسوله انما هناك (الهدف) الذي يفرض أحياناً (وقفة) ضد الأعراف والظروف و(تمرداً) عليها و (انقلاباً) شاملاً على مواضعاتها ، وهذا ما يبدو واضحاً منذ أول لحظة ، في الشعار الحاسم الذي طرحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوجه الجاهلية (لا إله إلا الله !!) ، فأي ظرف راهن ، موقوت ، أوحى بهذا الشعار الانقلابي الشامل الذي جاء يدمر على الوجود الجاهلي جلّ قيمه وأهدافه ومعالمه ومفاهيمه وعاداته وتقاليده ؟!

إن توماس أرنولد يشير الى ذلك بوضوح عندما يقول ((لا يعزب عن البال كيف ظهر جلياً أنَّ الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية ، وكيف كانت تتعارض والمثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أنَّ دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب وإنما كان انقلابا كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل ... والواقع أنَّ المبادىء الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر اليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين ، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أنَّ يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل اسلامهم ينظرون اليها نظرة الاحتقار))[٤٢].

إن القرآن الكريم كان قضية فوقية جاءت آياته لتقود الإنسان في كل زمان ومكان إلى عصر جديد ، ولم يكن (ينفعل) انفعالاً مؤقتاً بالوضع السائد ، سلبا وايجاباً ، كما يتصور معظم المستشرقين مسيحيين وماركسيين ، وإنما كان ينظر نظرة شمولية بعيدة كل البعد عن ردّ الفعل المباشر ، وهذا هو الذي يفسر لنا الكثير من الأخطاء التي مارستها مناهج البحث الغربية.

---

(٤٢) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٦١-٦٢ ، وانظر بالتفصيل غولد تسيهر في مؤلفه :
Muhammedanis che Studien, Vol. i.

ونحن لا نطلب من الغربيين هنا أنَّ يؤمنوا أنَّ القرآن منزل من السماء وأن محمداً رسول .. وإنما نطلب أنَّ يكونوا أكثر تجرداً وموضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كوحدة عضوية متكاملة ، والى القرآن الكريم كبرنامج Ideology مترابط ، تعلو معطياته على الظروف الموقوته زماناً ومكاناً ، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية ، ولكنها الملامسة التي تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولي ما كان للمستشرقين أنَّ يغفلوا عن أبعادها !!

***

وكما كشف المستشرقون ، بتعمقهم ونفاذهم وإحاطتهم ، النقاب عن الكثير من الجوانب المضطرية الغامضة في تاريخنا الإسلامي عامة ، بما فيه سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إلا أنهم – بأخطائهم المنهجية آنفة الذكر – طرحوا الكثير من النتائج والمعطيات الموضوعية الخاطئة ، وهذا أمر طبيعي ، فالخطأ لاينتج إلا الخطأ ، والبعد عن الموضوعية ، لا يقود إلا الى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية إلا قليلاً.

وليس هنا مجال عرض هذه المعطيات والنتائج ، ومناقشتها ، فلهذا مجال آخر كما سبق وأن ذكرنا ... إلأ أننا نطرح فيما يلي نماذج محدودة فحسب من حصاد ضخم يمكن أنَّ يجنيه كل دارس بتأن وروية ، لما كتبوه عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو حصاد يحمل في ثناياه عناصر تناقضه واضطرابه وخروجه عن البحث المنهجي الدقيق.

يقول بروكلمان : ((في هذه الأثناء كان مسلمو مكة ، على ما تقول الروايات ، يعانون أزمة جديدة. ذلك أنَّ حديث محمد عن إسرائه العجيب ، برفقة جبريل إلى بيت المقدس ، ومن ثم إلى السماء ، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين ، ولكن أبا بكر ضرب بإيمانه الراسخ مثلاً طيبا" لهؤلاء المتشككين فزايلتهم الريب والظنون. ومن الجائز أنَّ تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير إليها بعد في الأساطير الغريبة التي خلفتها لنا الكتب الإسلامية جميعها ، أقدم من ذلك عهداً ، ولعلها ترجع الى الأيام الأولى للبعثة النبوية. وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجّد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية))[٤٣].

((وقد حالت الظروف بين الرسول وبين الشروع في شن حملة نظامية مباشرة على المشركين. فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة إخوانهم من

---

(٤٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤.

قريش في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الاقوياء .. حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة بأوامر سرية ، فوفّقت الى مباغتة قافلة بالعروض ، كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حرمة الشهر ، فاصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة. ولكن هذا النقض للقانون الخلقي القبلي لم يلبث أنَّ أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها ، فما كان من محمد إلا أنَّ أنكر صنيع أتباعه ، الذي تم وفقاً لرغباته بلا خلاف ، وعزاه الى سوء فهم لأوامره. ولم يجرؤ على إعلان شرعية الحرب ضد المشركين ، وتوزيع الغنائم حتى في الشهر الحرام ، إلا في آيات متأخرة ، بعد أنَّ كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية))[٤٤].

((وتأثرت اتجاهات النبي الدينية ، في الأيام الأولى من إقامته في المدينة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود ، وأغلب الظن أنه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أنَّ يدخل اليهود في دينه ، وهكذا حاول أنَّ يكسبهم عن طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي .. ولم يطل العهد بمحمد حتى شجر النزاع بينه وبين أحبار اليهود، فالواقع أنهم على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية ، كانوا يفوقون النبي الأمي في المعلومات الوضعية وفي حدة الإدراك. فالفجوات المختلفة التي تكشف عنها علمه بالعهد القديم والتي كان قد تركها عارية في السور المكية ، لم يعد من الممكن أنَّ تظل خافية عليهم. ولكن إشاراتهم الساخرة إلى هذه الفجوات كانت أعجز من أنَّ تزعزع إيمانه بصحة ما يوحى اليه))[٤٥].

((وكان على محمد أنَّ يعوض خسارة (أحد) التي أصابت مجده العسكري ، من طريق آخر، ففكر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النضير لسبب واه))[٤٦].

---

(٤٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٨-٤٩.

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ولابد من الأشارة هنا إلى تعليق لمترجمي الكتاب : البعلبكي وفارس ، ورد بصدد هذه العبارة ، ومفاده أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد علم أنَّ التوراة مبدلة لأن فرق اليهود كانت مختلفة ، وإن السامريين (اليهود الذين يسكنون اليوم في نابلس- قبل قيام إسرائيل) يقولون إن لديهم توراة هي الصحيحة ، بينما التوراة التي يملكها سائر اليهود غير صحيحة. ثم أنَّ في العهد القديم أساطير كثيرة ، فإذا كان محمد قد رفضها فإنه قد فعل ذلك على أساس علمي و(رفض الخطأ ليس جهلاً) : المترجمان ، حاشية ١ ، ص ٤٧.

(٤٦) المصدر السابق ، ص ٥٢.

((وفي سنة ٦٣٨ (= ٧هـ) حاول النبي أنَّ يعوض فشله الظاهري في الحديبية فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر))[٤٧].

دوزي : ((كان محمد يشاطر بني جلدته نظرتهم (القائمة على الاحتقار) إلى اليمنيين والزراع حتى ليؤثر عنه أنه سمع رجلاً ينشد بيتاً يشير فيه إلى انه حميري وليس أسلافه من ربيعة ولا مضر ، فقال له ما معناه : أف لك ، إن هذا النسب يبعدك عن الله ورسوله. ويقال ايضاً أنه رأى محراثا في بيت رجل من أهل المدينة ، فذكر له أنه ما دخل دار قوم إلا دخلها الذل. إلا انه لما يئس من حمل أهل جنسه من التجار والبدو على أعتناق مبادئه ، ولما رأى أنه مهدد في حياته منذ أنَّ مات عمه وحاميه أبو طالب ، فقد اضطر لتناسي هذه النظرة وقبول كل مساعدة من أي جانب صدرت عنه. فرحب بوفود عرب المدينة الذين عطفوا عليه وأكرموه لما أنزل به المكيون من الاضطهاد والتنكيل))[٤٨].

((وطال أمد النضال بينهم وبين مشركي مكة حتى استغرق ثماني سنوات نشرت خلالها جيوش المسلمين الرعب في شتى بقاع شبه الجزيرة مما حمل كثيراً من القبائل على اعتناق الدين الجديد ... وانتهى الأمر اخيراً بفتح مكة ، الذي يصّور الذروة التي آلت إليها قوة محمد. ففي هذا اليوم تطلع أهل المدينة للأخذ بثأرهم من هؤلاء التجار المتكبرين الساخرين بهم .. غير أنَّ احلامهم تلاشت إذ أمر الرسول قواده باصطناع الرأفة البالغة ، وساعده المكيون – صامتين – في تحطيم أصنامهم المنصوبة في الكعبة .. تعبدها شتى القبائل التي اعترفت بمحمد رسولاً لله، والغيظ يملأ قلبها ، وكتمت في نفسها الانتقام إلى يوم تسنح لها فيه الفرصة من هؤلاء الأجلاف: يهود المدينة (!!) الذين دنسوا الشرف بغزوهم لبلدهم. وبعد أنَّ تم فتح مكة رأت القبائل الباقية على شركها عدم جدوى المقاومة واعتنقت الإسلام ، تحت عامل الخوف من حرب مهلكة ، إذ كان قواد محمد يدعون للدين حاملين القرآن في يد والسيف في أخرى))[٤٩].

فلهاوزن : ((ولم يبق الإسلام على تسامحه – بعد بدر – بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة ، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول .. أما اليهود

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٥٦ ، وما لبث بروكلمان أنَّ ذكر في نفس الصفحة أنَّ المستقبل ماعتم أنَّ برر موقف النبي في الحديبية ؟!

(٤٨) تاريخ مسلمي الأندلس ٢٧/١.

(٤٩) المصدر السابق ٢٧/١-٢٨.

فقد حاول أنَّ يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد. وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية ، أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية ، وقد التمس لذلك أسباباً واهية ...))[٥٠].

مركوليوث : ((عاش محمد هذه السنين الست ، بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة. فقد كان هناك على أية حال سبب ما – حقيقياً كان أم مصطنعا – يدعو إلى انتقامه منهم ، إلا أنَّ خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعا ، لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أنَّ يكون ذريعة للأنتقام .. وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمد ، ففي أيامه الأولى في المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين ، لكنه الآن (بعد سنة٦هـ) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك. فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر كافياً لشن الغارة عليها ... وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد ، والتي دفعته الى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبل ونابليون من بعد ... إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حد قد أصبح الإسلام خطراً على العالم))[٥١].

نولدكه : ((لو أنَّ القبائل العربية استطاعت أنَّ تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية ، والذود عن استقلالهم ، لأصبح جهاد محمد ضدهم غير مجد ، إلا أنَّ عجز العربي عن أنَّ يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له أنَّ يخضعهم لدينه ، القبيلة تلو الاخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل وسيلة ، فتارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية))[٥٢].

((كان النبي لا يتحرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان خيالياً ، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه))[٥٣].

---

(٥٠) الدولة العربية وسقوطها ، ص ١٥-١٦.

(٥١) مرغوليوث : محمد وقيام الإسلام ، ص ٢٦٢-٢٦٣ عن فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي ، ص ١٦٩-١٧٠.

(٥٢) تاريخ العالم للمؤرخين ١١/٨ عن فتحي عثمان : أضواء ، ص ١٧٠.

(٥٣) عن فتحي عثمان : أضواء ، ص ١٧١-١٧٢.

بندلي جوزي[٥٤] : ((لا شك أنَّ النبي العربي لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكة والمدينة إلى أنَّ يستأصل أسباب الشر الاجتماعي ، ويقتل جميع جراثيمه ، كما يحاول أنَّ يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على أختلاف اسمائهم ونزعاتهم ، بل كانت غايته الكبرى أنَّ يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا في الفقر والرق لأسباب لم يقو على مقاومتها ، والا فلو أراد أنَّ يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية كلها لكان لجأ بعد أنَّ أصبح صاحب الأمر والنهي في جزيرة العرب ، الى وسائل غير تلك التي ذكرناها. وما مثل النبي من هذا الوجه إلا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه ، ولاسيما أنبياء بني إسرائيل ، أي أنه فضّل استعمال الوسائل الأدبية – إلا فيما ندر من الظروف – على غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسيي أوربا كلينين وموسوليني وغيرهما .. وعليه يمكننا أنَّ نقول إن محمدا أجاد في وصف الأمراض الاجتماعية العربية وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها ..))[٥٥].

مونتكمري وات : ((إن زيارة محمد لحراء ، وهو جبل قريب من مكة ، بصحبة عائلته أو بدونها ، ليست مستحيلة ، ويمكن أنَّ يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه الى الطائف ، ويمكن للتأثير اليهودي – المسيحي ولا سيما مثل الرهبان ، أو تجربة شخصية لمحمد ، أنَّ يكون قد أثار فيه الحاجة للخلوة والرغبة فيها))[٥٦].

((تعتبر كلمة ناموس عادة مشتقة من كلمة Nomos اليونانية ، وهي تعني اذن (الشريعة) أو (الكتب المقدسة) ، وهذا يتفق تماماً مع ذكر موسى. وقد أبدى ورقة ملاحظة ، بعد أنَّ اخذ محمد يتلقى الوحي ، وهي تعني أنَّ ما نزل على محمد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة. كما أنَّ محمداً سمع ما يوهمه بأنه مؤسس أمة ومشرع لها. وإذا كان محمد ، كما يبدو ، مترددا بطبعه ، فإن هذا التشجيع بإقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبر أهمية لتطوره الداخلي .. وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة))[٥٧].

---

(٥٤) بندلي جوزي (١٨٧١–١٩٤٢) من أهل القدس ، تخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية، وتولى التدريس في معهد الرهبان ثم في جامعة باو إلى أنَّ توفي ، وقد عده المستشرقون الروس مرجعا من مراجعهم : عن كتاب نجيب العقيقي : المستشرقون ، جزء ٣ ، ص ٩٣١.

(٥٥) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، ص ٤٤–٤٥.

(٥٦) محمد في مكة ، ص ٨١.

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٩٢–٩٣.

وفي مكان آخر من كتاب وات نقرأ هذه العبارات ((ادعى كايتاني أنَّ سكان المدينة رضوا بمحمد ككاهن أعلى فقط لأنهم كانوا بحاجة الى الاستقرار الداخلي في المدينة ، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها. وبعضهم كانوا مسلمين حقا .. ومن الممكن ايضاً أنَّ يكون محمد ، نوعا ما ، حاملاً للأفكار اليهودية المسيحية في القرآن ، بألفاظ عربية جاهلية ، ولهذا اساء فهمها – كما يقول كايتاني – ولكن المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمد كانوا يفهمون مبادىء الإسلام الأساسية ويؤمنون بها. فالله خالق الكون وسيّد العالم ، وهو الحكم في اليوم الأخير ، ومحمد حامل رسالة الله إلى العرب. وكان المسلمون يقيمون مجتمعا جديدا في المدينة ، وكان هذا المجتمع يتطلب أساسا فكريا واضحا ومحددا. ومن الممكن أنَّ يكون القليل من المسلمين في المدينة يدفعه حماس ديني قوي ولكنهم كانوا جميعا مؤمنين بالروابط الدينية ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلاً من روابط النسب))[٥٨].

ويحضرنا ، ونحن نعرض لتناقض المستشرقين في مسألة الأخذ عن الصحف القديمة ، قول جواد علي بهذا الصدد ((لا أهمية ولا معنى لقول شبرنكر أنَّ محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف إبراهيم) المذكورة في القرآن الكريم. وقد ردّ على هذا الرأي نولدكه بقوله (لو فرضنا أنَّ محمداً أخذ من هذه الصحف ونسبه لنفسه وادعاه على أنه وحي أوحى الله به إليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن ، لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس إلى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا لايعقل الأخذ بكلام شبرنكر))[٥٩].

ونمضي مع وات لنراه يقول في مكان آخر ((لم يكن الإسلام .. حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة ، ولم يستمد الإسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي بل من أولئك الذين كانوا في الوسط وادركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل أمتيازاً منهم فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين ، بل بين الملاكين والذين هم أقل منهم))[٦٠].

---

(٥٨) محمد في مكة ، ص ٢٣٤–٢٣٥.

(٥٩) تاريخ العرب في الإسلام ١٤٢/١–١٤٣ ، وليس شبرنكر أول من صرح بهذا القول ، بل قالت به قريش ايضاً في مبدأ نزول الوحي. المصدر السابق ، ص ١٤٣ ، أنظر حول مسألة (أمية) الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما دار حولها من مناقشات : جواد علي : المصدر السابق ، ص ١٣٦–١٤٣.

(٦٠) محمد في مكة ، ص ١٥٩–١٦٠.

((كان الاشخاص الذين اتصل بهم محمد (في الطائف) ، وهم عبد ياليل واخوته ، ينتمون لقبيلة عمرو بن عمير المنتمية للأحلاف ، فكانوا بذلك انصار قريش ، وربما راود محمداً الأمل بأستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية)[٦١].

***

ونتوقف عن سرد هذه (النماذج) للأخطاء (الموضوعية) التي قادت اليها الثغرات العديدة في (مناهج) البحث الأستشراقية لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فهي كثيرة لا يحصيها عد .. وننتقل – من ثم – لكي نعرض لهذه السيرة نفسها ، وفق (منهج) أقرب ما يكون (لروح) هذه السيرة و(بنيتها) و(معطياتها) و(أرضيتها التاريخية) و(مصادرها الأساسية).

أستميح القارىء عذراً إن قصرت أو اخطأت ، وانتظر الفرصة التي يتيحها لي لتلافي التقصير وتسديد الخطأ .. فكل بني آدم خطاء ، وخير الخاطئين التوابون .. وصدق رسول الله.

الموصل : عماد الدين خليل

(٦١) محمد في مكة ، ص ٢٢١ عن لامانس : الطائف ، ص ٢١٢ ، ٢١٧.

الفصل الاول

محمد (صلى الله عليه وسلم)
بين الميلاد والنبوّة

[1]

ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل (حوالي سنة ٥٧٠-٥٧١م) لأبوين عريقين في نسبهما ينتمي أحدهما ، وهو عبد الله ، إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب وتنتمي الأخرى ، وهي آمنة ، الى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب حيث تلتقي مع نسب زوجها عبد الله[٦٢]. وكان منبت محمد (صلى الله عليه وسلم) في أسرة لها شأنها بعض ما أعد الله لرسالته من نجاح. فالمجتمع العربي الاول كان يقوم على العصبيات القبلية الحادة ، العصبيات التي تفنى القبيلة كلها دفاعا عن كرامتها الخالصة وكرامة من يمت اليها[٦٣]. وقد توفي ابوه ، وهو في بطن امه ، خلال عودته من تجارة له الى الشام ، ونظراً الى مانعرفه من وجود الاوبئة في يثرب ، ولا سيما وباء الملاريا (حمى يثرب) فلا يستبعد ان يكون هذا المرض هو السبب في وفاة عبد الله في المدينة ودفنه هناك[٦٤].

وما ان رأت عينا محمد (صلى الله عليه وسلم) النور حتى ارسلت أُمه الى جده عبد المطلب ((انه قد ولد لك غلام فأته فانظر اليه)) ، فجاءه وحمله الى الكعبة حيث راح يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، ثم أعطاه الى أمه ريثما يلقى مرضعة له ، ووقع اختياره على أمراة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت ابي ذؤيب[٦٥] استصحبته معها الى مضارب بني سعد حيث ظل محمد (صلى الله عليه وسلم) يشب وينمو ، يشرب من لبن مرضعته ويتنفس من هواء الصحراء الطلق ويزداد قوة وصحة وعافية ، ولم يبلغ السنتين من عمره ، حيث فطمته حليمة ، حتى حملته وزوجها إلى أمه في مكة ، وهما أحرص ما يكون على مكثه فيها لما كانوا يرون من

---

(٦٢) ابن هاشم : تهذيب السيرة ، ص ٢٠-٢١ ابن سعد : الطبقات ٦١/١/١-٦٤ المسعودي : مروج الذهب ٣٦٥/٢-٢٦٦ ، وأنظر عن نسب الرسول وأجداده : مونتكمري وات : محمد في مكة ، ص ٦١-٢٦٦ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٢/٢ و ٢٥٩ وخليفة بن خياط : تاريخ ٨/١-٩ البلاذري : أنساب الأشراف ٩١/١-٩٣ وعن تسمية (محمد) أنظر بالتفصيل جواد علي في ٧٥-٩٠.

(٦٣) محمد الغزالي : فقه السيرة ، ص ٥٨.

(٦٤) جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ، ص ٩٥.

(٦٥) ابن هشام ، ص ٢٨ البلاذري : أنساب الأشراف ٩٣/١.

بركته ، فكلمت حليمة أمه فقالت لها ((لو تركت ابنك عندي حتى يغلظ ، فإني أخاف عليه وباء مكة) ، ولم تزل بها حتى أجابتها الى طلبها[٦٦].

وهناك ، بعد أشهر من عودته الى مضارب بني سعد ، وقعت حادثة شق الصدر وعاد أخوه من الرضاعة يوماً ، وهو يلهث ، فقال لأمه وأبيه ، وهما يرعيان اغناماً لهما خلف دورهم .. ذاك أخي القريشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء فاضجعاه وشقا بطنه ، فهما يسوطانه[٦٧] ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه فوجداه قائماً منتقع الوجه فسألاه : مالك يا بني ؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فألتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو.. وسرعان ماعادت به حليمة وزوجها إلى خباءهما[٦٨]. وظن الأب أنَّ الغلام قد أصيب وطلب من زوجته أنَّ تعيده إلى أمه فأعلمتها أنه قد بلغ ، وأنها قد قضت الذي عليها ، فأخذته أمه حيث ظلت ترعاه في حماية واشراف من جده عبد المطلب. وعندما بلغ السادسة من عمره توفيت أمه بالأبواء ، وهي في طريق عودتها إلى مكة في أعقاب زيارة لأهلها من بني عديّ بن النجار قصدت بها أنَّ تزيره اياهم ، فتولى أمره جده عبد المطلب الذي كان يقعده إلى جواره في مجلسه في ظل الكعبة ، ويقول لبنيه إذا ما أرادوا أبعاده عنه ((دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً)) ثم يمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع[٦٩].

لم تطل رعاية الجد وعطفه الذي عوض حفيده حدب الأب وحنان الأم ، إذ ما لبث أنَّ توفي ، ومحمد لم يجاوز الثامنة من عمره فتولى أمره عمه أبو طالب ، لأنه وعبد الله والد الرسول

---

(٦٦) ابن هشام ، ص ٣٠-٣١ ، ابن سعد ٧٠/١/١ ، وانظر .. Caetani, Annali Dell Islam, Vol.i. l .P. 125, 151.

(٦٧) أي يحركانه.

(٦٨) وفي صيغة أخرى للحادث عن أنس أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلامين فأخذه فصرعه فشق قلبه فأستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ... ثم لأمه وأعاده الى مكانه. وجاء الغلمان يسعون الى أمه – يعني مرضعته – أنَّ محمداً قد قتل فأستقبلوه وهو منتقع اللون (أخرجه مسلم ١٠١/١-١٠٢ وأحمد ١٢١/٣) ويرى درمنغم أنَّ هذه (القصة) نشأت عن قول القرآن (ألم نشرح لك صدرك ...) وأن هذه العملية أمر باطني قام على تطهير ذلك القلب وتوسيعه ليتلقى رسالة الله عن حسن نية ويبلغها بأخلاص تام ويحتمل عبئها الثقيل (حياة محمد ، ص ٤٨).

(٦٩) ابن هشام ٣١-٣٣ ، ابن سعد ٧٠/١/١-٧١ ، ٧٣-٧٤ ، المسعودي : مروج الذهب ٢٧٥/٢ ، البلاذري: أنساب ٨١/١-٨٨ ، ٩٤-٩٥ اليعقوبي : تاريخ ٧/٢ ، ٩ أنظر : ١٥٦ ، ١٣١-١ Caetani Op. cit ; 1/ 131 , 156

(صلى الله عليه وسلم) كانا لأم واحدة[٧٠] ، ولم يكن أبو طالب بالرجل الموفور المال ، وكان يعيل عددا من الأبناء الأمر الذي اضطر محمداً (صلى الله عليه وسلم) أنَّ يعينه في كسب قوته حسب طاقته ، فكان يرعى له الأغنام وعندما قرر عمه الخروج في تجارة الى الشام وكان قد بلغ أنذاك التاسعة من عمره رجاه أنَّ يصحبه معه ، فرق له أبو طالب وقال ((والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً))[٧١].

لدى وصول المركب مدينة بصرى الواقعة على طريق التجارة من الشام ، وهي أبعد مكان رآه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حياته وأقصى موقع زاره في بلاد الشام[٧٢] نلتقي برواية طرحها عدد من مؤرخي السيرة القدماء دون نقد ولا تمحيص ، تقول أنه لما نزل قريبا من بصرى دعاهم الى الطعام راهب يدعى (بحيرى) منقطع الى صومعته يدرس فيها التوراة والانجيل ويعبد الله .. فلما حضروا جميعا راح بحيرى يركز انظاره على الصبي ويلحظه لحظاً شديدا وينظر الى أشياء من جسده كأنه كان يبحث ويمعن النظر في الصفات والملامح التي تحدثت عنها التوراة والانجيل في النبي الذي حان موعد ظهوره. حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى وقال له : يا غلام ، اسألك بحق اللات والعزى الا ما اخبرتني عما أسألك عنه. فأجابه محمد : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما. قال بحيرى : فوالله إلا ما خبرتني عما أسألك عنه قال محمد : سلني ما بدا لك ، فجعل بحيرى يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل محمد يخبره فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفاته .. فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابن أخي .. قال : ما فعل أبوه؟ قال : مات وأمه حبلى به. فقال بحيرى صدقت ، فأرجع بأبن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود

---

(٧٠) الطبري : تاريخ ٢٧٧/٢.

(٧١) ابن هشام ٣٣-٣٤ ، الطبري : تاريخ ٢٧٧/٢ ، ابن سعد ٧٥/١/١-٧٦ ، ٧٩-٨٠ البلاذري : أنساب ٩٦/١.

(٧٢) جواد علي : تاريخ العرب ، ص ١٠٦.

فوالله لأن رأوه وعرفو منه ما عرفت ليبغينه شراً فأنه كائن لأبن أخيك شأن عظيم[٧٣].

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد قام منذ صباه – بمساعدة عمه الفقير كثير العيال – برعي الأغنام لأهله وأهل مكة كما قام بأعمال اخرى .. ولكن الرعي وهذه المساعدات لم تفده وقد بلغ هذا العمر ، ولهذا كان أبو طالب يفكر في رزق يسوقه الله اليه يكون فيه أمن وطمأنينة له وكان ذلك عن طريق البيع والشراء والتجارة على عادة أغلب أهل مكة في ذلك العهد، وقد تكسب محمد بالاشتغال بالبيع والشراء مستقلاً بأعماله أحياناً ومشتركاً مع غيره احياناً اخرى .. وقد تاجر بشراء البز يشتريه من سوق حباشة ، على طريق اليمن ، وهي سوق مشهورة لبيع هذه البضاعة ، ويبيعه في مكة .. وقد عرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالأمانة والصدق في المعاملة ، ولكنه لم يكسب في عمله في البيع والشراء مالاً يذكر ولا ثروة تساعده وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره .. لذا عرض عليه عمه أنَّ يسهم في تجارة خديجة علها تدر عليه ربحاً[٧٤]. وورد في بعض كتب السيرة[٧٥] أنَّ محمداً قام لخديجة بسفرة أو سفرتين أو أربع سفرات إلى اليمن ، ألى سوق حباشة أو إلى جرش ، وذلك قبل قيامه بسفرته المشهورة إلى بصرى .. وأن خديجة دفعت له بعيراً عن كل سفرة قام بها الى اليمن وأربع بكرات عن سفرته إلى بلاد الشام[٧٦]. بلغ محمد (صلى الله عليه وسلم) العشرين من عمره وبدأ يسهم في تجارب قريش السياسية والعسكرية والدينية ، حيثما رأى في هذه التجارب حقاً وعدلاً ، رافضا – من جهة أخرى – كل تصوراتها الخاطئة ومعتقداتها الوثنية وأخلاقياتها المتهافتة الساقطة .. اشترك ،

---

(٧٣) ابن هشام ، ص ٣٤–٣٦ ، الطبري : تاريخ ٢٧٧/٢–٢٧٩ ، ابن سعد ٧٦/١/١ ، البلاذري : أنساب ٩٦/١–٩٧ ، المسعودي : مروج ٢٨٦/٢ ، ابن الأثير : الكامل ٣٧/٢–٣٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨٣/٢–٢٨٦ ، المقدسي : البدء والتاريخ ١٣٤/٤ .. Caetani : Op. cit ; 1-160

ولم يقف إزاء الرواية ناقداً ممحصا سوى ابن سيد الناس في (عيون الأثر) ، ص ٤٣ (مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٦هـ) والذهبي في (تاريخ الإسلام) ٣٨/١ ، ٣٩ (مكتبة القدس ، القاهرة) أنظر بحث (تحقيق قصّة بحيرى) للدكتور محسن عبد الحميد (مجلة الجامعة ، عدد ٤ ، سنة ٩ ، ص ٦٩–٧٣) وسوف نرجع إلى هذه الرواية كرة أخرى لدى الحديث عن العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية–النصرانية. (انظر ، ص ٢٧١–٢٧٢).

(٧٤) جواد علي ، ص ١٠٩–١١٠.

(٧٥) إمتاع الأسماع ، السيرة الحلبية ، الروض الأنف ، عيون الأثر ...

(٧٦) جواد علي ، ص ١١٢.

وهو في العشرين من عمره ، في حرب الفجار التي سميت كذلك لوقوعها في الأشهر الحرم ، والتي نشبت بين كنانة وقريش من جهة وبين قيس عيلان من جهة أخرى ، وكان قائد قريش وكنانة فيها حرب بن أمية الذي تمكن وسط النهار أنَّ يتجاوز الهزيمة التي مني فيها أول الأمر وأن يحقق النصر على قيس. وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) آنئذ ينبل لأعمامه ويرد عنهم نبال عدوهم(٧٧). واشترك في حلف الفضول الذي تم عقده في أعقاب حرب الفجار التي يبدو أنها كانت الدافع الأساسي الذي أستفز زعماء قريش لعقد هذا الحلف الذي يصفه ابن سعد بأنه ((أشرف حلف كان قط)). وكان أول من دعا اليه الزبير بن عبد المطلب ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم وغيرها من عشائر قريش في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا وتعاهدوا بالله ((لنكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه)) كما تعاهدوا على ((التآسي في المعاش)) وسموا ذلك الحلف (حلف الفضول). وقد قال عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد نبوته ، وهو يسترجع ذكرياته ((ما أحب لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم .. ولو دعيت به – في الإسلام – لأجبت))(٧٨).

وقد روى كل من المسعودي واليعقوبي(٧٩) وعدد من المؤرخين أنَّ سبب إنشاء هذا الحلف إنما كان بسبب الغبن الذي الحقه أحد سادة قريش : العاص بن وائل السهمي برجل من اليمن ، حيث ماطله في ثمن السلعة التي اشتراها منه ، حتى يئس الرجل ، فعلا جبل أبي قبيس ونادى قريشا وهي في مجالسها حول الكعبة بشعر يصف فيه ظلامته ((فمشت قريش بعضها الى بعض ...)). ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلف الفضول أنَّ الحاجة الى الأمن والاستقرار بعد حرب الفجار هي التي دفعت قبائل قريش الى الاجتماع في دار عبد الله

---

(٧٧) ابن هشام ، ص ٣٦ ، ابن سعد ١/١/١٠–٨٢ ، المسعودي : مروج ٢/٢٦٨–٢٦٩ ، اليعقوبي ٢/١٢–١٣ ، المقدسي ٤/١٣٥–١٣٦ Caetani : Op, cit, 1-163-136. انظر عن أيام الفجار بالتفصيل البلاذري: أنساب ١/١٠٠–١٠٣ ، وابن كثير : البداية ٢/٢٨٩–٢٩٠ ويقرر إسرائيل ولفنسون (تاريخ اليهود) أنَّ قريشاً خاضت أربع فجارات كان عمر النبي (صلى الله عليه وسلم) في أولاها عشر سنين وفي آخرها أربع عشرة أو خمس عشرة سنة وانظر : درمنغم ، ص ٥٥–٥٩ وجواد علي ، ص ١٠٧–١٠٨.

(٧٨) ابن سعد ١/١/٨٢ ، المسعودي : مروج ٢/٢٧٠–٢٧١ ، اليعقوبي ٢/١٣–١٤ ، المقدسي ٤/١٣٦–١٣٧ ابن الأثير : الكامل ٢/٤١–٤٢ ، ابن كثير : البداية ٢/٢٩٠–٢٩٣.

(٧٩) المصدران السابقان ، نفس الصفحات.

بن جدعان للتفاوض في أمر إحلال الأمن والسلام في مكة لأن حياة أهل مكة تقوم على الوافدين اليها من الحجاج والتجار ، وان الذي دعا الى ذلك نفر من قريش وأن الذي تزعم الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هو عبد الله بن جدعان أحد أثرياء مكة[٨٠].

وفي الخامسة والثلاثين من عمره مارس (صلى الله عليه وسلم) مهمة التحكيم في مسألة وضع الحجر الأسود. كانت قريش قد أجمعت أمرها على إعادة بناء الكعبة وتسقيفها بعد ما أصابها من السيول المنحدرة اليها من المرتفعات المجاورة ، وبعد محاولة لسرقة محتوياتها من قبل نفر من قريش ، وكانت الكعبة منضودة من حجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط[٨١] وكان البحر قد رمى بسفينة لرجل من تجار الروم قريباً من جدة ، فتحطمت وحمل خشبها الى مكة للإفادة منه في أعمال البناء. وصادف أنَّ كان بمكة آنذاك رجل قبطي نجار فارتأوا ضرورة البدء بالعمل. وتعاونت قبائل قريش جميعا في البناء ، كل تناول جانباً ، هدماً وبناءً. وعندما بلغوا موضع الركن حيث يوضع الحجر الأسود ، اختصموا ، كل قبيلة تريد أنَّ ترفعه إلى موضعه دون الأخرى فانحاز كل رجل إلى قبيلته ، وتأهب الجميع للقتال. وظل الأمر عاى ذلك أربع ليال. وحينئذاك تقدم أبو أمية بن المغيرة – وكان عامئذ أسن قريش – فقال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. فأقروا رأيه ، وراحوا ينتظرون أول داخل ، فكان محمدا (صلى الله عليه وسلم) ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد فلما أنتهى اليهم وأخبروه الخبر قال: هلم إلي ثوباً ، فجيء به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بجانب من الثوب ثم أرفعوه جميعا ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ثم بنى عليه[٨٢].

في الخامسة والعشرين من عمره كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد اجتاز تجربة زواجه الأول وكانت تجربة ناجحة لعبت دورا كبيراً في حياته قبل البعثة وبعدها على السواء. كان

---

(٨٠) جواد علي ، ص ١٠٩ ، وانظر عن هذا الحلف بالتفصيل مونتكمري وات : محمد في مكة ، ص ٢٣–٢٥، ٣٩–٤٠ وجواد علي ، ص ١٠٨–١٠٩.

(٨١) الطبري ٢/٢٨٣.

(٨٢) ابن هشام ، ص ٤٠–٤٢ ، الطبري ٢/٢٨٧–٢٩٠ ، ابن سعد ١/١/٩٣–٩٥ ، البلاذري : أنساب ١/١٠٠ ، المسعودي : مروج ٢/٢٧١–٢٧٣ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/١٤–١٥ ، ابن الأثير : الكامل ٢/٤٢–٤٥، المقدسي ٤/١٣٩–١٤٠ ، ابن كثير : البداية ٢/٢٩٨–٣٠٥ ، وانظر : درمنغم : حياة محمد، ص ٦٤–٦٧.

محمد قد اختير بوساطة عمه أبي طالب ، من قبل السيدة خديجة ذات الشرف والمال في قريش ليكون أمينا لتجارتها إلى الشام برفقة خادمها ميسرة لما كانت قد سمعته عن محمد ((من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه)). وقد وافق محمد على القيام بالمهمة لقاء أجر غير زهيد قررت خديجة منحه اياه لدى عودته رابحاً من الشام. ولقد عاد بعدئذ مضاعفا ، بصدقه وأمانته ونشاطه ، ربح التجارة التي كلف بإدارتها ، فأعجبت خديجة به وزادها اعجاباً وتقديراً ماحدثها به خادمها ميسرة عن أخلاق محمد وصفاته. وعلى عادة العرب في الوضوح والصراحة وعدم الالتواء، بعثت إليه من يقول له : إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت عليه الزواج. وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على خطبتها لو يقدر على ذلك(٨٣).

استشار محمد (صلى الله عليه وسلم) أعمامه فخرج معه عمه حمزة (رضي الله عنه) ودخل على خويلد بن أسد فخطب ابنته لابن أخيه ، فوافق الأب وتم الزواج المبارك ، فكان من ثماره أبناء رسول الله كلهم إلا إبراهيم ، وهم : القاسم ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يكنى به ، وعبد الله (الذي يلقب بالطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وقد توفي القاسم وعبد الله قبل مبعثه ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن إلى المدينة(٨٤).

[2]

إن الاطار التاريخي لسيرة رسولنا (صلى الله عليه وسلم) ، منذ مولده حتى وفاته ، يضم حشداً كبيراً من الروايات ، يكثر ويتكاثف في مرحلة ويقل ويتباعد طيلة الأربعين سنة التي سبقت مبعثه في غار حراء ، فلا يكاد يغطي سوى مساحات قليلة من هذه السنين الطويلة ولا يكاد يرسم سوى خطوط عريضة عن طفولة وشباب الرجل الذي قدّر له أنَّ يعيد صياغة الحياة الدنيا بما ينسجم ونواميس الكون .. وتلك هي الصعوبة الكبرى في تاريخ الرجال الكبار في حياة البشرية. إن اهتمام الناس بأبطالهم يقتفي أثر النواميس الطبيعية ذاتها ، فحيثما تجمعت الأضواء

---

(٨٣) ابن هشام ، ص ٣٧-٣٨ ، ابن سعد ٨٢/١/١-٨٥ ، البلاذري : أنساب ١٥/١-١٦.

(٨٤) ابن هشام ، ص ٣٨ ، الطبري : تاريخ ٢٨٠/٢-٢٨٢ ، ابن سعد ٨٥/١/١ ، ابن الأثير : الكامل ٣٩/٢-٤٠ ، ابن كثير : البداية ٢٩٣/٢-٢٩٥ ، المقدسي ١٣٨/٤-١٣٩ وانظر :

Caetani : Op, cit ; 1-138 Sprenger, die lehre des Mohammed 1-194.

في جانب حيثما زادت الظلال المجاورة عتمة وخفاء .. وما أنَّ يبرز البطل فجأة على مسرح الأحداث حتى تسلط عليه الاضواء فلا يتبقى من سيرته أية مساحة غير معرضة للإنارة والتلوين .. لكنه قبل أنَّ يظهر .. قبل أنَّ يجيء من وراء الكواليس ، يحيطه الغموض ، ويصعب على الناظرين تمييز جل مساحات حياته مهما امتدت سنوّ هذه الحياة.

إن اربعين سنة من حياة رسولنا العظيم (صلى الله عليه وسلم) هي الأرضية التي أقيمت عليها نبوته الشامخة .. ترى ما الذي قدمته لنا الروايات عن أمداء هذه الأرضية ؟ .. النسب الأصيل لأمه وابيه في بيئة (ترفض) الهجناء والمختلطين .. اليتم السريع للأب والأم ولما يتجاوز المولود عهد طفولته .. الفقر والحرمان في صحراء تزيد نار الفقر والحرمان اشتعالا .. رحلتان بعيدتان إلى الشام إحداهما صبياً برفقة عمه أبي طالب والأخرى شاباً مسؤولا عن تجارة للسيدة خديجة .. الإسهام الحريص في عدد من الأحداث المهمة التي شهدتها مكة : حرب الفجار ، حلف الفضول ، بناء الكعبة .. الزواج بالسيدة خديجة بعد عودته من رحلته الثانية إلى الشام .. الرفض الحاسم لقيم الوثنية وعاداتها واخلاقياتها وتقاليدها .. ثم فترات من العزلة والتأمل في غار حراء بعيداً عن صخب مكة وضجيجها.

وبين هذه الأحداث المرئية الأبعاد جميعا لمحات غير مرئية الأبعاد ، ذات دلالة عميقة، أكدتها الروايات والأسانيد ، جاءت بمثابة إرهاصات أولية عن أنَّ هذا الإنسان سيلعب دوره في القضية الكبرى في تاريخ البشرية ، قضية الحوار المفتوح بين السماء والأرض .. الخير العميم الذي راح يتدفق في مضارب مرضعته حليمة بعد إعسار وجفاف ، شق صدره واستخراج علقة سوداء من قلبه قبل أنَّ يتفتح وعيه على الحياة .. ولن نذكر هنا أية واقعة أخرى لعب الخيال الشعبي والإسرائيلي دوراً بارزاً فيها.

تلك هي النقاط الأساسية التي لم يتمكن (باحث) لحدّ الآن أنَّ يعثر على ما يفوقها أهمية أو ما يضيف إليها حقائق أخرى ، ولن نلقي اللوم على رواتنا ومؤرخينا فتلك هي كما قلنا طبيعة التاريخ ، فالأبطال – أنبياء وغير أنبياء – يضلون مجهولين يتحركون في مناطق الظلال لكي ما يلبثوا أنَّ ينتقلوا فجأة لأداء أدوارهم حيث تسلط الأضواء .. ولنا أنَّ نحمد الله (سبحانه وتعالى) على أنَّ هيأ لنا هذا القليل عن هذه المرحلة الطويلة الأساسية من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم). فهذه القلة – على ندرتها – يمكن أنَّ تقدم لنا الكثير إذا ما استنطقناها بالأسلوب العلمي الهادىء الرصين ، بعيدا عن ضجيج النزعات الخطابية والإنشائية والتهويلية.

إن البطل في التاريخ ، نبياً أو غير نبي ، لكي يلعب دوره الحاسم ، لابّد أنَّ يستكمل شرطين أساسيين أحدهما يتعلق بتكوينه الذاتي الخاص ، والآخر بالعالم الذي يضطرب فيه عبر دوائره التي تبدأ بعلاقته الضيقة ثم تتسع عبر الإقاليم والوطن والجماعة والشعب والأمة ، لكي تشمل العالم كله .. ومن ثم فإن أي حوار ينفتح بين الإنسان والعالم سوف لا يبعث ابطالاً إن لم يكن كلا القطبين مهيأ لإنجاح ذلك الحوار .. وهكذا فإن أية دراسة عن حياة رسولنا (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه وبعده ، سوف لا تتوغل في فهم هذه الحياة ، توغلا كافياً ، إن لم تضع في حسبانها هذين الطرفين ، وتتمعن فيهما عن كثب بقدر ما تسعفها الوقائع والأحداث.

فأما ما يتعلق بالجانب الذاتي لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة فيبدو أنَّ الظروف البيئية والوراثية التي تسهم معاً في تكوين الإنسان وتمنحه صفاته الخلقية والخلقية ، وتصوغ بنيانه الجسدي والنفسي ، وتحدد قدراته العقلية واستجاباته العاطفية قد اجتمعت لكي تجعل من محمد (صلى الله عليه وسلم) الإنسان المهيأ لتحمل المسؤولية التي أنيطت به بعد أربعين سنة من ميلاده .. أربعة عقود في حياة الإنسان المحدودة ، تمثل أمتدادا زمنيا طويلاً أريد به أنَّ يستكمل محمد الإنسان كل مساحات تكوينه الذاتي ونضجه البشري قبل أنَّ يتاح له أول لقاء مع الوحي الأمين ، وما أصعب اللقاء الأول بين ممثلي السماء والأرض ، وما أشق الحوار !!

طيلة هذه العقود الأربعة ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ياخذ ويتلقى ويجابه ويهضم ويتمثل شتى المؤثرات الوراثية والبيئية لكي يحولها إلى خلايا تبني كيانه وسمات مادية وروحية تهيئه لليوم العظيم. فعن (أصالة) أبيه وأمه أخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دمه وأعصابه أصالة الشخصية ووضوحها ونقائها ، وكسب على المستوى الاجتماعي احتراماً وتقديراً في بيئة كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحتقر الخلطاء. ومن مرارة اليتم ووحشة العزلة وانقطاع معين العطف والحنان ، قبس الرسول (صلى الله عليه وسلم) الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل ، والإرادة النافذة ، والتحدي الذي لا تنكسر له قناة. وبالفقر والحرمان تربى ونما بعيدا عن ترف الغنى وميوعة الدلال واتكالية الواجدين. وعبر رحلته الأولى الى الشام في رعاية عمه ، فتح محمد (صلى الله عليه وسلم) عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطاً وقلقاً ، والجماعات العربية

التي فصلتها عن شقيقاتها في الصحراء الأم ، سلطات أجنبية أحكمت قبضتها على الأعناق ، وساقت الشيوخ والأمراء العرب إلى ما تريد هي وتهوى لا ما يريدون ويهوون.

وفي رحلته الثانية الى الشام ، مسؤولا عن تجارة السيدة خديجة ، تعلم الرسول الكثير الكثير ، عمق في حسه معطيات الرحلة الأولى وزاد عليها ادراكاً أكثر لما يحدث في أطراف عالمه العربي من علاقات بين الغالب والمغلوب ، والسيد والمسود ، وإفادة أغنى من كل ما يتعلمه الذين يرحلون من مكان إلى مكان فيتعلمون من رحيلهم طبائع الجماعات والشعوب ، وكنه العلاقات بينها وأختلاف البيئات والأوضاع .. ويزدادون مرونة وقدرة على التعامل المنفتح الذي لا ينقطع له خيط مع شتى الطبائع ، وفهما لما يتطلبه الإنسان في عصر من العصور بعد اطلاع مباشر على عينات من هذا الانسان في سعادته وهنائه ، أو في تعاسته وشقائه .. وفوق هذا وذاك فقد أتيح للرسول في رحلته هذه تنمية وامتحان قدراته الخاصة التي تعلمها ايام الرعي صبياً ، وها هو الآن (يدير) تجارة لسيدة تملك الكثير ، فيعرف كيف يحيل القليل كثيراً ، ويصمد إزاء إغراء الذهب والفضة أميناً لاتلحق أمانته ذرة من غبار .. قديرا على الارتفاع فوق مستويات الإغراء إلى آخر لحظة.

ثم يجيء إسهامه في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك ، متنوعا شاملاً مغطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي ، وكأنه أريد له أنَّ يجرب كل شيء ، أنَّ يسهم عاملا في كل اتجاه ، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعا شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة ، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أنَّ يعيد حقاً أو يقيم عدلاً .. في حرب الفجار مارس الرسول (صلى الله عليه وسلم) شؤون القتال ، وفي حلف الفضول شارك في تجربة السياسة والحكم ، وفي بناء الكعبة أعرب عن بداهته المثيرة للأعجاب في حل المشاكل التي تلعب فيها المعتقدات والقيم والمقدسات دوراً كبيراً .. وخلال هذا وذاك يتزوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيمارس في اعقاب زواجه ذاك ، كبرى التجارب الاجتماعية في حياة الانسان ، وينجح فبي التجربة ، ومن وراء نجاحه ذاك تقف السيدة البرة التي وضعها الله في طريق رسوله لكي تكون سنده النفسي واليقيني الأول في السنين الصعبة الطويلة التي تطيش معها الباب الثأئرين الذين بعثوا لتغيير العالم والانقلاب على الاوضاع والمألوفات.

هكذا تبدو حياة رسولنا الكريم قبل مبعثه ، سلسلة مترابطة الحلقات ، منطقية التعاقب من التجارب والخبرات في شتى المساحات : عائلية ونفسية واقتصادية وحركية وحربية وسياسية

ودينية واجتماعية. أما البعد الاخلاقي في حياة الرسول المديدة هذه فيتمثل واضحاً نقيا في انسلاخه الحاسم عن كل ممارسات الجاهليين اللا أخلاقية التي كانت تعج بها الحياة العربية في المدينة والصحراء : شربا للخمر واستمراء للزنى ولعباً للميسر وتصعيدا للربا وتهافتاً على مال اليتيم ووأداً للبنات وظلما للذين لا يقدرون على رد الظلم ، واستعبادا محزنا للذين لا يعرفون طعم الحرية .. ممارسات شتى لا يحصيها العد ، كانت تجري على مسرح الجزيرة العربية ، وممثلتها مكة ، ليلا نهار .. ويغدو من تعاقبها وتكرارها ان تصبح إلفا وعادة ، ثم تتجاوز هذا لكي ما تلبث أنَّ تصبح مفاخر ومكرمات يتبارى العرب في الاتيان بالمزيد المزيد منها .. ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بعيد عن هذا كله ، منسلخ منه .. ولقد منحه موقفه النبيل هذا نظافة وطهراً لم يعرفهما إنسان قط ، وعلمه في الوقت نفسه كيف يكون الرفض والتمرد على الوضع الدنيء ، الوضع اللا إنساني مهما حمل هذا الوضع من تبريرات انتقلت به من كونه إثماً وفسقاً وفجوراً الى مرتبة الالف والعادة ، ثم الى مصاف القيم والمفاخر والمعتقدات.

ولم يبق – ثمة – إلا البعد الروحي – الفكري ، وهو أشد الأبعاد ثقلا وخطراً في حياة الانسان. والروايات القليلة التي تحدثنا عن عزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعيدا عن صخب مكة وضجيجها ، حيناً بعد حين ، وعن انقطاعه الى الصحراء وحيداً ، متأملاً ، باحثاً ، منقباً ، مقلباً وجهه في السموات والأرض .. هذه الروايات تكفي للالتقاط الأشارة الاخيرة الحاسمة المتممة للصورة التي علينا أن نعرفها عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه.

فكما علمه الانشقاق الأخلاقي عن الوضع المكي القدرة على الرفض والتمرد ، فقد جاء تهربه وعزلته وأنقطاعه إمدادا نفسياً باتجاه آخر ، لكنه متمم ، وبدونه لا يمكن لانسان ما أنَّ يلعب دوره الحاسم الكبير .. إنه امداد باتجاه الأندماج والاتصال ، في مواجهة رفض الجاهلية والتمرد على قيادتها وأعرافها وسلطتها .. اندماج بالكون على إنفساحه .. بالعالم الجديد الذي جاء لكي ينقل البشرية اليه ، بالنواميس التي سيبعث عما قريب كي يجعل الأنسان في كل مكان وزمان يعود اليها وينسجم في مساراتها المعجزة ، مغادراً مواضعه المنحرفة الخاطئة التي ساقته اليها زعامات جائرة ، وسلطات مستبدة وألوهيات زائفة ، واعراف وبيئات مليئة بالدنس والوحل والخطيئة ، واتصال – عبر البحث والقلق والتقلب الطويل – بالسلطة الواحدة التي تشرف على الكون وتحرك الإنسان والخلائق في ساحاته الكبرى وفق خرائط غاية في الدقة والاتقان ..

اتصال بالمصدر الوحيد للحيوان والأشياء ، بالارادة التي تنبثق عنها سائر الارادات وتؤول اليها .. بالله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ..

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) إذا يستكمل – دون أنَّ يدري – بناءه النفسي واستعداداته التجريبية وخبراته التي بنتها السنون الطويلة والاعمال التي غطت كل المساحات .. كان يضع – بمشيئة الله – اللمسة الاخيرة الحاسمة ، للانسان الذي سيغدو نبياً عما قريب .. إن عزلة رسولنا وانقطاعه ، واتساع مساحات هذه العزلة والانقطاع ، عكسا أزاء طغيان الجاهلية وطردا تجاه يوم الوحي ، كان بمثابة الارهاص الاكبر والاخطر والاخير ، في الوقت نفسه ، إلى ان موعد القطاف قد حان ، وإن هذه الشخصية التي ربتها عناية الله في مدى أربعين سنة ، قد غدت على استعداد تام للتلقي ، والاتصال المباشر بمبعوث الله في أخر حلقة من حلقات تعاليم السموات للأرض !!

وأزاء هذا الهيكل المرئي من حياة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه ، يقف عدد من الاشارات والاحداث ، ملفتا الانظار في ذلك الحين ، وفي كل حين ، الى أنَّ هذا الانسان من بين كل الناس ، قد اختير لأداء دور ما ، بإنجاز عمل أو انقلاب على وضع .. وان هنالك عناية تفوق كل العنايات واهتماماً يتعدى كل الأهتمامات تجاه هذا الإنسان بالذات تمهد له الطريق ، وتسهم اسهاماً غيبياً يند عن التحليل والتعليل في تكوينه النفسي الذي سيمكنه من أنَّ يكون نبياً عما قريب .. وإن هذه الأحداث الموروثة التي انتزعناها من بين حشد من الأحداث والروايات الضعيفة والمكذوبة ، لهي ، فضلاً عن كونها اسلوباً من أساليب العناية الإلهية في تربية الانبياء والشهداء والقديسين ، أشبه بالرموز المكثفة والدلالات العميقة على أبعاد الدور الذي سيلعبه هذا الإنسان.

إن تدفق الخير على مضارب القبيلة التي أحتضنت محمداً طفلاً بعد أيام العسر والمجاعة والجفاف ، توحي – فيما توحي – الى أنَّ مجاعة العالم كله ، وجفاف الروح الإنسانية جميعاً وعسر الحضارة البشرية في تمخضها الدائم ، تنتظر من يعيد توجيهها وصياغتها من جديد فيحيل الجوع شبعا وريا ، وجفاف الروح امتلاءً وانطلاقاً ، وعسر الحركة الحضارية تدفقاً وابداعاً .. وإن هذا الطفل الذي تفجرت بميلاده ينابيع الخير سيكون هذا الرجل .. وإنه قد ان الاوان ... وهذه الحادثة ستقال مراراً وتكراراً بعد أنَّ يكبر الطفل ويفتح وعيه على الحياة ، وستلعب دورها ولاريب في صياغته النفسية وفي لفت الانظار الى تفرده وتميزه ، والتمهيد لقبول

الدور (الخاص) الذي سيلعبه بعد عدة عقود من السنين. ومن أجل مزيد من لفت النظر والتمهيد تجيء اشارات عدد من اليهود والنصارى الى أنَّ ظهور النبي الموعود قد حان وان العصر الراهن بارهاصاته إنما هو عصر النبوة الجديدة وهي إشارات الاديان السابقة جميعا ، واقرارها بصدق رسالة النبي الاخير التي أكدتها عهودهم القديمة والجديدة على السواء ، ومن ثم تلعب دورها – هي الاخرى – في عملية لفت النظر والتمهيد للنبوة الجديدة كي لا تجيء فجأة دونما سوابق من إشارات واحداث ذات دلالة وارهاصات ، وسواء على المستوى العربي الجاهلي أم على المستوى الديني اليهودي – النصراني – ، فإن هذه الاشارات قد جاءت وليس ثمة معذر لكل من يقول أنَّ رسالة الرسول تنزلت مفاجأة دون مقدمات ولا تمهيد.

وأما حادثة شق الصدر ، فهي ولا ريب مما يند عن مواضعات علمنا البشري في ميدان النفس والتشريح لأنها – كأي تجربة أو حدث روحي – لا تخضع لمقاييس العقل والحس المحدودة ، وكيف يخضع الكلي المطلق للمقيد المحدود ؟ ! يكفينا أنَّ نلتقط منها رمزاً أو دلالة تغطي مساحة ما في صورة الاربعين سنة من حياة محمد. يقول محمد الغزالي ((لو كان الشر إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها ، ولو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق ، لقلنا : إن ظواهر هذه الآثار مقصودة ، ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك ، بل من البديهي أنه من الناحية الروحية في الانسان الصق. وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في تطاقها ، أو بتعبير آخر ، عندما ينتهي البحث إلى ضرورة أستكشاف الوسائل التي يسير بها الروح هذا الغلاف المنسوج من اللحم والدم يصبح البحث لا جدوى منه ، لأنه فوق الطاقة. وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الاثار ، إن بشرا ممتازاً كمحمد (صلى الله عليه وسلم) لا تدعه العناية عرضا للوساوس الصغيرة التي تتناوش غيره من سائر الناس. فإذا كانت هناك (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها والتأثر بها ، فقلوب النبيين – بتولي الله لها – لاتستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني ، وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته))[٨٥].

وهذا يكفي .. فما دمنا بصدد تحليل المؤثرات البيئية والوراثية والغيبية في تكوين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتهيئته للرسالة ، فإن حادثة شق الصدر تقف في القمة من المؤثرات

---

(٨٥) فقه السيرة ، ص ٦٤–٦٥.

جميعاً ، صياغة روحية – مادية لشخصية النبي الإنسان ، وتهيئة من لدن العليم بمنسربات النفوس ، الخبير بتعقيدات الشخصية البشرية .. لكي يكون هذا الرجل بالذات ، ووفق تكوينه الموجه هذا ، قادرا على التقاط إشارة السماء ومقابلة الوحي ، وتحمل المسؤولية ، نبياً الى الناس جميعاً صعدا بهم الى القمم الشامخة التي تنقطع دونها أنفاس الرجال !!

***

وعلى قدر ما تشح الروايات والأحاديث عن حياة الرسول الإنسان قبل مبعثه .. على قدر ما تزيد وتتسع لكي تمنحنا مافيه الكفاية عن العالم الذي ولد فيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وذلك أمر معروف ايضاً .. إن المدى يتسع هنا لكي يحتوي في دوائره الممتدة شيئا فشيئا ، عشائر وقبائل وشعوباً وأمماً كانت قد مهدت بممارساتها وتوقعاتها في الوقت نفسه الطريق الى المولد الجديد .. بالاحرى إن تاريخ العالم كله ، في فترة قد تتجاوز الأربعة أو الخمسة قرون ، بعد استنفاد النصرانية دورها ومهمتها ، هي الساحة التي تهم الباحثين في مجال كهذا ، وما أكثر الروايات والأحاديث عن هذه المساحات الواسعة زماناً ومكاناً !! مما لا يتسع بحث خاص بالسيرة لمجرد الأشارة اليه(٨٦).

ومن ثم فإن كل ما يمكن أنَّ يقال ، إيجازاً وتركيزاً لهذا المدى الواسع ، هو أنَّ العالم كان قد فسد في القرن الذي ولد فيه الرسول ، والإنسان – ثانية – كان قد ضاع .. الإنسان فرداً والإنسان في جماعة .. حيثما إلتفتنا ، أنى قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع فلن نعثر إلا على الفساد والضياع. وابتداء بأعمق أعاميق النفس البشرية وانتهاء بالعالم في مداه الشامل ، مروراً بالتجارب والممارسات الدينية والأجتماعية والسياسية والثقافية ، لا نجد إلا السوس ينخر في البنيان ، والعفن ينسرب عميقاً في ضمائر الأشياء والتجارب والممارسات ، لكي مايلبث السوس والعفن أنَّ يفسدا كل شيء ويدنسا كل حياة.

هكذا .. في كل ميدان ، وفي أي إتجاه ، لا نعثر إلا على الفساد والضياع .. إن العالم الذي بعث فيه محمد عالم في أمس الحاجة إلى منقذ ، وهو يفسر بوضعه الراهن ذاك لماذا جاء

---

(٨٦) أنظر على سبيل المثال شهادات بتلر في (فتح العرب لمصر) وغوستاف لوبون في (حضارة العرب) وتاريخ العالم للمؤرخين وجيبون في (الأمبراطورية الرومانية) و هـ. ج. ولز في (مختصر تاريخ العالم) ومكاريوس في (تاريخ إيران) وكرستنسن في (إيران في عهد الساسانيين). وأنظر بالتفصيل الفصول الأولى في كتاب الندوى (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ومقال المؤلف (ملاحظات في الميلاد) : مجلة الوعي الإسلامي ، السنة الثامنة ..

الرسول في ذلك العصر بالذات .. إن القرآن الكريم ، تحدث فيما بعد ، عن أبعاد الأزمة البشرية عندما قال : ((**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**))[٨٧]!!

لقد جاءت هذه الآية بمثابة إنذار وبشارة في الوقت نفسه ، إنذاراً إلى أنَّ هذا العفن الذي يغمر العالم إنما هو صنع أبنائه أنفسهم ، وأنهم يغرقون الآن إلى أذقانهم بما صنعوا ، وبشارة لكل الذين انشقوا على دنس العصر واستعلوا على عفنه وفساده ، وآلوا على أنفسهم أنَّ يتحملوا المسؤولية ، وأن يسيروا وراء رسولهم بعيداً عن الحفرة التي كان العالم يختنق فيها ، من أجل أنَّ (يخرجوا) بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، وتلك هي قمة الحرية التي بعث الرسول لكي يمنحها للإنسان ، وغاية الدور الكبير الذي يفسر مبعث رسولنا (صلى الله عليه وسلم).

أنَّ مهمة أي دين سماوي شامل هي أنَّ ينقل البشرية من وضع معين إلى وضع أرقى منه وفقاً للمهمة التي أنيطت بالإنسان عندما استخلفه الله على الأرض واستعمره فيها ... وعندما انتصف القرن السادس للميلاد كانت جميع الأديان والمذاهب قد عجزت تماماً ، بما عانت من تمزقات ومااستضافته من أجسام وقيم خاطئة غريبة ، عن أداء دورها المنشود ... وما كان لها ، من ثم ، إلا أنَّ تفسح الطريق للقادم الجديد كي يأخذ على عاتقه مهمة القيادة في عملية الإعمار والتحضُّر ، ولقد كان محمد هذا القادم .. وبعد أربعين سنة من ميلاده تلقى رسالة الإسلام إلى العالم كله فأشار إلى الطريق الواحد لكل من يريد أنَّ يحيا كإنسان استخلفه الله في الأرض وكرَّمه على العالمين .. وإلا فإن هنالك ألف طريق !!

---

(٨٧) سورة الروم ، (آية ٤١).

الفصل الثانـي

الدعوة في عصرها المكـي

[1]

أخذت خلوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانعزاله عن مجرى الحياة المكية الصاخب تزداد وتتسع وهو يقترب من الأربعين حيث أعده الله (سبحانه وتعالى) لأول لقاء مع وحيه الأمين من أجل تكليفه مسؤولية النبوة وإخراج الناس – بها – من ظلمات الجاهلية ودنسها إلى نور الإسلام ونقائه. فكان يغادر مكة بين الحين والحين ، مجتازاً أسوارها الجبلية ، منقلاً خطواته الثابتة الواسعة عبر رمال الصحراء المترامية حتى تحجب عنه البيوت والأسواق ويغيبه الأفق وتستقبله شعاب مكة وبطون أوديتها ثم يلج بعيداً إلى جبل النور حيث ينتهي به المطاف إلى غار هناك يدعى (غار حراء) ، فيمكث فيه الأيام والأسابيع الطوال لا يعود الى مكة إلا ريثما يتزود بالطعام والماء ثم يقفل عائداً الى المكان الذي سيبعث فيه إلى العالم كله. وتذكر الروايات أنه كان يجاور في حراء من كل سنة شهراً فإذا قضى شهره ذاك انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعاً ثم عاد الى بيته(٨٨).

استغرق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تفكير عميق مركز ، كان يشغله أمداً طويلاً ، تفكير في حالة قومه وفي أوضاعهم وفي تقربهم من الأوثان ، وفي الكون والحياة ومصير الإنسان ، والموت ومابعد الموت ، وفيما شاكل ذلك من أمور تطوف برأس المفكر المتبصر في هذه الحياة فتصرفه الى النظر فيها وتبعده عن التفكير في التماس الملذات التي يقع في غرامها الإنسان في هذه السن على المعتاد. كان الرسول حائراً مفكراً يريد الوصول إلى شيء مقنع له مطمئن يحل له كل هذه الأسئلة والألغاز التي كانت قد تراكمت في فكره وتوالت عليه .. وتقول الأخبار إنه كان منذ صغره يحب الخلوة والانزواء .. حتى بانت عليه ، إذ لم يظهر عليه ميل إلى عبث ولهو ولعب وغير ذلك مما يلهي من في سنه ويجعله يمضي وقته بها حتى يبلغ رشده. فعرف بين أهل مكة بالهدوء وعدم الميل إلى المعاكسة .. كما عرف بالجد وبكراهيته العدوان وإهانة الناس والاستخفاف بهم ليتم وفقر وإملاق ، كل ذلك حببه لأهل مكة ولقومه مما جعلهم ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظراتهم إلى الآخرين من الشبان والرجال الطائشين النزقين(٨٩).

وراحت ملامح الطريق إلى النبوة تزداد ايحاءً ووضوحاً وتقترب بمحمد يوماً بعد يوم من نداء الله. وتحدثنا عائشة (رضي الله عنها) أنَّ اول ما بدىء به رسول الله (صلى الله عليه

---

(٨٨) ابن هشام ص ٤٥-٤٦ ، الطبري : تاريخ ٣٠٠/٢ ، ابن سعد ١٢٩/١/١ ، البلاذري : أنساب ١٠٥/١.

(٨٩) جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ، ص ١٤٤-١٤٥.

وسلم) من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله تعالى اليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[٩٠].

وفي رمضان من السنة الأربعين من عمره خرج محمد (صلى الله عليه وسلم) كعادته إلى غار حراء متأملاً متفكراً مقلباً وجه في السموات ، وفي ليلة اثنين من الليالي الأخيرة من الشهر نفسه جاءه جبريل (عليه السلام) بأمر الله تعالى. ولنستمع الى رسولنا (صلى الله عليه وسلم) نفسه وهو يحدثنا عن تجربة لقائه الأول الحاسم مع مبعوث الله إلى أنبيائه الكرام : ((فجائني جبريل وأنا نائم بخط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ. قلت ما أنا بقارىء. فغتنى به[٩١] حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ. قلت ما أنا بقارىء. فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ. فقلت : ماذا أقرأ ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ. فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال ((**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤)عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**))[٩٢] فقرأتها ثم انتهى فأنصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل !! فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقفت أنظر اليه فما أتقدم وما أتاخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ذلك. ثم انصرف عني. وانصرفت راجعاً الى أهلي ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها[٩٣] فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا الي! ، ثم

---

(٩٠) ابن هشام ، ص ٤٥ ، الطبري ٢٩٨/٢ ، ابن سعد ١٢٩/١/١ ، البلاذري : أنساب ١٠٥/١ البخاري : تجريد ٥/١.

(٩١) غتني : عصرني عصراً شديداً (عن تهذيب سيرة ابن هشام).

(٩٢) سورة العلق ، (الآيات ١-٥).

(٩٣) مضيفا اليها : ملتصقاً بها (عن تهذيب سيرة ابن هشام).

حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أنَّ تكون نبي هذه الأمة !!))[٩٤].

وعن جابر قال : حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ((جاورت في حراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنودي ، فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، فلم أر شيئاً فنظرت فإذا أنا به – يعني الملك – بين السماء والأرض ، فانطلقت إلى خديجة فقلت : دثروني. فدثروني وصبوا علي ماء فأنزلت **{يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١)قُمْ فَأَنذِرْ}**[٩٥]..))[٩٦].

وقد رأى بعض الصحابة – فيما سيتلو من ايام – رسولهم (صلى الله عليه وسلم) وقد ظهرت وبدت عليه علائم نزول الوحي ، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتد به ، وقد أجمعوا كلهم على أنه كان يعاني في أثنائه شدة وصعوبة ، يبقى على ذلك ما شاء الله ، فلا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي ، فيجلس عندئذ وقد تصبب عرقاً ، يجلس ليرتاح ويجفف عرقه، ثم يتلو على من عنده من اصحابه ما وعاه وما حفظه من الوحي. فإذا فصم عنه كان قد وعى كل ما قاله الملك له وحفظه لا يذهب عنه حرف. وقد ورد في سورة طه (المكية) ما يفيد أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعجل بالقرآن من قبل أنَّ يقضي إليه وحيه وذلك في الآية: **{وَلاَ تَعْجَلْ بِالقرآن مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}**[٩٧] فحثّ على التثبيت في السماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه. وقد ورد في موضع آخر من القرآن الكريم :

---

(٩٤) ابن هشام ، ص ٤٦–٤٧ ، الطبري : تاريخ ٢/٢٩٨–٣٠٢ ، وانظر البلاذري : أنساب ١/١٠٨–١١٠ ، البخاري : تجريد ١/٥ ، المقدسي ٤/١٤٠–١٤٢. وفي عدد من الروايات إنها قالت له ((ابشر فو الله لا يخزيك الله ابداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الحق)).

(٩٥) سورة المدثر ، (الآيتان ١–٢).

(٩٦) البخاري : تجريد ١/٦ ، البلاذري : أنساب ١/١٠٩–١١٠.

(٩٧) سورة طه ، (الآية ١١٤).

{لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧)فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[٩٨].

انطلقت خديجة (رضي الله عنها) إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال ورقة : قدوس ، قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر[٩٩] الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت)). فرجعت خديجة وأخبرت محمداً بما قاله ورقة ، فذهب بنفسه اليه وطلب ورقة منه أنَّ يعيد حديثه ، فلما أتمّه (صلى الله عليه وسلم) قال ورقة : والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبنّ ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ! ولئن أنا ادركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه. ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه. ثم عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى منزله[١٠٠].

كانت خديجة (رضي الله عنها) أول المؤمنين بدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان لإيمانها ذاك أثر عميق في معنوية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يجابه بالتوحيد شرك العرب جميعا ، فكان كلما سمع من معارضيه رداً أو تكذيباً ، شكى ما يلقى لزوجته البرّة فتثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس. وكان علي (رضي الله عنه) أول من آمن من الذكور ، ولم يتجاوز – بعد – العاشرة من عمره ، حيث كان الرسول قد أخذه ليعيله في داره تخفيفاً عن أبي طالب الذي لم يكن يملك مايكفيه وأبناءه جميعاً. وكان زيد بن حارثة ثالث من أسلموا ، وكان هو الآخر يقطن مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بيته ، حيث كانت خديجة قد اختارته من بين عدد من العبيد الغلمان الذين استقدمهم أحد التجار من الشام فرآه

---

(٩٨) القيامة ، (الآية ١٦–١٩) ، ومابعدها عن جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ، ص ١٣٤–١٣٥ ، وانظر عن صور نزول الوحي ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢١–٢٢ ، وعن مفهوم الوحي ومداه وكيفية بدء اتصاله بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ووقت نزول القرآن وأوائل آياته وأثر الوحي لأول عهده في نفس النبي أنظر : دروزة : سيرة الرسول ، ١/١٢١–١٤٦ و Encyclopeadia of Islam مادتي Nabi, Rasul والفصل السادس من كتاب : Tor Andrea ومقال Bellفي مجلة العالم الإسلامي (The Muslim World) عدد ٢٤ ، سنة ١٩٣٤.

(٩٩) الناموس الأكبر : الملك الذي جاءه بالوحي ، واصل الناموس صاحب سر الرجل (عن تهذيب ابن هشام).

(١٠٠) ابن هشام ، ص ٤٨ ، الطبري ٢/٢٩٩٣٠٢. ابن سعد ١/١/١٢٩–١٣٠ وانظر البلاذري : أنساب : ١/١١١ والبخاري : تجريد ١/٦.

الرسول فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه وتبناه قبل مبعثه. أما رابع المسلمين وأول الرجال فهو أبو بكر عتيق بن أبي قحافة الذي ما ان أسلم حتى راح يدعو الى الله من يثق به محمد ، ويتردد عليه ويجلس إليه. وبجهوده ودأبه ومقدرته على الإقناع أسلم قادة الدعوة ورواد الحركة الإسلامية الأولى : عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، طلحة بن عبيدالله ، وأعقب هؤلاء النفر التسعة مجموعة أخرى من المسلمين الأوائل وهم : أبو عبيدة ابن الجراح ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، الأرقم ابن أبي الأرقم ، الذي أتخذ الرسول من داره الواقعة على الصفا مخبا سريا للحركة الإسلامية ، عثمان بن مضعون وأخواه قدامة وعبد الله، عبيدة بن الحارث ، سعيد ابن زيد بن عمرو وامرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب ، أسماء وعائشة ابنتا أبي بكر ، خباب بن الأرت ، عمير بن أبي وقاص ، عبد الله بن مسعود ، مسعود بن القارىء ، سليط بن عمرو ، عياش بن أبي ربيعة وامرأته اسماء بنت سلامة ، خنيس ابن حذافة ، عامر بن ربيعة ، عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد ، جعفر بن أبي طالب وامرأته اسماء بنت عميس ، حاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المجلل وأخوه حطاب وامرأته فكيهة بنت يسار ، معمر بن الحارث ، السائب بن عثمان بن مظعون ، المطلب ابن أزهر وامرأته رملة بنت أبي العوف ، نعيم بن عبد الله ، عامر ابن فهيرة ، خالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف ، حاطب بن عمرو ، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، واقد بن عبد الله ، خالد وعامر وعاقل وأياس بنو البكير بن عبد ياليل ، عمار بن ياسر وأبوه وأمه ، صهيب بن سنان الرومي[١٠١].

ويلاحظ أنَّ اول من أسلم كان من أحداث الرجال أو من لدات الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو ممن لا يكبره في السن كثيراً ، أما الشيوخ المسنون فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفة ، فللسن عند العرب منزلة .. والعرف أعمق جذوراً في نفوس المسنين. وكان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه عن آبائه وأجداده[١٠٢] ولم يكن عدد من المسلمين قد جاوز الأربعين شخصاً في هذه الفترة ، هم كل من أسلموا خلال هذه المدة : ثلاث أو اربع سنين، وكل ذخيرة الإسلام وعدته للمستقبل. وهي مدة طويلة كان من الممكن إسلام أضعاف أضعاف هذا العدد لو أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) قام بالدعوة فيها جهاراً ، ولكنه لم يكن

---

(١٠١) ابن هشام ، ص ٤٩-٥٤ ، الطبري : تاريخ ٣٠٦/٢-٣٠٧ ، ٣٠٩-٣١٨ ، البلاذري : أنساب ١١٢/١-١١٣ ، المسعودي : مروج ٢٧٦/٢-٢٧٨ ، اليعقوبي ١٨/٢-١٩ ، المقدسي ١٤٣/٤-١٤٦، ابن كثير : الكامل ٥٧/٢-٦٠ ابن كثير : البداية ٢٤/٣-٣٣.

(١٠٢) جواد علي : تاريخ ، ص ١٥٧.

يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالإسلام وبالتبليغ إلا لمن وجد في قلبه ميلا للإسلام ، ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور القليل بالنسبة لسكان مكة – الذين كانوا عدة الآف – والكثير في اتحاده وإيمانه وقوة عقيدته وتضحيته في سبيلها[١٠٣].

وقد أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) اتباعه بالتزام الحيطة والحذر والتخفي وعدم الإعلان عن الإسلام إلى ان يقضي الله أمره. فكانوا إذا ارادوا الصلاة خرجوا فرادى الى الشعاب والبرية يصلون على حذر ولهم عيون ترى القادم لتنبيه المصلين عليه فلا يؤخذوا على غرة ، ويظهر أمرهم للناس ، وقد بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء[١٠٤]. ويحدثنا ابن هشام كيف أنَّ سعد ابن أبي وقاص خرج يوماً في نفر من المسلمين الأوائل إلى شعب من شعب مكة، فإذا بجماعة من المشركين يظهرون عليهم ، وهو يصلون فاستنكروا عملهم وعابوا عليهم ما يصنعون، وما لبث الطرفان أنَّ دخلا في شجار عنيف واضطر سعد – يومئذ – أنَّ يجرح رجلاً من المشركين ، فكان كما يقول ابن هشام ((أول دم أهرق في الإسلام)) [١٠٥] وكان سعيد ابن زيد يقول : استخفينا بالإسلام سنة ، ما نصلي إلا في بيت مغلق أو شعب خال ينظر بعضنا لبعض[١٠٦]. وفي رواية للبلاذري أنَّ النبي وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا ، فرادى ومثنى ، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في إحدى شعاب مكة إذ هجم عليهما رجلان من المشركين ((كانا فاحشين)) فناقشوهما ورموهما بالحجارة ، ساعة، حتى خرجا فانصرفا[١٠٧].

هذان الحادثان من الأعتداء على المسلمين خلال صلاتهم في الشعاب وأمثالهما وإن بدوا وكأنهما عبث من عبث الصبيان ، لكنهما تركا أثراً في نفوس جهال مكة ، وحمل الرسول على نصح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الاعصاب ودخل هو وجماعة من أصحابه بيت الأرقم بن أبي الأرقم وبقي فيه مختفياً مع جماعته لايخرج إلا أنَّ أذن الله له بالخروج. وكان بعض االمسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الأرقم لتلقي أوامر النبي وتنفيذ ما يحتاج اليه. وفي هذه الدار أيضاً أسلم بعض المسلمين ... وليس

---

(١٠٣) جواد علي : تاريخ ، ص ١٥٨.

(١٠٤) المرجع السابق ، ص ١٥٩.

(١٠٥) تهذيب ، ص ٥٤–٥٥ ، الطبري : تاريخ ٣١٨/٢ ، البلاذري : أنساب ١١٦/١.

(١٠٦) أنساب : ١١٦/١.

(١٠٧) المصدر السابق : ١١٧/١.

في كتب الأخبار والسير والتواريخ تاريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم. فالروايات في ذلك مضطربة ، ولكن المرجح على ما يبدو من غربلتها أنه كان في أواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة أي في أواخر عهد الكتمان .. والروايات متضاربة في مدة الأستخفاء في دار الأرقم فهناك من يجعل مدتها شهراً فقط[١٠٨] ثم إنها متضاربة كذلك في كيفية الأستخفاء هل كان استخفاء تاما من الناس في تلك الدار فلا يخرج منها أحد ؟ أو كان أستخفاء في أوقات قصيرة من النهار وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي مثلاً لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام والتبشير به من الله وقبول أحد فيه[١٠٩].

ويؤكد أرنولد أنَّ شدة معارضة قريش (ربما) كانت السبب الذي من أجله اتخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) مقره في السنة الرابعة من البعثة في دار الأرقم .. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد أستطاع الرسول أنَّ يواصل فيها نشر مبادىء الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة التي قضاها محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة حتى أنَّ كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام بتلك الايام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم[١١٠].

إلا ان سرية الدعوة في هذا العهد وتواصي المسلمين بالحذر والحيطة وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين ، لا يعني أنَّ المجابهة العقيدية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة ، بل اننا نجدها على أعنف ما تكون في القرآن الكريم نفسه وفي آياته الأولى. ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش ، في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته – بعد – سوى نفر يعدون على الأصابع ، ومن ثم يتبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه الرسول (صلى الله عليه وسلم) والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه ، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي : المغيرة بن هشام المخزومي ، مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق : {**كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ(١٥)نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦)فَلْيَدْعُ نَادِيَه(١٧)سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨)كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ** }[١١١]. ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته

---

(١٠٨) السيرة الحلبية : ٣١٩/١.

(١٠٩) جواد علي : تاريخ ، ص ١٦٥–١٦٦.

(١١٠) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٨ وعن دار الأرقم : انظر

Encyclopeadia of Islam Vol. 1 pp.434-35.

(١١١) سورة العلق ، (الآيات ١٥–١٩).

وعبادته وثباته فيهما فعلا ، تبين لنا العظمة الخلقية والإيمان العميق والجرأة الشديدة في الحق على كل باغ مهما كان قوياً عاتياً ، ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب سواء كانت في الخطوات الأولى أو ما بعدها ، وفي هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب[١١٢].

[2]

وما لبث الوقت أنَّ حان لإعلان الدعوة ، وأصدر الله (سبحانه وتعالى) أمره إلى الرسول(صلى الله عليه وسلم) أنَّ (يصدع) بما جاءه منه وأن يتجاوز الطور السري للدعوة الذي استغرق ما يزيد على الثلاث سنوات إلى الجهر والعلن تنفيذاً لأمر الله {**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ**}[١١٣] ولقوله تعالى : {**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ**}[١١٤] {**وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**}[١١٥].

وقد بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدور الجديد للدعوة بأن صعد إلى الصفا ودعا بني المطلب أنَّ يجتمعوا اليه ، فاجتمع إليه منهم حوالي الأربعين ، فيهم عدد من أعمامه ، وبدأ حديثه معهم : يا بني فلان ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقاطعه أبو لهب ساخراً : تباً لك !! ما جمعتنا إلا لهذا. ثم انصرف بنو عبد المطلب في أعقابه[١١٦].

ومن الطبيعي أنَّ يبدأ الرسول دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين ، إذ أنَّ مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته ، كما أنَّ القيام بالدعوة في مكة لابد أنَّ يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ، فجلبها الى حظيرة الإسلام لابد وان يكون له وقع كبير على بقية القبائل .. على أنَّ هذا لا يعني أنَّ رسالة الإسلام كانت في ادوارها الاولى محددة بقريش ، لان الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ

---

(١١٢) دروزة : سيرة الرسول ١٦٢/١.

(١١٣) سورة الحجر ، (الآية ٩٤).

(١١٤) سورة الشعراء ، (الآيتان ٢١٤-٢١٥).

(١١٥) سورة الحجر ، (الآية ٨٩).

(١١٦) الطبري : تاريخ ٣١٩/٢ ، البلاذري : أنساب ١١٩/١-١٢١ ، ابن سعد ١٣٣/١/١ ، ابن الأثير : الكامل ٦٠/٢-٦٣ ، ابن كثير : ٣٨/٣-٤١.

الدعوة في قريش كخطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية. والواقع أنَّ كثيراً من الآيات المكية كانت تنص على أنَّ القرآن ما {**هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**}[١١٧] الأمر الذي يدل على أنَّ فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر[١١٨].

ما لبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنَّ جوبه بمعارضة شديدة من قومه ، وبإجماع منهم على مقاومته وصدّه ، سيما بعد الحملات الشديدة التي راح يشنها على آلهتهم وأصنامهم[١١٩] ووقف عمه أبو طالب ينافح عنه ضد قريش ، فرأى زعماؤها أنَّ يبعثوا إليه وفداً من أشرافهم علهم يقنعونه بوقف ابن أخيه عن المضي في دعوته ، أو – على الأقل – بالتخلي عن إسناده وحمايته. والتقى رجالات الوفد بأبي طالب وقالوا : يا أبا طالب إن ابن اخيك قد سّب آلهتنا وعاب ديننا وسّفه أحلامنا وضلّل آباءنا ، فإما أنَّ تكفه عنا وإما أنَّ تخلي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه[١٢٠].

مضى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في طريقه ، يظهر دين الله ويدعو اليه ، بينما ظل بعض كبار اصحابه كأبي بكر وسعيد بن زيد وعثمان على سريتهم وكتمانهم ، زيادة في الحيطة ، أما حمزة وأبو عبيدة وعمر – فيما بعد – فقد راحوا يجهرون[١٢١]. وأشتد العداء بين محمد والوثنية عمقاً ، وامتلأت صدور المشركين حقدا عليه وهم يرونه يعلن حربه التي لا هوادة فيها ضد قيمهم وآلهتهم ، وراحوا يكثرون الحديث في أمره ، ويتآمرون ضده ، ويحض بعضهم بعضاً عليه. ثم ارتأوا أنَّ يقابلوا أبا طالب مرة أخرى وقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

---

(١١٧) سورة يوسف ، (الآية ١٠٤) ، وانظر : سورة الأنعام ، (الآية ٩٠) ، سورة القلم ، (الآية ٥٢) ، سورة التكوير ، (الآية ٢٧).

(١١٨) صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ٣٢٨/١-٣٢٩. وعن الدائرة الواسعة لعشيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي وسعتها علاقات الزواج والمصاهرة انظر بالتفصيل المرجع السابق ٣٢٩/١-٣٣٣، وعن أسماء المسلمين في العصر المكي انظر القوائم الدقيقة التي ثبتها العلي في كتابه آنف الذكر ، ص ٣٨١-٣٩٠ والملحق الأخير لكتاب مونتكمري وات : محمد في مكة وقوائم كايتاني في كتابه (حوليات الاسلام) وانظر كذلك : وات ، المرجع السابق ، ص ١٤٤-١٤٧.

(١١٩) انظر البلاذري : أنساب ١١٥/١-١١٦.

(١٢٠) ابن هشام ، ص ٥٤-٥٥ ، الطبري : تاريخ ٣٢٣/٢ ، اليعقوبي ١٩/٢-٢٠.

(١٢١) البلاذري : أنساب ١٢٣/١.

فبعث أبو طالب إلى ابن اخيه وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق[١٢٢].

ظن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنَّ عمه قد ضعف عن نصرته ، وأنه ربما خذله وأسلمه لأعدائه فقال : ((يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أنَّ أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه)) فما كان جواب عمه إلا أنَّ قال : اذهب يا ابن اخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً))[١٢٣].

وعندما أدركت قريش إصرار أبي طالب على حماية ابن أخيه ، ساروا اليه ثالثة ، ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وقالوا : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه واتخذه ولداً ، فهو لك ، وأسلم إلينا بن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل. فأجابهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطونني إبنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً[١٢٤].

ويورد ابن سعد رواية لا نجدها في المصادر الاخرى ، ولا ندري مدى صحتها ، تشير إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لاغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكيف أنهم بعد فشل مفاوضاتهم مع أبي طالب وعجزهم من إغراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) قالوا : ((ما خير من أنَّ يغتال محمد)). فلما كان مساء تلك الليلة ، فقد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فبحث عنه أبو طالب فلم يجده فظن أنه قد أصيب بمكروه ، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب وأمر كلاً منهم أنَّ يحمل حديدة صارمة لقتال زعماء القوم إذا ثبت قتلهم لمحمد (صلى الله عليه وسلم). إلا أنَّ أبا طالب سرعان ما أبلغ أنَّ محمدا يجلس الآن في داره بالصفا بمنأى عن الشر. وفي اليوم التالي صحب أبو طالب ابن أخيه إلى أندية القريشيين ومعه فتيان بني هاشم والمطلب ، وراح يقول لهم : ((يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم الخبر وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا فإذا كل رجل منهم يحمل حديدة صارمة.

---

(١٢٢) ابن هشام ، ص ٥٥-٥٦ ، الطبري ٣٢٣/٢.

(١٢٣) ابن هشام ، ص ٦٥ ، الطبري : تاريخ ٣٢٦/٢ ، ابن الأثير ٦٤/٢.

(١٢٤) ابن هشام ، ص ٥٦-٥٧ ، الطبري ٣٢٦/٢-٣٢٧ ، ابن سعد ١٣٤/١/١-٢٣٥ ، ابن الأثير : الكامل: ٦٤/٢-٦٥.

فقال : والله لو قتلتموه مابقيت ومنكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم ، وكا أبو جهل أشدهم انكساراً[١٢٥]. ولعل هذه الرواية تفسر لنا لماذا سكت القرشيون في السنين التالية عن وقف خطر انتشار الدعوة بقتل الرسول ، واكتفائهم بفتنة ضعاف المسلمين ، وأنهم لم يعودوا إلى اعتماد أسلوب الاغتيال إلا بعد أنَّ حزب الأمر ، وامتد نشاط الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى خارج مكة وبدأ المسلمون هجرتهم صوب يثرب لتأسيس دولتهم هناك.

أدركت قريش ألا جدوى من أية محاولة تبذل لاستمالة أبي طالب ووقف حمايته للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فقررت أنَّ تدع أسلوب المفاوضة والحوار إلى العنف والقوة ، وأن تعلن حربها ضد الدعوة الجديدة والمنتمين اليها ، وأن تدفع كل قبيلة منها إلى أنَّ تنقض على المسلمين من أبنائها فتعمل فيهم تعذيبا وتفتنهم عن دينهم ، فنفذت القبائل تعليمات الزعامة الوثنية وصبت على رؤوس المسلمين عذابها ومطارداتها وأذاها ، وأغرت سفهاءها بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فكذبوه واتهموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون ، ومحمد ماض في هجومه على دينهم واعتزال أوثانهم ورفض قيمهم وأعرافهم.

وكانوا يجتمعون قريبا من مكة حتى إذا طاف بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) غمزوه ببعض القول فكان يرد عليهم ((أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح))[١٢٦] وعندما كانوا يأخذون بمجامع ردائه ويقولون له أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا وديننا ، كان يجيبهم بصراحة لا التواء فيها ((نعم أنا الذي أقول ذلك)) وسعى أحدهم – مرة – إلى إلحاق الأذى به فلوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً ، فنافح أبو بكر دونه وهو يقول ((أتقتلون رجلاً أنَّ يقول ربي الله ؟))[١٢٧]. وقال أبو جهل ، وقد أغاظه ازدياد أتباع النبي يوما بعد يوم : والله لئن رأيت محمداً يصلي ، لأطأن رقبته. فبلغه أنه يصلي فأقبل مسرعا فقال : ألم أنهك يامحمد عن الصلاة ؟ فانتهره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأجاب : أتنتهرني وتهددني وأنا أعز أهل البطحاء ؟[١٢٨].

---

(١٢٥) الطبقات ١٣٥/١/١.

(١٢٦) كناية عن الهلاك إن لم يؤمنوا (عن تهذيب سيرة ابن هشام).

(١٢٧) ابن هشام ، ص ٥٧-٧٠ ، الطبري : تاريخ ٣٣٢/٢-٣٣٣.

(١٢٨) البلاذري : أنساب ١٢٦/١.

وعندما اقترب موسم الحج خاف زعماء قريش أنَّ يفيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) من فرصة التجمع البشري هذه فيتصل بوفود العرب وقبائلها ويعرض عليها الإسلام فدعا أحد كبارهم وهو الوليد بن المغيرة قومه إلى أنَّ يجتمعوا اليه وأعلمهم أنَّ الموسم قد حضر وأن وفود العرب قادمة إلى مكة ، وان عليهم أنَّ يصدروا في أمر الرسول عن رأي واحد كيلا يختلفوا ويكذب بعضهم بعضاً. فقال بعضهم : نقول إنه كاهن ، فأجاب الوليد : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. فقال آخرون : نقول مجنون. أجاب : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا وسوسته. قالت فئة ثالثة : نقول شاعر. فأجاب الوليد : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر. قال بعضهم : فنقول ساحر. أجاب الوليد : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو ينفثهم ولا عقدهم. قالوا : فما تقول أنت ؟ قال: ((والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[١٢٩] وإن فرعه لجناة[١٣٠] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن اقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته. وتفرق القوم على هذا الرأي وانتشروا في مداخل مكة ومسالكها حيث تمر الوفود لأداء مناسك الحج ، فكلما مرّ بهم وفد حذروه دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتهموه بالسحر. وجاءت محاولتهم هذه بعكس النتائج التي توقعوها ، ذلك أنَّ العرب صدروا ذلك الموسم بأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ، فكأن قريشاً سعت – من حيث لم تشعر ولم ترد – إلى نشر الدعوة الناشئة في الآفاق[١٣١].

مضت الدعوة تشق طريقها الصعب في مكة بين قبائل قريش رجالاً ونساءً ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين وأسلم حمزة بن عبد المطلب غضباً لابن أخيه من أبي جهل الذي آذاه وشتمه ونال منه ، ورأت قريش أنَّ تعود – ثانية – حيث لم تجد الفتنة والاضطهاد ، إلى أسلوب المفاوضة والإغراء ، فأجتمع أشرافها من كل قبيلة : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، أبو سفيان بن حرب ، النضر بن الحارث ، أبو البختري بن هشام ، الاسود بن عبد المطلب ، زمعة بن الأسود ، الوليد بن المغيرة ، أبو جهل بن هشام ،

---

(١٢٩) العذق : النخلة (عن تهذيب سيرة ابن هشام)

(١٣٠) الجناة : ما يجني (المصدر السابق).

(١٣١) ابن هشام ، ص ٥٧–٥٨ ، البلاذري : أنساب ١٢٣/١.

عبد الاله بن أبي أمية ، العاص بن وائل ، نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف. اجتمعوا بعد غروب الشمس قريبا من الكعبة وقال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثو اليه أنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مسرعا ، فقالوا له : يامحمد إنا قد بعثنا اليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي امر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به الشرف فينا فنحن نسؤدك علينا ، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فأجابهم رسول الله : ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

حينذاك طلب زعماء قريش منه أنَّ يأتيهم بمعجزة ما ، أنَّ يوسع عليهم وادي مكة ، أو يفجر فيه الانهار ، أو يبعث أحد آبائهم حياً كي يخبرهم عن صدق نبوته ، أو يجعل لهم جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، أو يسقط السماء عليهم كسفاً ، أو يسأل ربه أنَّ يبعث معه ملكا يصدقه بما يقول ((فإنك تقوم بالاسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً فيما تزعم. فإننا لا نؤمن لك إلا أنَّ تفعل)). فما كان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أنَّ ظّل يردد عليهم ((ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم))[١٣٢].

وخلال ذلك كان أتباع الدين الجديد يقاسون شتى انواع العذاب والاضطهاد وكانت كل قبيلة تشب على من فيها من المسلمين ، احراراً وعبيداً فتحبسهم وتعذبهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا أشتد الحر ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي ينصب عليهم

---

(١٣٢) ابن هشام ، ص ٦٤-٦٧.

ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم. وقد روى مجاهد أنَّ المستضعفين من المسلمين ألبسوا دروع الحديد ، وصهروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم[١٣٣].

كان بلال بن رباح مؤمناً صادق الإيمان ، طاهر القلب ، وكان سيده أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد ... فيضع أمية في عنقه حبلاً ويأمر الصبيان فيجرونه. وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب ويصرخ أحد أحد ، فيقول أحد أحد والله يا بلال ، وظل بلال على هذه الحال إلى أنَّ أعتقه أبو بكر وأعتق معه ست رقاب أخرى من ضعفاء مكة من الرجال والنساء ، وعندما قال له أبوه ، يا بني إني اراك تعتق رقاباً ضعافاً ، لو انك فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك ، أجاب أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد الله (عزّ وجل)[١٣٤].

يقول عمرو بن العاص : مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ، لو أنَّ بضعة لحم وضعت لنضجت ، وهو يقول : أنا كافر بالات والعزى ، وأمية بن خلف مغتاظ عليه فيزيده عذاباً فيغشى عليه ثم يفيق .. ويقول حسان بن ثابت : اعتمرت ، فرأيت بلال في حبل طويل ، تمده الصبيان ، ومعه فيه عامر بن فهيرة وهو يقول : أحد أحد أنا كافر بالات والعزى ، فأضجعه أمية على الرمضاء. ويقول مجاهد : جعلوا في عنق بلال حبلاً وأمروا صبيانهم أنَّ يشتدوا به بين جبلي مكة ، ففعلوا ذلك وهو يقول : أحد أحد .. ويقول عروة : كان بلال من المستضعفين من المؤمنين وكان يضرب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ... ويقول بلال نفسه : أعطشوني يوماً وليلة ، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار[١٣٥].

وكان أبو فكيهة المسمى (أفلح) عبداً لصفوان بن أمية ، فمر به أبو بكر وقد أخذه أمية بن خلف فربط في رجله حبلا وأمر به فجر ثم ألقاه في الرمضاء .. وجعل يغلظ عليه ويخنقه

---

(١٣٣) البلاذري : أنساب ١٥٨/١.

(١٣٤) المصدر السابق ١٨٥/١-١٨٦.

(١٣٥) المصدر السابق ١٨٤/١-١٨٥ ، ابن هشام ص ٦٩-٧١.

ومعه أخوه أبي بن خلف يقول : زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ، ولم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات ، ثم أفاق فأشتراه ابو بكر وأعتقه[١٣٦].

وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين ، فقالت وهي لا تبصره : وما تدري اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، ولكن هذا أمر من السماء .. فاشتراها أبو بكر وأعتقها. وكانت النهدية أمة لامرأة من بني عبد الدار وكانت تعذبها وتقول : والله لاأقلعت عنك أو يعتقك بعض من صباتك فابتاعها أبو بكر وأعتقها. وكانت أم عنيس أمة لبني زهرة فكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها فابتاعها أبو بكر وأعتقها[١٣٧].

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم في رمضاء مكة ، فيمر بهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة !! وقتلت أمه وهي تأبى إلا الإسلام فكانت أول شهيدة في الإسلام ، ويقال أنها أغلظت لأبي جهل في القول فطعنها في بطنها .. وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول[١٣٨] .. وجيىء بخباب بن الأرت فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف حتى ذهب ماء متنه ، فجاء الى النبي (صلى الله عليه وسلم) يوماً يشكو ما أصابه فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : لقد كان الرجل من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد حتى يخلص إلى ما دون عظمه من لحم وعصب ، ويشق بالمناشير ، فلا يرده ذلك عن دينه وأنتم تعجلون. والله ليمضين هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف الا الله وحده ، والذئب على غنمه[١٣٩]. ويحدثنا خباب نفسه فيقول : لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما أتيت الأرض الا بظهري ((ثم كشف خباب عن ظهره فإذا هو قد برص)، ولولا أني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (لا يتمنين أحدكم الموت) لتمنيته[١٤٠]!!.

وكان صهيب بن سنان الرومي من المؤمنين المستضعفين الذين يعذبون في الله ، وكان يمر بقريش يصحبه خباب وعمار ، فكانوا يقولون : هؤلاء جلساء محمد ويهزؤون ... فيرد صهيب:

---

(١٣٦) البلاذري : أنساب ١٩٤/١-١٩٥.

(١٣٧) المصدر السابق ١٩٦/١.

(١٣٨) المصدر السابق ١٥٨/١-١٥٩.

(١٣٩) المصدر السابق ١٧٦/١.

(١٤٠) المصدر السابق ، ص ١٧٨/١.

نحن جلساء نبي الله ، آمنا وكفرتم وصدقناه وكذبتموه ، ولا خسيسة مع الإسلام ولا عز مع الشرك. فجعلوا يعذبونه ويضربونه وهم يقولون : أنتم الذين من الله عليكم من بيننا[١٤١]؟

وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل إذا أسلم ، له شرف ومنعة ، أنبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك. لنسفهن حلمك ولنقبحن رأيك ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً أغرى به[١٤٢].

واجتمع أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوما فقالوا : والله ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ! قالوا : إنا خشيناهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. فقال : دعوني فإن الله سيمنعني. وانطلق إلى الكعبة ، وقريش في أنديتها ، وراح يتلو هناك بصوت عال **{الرَّحْمَانُ(١)عَلَّمَ القرآن(٢)خَلَقَ الإِنسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}**[١٤٣] فتأمل القرشيون فيه وجعلوا يتساءلون : ما يقول ابن أم عبد ؟ أجاب بعضهم إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد .. فقاموا إليه وجعلوا يضربون في وجهه وهو ماض في تلاوة السورة ، حتى بلغ منها ما شاء الله أنَّ يبلغ ، ثم انصرف الى اصحابه وآثار اللطمات على وجهه ، فقالوا : هذا الذي خشينا عليك ؟ قال : ماكان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، لئن شئتم لأغادينهم غداً بمثلها ! قالوا : لا. حسبك ، فقد أسمعتهم ما يكرهون[١٤٤]. وروى الطبري في سياق تفسير آيات سورة العنكبوت (٨-٩) أنَّ سعد بن أبي وقاص كان يقول لأمه التي أخذت تلح عليه بالارتداد ((يا أمه ، والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفساً ، ما تركت ديني))[١٤٥]!

ويظهر أنَّ بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد ، وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين فنزلت الآيات (١١-١٥) من سورة الحج على هذا النوع من الناس باسلوب عام حملة لاذعة في سياق وبيان ومراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والإخلاص له ، فالمخلص يجب أنَّ يؤمل في رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، واذا لم ينلهما في الدنيا فهو نائلهما في الآخرة ، والإيمان المشروط بألا ينال صاحبه إلا

---

(١٤١) البلاذري : أنساب ١٨٤/١.

(١٤٢) المصدر السابق ١٩٨/١ ، ابن هشام ، ص ٧١-٧٢.

(١٤٣) سورة الرحمن ، (الآيات ١-٤).

(١٤٤) الطبري : تاريخ ٢٣٤/٢-٢٣٥.

(١٤٥) دروزة : سيرة الرسول ٢٨٠/١.

النفع ، لا يليق بمؤمن صادق لإن الإيمان مسألة مستقلة لاعلاقة لها بأعراف الدنيا المتقلبة على الناس {**وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(١١)يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ**}[١٤٦][١٤٧].

عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن العباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أنَّ يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به[١٤٨].

ومن جهة اخرى ، لنا أنَّ نتساءل فيما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله في مكة ، أو همّ بذلك ؟ فنقول أنَّ في بعض الآيات ما يلهم بالإيجاب الذي نعتقد أنه مما يتسق مع طبيعة الأمور ، إذ لايصح أنَّ يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه ، وكان فيهم الأقوياء في أشخاصهم أمثال عمر وحمزة ، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم ايضاً وخاصة في بيئة مثل بيئة النبي (صلى الله عليه وسلم) وعصره قويت فيهما العصبية الاجتماعية وكانت ناظماً مهما في علاقات الناس بعضهم ببعض ، إلا ان القرآن أمرهم أنَّ يكفوا ايديهم لأن وقت المجابهة لم يحن بعد .. وهنالك من الآيات[١٤٩] ما يلهم بقوة أنَّ بعض المسلمين كانوا احياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبعقائدهم مواجهة ، وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية جرآء على الباطل مهما قوي أصحابه وبالتالي تلهم بقوة أنَّ من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أنَّ يسكتوا على الكفار وفجارهم[١٥٠]. وفي تفسير الطبري لآيات سورة النحل (١٢٥-١٢٨) عن بعض التابعين أنَّ بعض المسلمين في مكة قالوا :

---

(١٤٦) سورة الحج ، (الآيتان ١١-١٢).

(١٤٧) دروزة : سيرة الرسول ٢٨٣/١-٢٨٤.

(١٤٨) ابن هشام ، ص ٧٢ ، البلاذري : أنساب ١٩٧/١.

(١٤٩) سورة الأنعام ، (الآية ١٠٨).

(١٥٠) دروزة : سيرة الرسول ٣٠٩/١-٣١٠.

يا رسول الله لو أذن لنا الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فأنزل الله الآيات المذكورة[١٥١].

[3]

أدرك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد سنتين من الجهر بالدعوة ، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء الذي ينزل بهم ليل نهار ، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم ، مصممة على أستخدام أي اسلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد .. ورأى أنَّ يمنح المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية ، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهم أقدر واصلب .. وعسى الله أنَّ يحدث – خلال ذلك – أمراً كان مفعولا. فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ((فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد)) حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه. فاستجاب له المسلمون وتسلل عدد منهم من مكة صوب الساحل ، كي تقلهم سفينتان كانتا متجهتين صوب الجنوب. وخرج نفر من قريش في آثارهم ، وعندما بلغوا الساحل كانت السفن قد بعدت عنه[١٥٢]. وكان أول من هاجر منهم ، عثمان بن عفان وامرأته ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل ، الزبير بن العوام ، مصعب بن عمير ، عبدالرحمن بن عوف، أبو سلمة بن عبدالأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية ، عثمان بن مظعون ، عامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حيثمة ، أبو سبرة بن أبي رهم وسهيل بن بيضاء. وقد أمر عليهم جميعا عثمان بن مظعون ، ثم خرج جعفر ابن أبي طالب ، وتتابع المهاجرون منفردين أو مع

---

(١٥١) المرجع السابق ، هامش ١ ، ١م٣١٢ وعن تفسير الآيات التي تعرضت لمقاومة المشركين للدعوة ، انظر : تفسير الطبري ٢١٩/٢ ، ٢٧/٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ١٧/٨ ، ١٥١/٩ ، ٤٨/١٤-٥١ ، ٧٥/١٥، ١٠٧-١١٠ ، ١١/١٦ ، ٦/١٧ ، ٩٢ ، ١٢٦/١٨ ، ١٣٩ ، ٢٠/٢٣ ، ٤٠ ، ٨٠ ، ١٤/٢٩-١٥ ، ٩٦ ، ١٢٤-١٣٨.

(١٥٢) الطبري : تاريخ ٣٢٩/٢.

أهليهم ، حتى أجتمعوا بأرض الحبشة بضعة وثمانين مهاجراً عدا أبنائهم الصغار الذين خرجوا معهم أو ولدوا هناك(١٥٣).

كان اختيار الحبشة داراً لهجرة المسلمين خطوة موفقة من خطوات الرسول المدروسة. فهناك ، إضافة الى الصفة التي وصف ملكها بها في الحديث المروي عن النبي ، تيسر السفر إليها بالسفن ، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه ، فضلاً عن العلاقات المذهبية الطيبة بين الإسلام والنصرانية .. بل إنه ليخطر بالبال أنَّ من أسباب اختيار الحبشة أمل وجود مجال للدعوة فيها وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل. ولعل ما روي عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبي مسلمين مستطلعين ما يستأنس به على صحة هذا الخاطر ، إذ يرى أثر نجاح لهذه الدعوة في هاتيك الديار. ولعل حادثة انتصار الأحباش لنصارى اليمن التي كانت حاضرة في أذهان العرب كانت ذات تأثير أيضا في توجيه الهجرة إلى هذه البلاد ، فالمسلمون بهذا يكسبون حليفاً قويا تجمع بينهم وبينه الرابطة الدينية ، والمشركون يقع في نفوسهم شيء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثيق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوي(١٥٤) ، هذا إلى أنَّ اختيار منطقة كاليمن أو يثرب سوف يعرض المهاجرين لبطش العناصر الوثنية واليهودية المنتشرة هناك.

ويضطرب (وات) في تحليل أسباب الهجرة إلى الحبشة وبقاء المسلمين هناك ردحاً طويلاً ، بين خمسة أسباب أولها الهروب من الاضطهاد وثانيها البعد عن خطر الارتداد وثلثها ممارسة النشاط التجاري ورابعها السعي للحصول على مساعدة حربية من الأحباش. ثم يشكك

---

(١٥٣) ابن هشام ، ص ٧٢-٧٣ ، الطبري ٣٢٩/٢-٣٣١ ، ابن سعد ١٣٦/١/١-١٣٧ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٢/٢، ابن الأثير : الكامل ٧٦/٢-٧٧ ، ابن كثير : البداية ٦٦/٢-٦٩ ، المقدسي : ١٤٩/٤-١٥١ وانظر عن المهاجرين بالتفصيل : البلاذري : أنساب ١٩٨/١-٢٢٩ ، حيث يقدم معلومات مفصلة عن مسألة الهجرة إلى الحبشة لا نجد غالبها في المصادر الأخرى. وهو يذكر- فيما يستعرض من تفاصيل - أنا أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) عزم هو الآخر على الهجرة الى الحبشة بسبب أذى المشركين واضطهادهم له. ولقد غادر مكة فعلاً إلا أنَّ سيد قبائل القارة الحارث بن يزيد الملقب بابن الدغينة اعترضه في الطريق واقنعه بالرجوع وأعلن للمشركين عن جواره له. لكن أبا بكر استمر - وهو في مكة - يؤدي شعائر الإسلام ويدعو اليه ، الأمر الذي دفع ابن الدغينة إلى انهاء جواره له ، فما كان من أبي بكر ألا ان قال : أرجع اليك جوارك وأرضى بجوار الله . (أنساب : ٢٠٥/١-٢٠٦ ، وانظر الرواية في البخاري : تجريد ٧١/٢-٧٢ ، درمنغم : حياة محمد ، ص ١٢-١٢٤ ...

(١٥٤) دروزة : سيرة الرسول ٢٧٢/١-٢٧٣ ، وانظر بوهل في Ency. art: Muhammad.

في جدوى الأعتماد على هذه الأسباب ويقول : ((من الصعب مقاومة الفكرة القائلة بوجوب الاطمئنان إلى السبب الخامس وهو أنه نشأ انقسام قوي في الرأي داخل أمة الإسلام الناشئة))[١٥٥]. وفي مكان سابق كان وات قد قال ((ويبدو أنَّ إقامة خالد بن سعيد الطويلة في الحبشة تشير إلى أنه كان على خلاف مع محمد في سياسته وأنه لم يكن يوافق على التوجيه السياسي المتزايد للإسلام ، ولا على أهمية الدور السياسي لمحمد بسبب نبوته ، ولو أنَّ خالداً اهتم بالنواحي السياسية للرسالة لدفن خلافه مع محمد وعاد الى مكة قبل السنة السابعة للهجرة)) [١٥٦].

يستنتج وات من هذه الأخبار القليلة التي ساقها – كما يقول صالح العلي – حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويرى أنَّ الرسول اوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة الى الحبشة تفادياً للأخطار التي قد تنجم عن هذا الخلاف. غير ان الادلة التي يسوقها وات ليست قوية ، فإن بعض من هاجر الى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر ، وتروي بعض الروايات أنَّ أبا بكر ، هو الذي جاء بهم الى الرسول ليسلموا. كما أنَّ اختفاء أسماء بعض المسلمين الاول المهاجرين وعدم لعبهم دوراً رئيسيا في السياسة فيما بعد ، وخاصة في عهد أبي بكر ، لا يمكن أنَّ يعزى الى خلافهم معهم فقط بل قد يرجع الى انشغالهم بأمور اخرى في الحياة. والواقع إن أبا بكر استعان بكثير ممن اسلم عند فتح مكة أو بعدها وبأولاد كثير ممن قاوم الإسلام ، فلو أهمل أبا بكر رجلا لماضيه لكان الأجدر به أنَّ يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الإسلامية التي احسنوا قيادتها. والواقع أنَّ الآيات القرآنية[١٥٧] توحي بان دافع الهجرة هو الأضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون لفتنتهم، وانها هي التي دفعت الرسول الى الإيعاز اليهم بالهجرة[١٥٨] ، الأمر الذي كاد أنَّ يدفع أبا بكر نفسه الى الهجرة لولا أنَّ أجاره احد الزعماء[١٥٩].

---

(١٥٥) انظر بالتفصيل وات : محمد في مكة ، ص ١٨٢–١٨٩.

(١٥٦) المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(١٥٧) أنظر سورة العنكبوت : (الآيات ١–٢٣) ، سورة البروج : (الآية ١٠) ، سورة القصص : (الآية ٥٧) ، سورة الزمر : (الآية ١٠) ، سورة النحل : (الآية ٤١ ، ١١٠).

(١٥٨) العلي : محاضرات ٣٦٨/١.

(١٥٩) البلاذري : أنساب ٢٠٥/١–٢٠٦ وأنظر ، هامش ٥٨.

كان المهاجرون ينتمون الى مختلف القبائل : فمن بني هاشم واحد ومن بني عبد بن قصي واحد ومن نوفل واحد (حليف) ومن عبد شمس اثنان (واحد حليف) ومن تيم اثنان ومن اسد بن عبد العزة اربعة – ومن عدي خمسة – منهم (واحد حليف) ومن أمية سبعة (منهم أربعة حلفاء) ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء) ومن عبد الدار سبعة ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف) ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف) ومن الحارث بن فهر ثمانية ومن جمح اثناعشر ومن سهم أربعة عشر (منهم واحد حليف)[١٦٠].

وبمجرد إلقاء نظرة سريعة على هذه القائمة تتبدى لنا سعة الدائرة البشرية التي امتدت إليها الدعوة الإسلامية لكي تجذب اليها عناصر من شتى القبائل المكية ، وتجاوزت بذلك دائرة العصبية الضيقة في طريقها الطبيعي صوب الأتساع والشمول لكي تضم العرب جميعاً ... وهذا (التنوع) في أصول المهاجرين إلى الحبشة يقدم لنا دليلا آخر لما سنذكره فيما بعد بصدد رفض فكرة (الدافع المادي) للانتماء إلى الدعوة الجديدة أو مقاومتها. فلا يعقل ان يكون هذا الدافع هو الذي قاد هؤلاء الرجال ذوي الآصول القبلية العديدة ، والذين ينتمي اغلبهم الى أسر مكية عريقة، إلى الاسلام تماما كما لا يعقل أنَّ يكون دافع (العصبية القبلية) وحده هو الرائد في هذا الميدان بما تطرحه علينا القائمة الآنفة من (تنوع) في الأصول.

ولا ننسى هنا (المرأة المسلمة) التي تحملت أعباء الاضطهاد والهجرة ، جنباً إلى جنب مع الرجل في سبيل الهدف الذي آمنت به .. وستتكرر هذه المواقف مرة تلو المرة ، في السلم والحرب ، لكي يتبين لنا المدى الواسع الذي أفسحه الإسلام للمرأة ، والمكانة العالية التي رفعها اليها ، والمسؤوليات الجسيمة التي حملها إياها ، بعد ما كانت تعانيه من ضيق واحتقار وإهمال في عهود الجاهلية.

ويذكر دروزة أنه بأستثناء النفر من حلفاء قريش ونسائهم لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين ، وان تعليل ذلك يعود الى أنَّ ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم لإنهم تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر ، في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء والفقراء والغرباء ، وأن هذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان[١٦١].

---

(١٦٠) العلي ، ص ٣٦٤.

(١٦١) دروزة : سيرة الرسول ٢٧٢/١.

عندما رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة قرر زعماؤها أنَّ يبعثوا في طلبهم رجلين قادرين إلى النجاشي لكي يردوا المهاجرين فيمارسوا معهم من جديد الفتنة والاضطهاد. واتجه الموفدان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى الحبشة وهما يحملان الهدايا للنجاشي ولبطارقته. وبدأ بالبطارقة فسلما كلاً هدية وقالا له : إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم اليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلم بما عابوا عليهم. فقال البطارقة : نعم. وعندما إتجه عمرو ورفيقه إلى النجاشي وعرضا عليه طلبهما بتسليم المهاجرين ، وقالت البطارقة من حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما ، غضب النجاشي وقال : لا والله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمهم إليهما ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني[١٦٢].

وما لبث النجاشي أنَّ دعا المهاجرين لحضور مجلسه ، وعندما سألهم عن طبيعة الدين الذي دفعهم إلى مفارقة قومهم ، تقدم جعفر بن أبي طالب وقال : ((أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانه وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أنَّ نعبد الله وحده ولانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك .. ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك. فطلب منه النجاشي أنَّ يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الله ، فتلا عليه صدراً من

---

(١٦٢) ابن هشام ، ص ٧٣-٧٥.

سورة مريم. فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، وقال النجاشي ((إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما))[١٦٣].

لكن عمرو بن العاص لم ييأس ، وعاد الى النجاشي في اليوم التالي وقال له : إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل اليهم فسألهم عما يقولون فيه. فأستدعاهم وسألهم ، فأجابه جعفر : ((نقول فيه الذي جاء به نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول)). فتناول النجاشي عوداً وقال : والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود فأبدى بطارقته استياءهم فردهم وأعلن عن حمايته للمهاجرين وقال لمن حوله : ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فغادر عمرو ورفيقه أرض الحبشة عائدين الى مكة[١٦٤].

بلغت طلائع المهاجرين ، بعد شهرين من إقامتهم في الحبشة أنباء تشير الى أنَّ أهل مكة قد أعتنقوا الإسلام ، فقفل بضعة وثلاثون رجلاً منهم عائدين إلى بلادهم ، وما أنَّ اقتربوا منها حتى ايقنوا كذب تلك الأنباء ، فتسلل بعضهم مستخفياً إلى مكة ، ودخل آخرون بجوار بعض المشركين ، ورجعت فئة ثالثة من حيث أتت[١٦٥]. وقد ظل معظم المهاجرين في أرض الحبشة حتى السنة السادسة للهجرة حيث عقد الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع قريش صلح الحديبية وبعث إلى النجاشي عمراً بن أمية الضمري يطلب إعادة المهاجرين الى بلادهم فحملهم في سفينتين وقدم بهم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أعقاب فتحه خيبر في مطلع السنة السابعة. ولقد سر الرسول (صلى الله عليه وسلم) سروراً عظيماً لمقدمهم حت إنه قبل زعيمهم جعفر بن أبي طالب واحتضنه قائلاً : ما أدري بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ وكان عدد العائدين من الحبشة قريباً من العشرين رجلاً وعددا من النساء والأطفال الذين ولدوا هناك ، فضلاً عن بعض الأرامل اللواتي توفي أزواجهن أيام الأقامة في الحبشة[١٦٦]. وكان

---

(١٦٣) ابن هشام ، ص ٧٥-٧٦ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٢٣-٢٤.

(١٦٤) ابن هشام ، ص ٧٦-٧٧ ، الطبري : تاريخ ٢/٣٣٥ ، المقدسي : ٤/١٥١-١٥٢ ، ابن الأثير : الكامل ٢/٧٩-٨٢ ، ابن كثير : البداية ٣/٧٠-٧٩.

(١٦٥) ابن هشام ، ص ٨٨-٨٩ ، ابن سعد ١/١/١٤٨ ، البلاذري : أنساب ١/٢٢٧ ، الطبري : تاريخ ٢/٣٤٠.

(١٦٦) ابن هشام ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، الطبري : تاريخ ٣٤٣ ، ابن سعد ٣/١/٧٨.

بعض المهاجرين قد غادروا الحبشة في بداية عهد المسلمين بالهجرة إلى المدينة فمات بعضهم في مكة ، واعتقل البعض الآخر ، وتمكنت فئة ثالثة من اللحاق بالمدينة والاشتراك في معركة بدر وما تلاها من وقائع[١٦٧].

[4]

عندما أيقنت قريش أنها قد هزمت في محاولتها استرداد المهاجرين إلى الحبشة ، وأن الإسلام اخذ ينتشر بين القبائل ، فضلاً عن إسلام عمر بن الخطاب الذي عزز جانب المسلمين في صراعهم ضد الوثنية[١٦٨] ، حتى إن عبد الله بن مسعود كان يقول ((ما كنا نقدر أنَّ نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً ، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه))[١٦٩]. والحق – كما يقول أرنولد – أنَّ إسلام عمر بن الخطاب يعد نقطة تحول في تاريخ الإسلام ، فقد أستطاع المسلمون أنَّ يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكاً أشد جرأة ، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة[١٧٠]. حينذاك عقدت قريش اجتماعاً في مطلع السنة السابعة من بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقرر فيه زعماؤها أنَّ يتعمدوا أسلوباً جديداً في مجابهة الحركة الإسلامية يقوم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب الذين كان أبوطالب قد دعاهم إلى ما هو فيه من منع الرسول (صلى الله عليه وسلم) دون قريش ، وكل من يساندهم وينتمي إليهم من مسلمين ومشركين ، وأن تكون هذه المقاطعة شاملة لكافة المعاملات والعلائق الاجتماعية والمالية.

ويذكر البلاذري أنَّ قريشاً توعدت بقتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ((سراً أو علانية)) بعد أنَّ أصر على مهاجمة آلهتهم فقال أبو طالب ((اللهم إن قومنا قد أبوا إلا البغي ، فعجل نصرنا وحل بينهم وبين قتل ابن أخي)). وقالت قريش : لا صلح بيننا وبين بني هاشم بني المطلب ولا رحم ولا حرمة إلا على قتل هذا الرجل الكذاب السفيه. وعمد ابو طالب إلى الشعب

---

(١٦٧) ابن سعد ١٢٩/١/١ وعن الهجرة إلى الحبشة والعودة منها انظر وات : محمد في مكة ، ملحق (و) و (ز).

(١٦٨) انظر تفاصيل إسلامه ابن الأثير : الكامل ٨٣/٢–٨٧ ، وابن كثير : البداية : ٧٩/٣–٨٢ و Ency Vol. iv P.67,

(١٦٩) ابن هشام ، ص ٧٩.

(١٧٠) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٩–٤٠.

بابن أخيه وبني هاشم وبني المطلب ، وكان أمرهم واحداً ، وقال : نموت من عند آخرنا قبل أنَّ يوصل الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني المطلب ، ودخل الى الشعب من كان من هؤلاء مؤمناً أو كافراً[١٧١].

كتبت قريش صحيفة بالمقاطعة ، وتعاهدت على تنفيذ بنودها وعلقتها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، وقد جاء فيها ((باسمك اللهم. على بني هاشم وبني المطلب على أنَّ لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، ولا يعاملوهم حتى يدفعوا اليهم محمداً فيقتلوه[١٧٢]. فلما سرى النبأ في مكة انضم بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ودخلوا معه الشعب المسمى باسمه[١٧٣].

استمرت المقاطعة سنتين وعدة أشهر ، كان لا يصل المسلمين خلالها شيء إلا سرّاً يحمله إليهم مستخفياً من أراد مساعدتهم من قريش بدافع من عصبية أو نخوة أو عطف. ولاقى المسلمون ونبيهم (صلى الله عليه وسلم) خلال ذلك آلاماً قاسية من الجوع والخوف والعزلة والحرب النفسية[١٧٤]. ولابد من الأشارة هنا الى أنَّ حلف الفضول الذي عقدته بعض بطون قريش وتعاهدت فيه على منع الظلم في مكة ، قد تعطل ، فلم يتناد أصحابه بنصرة المظلومين ممن كان يقع عليهم العذاب. ويبدو أنَّ الملأ من قريش كان يخشى أنَّ يطالب بنو هاشم حلفاءهم من أصحاب الفضول بالوقوف إلى جانبهم ، ومن اجل ذلك كان حرصهم على الأجماع وعلى التواثق على ذلك في صحيفة مكتوبة. وقد استجابت كل البطون القريشية – ما عدا بني هاشم وبني المطلب – لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هذا التيار[١٧٥].

شددت الزعامة الوثنية من حملتها ضد النبي (صلى الله عليه وسلم) وراحت تهمزه وتهزأ به وتخاصمه وتدفع من يرميه بالحجارة ، ويضع في طريقه الشوك. وفي الجهة المقابلة

---

(١٧١) أنساب الأشراف ٢٣٠/١.

(١٧٢) محمد حميد الله : الوثائق ، ص ٤٤.

(١٧٣) ابن هشام ، ص ٨٢–٨٣ ، الطبري : تاريخ ٣٣٥/٢–٣٣٦ ، ابن سعد : ١٣٩/١–١٤٠ ، البلاذري : أنساب ٢٢٩/١–٢٣٠ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٤/٢–٢٥ ابن الأثير : الكامل ٨٧/٢–٩٠ ، ابن كثير : البداية ٨٤/٣–٨٧.

(١٧٤) ابن هشام ، ص ٨٣ ، الطبري : تاريخ ١٣٦/٢ ، البلاذري : أنساب ٣٣٤/١.

(١٧٥) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ٢٧٤–٢٧٥.

مضى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دعوته لايصده عائق ، وتنزلت آيات القرآن متتالية كالحمم تقرع الرؤوس الوثنية واحداً واحداً .. أبو لهب يدفع زوجته أم جميل بنت حرب لكي تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يمر فيجابهه القرآن {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤)فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**}[١٧٦] ، وأمية بن خلف يقف في درب الرسول حتى إذا مر به همزه ولمزه ، فيندد به القرآن {**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ(١)الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ(٢)يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣)كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥)نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦)الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ(٧)إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ(٨)فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ**}[١٧٧] .. وأبو جهل بن هشام يجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويقول له : ((والله يامحمد لتتركن سبّ آلهتنا أو لتسبن إلهك الذي تعبد)) فتجيىء تعليمات القرآن : {**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** }[١٧٨] ، والنضر بن الحارث بن كلده ، يعقب الرسول في مجالسه فيحدثهم عن ملوك فارس وعظمتهم ثم يقول ((والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبتها كما اكتتبها محمد ، فيسخر به القرآن : {**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥)قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**}[١٧٩] ويندد به : {**وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧)يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**}[١٨٠].

والأخنس بن شريق الثقفي ، أحد أشراف القوم ، وممن يستمع لكلامهم ، يتصدى لرسول الله ويرد عليه ، فينزل الله فيه : {**وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١)مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢)عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ**}[١٨١] .. والوليد بن المغيرة يتساءل : أينزل على محمد ، وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟ فيجيبه القرآن : {**وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآن عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ**

---

(١٧٦) سورة تبت ، (الآيات ١-٥).

(١٧٧) سورة الهمزة ، (الآيات ١-٩).

(١٧٨) سورة الأنعام ، (الآية ١٠٨).

(١٧٩) سورة الفرقان ، (الآيتان ٥-٦).

(١٨٠) سورة الجاثية ، (الآيتان ٧-٨).

(١٨١) سورة القلم ، (الآيات ١٠-١٣).

عَظِيمٍ(٣١)أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[١٨٢].

وأبي بن خلف يجد رفيقه عتبة بن أبي معيط ، يجلس إلى الرسول ويستمع منه فيقسم ألا يكلمه حتى يأتيه فيتفل في وجهه ، فيفعل ذلك عدو الله فيقرعه القرآن : {**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً(٢٧)يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً(٢٨)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً**}[١٨٣].

ويمشي أبي بن خلف إلى الرسول بعظم بال ويقول له : أنت تزعم أنَّ الله يبعث هذا بعدما أرم ؟ ويفته أبي في يده ثم ينفخه في الريح بوجه رسول الله ، فيجيبه الرسول : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار !! ويرد القرآن : {**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩)الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**}[١٨٤].

ويعترض الرسول (صلى الله عليه وسلم) عدد من رؤوس الوثنية وذوي الكلمة في قومهم ، فيقولون : يا محمد هلم فلنعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وان كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فيأمره القرآن : {**قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١)لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ(٢)وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٣)وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ(٤)وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(٥)لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**}[١٨٥] .. وآخرون يضعون في قدره الذي يطبخ فيه رحم شاة أو يطرحونها عليه وهو يصلي ، فكان يخرج به في أعقاب صلاته ويقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق[١٨٦] ...

طالت أيام الحصار ، وأشتد الأذى بالمنقطعين في شعب أبي طالب ، فلم يكن لأحد من قريش أنَّ يزوجهم أو يتزوج منهم ، ولا أنَّ يبيعهم أو يبتاع منهم فعصرهم الجوع عصراً. وكان المحاصرون لا يخرجون من الشعب طيلة سني الحصار ((إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد ، وتضاغى صبيانهم فسمع ضغاؤهم من وراء الشعب. وقال عبد الله بن عباس : حصرنا

---

(١٨٢) سورة الزخرف ، (الآيتان ٣١-٣٢).

(١٨٣) سورة الفرقان ، (الآيتان ٢٧-٢٩).

(١٨٤) سورة يس ، (الآيات ٧٨-٨٠).

(١٨٥) سورة الكافرون ، (الآيات ١-٦).

(١٨٦) ابن هشام ، ص ٨٣-٨٨ ، الطبري : تاريخ ٣٣٧/٢.

في الشعب ثلاث سنين ، وقطعوا عنا المياه حتى أنَّ الرجل ليخرج بالنفقة فما يباع شيئا حتى مات منا قوم))[١٨٧]. ولم يكن ما يجيئهم سراً ليسكت نداء الجوع الذي لا يرحم ، حتى إن احدهم اضطر يوماً أنَّ يطحن قطعة من جلد بعير ويمزجها بالماء ويلتهمها إلتهاماً ..

وبدأ بعض رجالات قريش وشبابها يتذمرون للظلم الصارخ الذي نزل بحماة الرسول من بني هاشم وبني المطلب ، فسعوا الى وقف القطيعة ، وتمزيق الصحيفة الغادرة ، وإعادة الأمور الى مجاريها. وكان على رأس هؤلاء هشام بن عمرو الذي تصله ببني هاشم صلة من قرابة ، وكان ذا شرف في قومه ، وكان قد بذل جهده أيام الحصار في إيصال الطعام سراً الى الشعب .. فلقد اتصل بزهير ابن أبي أمية ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، وقال له : يازهير ، أقد رضيت أنَّ تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما أني لأحلف بالله أنَّ لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك اليه منهم ما أجابك ابداً ، فأجابه زهير : فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله أنَّ لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها. قال هشام : قد وجدت رجلا. قال : فمن هو ؟ أجابه هشام : أنا. قال زهير : أبغنا رجلاً ثالثا. وتمكن هشام من اقناع ثلاثة رجال آخرين هم المطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب ، بضرورة تمزيق الصحيفة وإنهاء المقاطعة. واتعد الرجال الخمسة على اللقاء ليلاً بأعلى مكة وهناك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام بتمزيق الصحيفة. وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم. وفي صباح اليوم التالي أقبل زهير على الناس وقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فرد عليه أبو جهل : كذبت ، والله لا تشق !! قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت. وسرعان ماأيده رفاقه الثلاثة. فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل !! وما لبث المطعم أنَّ قام إلى الصحيفة فمزقها[١٨٨]. ثم لبس ورفاقه السلاح واتجهوا

---

(١٨٧) البلاذري : أنساب ١/ ٢٣٥ – ٢٣٦.

(١٨٨) ابن هشام ، ص ٨٩–٩١. الطبري : ٢/٣٤١–٣٤٣. البلاذري : انساب ١/ ٢٣٥ – ٢٣٦. ابن الاثير: الكامل ٢ /٨٧–٩٠.

الى الشعب وأمروا بني هاشم وبني المطلب بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا. وعندما رأت قريش ذلك أسقط في أيديها وعرفت أنهم لن يسلموهم[١٨٩].

[5]

ما لبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنَّ فجع بأعز أقربائه إليه : زوجته البرّة خديجة وعمه أبي طالب ففقد بذلك سنديه النفسي والاجتماعي ، وحزن لفقدهما حزناً عميقاً ، حتى أنَّ ذاك العام – الذي سبق الهجرة بثلاث سنين – سمي بعام الحزن. وانتهزت قريش الفرصة فألحقت بالرسول (صلى الله عليه وسلم) من الأذى مالم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. وقد اعترضه – مرة – أحد سفهاء قريش في الطريق ، ونثر على رأسه تراباً ، فدخل الرسول بيته والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته لتنفضه عنه وهي تبكي ورسول الله يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك[١٩٠].

ونظرا إلى أنَّ الحجة الرئيسية للمقاطعة – التي لم يمض عليها كبير وقت – هي حماية (بني هاشم) للمسلمين ، وإنها كان لها تأثير سيىء في أعمال بني هاشم ، فالظاهر أنهم ادركوا الأضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم). ويبدو انهم بعد موت أبي طالب بدؤوا يتخلون عن تلك الحماية. ولعل أبا طالب هو العامل الأكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما مات خففت هاشم من تأييدها وربما أدركت – بعد المقاطعة – ما يصيبها من أضرار مادية ومعنوية إذا استمرت في حمايته ، لذا اخذت تتخلى عن ذلك ، ويتجلى هذا واضحا في أعقاب رجوع الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الطائف[١٩١].

أدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنَّ القيادة الوثنية في مكة مصرة على الوقوف بوجه دعوته ماضية في الحاق أذاها به ، واضطهاد أتباعه وفتنتهم في دينهم ، فرأى أنَّ يغادرها إلى مكان آخر ينشر فيه دعوة الإسلام ويطلب من اهله النصر والمنعة ، فوقع اختياره على الطائف حيث تقطن ثقيف كبرى القبائل العربية بعد قريش. فغادر مكة في شوال من السنة

---

(١٨٩) ابن سعد : ١٤١/١/١. البلاذري : انساب ٢٣٦/١.

(١٩٠) ابن هشام : ص ٩٩ ، الطبري : تاريخ ٣٤٣/٢-٣٤٤ ، ابن سعد : ١٤١/١/١ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٨/٢-٢٩ ، ابن الأثير : الكامل ٩٠/١-٩١ ، وانظر البلاذري : أنساب ٢٣٦/١-٢٣٧.

(١٩١) العلي : محاضرات ٣٧٥/١-٣٧٦.

العاشرة للبعثة ، بصحبة زيد بن حارثة ، ولما انتهى الى هناك عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها وأشرافها ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وعرض عليهم المهمة التي جاء من أجلها وهي أنَّ ينصروه على الإسلام ويمنعوه من قومه ، فلم يلتفتوا اليه وعلقوا على دعوته ساخرين ، فقال أحدهم : إني أمزق ثياب الكعبة إن كان الله ارسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله احداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أنَّ أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أنَّ أكلمك !!

فغادرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أنَّ طلب منهم أنَّ يكتموا ماجرى بينه وبينهم ، إذ كره أنَّ يبلغ قومه ذلك فيجرئهم عليه. لكن زعماء ثقيف لم يستجيبوا لطلبه وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، ويرمونه بالحجارة ، فلم يكن يرفع قدما ويضع أخرى إلا على الحجارة ، حتى إجتمع اليه الناس وألجؤوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وكانا هناك، فتفرق عنه سفهاء الطائف وقدماه تنزفان دماً ، فعمد إلى كرمة ونادى ربه : ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس .. ياأرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أنَّ تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)) !! فلما رآه ابناء ربيعة ، وشاهدا مالقي ، تحركت له رحمهما ، فطلبا من غلام نصراني لهما يدعى (عداس) أنَّ يحمل إليه طبقاً من عنب، فلما أتى به الغلام ووضعه بين يديه ، مد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يده قائلاً : باسم الله، ثم بدأ يأكل العنب ، فعجب الغلام لسماعه عبارة لم يألف سماعها في أرض وثنية ، فقال للرسول (صلى الله عليه وسلم) : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فسأله الرسول : ومن أي البلاد أنت ، وما دينك ؟ أجاب : نصراني ، من أهل نينوى. فسأله الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ أجاب الغلام دهشاً : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال الرسول : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رأس رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) يوسعه لثماً وتقبيلاً .. وما أنَّ غادر الرسول البستان حتى حذره سيداه : ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خيراً من دينه[١٩٢]!!

عندما قفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عائداً إلى مكة كانت الأمور هناك قد بلغت حداً كبيراً من السوء ، ووجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه مضطراً إلى أنَّ يحتمي بجوار أحد من زعماء قريش ، ريثما يواصل طريق الدعوة .. فبعث إلى مكة رجلاً يلتمس له الجوار ، وعرض الرجل الأمر على الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو فرفضا متعللين ببعض الأسباب ، ووافق المطعم بن عدي على الجوار ، ولبس وبنوه وأقرباؤه السلاح استعدادا لكل طارىء. ومن ثم دخل الرسول مكة وراح يواصل المهمة الملقاة على عاتقه. وجابهه – يوما – جماعة من القريشيين بزعامة أبي جهل ، بسخرياتهم المألوفة ، فصرخ الرسول في وجوههم ((... أما أنت يا أبا جهل فو الله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً. وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش ، فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون ، وأنتم كارهون))[١٩٣].

لم ييأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقرر أنَّ يستمر في عرض دعوته على قبائل العرب القادمة إلى مكة في موسم الحج والعمرة والتجارة ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أنَّ يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين الله ما بعثه به. وكان يتبعه عمه أبو لهب إلى منزل كل قبيلة يذهب إليها فيناديهم ((إن هذا إنما يدعوكم إلى أنَّ تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم .. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه))[١٩٤].

عرض الرسول دعوته وحمايته على كندة وبني كلب فأبوا عليه ... وعرضها على بني عامر بن صعصعة ، فسأله أحد رجالها (بحيرة بن فراس) : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فأجاب الرسول : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، فقال الرجل : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك !!

---

(١٩٢) ابن هشام ، ص ١٠١-١٠٣ ، الطبري : تاريخ ٣٤٤/٢-٣٤٦ ، ابن سعد ٤٢/١/١ البلاذري : أنساب ٢٢٧/١ ، اليعقوبي : تاريخ ٢٩/٢-٣٠ ، المقدسي : ٥٥/٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩١/٢-٩٣، ابن كثير : ١٣٥/٢-١٣٧.

(١٩٣) الطبري : ٣٤٧/٢-٣٤٨ ، البلاذري : أنساب ٢٢٧/١ ، وانظر ابن سعد : ١٤٢/١/١.

(١٩٤) ابن هشام ، ص ١٠٤-١٠٥ ، الطبري : تاريخ ٣٤٨/٢-٣٤٩ ، ابن سعد : ١٤٥/١/١.

كما عرض الرسول دعوته وحمايته على بني حنيفة ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم ... وعرضها على بني محارب وفزارة وغسان ومرة وسليم وعبس وبني نضر وبني البكاء والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة ، دون أنَّ تستجيب له إحداها .. وهكذا مضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرض الإسلام ويطلب نصرة القبائل واحدة واحدة وهي تأبى عليه وتصد عن هديه ، ولم يكتف بذلك بل راح يتصدى لكل قادم إلى مكة له مكانة في قومه .. يعرض عليه مبادىء الدين الجديد ويدعوه الى الله[١٩٥].

(١٩٥) ابن هشام ، ص ١٠٤-١٠٧ ، الطبري : ٢/٣٤٩-٣٥١ ، ابن سعد : ١/١/١٤٥ ، البلاذري : أنساب ١/٢٣٧-٢٣٨ ، ابن الأثير : الكامل ٢/٩٣-٩٤ ، ابن كثير : البداية ٣/١٢٨-١٤٦.

الفصل الثالث

مسائل من العصر المكـي

[1]

ليس بإمكان أي مؤرخ أنَّ يحدد الأبعاد الكاملة لطبيعة اللقاء الأول ، وما تلاه من لقاءات بين الوحي الكريم وبين محمد (صلى الله عليه وسلم) .. وكل ما ذكرته الروايات ، اعتمادا على رؤية الرسول وهو يتلقى الوحي ، أو احاديثه القصيرة الموجزة بهذا الصدد ، لايعدو أنَّ يكون (وصفا) خارجيا للتجربة التي تمخض عنها البناء القرآني المعجز .. ومادام الأمر في امتداده وغيابه يند عن المشاهدة المباشرة والفحص التجريبي بأعتباره أمراً (غيبياً) ، فليس من السهل أنَّ نخوض فيه ، كما أنه ليس من السهل أنَّ نخوض في أي من الأمور الغيبية التي لم يتح لأجهزتنا الحسية والعقلية التعامل معها ، والإحاطة بأبعادها علماً. وجلّ المحاولات – الشرقية والغربية – التي جهدت من أجل تحليل تجربة (الوحي) تحليلا يخضعها في النهاية الأمر للمعرفة البشرية المحدودة ، وقعت في الخطأ من حيث أنها اعتمدت الظن والتخمين في مسألة من أخطر المسائل الغيبية .. والأهم من ذلك هو ما تمخض عنه هذا الأسلوب الإلهي في تعليم البشرية ، والذي يعد من المصادر اليقينية للمعرفة. فالقرآن – إذن – والحركة الإسلامية التي رافقته ، على خط متواز صاعد ، هما اللذان يجب أنَّ ينصب عليهما البحث والتحليل ومحاولة الأحاطة ، من أجل أنَّ تكون المحاولة جادة وليست ضربا في غير هدف !

لقد تنزل الوحي على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أعقاب فترة زمنية طويلة ، جاوزت الأربعين عاماً ، كانت الإرادة الإلهية تهيء فيها – كما رأينا – الممهدات البيئية والوراثية لتكوين (الشخصية) التي سيلقى على عاتقها حمل مسؤولية الرسالة الصعبة .. وأعقب ذلك تمهيد نفسي وذهني (مباشر) تمثل بتلك الأسابيع الطوال من العزلة والتأمل والتحنث في غار حراء ، انشقاقاً على الأعراف والممارسات الجاهلية ، واندماجاً في الكون على مداه ، وبحثاً عن (العلّة الكافية) لخلقه على هذه الصورة من الدقة والتنسيق والتماسك والنظام ، وسعيا وراء (الشريعة) التي تعيد الإنسان إلى الانسجام مع النواميس التي تتحرك بموجبها السماوات والأرض..

وما لبث الوحي الأمين أنَّ جاء ، في اللحظة المناسبة والمكان المناسب اللذين اختارتهما العناية الإلهية لإرسال محمد إلى الناس كافة .. محمد الذي لم يكن يعرف ، حتى هذه اللحظة ، المصير الذي ينتظره ، والدور الذي سيكلف بأدائه إزاء الإنسان والعالم. ومن ثم جاءت (هزّة) الوحي مفاجأة مذهلة لهذا الرجل المنعزل في الغار بعيداً عن الناس ... رافقها وأعقبها رعب وقلق

وشك واضطراب وتمزق نفسي وحمى قاسية ، جعلت الرسول (صلى الله عليه وسلم) يغادر المكان في اعقاب كل لقاء وهو يرتجف خوفا من أجل أنَّ يلجأ إلى سنده العاطفي الأول والأخير متمثلاً بزوجته البرّة خديجة التي كانت عند حسن الظن دوماً.

وما أنَّ اطمأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى صدق رسالته ، في أعقاب تأكيدات خديجة وابن عمها ورقة بن نوفل ، وإثر تكرر نزول الوحي عليه ، حتى بدأ – بأمر من هذا الوحي – بالعمل .. كان عليه أنَّ يدع مرحلة (العزلة) والانقطاع ، وأن يمزق دثار الخوف والقلق والشك .. وأن ينطلق ليبدأ أولى اتصالاته من أجل بناء الحلقات الأولى من الدعاة ، أولئك الذين كتب عليهم ، أنَّ يتحملوا شرف الانضواء إلى أول قاعدة بشرية للدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل .. وإذ كانت الدعوة الجديدة تتحرك تحت شعار (لا إله إلا الله) بكل أبعاده الشاملة وآفاقه الرحبة ، فقد كانت تمثل رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية ، وانقلابا جذريا على مواضعات العصر وممارساته ومطامحه القريبة العاجلة .. وكان ارتطامها بمراكز السلطة والنفوذ والتوجيه في مجتمع كهذا أمراً محتماً .. ومن ثم كان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يجتاز مرحلة من (العمل السري) ، غير المعلن ، من أجل أن يرسي دعائم حركته ويضم إليها أوثق العناصر وأعمقها إيماناً ، ويسعى خلال ذلك إلى مزيد من توثيق هذا الإيمان وتعميقه في نفوس الدعاة .. فعليهم ستقع المسؤولية ، وعلى مدى مقدرتهم على التحمل سيقوم البناء .. ولقد بدأ الرسول اتصالاته بأقرب الناس إليه ، من أجل مزيد من السرية والكتمان : الزوجة والصديق وابن الأخ والابن (المتبّنى) .. ثم أنطلق بعد ذلك في توسيع نطاق الدعوة ، يعضده ساعده الأيمن أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) .. وما لبثت اللبنات أن أزدادت عدداً ، والبناء ارتفاعاً ، والأسس عمقاً ورسوخاً ..

استمر العمل السري ثلاث أو اربع سنوات ، على خلاف في الروايات ، والدعوة خلاله تسير ببطء شديد ، رغبة في التركيز والاختيار البصير بالعناصر الأكثر جدارة وكفاءة ومقدرة على تحمل مسؤولية الايمان .. وكان القرآن الكريم يتنزل خلال ذلك مؤكداً على قضية واحدة وأمر واحد ، لم يتجاوزه إلى (المسائل) الأخرى إلا قليلاً ، تلك هي قضية (العقيدة) التي راح القرآن يحبك ، بأسلوبه المعجز وآياته البينات ، جوانبها الشاملة وبناءها المتشابك في نفوس أتباعه وعقولهم وضمائرهم ، ويحيلهم واحداً بعد آخر ، ويوماً بعد يوم ، إلى شخوص حيّة تتحرك بالقرآن ، فتكون حركتها تعبيرا حيوياً واقعياً عن التصور الجديد الذي طرحه القرآن ، والذي جاء

لينعكس بالضرورة على السلوك اليومي للإنسان المسلم ... وكلما تقدم الزمن بالدعوة الإسلامية وتنزلت الآيات البينات لبناء العقيدة ، نمت قواعد الدعوة الإسلامية وأزدادت (تمثلاً) لهذه الآيات، الأمر الذي جعلها تنمو بشكل مواز تماماً لنمو البناء العقيدي الذي يطرحه القرآن ذاته لكي يحرك به (واقع) النفس البشرية ويتعامل معها تعاملاً حركياً يرفض منطق الجدل واللاهوت والنظريات.

ولقد مرت هذه السنون الطويلة من مرحلة العمل السري ولم يتجاوز عدد الدعاة خلالها – كما رأينا – الخمسين رجلاً وامراة ، وهو عدد قليل جداً إذا ما قورن بهذا الامتداد الزمني الطويل. إلا أن التركيز والعمق الذي تميز به كل واحد من هؤلاء ، جعل المنتمين إلى الإسلام قادرين ، بعد قليل ، على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي ستصب عليهم من أجل فتنتهم عن دينهم : تعذيباً واضطهاداً وقتلاً ونفياً وسخرية وقطيعة واحتقاراً .. وعلى تجاوز (المحنة) السوداء وهم أصلب عوداً وأعمق ثقة وأشد إيماناً .. وفي جوارهم آيات القرآن تشد أزرهم وتعمق يقينهم الجديد .. والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقودهم من ساحة إلى ساحة صوب مشارف الفوز والانتصار.

ولا ريب أن أعتماد (المقاييس المادية) – كما فعل عدد من المستشرقين أمثال كريمر وجرمه وغيرهما – لفحص الدوافع التي قادت المسلمين وغير المسلمين للانتماء إلى الدين الجديد أو إلى أية عقيدة أو دين ، أمر يرفضه واقع (التجربة) في أبعادها الشاملة الرحيبة ، فلم يكن البحث عن (الحق) والتشبّث في الانتماء اليه ، أمر معدة تبحث عن طعامها وجسد يرنو الى الإشباع ، بقدر ماهي مسألة نفسية متكاملة يلعب فيها الظمأ الروحي واليقين الفكري والقناعة الذاتية دورها الاول والأخير، بحيث أن سائر الأمور الأخرى الحسّية والجسدية بقيت (ثانوية) بالنسبة لهذه العوامل الاساسية.

هذا على المستوى النفسي ، أما على المستوى التاريخي ، فإن هذا المقياس (المادي) الذي أخذ يشيع في العقود الأخيرة ، كإسقاط معاصر على الوقائع التاريخية الماضية ، سرعان ما يتهافت بمجرد إلقاء نظرة متأنية على قوائم المسلمين الأول الذين كان أكثرهم – كما يقول صالح العلي – من التجار ورجال الطبقة الوسطى ، وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدافع عنهم ، بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الإسلام ، لا ينهض دليلاً على صحة هذا الرأي. إذ أن هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنوا بكثير من الآمال إذا تركوه ، فرفضوا واصروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على أن دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم الى اعتناق الإسلام ، والواقع أن الروايات أشارت صراحة إلى دوافع بعضهم ، فعثمان بن مظعون كان من قبل ظهور الإسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو هو ابن الرجل

الذي كان حنيفياً يبحث عن دين إبراهيم ، وخالد بن سعيد بن العاص اعتنق الإسلام لأنه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها أبوه ، ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها ، ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الأمور الدينية واعتناقه الإسلام لاعتقاده بأن فيه المنجى والمخلص ، أما عمر بن الخطاب الذي أسلم بعد هذه الفترة فقد أسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته أخته تتأذى(١٩٦).

ترى كم من المسلمين قادتهم الى الإسلام تلك (الهزة الوجدانية) التي أحدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهي تتلى عليهم ، فتغسل ضنائرهم وتزيل رين قلوبهم ، وتعيد الق الذكاء إلى عقولهم ، ونور اليقين الى بصائرهم وأفئدتهم ؟ وهل بعد هذه (الهزة) الشاملة التي تنقل الإنسان من حال إلى حال ، تفكير (منفعي) محدود في أمعاء تمتلىء طعاماً ، وجيوب تفيض فضة وذهباً ؟! ما الذي دفع عثمان بن عفان ، وهو في قمة قريش غنى ومكانة وأمانا ومحبة وجاهاً إلى أن يتمرد على جاهليته ، ويقف في لحظات الدعوة الاولى ، الصعبة ، الغامضة ، الخطيرة ، بمواجهة قومه وعشيرته ، رافضا الغنى والمكانة والجاه والمحبة ، مختاراً بدلاً منها الفقر والاجتقار والزراية والخوف والكراهية ؟ حتى انه ليستهين بسياط عمه وهي تنزل على ظهره من أجل أن يعود ثانية إلى حظيرة الآباء والأجداد ؟ وما الذي دفع أبا بكر – وعشرات غيره – إلى أن ينفقوا من أموالهم الخاصة التي سهروا وكدحوا على جمعها وتنميتها ، ينفقوها حتى آخر درهم ، حتى أن الرسول ليسأل رفيقه الصديق : وما الذي أبقيت لعيالك يا أبا بكر ؟ فيكون جوابه: أبقيت لهم الله ورسوله !! وما الذي دفع سعد بن أبي وقاص ، الغني المدلل ، إلى أن يرفض توسلات أمه ، وقد أوثقته رباطاً ، من أجل أن يرتد عن دينه ، حتى ليسلمها الهم من جراء ذلك إلى المرض ، فما يكون جوابه إلا أن يقول للأم التي هي أعز الأحبة على قلوب الأبناء : والله ياأم لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردني ذلك عن ديني!! .. وغير عثمان وأبي بكر وسعد ... كثيرون !!

لقد انتمى الى الإسلام – كما يقول مونتكمري وات – شباب من أفضل العائلات ، وخالد بن سعيد أفضل ممثل لهذه الفئة ، ولكن هنالك آخرون غيره وكانوا ينحدرون من أقوى العائلات وأشهر القبائل ، تربطهم روابط متينة بالرجال الذين يملكون السلطة في مكة ، وكانوا في مقدمة أعداء محمد. ومن المهم أن نشير إلى أنه وجد في معركة بدر أمثلة على الأخوة والآباء والأبناء والعم وابن الاخ الذين كانوا يقاتلون في صفوف كلا الحزبين. ويمضي (وات) إلى القول بأن أهم فكرة نستخرجها من هذا (العرض عن المسلمين الأول) هو أن الإسلام الفتي كان في الأساس حركة شباب ، إذ أن معظم الذين نعرف اعمارهم لم يتجاوزوا الأربعين عند الهجرة – وبعضهم

---

(١٩٦) محاضرات في تاريخ العرب ٣٣٨/١.

كانوا أصغر كثيراً – وكثير منهم كانوا قد أعتنقوا الإسلام منذ ثماني سنوات. ولم يكن الإسلام ، من جهة ثانية ، حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة. ولم يستمد الإسلام قوته من رجال الدرجة السفلى في السلم الاجتماعي بل من أولئك الذين كانوا في الوسط[١٩٧]. ثم ما يلبث (وات) أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه معظم الغربيين الذين يجدون أنفسهم ملزمين بتطبيق مقاييسهم الخاصة على تاريخنا .. وقد ناقشنا هذه المسألة في مقدمة هذه الدراسة عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وإلى أي دين كان ينتمي هؤلاء المترفون الأغنياء ومتوسطو الحال ، الذين ينتمون إلى أشهر القبائل المكية وأعلاها سلطة ومكانة ؟ إلى الدين الذي كانت حملات كتابه الكريم تتنزل منذ بداياتها الأولى (العلق ، القلم وغيرهما)[١٩٨]. صواعق على رؤوس الأغنياء والزعماء ، تلك الآيات التي ((.. نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحثّت على الأنفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والمتكبرة عن الحق)) [١٩٩]. وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها ، عظيمة رائعة في حدبها على هذه الطبقة التي تتألف منها عادة أكثرية الجماهير ، وتحريرها ورفع مستواها[٢٠٠].

[2]

ولن تتكامل الصورة إلا بان نتجاوز ، في تحليلنا هذا ، مرحلة الدعوة السرية إلى المرحلة المكية عامة لنرى في الجهة المقابلة الدوافع الحقيقية التي قادت المشركين وزعماءهم إلى مقاومة الدعوة ، وهي دوافع لاتنصب على الجانب المادي فحسب ، بل تمتد إلى كل مساحات التصور والشعور والحياة الجاهلية ، وإن كان للجانب (المادي) أهمية كبيرة بين هذه الدوافع إلا أنه لا

---

(١٩٧) محمد في مكة ، ص ١٥٩–١٦٠.

(١٩٨) انظر سورة الزخرف : (الآيتان ٢٢–٢٣) ، سورة هود : (الآية ١١٦) ، سورة المزمل : (الآيتان ١١–١٢) ، سورة الإسراء : (الآية ١٦) ، سورة الواقعة : (الآيات ٤١–٤٨) ، سورة الحاقة : (الآيات ٢٥–٢٩) ، سورة الهمزة : (الآيات ١–٤) ، سورة سبأ : (الآيات ٣١–٣٧) ، سورة غافر : (الآيتان ٤٧–٤٨) ، سورة إبراهيم: (الآية ٢١) ، سورة الأحزاب : (الآيتان ٦٦–٦٧) ، سورة الأعراف : (الآيات ٣٦–٤٠) ، سورة الفرقان : (الآية ٢١) ، سورة الأنعام : (الآية ١٣٣) ، سورة الجاثية : (الآية ٣١) ، سورة الجن : (الآية ٢٤) ، سورة النازعات : (الآيتان ٢٨–٢٩) ، سورة النبأ : (الآيتان ٢١–٢٢) ، وانظر صالح أحمد العلي : محاضرات ١/٣٥٧–٣٥٩.

(١٩٩) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ١/١٦٥.

(٢٠٠) المرجع السابق ١/١٨١–١٨٢.

يمكن أن يغطي المساحة كلها ويحجب الدوافع الاخرى ، الدينية والنفسية والسياسية والثقافية ، عن أعين الباحثين ، ذلك ((أن مقاومة المشركين للإسلام ، رغم الجمود الظاهر لدياناتهم ، يمكن تعليله بأن دينهم ، وان لم يكن يلعب دوراً كبيراً ظاهراً في حياتهم اليومية ، إلا انه كان متغلغلا ومتعمقاً في اللاشعور فيهم ، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه ، كما انه لطول أمد استقراره لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه. ولكن الإسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجها لا إلى عقائدهم فحسب بل إلى ذاتيتهم وإلى كيانهم الروحي ، فاندفعوا يدافعون عنه بقوة. ومما زاد في قوة هذه المقاومة ، روح المحافظة التي تتجلى عند البدو بصورة خاصة. وفي القرآن الكريم أيات كثيرة تبّين أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكرة التي واجهوا الإسلام بها {**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ** }[٢٠١] .. ومما زاد في عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للوحدانية كانت جديدة عليهم ، فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول))[٢٠٢].

ولا ريب أن هذا الدافع (اللاشعوري) هو الذي يفسر لنا إصرار زعماء (الشرك) ، خلال تعذيبهم للمسلمين ، وضغوطهم ضد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أن يدعوا سب آلهتهم وشتم آبائهم وأجدادهم وهو الأمر الذي كان يتكرر كثيراً في ميدان العلاقات الوثنية – الإسلامية، كما يفسر لنا تشبث رجل عاقل كأبي طالب بدينه الوثني ، رغم حمايته المعروفة لابن أخيه ، بحجة أن هذا التغيير لا يليق برجل كبير موقر مثله .. فتغيير دين الآباء والاجداد (عار) لايلائم كبار رجالات مكة وشيوخها وأولئك الذين كان يقود خطاهم إحساس (رجعي) متأصل في نفوسهم، تعبر عنه الآية الكريمة ، وقالوا : {**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**}[٢٠٣] وغيرها كثير ..

ولعل من أهم اسباب المقاومة كذلك – يقول دروزة – ماكان للزعامة الوثنية من دور خطير في المجتمع العربي حيث كان الزعماء – وخاصة الزعماء الأغنياء – يتمتعون بنفوذ السيادة .. ومنها ماكان من رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي ، وما استهدفته الدعوة من

---

(٢٠١) سورة سبأ : (الآية ٤٣) ، وانظر : سورة الزخرف : (الآيات ٢٢–٢٤) ، سورة لقمان : (الآية ٢١) ، سورة البقرة : (الآية ١٧٠) ، سورة المائدة : (الآية ١٠٤) ، سورة الصافات : (الآيات ٦٩–٧١).

(٢٠٢) العلي : محاضرات ١/٣٤١–٣٤٢.

(٢٠٣) سورة الزخرف : (الآية ٢٣).

هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية ، أو تعديلها : كالشرك على أنواعه ، والاستشفاع بالملائكة ، وما شاب الشرك من وثنية مادية ، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية[٢٠٤] ، وشؤون القيان والمرأة والرقيق والتحريم والتحليل في كثير من الأمور .. وخوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ماكان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة ، بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له .. ثم هناك ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة ، والوصف المسهب للحياة الأخروية ، الوارد في القرآن من عجب واستغراب ، لا سيما أن هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التي كان لها أثر في أفكار العرب ومعارفهم. ولعل في تجريد الأغنياء والاقوياء من أسباب قوتهم ومكانتهم، وتحقيرهم الدائم ، إثارة للسواد على الزعماء وتحريضاً على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم الأستجابة إلى الدعوة. وقد كانت طبيعة النبي البشرية ، من أسباب المقاومة كذلك .. إذ كان العرب يتخيلون أن النبي لابد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر ويستطيع أن يفعل ما لا يفعله سائر الناس من خوارق المشاهد .. فلما رأوه مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه بشر مثلهم .. جحدوا نبوته وكذبوا صلته بالله ، ونعتوه بالمجنون والشاعر أو الساحر أو الكاهن[٢٠٥] ..

ونمضي في تعمق أسباب المقاومة الوثنية للدعوة ، فنجد (وات) يحدثنا عن مجموعة أخرى من الأسباب ، مؤكداً في الوقت نفسه دور الأسباب التي سبق ذكرها .. ((إن السبب الأساسي في المعارضة كان بدون شك ، أن زعماء قريش وجدوا أن إيمان محمد بأنه نبي ستكون له نتائج سياسية ، وكانت السنة العربية القديمة تقول : إن الرئاسة في القبيلة يجب أن تكون من نصيب اكثر الرجال حظاً من الحكمة والحذر والعقل ، فلو أن أهالي مكة اخذوا يؤمنون بإنذار محمد ووعيده وجعلوا يستفسرون عن الطريقة التي يجب أن تدار بها شؤونهم ، فمن ذا الذي يحق له نصحهم غير محمد نفسه ؟)) ويمضي (وات) إلى القول بأن زعماء مكة كانوا من بعد النظر بحيث أقروا بالتناقض بين تعاليم القرآن الأخلاقية وراس المال التجاري الذي كان عماد حياتهم .. كما كان للعرب بطبيعتهم ، أو حسب تربيتهم محافظين .. ويقول الزهري بأن سبب المعارضة، بالإضافة إلى مهاجمة الاصنام ، القول بأن مصير اجدادهم النار ، ويرتبط احترام

---

(٢٠٤) انظر تفسير ابن كثير لآيات سورة الانعام : (الآيات ٣٣-٣٦).

(٢٠٥) انظر بالتفصيل : دروزة : سيرة الرسول ١/١٨٣-١٩٣.

الأجداد هذا ارتباطاً وثيقاً بتقديس العادات والتقاليد القديمة. وبينما كان بعض المعارضين ذوي نزعة فردية قوية ، فقد كان اكثرهم محافظة يعترف ببعض الولاء للجماعة ، فكانوا يرون إذاً في نزعة الإسلام لإحداث انقسامات حادة في العائلة دليلاً لآخر على ان التخلي عن الطريق الذي سلكه الأجداد يؤدي إلى نتائج وخيمة ، وربما بدأ لهم ذلك جديرا بتهديم المجتمع بأكمله ، وكان هذا ما يحدث فعلاً ... وما يلبث (وات) أن يخلص إلى القول بأن أسباب معارضة الإسلام – إذا وضعنا جانباً كل مصلحة شخصية – كانت الخوف من نتائجه السياسية والاقتصادية ، والنزعة المحافظة الصرفة ، وكانت المشكلة التي جابهها محمد لها جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية ، غير أن رسالته كانت في الأساس دينية بحيث أنها حاولت علاج الأسباب الدينية الكامنة لهذه المشكلة ولكنها انتهت لمعالجة الجوانب الأخرى ولهذا اتخذت المعارضة أشكالاً مختلفة[٢٠٦].

إن شعار **(لا إلــه إلا الله)** الذي أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) برفعه في وجه الجاهلية ، جاء انقلاباًعلى كل المستويات الدينية والاجتماعية والفكرية والنفسية والاخلاقية والسياسية والسلوكية ، إذ هو إشعار واضح بضرورة ردّ الأمر كله إلى الله (الحاكم) و(المشرع) وتجريد الإنسان فرداً وجماعة ، من الخضوع لمقاييسه الجزئية القاصرة ، واتباع (الهوى) و(الظن) في كل صغيرة وكبيرة.

ولقد رأينا خلال عرضنا للطور العلني للدعوة أن جلّ كلمات القريشيين ومرتكزات حوارهم مع أبي طالب ، أو مع محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، من أجل إقناعه بالعدول عن دعوته، ما كانت لتنصب على الدفاع عن مصالحهم المادية ، بقدر تشبتها بمعتقداتهم وقيمهم ، كما نلمح من خلالها إدراكهم الكامل لأبعاد عبارة **(لا إلــه إلا الله)** وخطورتها الشاملة إزاء وجودهم الجاهلي كله. ويمكن أن نذكر هنا – على السبيل المثال – رواية ابن سعد التي تقول إن وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا اليه أن يكف ابن أخيه ، فاستدعاه وقال له ((يا أبن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قولوا أسمع !! قالوا : تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك. قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله : أرايتم إن اعطيتكم هذه ، هل أنتم معطيّ كلمة إن أنتم لو تكلمتم بها ملكتم العرب ، ودانت لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : إن هذه كلمة مريحة ، نعم

---

(٢٠٦) محمد في مكة ، ص ٢١٤-٢١٦.

وأبيك ، لنقولنها وعشر أمثالها !! فقال الرسول : قولوا (**لا إلـه إلا الله**) !! فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون {**وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**}[٢٠٧] [٢٠٨].

فليست الحركة الإسلامية إذن حركة طبقة ضد طبقة ، فقد انتمى اليها أناس من شتى الطبقات. وسواء كانت هذه السمة (الطبقية) ناتجة عن تحرك الفقراء ضد الأغنياء ، كما يرى بعض الباحثين ، أو من الأغنياء لكبت ما تحسسوا منه رائحة ثورة شاملة سيقوم بها الفقراء ضد مصالحهم ومراكزهم ، كما ارتأى باحثون آخرون[٢٠٩] ، فإن هذه الافتراضات ، التي ينقض بعضها بعضا ، تعود لكي تنقض نهائياً بمجرد عرضها على (الواقعة التاريخية) نفسها .. إذا ما أردنا البحث الموضوعي الجاد ، وإلا فإن التخمين والاستنتاج والإسقاط المعاصر على التاريخ ، دون رؤية وارتكاز على أبعاد الواقعة نفسها يقودنا ولا ريب إلى (إسرائيليات) من نوع جديد ، تندثر بدثار العلم والموضوعية وما هي منهما بشيء!!

[3]

بعد أن تم بناء القاعدة (الصلبة) للدعوة متمثلة بأولئك الرواد الاوائل من المسلمين الذين انتموا للإسلام عبر سنيه الصعبة وغربته ، والذين علمتهم التجارب المقدرة على الصمود بوجه الضغوط مهما غلى الثمن ، والذين انضجتهم حشود الآيات القرآنية التي كانت تتنزل (على مكث) حيناً بعد حين ... أصدر الله أمره الى رسوله الكريم أن يتجاوز المرحلة السرية للدعوة صوب الجهر والأعلان ... وهذا أمر لابد منه لدعوة عالمية شاملة جاءت لكي تثبت وجودها المنظور في الأرض العربية اولاً ، وفي العالم المحيط ثانياً .. كل ذلك في فترة لا تعدو ما تبقى للرسول (صلى الله عليه وسلم) من سني عمره المحدود.

كان اجتماع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعشيرته الاقربين في اطراف مكة هو بداية العهد الجديد ، وقد انتهى ذلك الاجتماع الحاشد بصد محزن عن دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإنذاره .. ومنذ تلك اللحظة انفجر الصراع الواضح المكشوف بين المعسكرين .. المشركون الذين استخدموا كل اسلوب والتمسوا كل وسيلة لوقف حركة الاسلام الى الامام ...

---

(٢٠٧) سورة ص : (الآية ٦).

(٢٠٨) الطبقات ١٣٥/١/١ ، وانظر : المصدر نفسه ١٣٧/١/١ والبلاذري : الانساب ١/ ١٢٦ ، ١٢٨،١٣٣.

(٢٠٩) انظر عبد العزيز الدوري ورفاقه : تفسير التاريخ ص ١٥-١٦.

والمسلمون الذين لم يؤمروا بالعنف – طيلة العصر المكي – لئلا يتعرضوا لعملية ابادة تحقق للوثنية ما كانت تأمله وترجوه ..

وقد بدأ رجال الملأ نشاطهم المضاد في سلسلة من الاتصالات المبطنة بالوعد والوعيد مع ابي طالب ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، فلما اعقبت – جميعها– فشلا ، واعلن النبي عن موقفه الذي لا مهادنة فيه ولا مساومة ، في كلمته الحاسمة (والله يا عم ..) وجدت الوثنية نفسها مسوقة الى استخدام اساليب العنف والاضطهاد والحرب النفسية لوقف الخطر الجديد ، وانقضت كل عشيرة على ابنائها وعبيدها المسلمين تعمل فيهم تعذيبا وتحطيما للمعنويات واضطهادا ، ولم ينج الرسول نفسه من هذا البلاء النازل ، وهو واصحابه صامدون صابرون للمحنة ، تسندهم تجارب سنين طويلة من العمل والنمو العقيدي ، وتمنحهم المعنوية والثقة آيات القرآن البينات التي كانت تتنزل في قلب المحنة لكي ترفع المؤمنين الى افق الامل واليقين بالنصر ..

والى جانب هذا وذاك كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينفخ في اصحابه روح الثبات والمقاومة ويرسم بذكائه الثاقب ، وبالهدي الإلهي ، الطرائق والاساليب التي تقترب بهم يوما بعد يوم من الهدف الذي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد وعد اصحابه ببلوغه مهما طال الطريق وعظمت المصائب .. ولم يكن التخطيط للهجرة الموقوته الى الحبشة ، والاتصال المستمر بالقبائل والوفود القادمة الى مكة ، والذهاب الى الطائف ، ولقاءات العقبة الثلاثة إلا خطوات على الطريق ..

وكلما ازدادت المحنة وعظم البلاء ساق الله الى الدعوة رجالاً كباراً لهم وزنهم في مجرى الاحداث وقدرتهم على المقاومة والتحدي والتغيير. ولم يكن اسلام حمزه ابن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما الا امثلة بينة على الارادة المعجزة التي تسوق ، وفق منطقها وقضائها الذي لا راد له ، رجالا من قلب الجاهلية ، ومن صميم زعاماتها ، الى ساحة الحركة الجديدة ، ليسوا اتباع عاديين ، وانما قادة وزعماء يلعبون دورهم في ايجاد نوع من التوازن في القوة بين الدين الجديد والجاهلية يمكن الاسلام من ان يشق طريقه وسط ركام من العوائق والمصاعب والآلام.

واذ شعرت قريش انها اخفقت في كل الاساليب التي اعتمدتها لوقف انتشار النار ، فقد ارتأت في اعقاب اجتماع عقده زعماؤها ان ترفع سلاح (المقاطعة الشاملة) كعقاب (جماعي) للمسلمين وحماتهم من بني هاشم وبني المطلب ، علها تضعف قدرة اتباع محمد على المقاومة ،

وتدفع حماتهم ، الذين تشدهم اليهم نخوة العصبية ، الى ان ينفضوا من حولهم ويتركوهم وحيدين، معزولين ، مجردين من الحماية ، وسط عاصفة الغضب الهوجاء التي اجتاحت صدور المشركين وساحات مكة .. الا ان السلاح الجديد يثلم هو الاخر ازاء مقاومة المسلمين وقدرتهم العجيبة على التحمل ، وازاء التركيب الاجتماعي في مكة ، ذلك الذي دفع عددا من ابنائها الذين تربطهم العصبية بواحد أو اكثر من المحاصرين في شعب ابي طالب إلى ان يتحركوا لوقف هذه المظلمة ، وتمزيق الصحيفة التي سطرت فيها كلمات القطيعة .. ويخرج المسلميون من الاسر الصعب بعد ثلاث سنين من العزلة والجوع والحرب النفسية ، وهم اصلب عودا ، واغنى تجربة ، واكثر قدرة على التحرك صوب الهدف الذي الوا ان يسيروا اليه وراء رسولهم ، حتى ولو كلفهم ذلك انهارا من الدماء ..

وكانت الاحداث تتلاحق والاضطهاد الوثني يزداد عنفا وشراسة ويزيده فتكا وايلاما ، وفات سندي الرسول العاطفي والاجتماعي الزوجة والعم ، وفشل رحلته الى الطائف ، وكأن ارادة الله كانت تعد من وراء الظلام الذي ازداد عتمة وكثافة ، بالفجر القادم الذي لا ريب فيه ... ولن يكون ذلك إلاّ بالأسباب .. وهل بعد (الاسباب) التي منحها الرسول فكره واعصابه وطاقاته وهمومه جميعا ، بقادرة على ان تحقق (وعد الله) ! **{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}**[٢١٠].

[4]

في هذه الفترة ، جاءت حادثة (الإسراء والمعراج)[٢١١] تثبيتاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) على طريق المقاومة الطويل ، وتكريماً له في أعقاب سنين طويلة من العمل والصمود والكدح ، وتتويجاً لهذه السنين الصعبة ، رفعه إلى قلب السموات ، واطلعه على جوانب الإعجاز الإلهي الباهر في الكون الكبير. وهي امتحان – في الوقت نفسه – لقدرات أصحابه على تصور

---

(٢١٠) سورة الانعام : (الآية ٣٤).

(٢١١) قبل الهجرة بعام وبعض عام ، وكان عمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) آنذاك. كما يروي المسعودي – إحدى وخمسين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوماً (مروج ٢٨٣/٢). ولابد أن نشير إلى أن هنالك خلافاً في زمن وقوع الحادثة حيث يذهب بعضهم إلى انها وقعت قبيل منتصف العهد المكي : ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد (انظر دروزة : سيرة الرسول ٢٢٢/١) ، ونحن نرجح الروايات التي تجعلها في أواخر العصر المكي انسجاماً مع مغزاها ...

المدى الذي ينافحون مع رسولهم (صلى الله عليه وسلم) من أجل إخراج (الإنسان) إليه ، وهو مدى رحيب يتجاوز أبعاد الملموس والمسموع والمنظور ، وينأى عن الاحجام المباشرة للأشياء ، ويمتد بعيداً صوب الآفاق التي بإيمان الإنسان بها وحركته صوبها يغدو إنساناً وإلا فهو كالأنعام ، وأضل من الأنعام التي لاتعرف غير أن تأكل وتشرب وتنام ، ولا ترى إلا الأشياء المرئية التي تنعكس إشعاعاتها على قرنية عينيها ، ولا تسمع إلا الأصوات التي تلامس طبلات أذنيها ، وأما ماوراء ذلك فهو العدم الذي لاتحس به ولا تعرف عنه شيئاً !!

وروايـة الإسـراء والمعـراج تـرد فـي صـحيح البخـاري بهـذا الشـكل : ((عـن مالـك ابـن صعصعة (رضي الله عنه) أن نبي الله (صلى الله عليه وسلم) حدثهم عن ليلة أسري به قال: بينما أنا في الحطيم – وربما قال في الحجر – مضطجعاً إذ أتاني آت فقال ، وسمعته يقول ، فشق مابين هذه إلى هذه ... فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض ، قال الراوي وهو البراق ، يضـع خطـوه عنـد أقصـى طرفـه فحملـت عليـه ، فـانطلق بـي جبريـل حتـى أتـى السـماء الـدنيا فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل. قيل : ومن معك ؟ قال : محمد. قيل : وقد أرسل اليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه فرّد السلام ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح ...)) ومن ثم تستعرض الرواية ، بنفس الأسلوب ، اجتياز الرسول السموات السبع واحدة بعد واحدة ولقاءاته بيحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم (عليهم السلام) ، وكل منهم يستقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلاً : (مرحباً بـالأخ الصـالح والنبـي الصـالح). ويسـتأنف الـراوي حديثـه ((ثـم رفعـت – يقـول الرسـول (صلى الله عليه وسلم) – إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبتها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال جبريل : هذه سدرة المنتهى. وإذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات. ثم رفع البيت المعمور ، فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإنـاء مـن عسـل ، فأخـذت اللـبن فقـال : هـي الفطـرة التـي أنـت عليهـا وأمتـك ، ثـم فرضـت علـي الصلوات خمسين صلاة صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم !! قال : فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت ..))

ثم تستعرض الرواية التماسات الرسول من الله (سبحانه وتعالى) تخفيف عدد الصلوات إلى أن أنقصها إلى خمس ... ((قلت ... أرضى وأسلم ، فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي))[٢١٢].

وفي حديث لعبد الله بن مسعود ، في سيرة ابن هشام ترد الرواية التالية : ((أتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالبراق ، وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها ، فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يريه الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى أنتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، قد جمعوا له ، فصلى بهم ثم أتي بثلاث آنية ... إلى آخر الحديث))[٢١٣]. قال ابن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال : ((قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : بينما أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه ، فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار في فخذيه جناحان ، يحفز بهما رجليه ، يضع يده في منتهى طرفه ، فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته ... إلى آخر الرواية[٢١٤] ...)).

وأما الآيات الكريمة التي وردت بشأن حادثتي الإسراء والمعراج فنجدهما في سورتي (الإسراء) و(النجم) أولاهما : {**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**}[٢١٥] والأخرى : {**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً**[٢١٦] **أُخْرَى(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤)عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥)إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦)مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧)لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**}[٢١٧] ((فتعليل الإسراء – كما نصت الآية – أن الله يريد أن يري عبده بعض آياته. ثم أوضحت آيات المعراج أن

---

(٢١٢) التجريد الصريح ٦٨/٢-٧٠ وانظر حديث أنس بن مالك عن أبي ذر : نفس المصدر ٣٨/١-٣٩ ، الطبري : تاريخ ٣٠٧/٢-٣٠٩ ، ابن سعد ١٣٢/١/١-١٣٣.

(٢١٣) ابن هشام ، ص ٩٢.

(٢١٤) ابن هشام ، ص ٩٣-٩٤.

(٢١٥) سورة الإسراء : (الآية ١).

(٢١٦) يعني جبريل.

(٢١٧) سورة النجم : (الآيات ١٣-١٨).

الرسول (صلى الله عليه وسلم) شهد بالفعل بعض هذه الآيات الكبرى. وقد أختلف العلماء ، من قديم ، أكان السرى الخارق بالروح وحده أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير))[٢١٨].

في صبيحة اليوم التالي غدا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس ((هذا والله الأمر البين ! والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟)). وذهب الناس إلى أبي بكر ، رفيق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأول رجل أمن بدعوته ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر ، في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه. فقالوا : بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال ابو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ! فهذا أبعد مما تعجبون منه. وأقبل ابو بكر على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسأله : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم. قال أبو بكر : يا نبي الله فصفه لي ، فإني قد جئته ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ((فرفع لي – أي بيت المقدس – حتى نظرت اليه)) ثم راح يصفه لأبي بكر وأبو بكر يقول: صدقت ، أشهد أنك رسول الله. حتى إذا انتهى الرسول من وصفه ، التفت إلى صاحبه وقال : أنت ياأبا بكر الصديق[٢١٩]!!

وينقل ابن إسحاق عن الحسن قوله : ان كثيرا ممن أسلم ارتد في أعقاب سماعهم الرسول يتحدث بأمر الاسراء والمعراج[٢٢٠] ، ولا ريب ان في هذا التعليق مبالغة إذا ما عرضناه على المنطق الذي ناقش به أبو بكر الصديق القضية كلها : إن المسلمين الاوائل الذين انتموا للإسلام، في عهد محنته ، تصديقاً ، بما يجيئهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خبر السماء لا يمكن ان يهزهم نبأ الأسراء والمعراج ، ويردهم الى حظيرة الكفر .. لكن هذا لا يمنع

---

(٢١٨) الغزالي : فقه السيرة ، ص ١٣٥ وانظر Tor Andrae : Mahomet, p. 49 ٤٩. وهو من القائلين بإسراء محمد بالروح دون الجسد. وعن التأثيرات الأدبية لحادث الإسراء والمعراج والروايات التي اضيفت إليها فيما بعد ، على (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي دانتي انظر :

Miguel Asin : Islam and the Divine Comedy. Tr. H. Sunderland (London 1926).

(٢١٩) ابن هشام ، ص ٩٤–٩٥ ، وانظر ابن سعد (١٤٤/١/١).

(٢٢٠) ابن هشام ، ص ٩٤.

أن (قلة) من ضعاف الإيمان ، الذين يؤرجحهم التردد ، ويرهقهم طغيان قريش وحربها النفسية قد يجدون في هذا النبأ مجالا للانقلاب الى عالم الكفر الذي خرجوا منه عن غير وعي أصيل ، والخلاص من الامتحان والاضطهاد اللذين ادركوا انهما يزدادان في اعقاب النبأ الجديد. يؤكد هذا ما ورد في مسند أحمد[٢٢١] من حديث ابن عباس الذي قال فيه ((أسري بالنبي (صلى الله عليه وسلم) الى بيت المقدس ، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره الى بيت المقدس ، وبعيرهم ، فقال ناس : نحن نصدق محمدا بما يقول ؟ فأرتدوا كفاراً ، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل)) أي في معركة بدر.

هذا هو الهيكل العام لقضية الإسراء والمعراج ، وردود الفعل التي أثارها. وقبل أن نبدأ تحليل (البعد الزمني) للقضية ، وهو أخطر ما في الموضوع ، لابد أن نستعرض – اولا – القيم والمعاني التي تتبدى من خلالها.

لقد أسري بالرسول (صلى الله عليه وسلم) من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تأكيداً للرباط المتين الذي يشد البلدين إلى بعضهما ، حيث أنطلق الأنبياء على مدار القرون ، يدعون الى عبادة الله الواحد ورفض الصنميات الفانية .. في مكة حيث أقام إبراهيم أبو الانبياء، وإبنه إسماعيل أول بيت لله على الأرض .. وفي القدس حيث انبعثت نبوات متتالية تكافح من اجل تعزيز دعوة النبي الأب إبراهيم. وهناك كان الانبياء الكرام السابقون ينتظرون (خاتمهم) لكي يؤمهم في صلاة جماعية ، تعبيراً عن الدور الواحد الذي جاؤوا الى العالم لأدائه ، واتجاها الى الهدف الواحد الذي بعثوا لتحريك الناس اليه ، وسجوداً لله الذي كرم الإنسان وشرفه بالدين .. ووقوفاً وراء النبي الذي جاء لكي يتمم البناء ويضع اللبنات المحكمة الأخيرة فيه .. ويمضي .. ومنذ البدء كان الله (سبحانه وتعالى) قد أخذ ميثاق النبيين وعاهدهم على أن يصدق بعضهم بعضاً ويتمم اللآحقون منهم الشوط الذي كان السابقون قد بلغوه **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ}**[٢٢٢].

ثم تجيء التحيات المتبادلة بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين إخوانه السابقين عليهم السلام ، وهو يصعد بصحبة جبريل عبر السموات ، تأكيداً وتعزيزاً لهذه (الوحدة) النبوية

---

(٢٢١) حديث ، رقم ٤٥٤٦.

(٢٢٢) سورة ال عمران : (الآية ٨١).

التي لا أنفصال لها وتقديراً للمبعوث (الأخير) الذي كتب عليه شرف إتمام البناء واكمال الدين وتحميل الإنسان مسؤوليته الكاملة ، أيا كان هذا الإنسان. ان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يحدثنا بنفسه فيقول : ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؛ فإنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين))[٢٢٣]. وكان المسيح (عليه السلام) قد أكد لأتباعه على هذا الرجل الذي سيبعث لأتمام البناء[٢٢٤].

وفي ليلة الأسراء والمعراج ، يقول محمد الغزالي ((تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه دين الفطرة ، ففي الحديث (.. ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن ...) إن سلامة الفطرة لب الإسلام ، ويستحيل ان تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب. إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل الا قذراً وسواداً ، وربما اخفي هذا السواد الكريه وراء الوان زاهية ، ومظاهر مزوقة ، بيد أن ما ينطلي على الناس لايخدع به رب الناس .. وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا ..))[٢٢٥].

والنيل والفرات ، ما صلتهما بالرحلة عبر السماوات ؟ ((لقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنساح في الأرض ، وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم ، بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلاً في اعقاب جيل ، وهذا معنى رؤية الفرات والنيل في الجنة ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبله))[٢٢٦]. وفي رواية أنس بن مالك التي ذكرها البخاري في صحيحه[٢٢٧] ، يرد قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ((... ثم أنطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ، وغشيها ألوان ما أدري ما هي ؟ ..)) .. ونحن نسمع اليوم من رواد الفضاء ، عن الالوان التي تتراءى لهم عبر رحلاتهم في الفضاء والى القمر ، لا يدرون ما هي .. وهل يضّم عالمنا الأرضي كل الألوان وكل المسميات ؟! وهل بمقدور لغات العالم كله ومصطلحاته ان (تعبر) عن

---

(٢٢٣) أخرجه البخاري ٦/٤٣٦-٦٥.

(٢٢٤) انظر فصل (الإسلام والجبهة البيزنطية-النصرانية) في هذه الدراسة.

(٢٢٥) الغزالي : فقه السيرة ، ص ١٤٢-١٤٣.

(٢٢٦) نفسه : ص ١٣٩.

(٢٢٧) التجريد ١/٣٨-٣٩.

(موجودات) الكون الفسيح واحداثه التي تنأى عن علمنا وبديهياتنا ومسلماتنا[٢٢٨]؟ ((إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والارض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم .. والله (عز وجل) يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً اليه إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ويهاجمون سلطانهم القائم .. لقد جاء الإسراء والمعراج قريبا من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرون عاما وبذلك كانا علاجا مسح متاعب الماضي ، ووضع جذور النجاح للمستقبل))[٢٢٩].

ولم تكن حادثة الإسراء والمعراج معجزة قاهرة أريد منها قهر الناس على الأعتقاد وصدق نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما كان يحدث للأنبياء السابقين ، ذلك أن القرآن الكريم سلك أسلوباً أخر في الإقناع يقوم على التأمل والمشاهدة والتجريب والحجة والبرهان ، وإلا لكانت حادثة الإسراء والمعراج قد جاءت في الايام الأولى للدعوة حيث ضيق المشركون الخناق عليها وطاردوا أتباعها في كل مكان ((فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولي النهي من أول يوم ، وجاءت في طريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضرباً من التكريم لشخصه ، والايناس له ، غير معطلة للمنهج العام الذي اشترعه القرآن. وقد اقترح المشركون على النبي – يوماً – أن يرقى في السماء ، فجاء الجواب من عند الله {**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً**}[٢٣٠] فلما رقي في السماء بعدئذ ، لم يذكر قط أن ذلك رد على التحدي أو إجابة على الاقتراح السابق))[٢٣١] على العكس وجدنا الروايات تحدثنا عن أن صعوبة تصديق حادث غيبي كهذا دفع المشركين إلى مزيد من التحدي والأستهتار ورد نفر من المسلمين من ضعاف الإيمان إلى كفرهم!! ومهما يكن من أمر فإن حادث (التكريم) هذا ((ترك ثماره في نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) فاستراح الى

---

(٢٢٨) يقول م. كريسي موريسون في كتابه Man Does Not Stand Alon ص ١٨٢ ((إذا كانت الروح الخالدة تستطيع رؤية الأشياء كما هي ، فإنها تقدر أن تكتسب جميع الحواس المختلفة الرقيقة التي لكل الكائنات الحية ، وبذا تستطيع أن تدخل في جديدة عجيبة للمعرفة والتجربة والشعور ... وهناك الوان أزهى من ان تتحملها عيون البشرية تنتظر تطور قدرتنا على الإحاطة بها ...)) !!

(٢٢٩) الغزالي : فقه السيرة ، مقتطفات ١٣٨ ، ١٣٩.

(٢٣٠) سورة الإسراء : (الآية ٩٣).

(٢٣١) الغزالي : فقه السيرة ، ص ١٤٠.

حمد الخالق وقل اكتراثه لذم الهمل من الجاحدين والجاهلين ، ثم نشط الى متابعة الدعوة ، موقناً أن كل يوم يمر بها هو خطوة الى النصر القريب))[٢٣٢].

تأتي بعد ذلك مسألة البعد (الزمني) لحادثة الإسراء والمعراج ، هذه التي إجتاز بها الرسول في ليلة واحدة أو جزء من ليلة ، المسافات الفاصلة بين مكة والقدس ، وهي المسافات التي تتضاءل وتضيع إذا ما عرضناها على الأمداء الكونية الهائلة التي قطعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) عبر السماوات ، في أعماق ذلك الليل !! ولنرجع الى القرآن نفسه نتمعن في بعض آياته ونستنطقها حول هذه المسألة.

فهنالك حشد من الآيات واللمسات والإشارات منبثة في حنايا السور ، نذكر منها – على سبيل المثال – هذه الآيات الموحية ذات الدلالة العميقة : {**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** }[٢٣٣] ، {**يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ** }[٢٣٤] ، {**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً**}[٢٣٥] ، {**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ**}[٢٣٦] ، {**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ** }[٢٣٧] ، {**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**}[٢٣٨] ، {**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**}[٢٣٩] ، {**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا**}[٢٤٠] ، {**وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**}[٢٤١].

---

(٢٣٢) المرجع السابق ، مقتطفات ، ص ١٤٥.

(٢٣٣) سورة البقرة ، (الآية ٢٥٩).

(٢٣٤) سورة يونس ، (الآية ٤٥).

(٢٣٥) سورة الإسراء ، (الآية ٥٢).

(٢٣٦) سورة المؤمنون ، (الآية ١١٣).

(٢٣٧) سورة الروم . (الآية ٥٥).

(٢٣٨) سورة السجدة ، (الآية ٥).

(٢٣٩) سورة الرحمن ، (الآية ٢٩).

(٢٤٠) سورة طه ، (الآية ١٠٤).

(٢٤١) سورة الحج ، (الآية ٤٧).

{إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }[٢٤٢] ، **{ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ العَذَابِ}**[٢٤٣] ...

إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن ، وغيرها ، ترابطاً وانسجاماً رياضياً دقيقاً ، وإن فيها تاكيداً مستمراً على الحقيقة (الطبيعية) التي لم تتكشف بعض جوانبها للعلم إلا أخيراً ، تلك هي ان الزمن في الأرض والزمن في أعماق الكون ليسا سواء ، وان هناك فرقاً شاسعاً بين الوحدة الزمنية الأرضية والوحدة الزمنية الكونية يبلغ تارة 365,000 ضعف ويبلغ تارة أخرى 18,250,000 بحساب القرآن الكريم نفسه !! ومن أجل ذلك سيدهش الناس يوم القيامة ، وسيظنون أن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار وأنهم لم يلبثوا إلا قليلا ... ومن أجل ذلك لنا أن نتصور لا بحسابنا الأرضي ، ولكن بحساب المطلقات القرآنية الأمداء الزمانية (للأيام الستة) التي خلق فيها الله (سبحانه وتعالى) بناء السماوات والأرض ، وأعد كرتنا الأرضية لاستقبال الحياة وإنمائها وتطويرها على يد الإنسان المستخلف في الأرض وسيد مخلوقاتها.

ولنتدبر – بعد ذلك – هذه الآيات : **{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ(١)لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ(٢)مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ(٣)تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤)فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً(٥)إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا(٦)وَنَرَاهُ قَرِيبًا}**[٢٤٤] إن الملائكة والروح ، وقد تجردت من عوالق الجسد والتراب التي تقيد الإنسان ، وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الأرضية النسبية ، تصعد الآن في طريقها إلى بارئها عبر معارج وأمداء لا يحيطها قط خيال إنسان ، لأنها ستجتاز هذه الأمداء التي تبعثرت فيها خمسمائة مليون مجرة ، في كل منها الآف المجموعات الشمسية ، كمجموعتنا وأكبر ، تجتازها في يوم واحد لكنه ليس كأيامنا ، إنه بحساب أيامنا ثمانية عشر مليوناً وربع المليون يوماً .. إنه اليوم الكوني الذي أشار اليه (أينشتاين) في (نسبيته) التي قادته إلى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية ، حتى انه ليقال أن وصول إنسان ما إلى إحدى المجرات يحتاج إلى خمسمائة سنة ضوئية ، ولكن هذا الإنسان نفسه إذا ما تيسر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فإنه سيختزل هذه المدة الشاسعة الى ما يقرب من خمسين سنة فحسب!!.

---

(٢٤٢) سورة الأعراف ، (الآية ٥٤).

(٢٤٣) سورة غافر ، (الآية ٤٩).

(٢٤٤) سورة المعارج ، (الآيات ١–٧).

إن الملائكة والروح المتخفف من أعباء الجسد وشد الأعضاء لا يعجزها أن تفوق في حركتها سرعة الضوء ، ومن ثم فهي تعرج الكون كله في طريقها إلى خالق الكون جل وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون لا بحسابنا .. ومن ثم ينادي الله في علاه رسوله الكريم وهو يشقى بدعوة أناس يرون يوم الحساب بعيداً كبعد السراب : {**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً(٥)إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا(٦)وَنَرَاهُ قَرِيبًا**}[٢٤٥] ، وهذا يقربنا بعض الشيء من فهم حادثتين زمنيتين عرضهما علينا القرآن الكريم في سيرة نبيين من أنبيائه عليهم السلام تكريماً لهما وتقديراً: حادثة نقل عرش بلقيس في جزء من اللحظة وحادثة الإسراء والمعراج التي نحن بصددها.

ونحن نقرأ عن الحادثة الاولى : {**قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨)قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠)قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنْ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ(٤١)فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**}[٢٤٦].

ألا تلفتنا في هذا العرض عبارات كهذه {**عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ**} {**وَأُوتِيَنا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا**}؟ ثم إلا يثير تساؤلنا تفوق (الانسان) الذي عنده علم من الكتاب على (العفريت) لتمكنه من اختزال عملية النقل من ست ساعات الى سدس اللحظة ، وربط سليمان اتيانه العلم من قبلها بكونه مسلماً ، أي منقاداً لأمر الله وسننه ونواميسه ؟ ثم ألا لا يعني هذا كله ان منح (علم الكتاب) لرجل أو عفريت أو نبي أو ملك هو اطلاعه على الدستور الرياضي والطبيعي لقوانين الكون ومن ثم تسخيرها إلى أقصى مدى ممكن لتحقيق منجزات زمنية ومكانية تبدو بالمقاييس الراهنة خارقة معجزة ؟

إن الناس قبل أن يسخروا قوى البخار والكهرباء والذرة كانوا يقطعون عدة مئات من الأميال في شهرين أو ثلاثة ، ولو قيل لهم أنذاك إن بإمكان الإنسان – لو حظي بمزيد من العلم بنواميس الطبيعة وسننها – أن يختزل هذه المدة الى أيام وإلى ساعات فإنهم لن يصدقوا

---

(٢٤٥) سورة المعارج ، (الآيات ٥–٧).

(٢٤٦) سورة النمل ، (الآية ٣٨–٤٢).

وسيتهمون القائل بشطط الخيال على أقل تقدير .. ومضت القرون وسخر البخار والكهرباء والذرة وصرنا نصل إلى أطراف الارض في ساعات معدودة ، ونجتاز عالمنا الصغير صوب القمر ، ونتطلع للذهاب الى ماهو أبعد في مجموعتنا الشمسية ، ولوقال لنا قائل الان انه سيجيء يوم يكشف فيه العلماء عن مزيد من (السنن والقوانين) الطبيعية والرياضية وانهم سيتمكنون بذلك من صنع أجهزة تنقل الإنسان الى القمر في ساعتين أو ثلاث لأتهمناه هو الآخر بشطط الخيال .. لكن ذلك اليوم سيجيء ، وسيجيء حتماً طالما كان هنالك سعي دائب للكشف عن مزيد من جوانب العلم الذي تسير به السماوات والارض.

وكثيراً ما يتكلم المتكلمون عن محاولات تجري لنقل الأجسام والأشياء من مكان إلى مكان بعيد ، بسرعة كسرعة الضوء ، بعد تفكيكها إلى تكويناتها الذرية الأولى وإعادة تركيبها من جديد في المكان الذي استقرت فيه متحدية حواجز المكان والزمان ، وهذا الأمر كذلك لايستبعد أن يتحقق في يوم قريب أو بعيد ... وهل كان بإمكان أحد قبل قرنين من الزمان أن يصدق أن بإمكان قنبلة لاتتجاوز حجم الكتاب ، عوملت فيها الذرات التافهة الحقيرة معاملة خاصة معقدة ، أن تدمر مدينة كبيرة بأسرها وتمحقها محقاً من الوجود في دقائق ولحظات ؟!

إن القوانين والسنن الطبيعية التي تسير السماوات والأرض إلى غايتها المرسومة في علم الله ، والطاقات التي تحتويها هذه الكتلة الكونية هي هي في كل زمان .. والذي يتاح له الاطلاع على بعض جوانبها وفاعلياتها يستطيع أن يأتي بالعجب العجاب ، وأن يتحدى الوقائع المألوفة ويتجاوز تحديات المكان والزمان ... فكيف وان هذا العلم يمنح مباشرة من الله سبحانه معززاً بإرادته التي لا تغلب لذلك الرجل الذي {**عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ**}[٢٤٧] ، أو إلى نبي كسليمان (عليه السلام) ، هل يعجزهما أن يأتيا بعرش بلقيس عبر الاف الاميال في جزء تافه ضئيل من لحظة زمنية ، أو يتحققا من امكانية حدوث أمر كهذا ؟

أما حادثة الإسراء والمعراج التي نحن بصددها ، فإن ما يلفت نظرنا فيها ما ورد في البخاري عن مالك بن صعصعة من أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حمل على (براق) يضع خطوه عند أقصى طرفه انطلق به بصحبة جبريل إلى السماوات السبع .. إن البراق ، هذا الذي يضع خطوه عند اقصى طرفه والذي يقطع المسافات الشاسعة في لحظات ، يشتق اسمه من عالم الضوء والكهرباء ، وهي تسمية ذات مغزى عميق جاءت في عصر لم يكن أحد فيه

---

(٢٤٧) سورة النمل ، (الآية ٤٠).

يعرف شيئاً عن قوانين الضوء وسرعته وطاقات الكهرباء وإمكاناتها ، وهي كما يبدو رمز مدهش للتعبير عن الانسجام الكامل بين رحلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين سنن العلوم وقوانينها ، تلك الرحلة التي لم يرد لها ان تكون إعجازاً يفحم المشركين بعد إذ لم تقنعهم معجزة القرآن ذاتها ، بقدر ما أريد لها أن تكون رحلة تكريم يطلع فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أطراف الكون الذي أبدع الله صنعه وأتقن حبكته ، وان كان من بديهيات القول أن بإمكان الله (سبحانه وتعالى) ان يتجاوز السنن والقوانين في أية لحظة يشاء ، لأنه جلت قدرته صانع السنن والقوانين. لكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تمنعنا من القول بأن رحلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمكن أن تجد لها تفسيراً وتحليلا على نطاق الطبيعة والرياضيات لا يتجاوز – بطبيعة الحال – الظن والتخمين ... وفي صبيحة اليوم التالي عندما تحدى مشركو مكة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يصف لهم بيت المقدس إن كان رآه حقاً ، طفق الرسول يصفه وكأنه معروض عليه عرضاً ، أزقته وأسواقه وباحاته وكنائسه وطرقاته. عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((لما كذّبتني قريش قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر اليه))!!

وأنا انظر اليه !! لحظة من لحظات تجاوز الأبعاد والحواجز الزمانية والمكانية تعتمد السنن نفسها التي نقل فيها عرش بلقيس وأسري بالرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى القدس ثم عرج به في جزء من ليلة إلى أقصى الكون ... السنن التي جعلت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فيما بعد يصرخ وهو في مسجد المدينة (يا سارية الجبل .. الجبل) سارية الذي كان يقاتل في العراق ويتعرض وجنده لكمين قاتل.

هذا عن سنن الكون في أبعاده المادية ، فماذا عن الروح وطاقاتها وأساليبها في التعامل مع النواميس ؟ إن الله (سبحانه وتعالى) الذي هو صانع السنن والقوانين يهب بعض عباده القدرة الخارقة التي يتمكن بها العبد من طبيعته الخاصة ومما يحيط بها من أشياء وموجودات ، فيصنع المستحيل. وتبدو هذه (المستحيلات) خوارق بالنسبة لأناس ينظرون من الخارج ، لكن القضية بالنسبة للعبد نفسه لا تعدو ان تكون قضية (علمية) تعتمد قوانين الروح وطاقاتها لتسخير الأشياء والموجودات ، ولتحطيم الحواجز الخارجية للزمان والمكان ..

لقد كشف العلم الطبيعي ، نفسه ، وفي العقود الأخيرة ، ومن خلال تحليله لخواص المادة وتوغله في تركيبها الباطني ، عن حقيقة خطيرة ، هي أن الطاقة أو الحركة إنما هي قاعدة

المادة وأساس الأشياء ، وان تركيب الذرات وما تحتويه من تكوينات أدق كالنيوترونات وما تضمه هذه من تركيبات أشد دقة وضآلة يؤول في نهاية المطاف إلى طاقة حركية غير مادية هي التي تتشكل منها الذرات والجزيئيات ، وهي التي تصوغ في (سرعتها) و(إبطائها) وطبيعة حركتها أشكال الأشياء الصلبة والسائلة والغازية !

فإذا كانت الوحدة الأساسية للبناء الطبيعي المادي قد تكشفت عن الحركة اللامادية أفلا يمكن القول إذن بأن الطاقة الروحية التي تتميز بالوعي والانفصال والامتثال والاستشراف والإرادة يمكن ان تتعامل مع هذه الطاقة (اللا مادية) بشكل من الأشكال ، وتطوعها لامرها فتذعن وتلبي؟ إن اشارة ضوئية غير ملموسة توجه مركبة فضائية في غاية التعقيد إلى اهدافها في ظروف تقرب من المستحيل لغير المتوغلين في قوانين االعلوم الرياضية والطبيعية ، أفلا يمكن لإشارات الروح ان تحقق في عالم الطبيعة ما هو أكثر استحالة وإعجازا لمن لم يعرف ، ولن يعرف عن الروح إلا قليلاً ؟.

إن انهيار الاساس المادي للآشياء الذي كشف عنه العلم أخيراً ، يقربنا خطوات من فهم وادراك طبيعة التعامل بين الروح والمادة ، ولكنها خطوات نحسب انها ستطلعنا على وحدة البناء الكوني ، فوحدة خالقه (جل وعلا) ، ولكنها لن تطلعنا بحال على كل ابعاد وخصائص الروح الإنساني ، ولا على كل سننه وقوانينه. هذا الروح الذي هو نفخة الله في الطين ، ومصدر الحياة والفكر والإرادة والتقدم ، سيظل مستغلقا على الادراك والتحليل الكاملين ، لأن خلافتنا على الأرض لا تقتضي هذا التكشف الكامل ، ولأن المقادير الضئيلة التي يمنحنا الله إياها في عالم الروح ، توازي فاعليتها المقادير الضخمة التي مكننا من معرفتها في عالم الطبيعة. وهذا التوازن الحضاري الفذ بين الروح والمادة في ميدان الكشف والمعرفة ، هو مايقودنا اليه في حشد كبير من الآيات التي تدعونا إلى ان نفتح كل منافذنا على الطبيعة لاستكشاف قوانينها وطاقاتها وتسخيرها لتنمية الحياة البشرية وتطويرها .. يقابل هذا الحشد آية كريمة واحدة تقول {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**}(٢٤٨) (٢٤٩).

---

(٢٤٨) سورة الإسراء ، (الآية ٨٥).

(٢٤٩) انظر عن هذا الموضوع بالتفصيل بحث (القرآن والبعد الزماني) للمؤلف : مجلة الوعي الإسلامي عدد ٩١ ، سنة ٨ ، و(معاول في جدار العلمانية) للمؤلف ، نفس المجلة عدد ٥٥ ، ٦٠ ، سنة ٥.

الفصل الرابع

تحليــل للهجرة

[1]

وضع رسولنا[٢٥٠] (صلى الله عليه وسلم) خطواته الاولى في الدرب صوب المدينة وقلبه يخفق بهذا الدعاء : **{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً }** (الإسراء : الآية ٨٠) وكان يعلم جيدا أن حركة الإنسان في التاريخ لاتستقيم وتصل الى هدفها إلا بأن يرفع الإنسان بصره وفؤاده وعقله وسمعه وحسه إلى السماء يتلقى عنا الصدق والنصر .. صدق الحركة وانتصار قيمها .. لكنه لم ينس لحظة أن هذا التوجه الى السماء يجب أن يقترن بثبات الخطى على الأرض ، وبتحّمل مسؤولية البصر والسمع والفؤاد بأمانة كاملة ... وبصياغة الحرية الإنسانية بما ينسجم ، في المدى القريب والبعيد، مع قدرة الله ونواميسه وسننه. وبدون هذا التناغم بين مشيئة الله وحرية الإنسان ... بين نور السماء وشفافيتها وبين كثافة الأرض ووعورة الطريق .. بدون هذا الحوار الدائم الفعال بين الإنسان وخالق الإنسان .. بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هذا التواصل الدائم .. بين الحضور والغياب .. بين عالم المشاهدة المباشرة والغيب البعيد .. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة ، ولا مصير عظيم.

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ظل قلبه يخفق بدعاء الله .. وهو يرسم الخطط ، ويضع الضمانات ، ويهيىء المواد والإمكانات والدفوع الكفيلة بإيصاله الى هدفه .. لم يجىء هذا الدعاء قبل التخطيط فحسب ، ولا جاء بعده فحسب ، فليس في علاقة الإرادة البشرية بالمشيئة الإلهية – خلال الحدث – قبلية ولا بعدية .. وإنما تسير الاثنتان في إنسجام رائع ، لأن هذه من تلك ولأن الإنسان في اصغر جزيئات الحركة واكبرها إنما ينفّذ قدر الله وناموسه في الأرض ، في مدى الحرية التي اتيحت له. أما ان يجىء الدعاء والتوجّه قبل التخطيط فحسب ، أو بعد التنفيذ فحسب ، فهو من قبيل الثنائيات التي ترفضها مبادىء السماء أشد الرفض لأنها تفصل بين الله والإنسان ، وتقسم حظ الاثنين في حركة التاريخ بما لا يتفق اساساً والسنن الكبرى.

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هيأ الاسباب (الإرادية) الكاملة لنجاح الحركة وهو ينظر الى الله ، ووضع خطواته الأولى على الدرب وهو يدعو الله .. وما لبثت الأسباب أن أتت أكلها ، والخطوات أن انتهت إلى هدفها ، وظل الرسول ينظر الى الله ويدعوه.

استغرق (هيكل) الهجرة زمناً طويلاً .. حمل الرسول وأصحابه معاولهم وبدأوا يحفرون الأسس من أجل أن يستقيم البناء. إن الإسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث ، يتداخل بعضها في بعض ، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيداً من المساحات.

---

(٢٥٠) انظر : خطوات في الهجرة والحركة ، للمؤلف ، بيروت ، الدار العلمية–١٩٧١.

دائرة الإنسان ، فالدولة ، فالحضارة. ولقد اجتاز الإسلام في مكة دائرة الإنسان ، ثم مالبثت العوائق السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية أن صدته عن المضي في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة ، لانه بلا دولة ستظل دائرة الإنسان ، التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار ، ستظل مفتوحة على الخارج المضاد بكل اثقاله وضغوطه وامكاناته المادية والروحية ، ولن يستطيع الإنسان (الفرد) أو (الجماعة) التي لا تحميها (دولة) أن يمارسا مهمتهما حتى النهاية ، سيما إذا كانت قيمهما وأخلاقياتهما تمثلان رفضاً حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربة المعاشية ، ولابد إذن من إيجاد الارضية الصالحة التي يتحرك عليها المسلم ، قبل ان تسحقه الظروف الخارجية أو تنحرف به عن الطريق ، وليست هذه الارضية سوى الدائرة الثانية ، وليست هذه الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين أن يقيموها وإلا ضاعوا !!

وهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تبدأ منذ اللحظات التي أدرك فيها أن مكة لا تصلح لقيام الدولة وأن واديها الذي تحاصره الجبال ، وكعبتها التي تعج بالأوثان ، لا يمكن ان تكون الوطن ، ومن ثم راح الرسول يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً ، وتحيط كيانهم الغض بسياج من امكانيات القوة والتنظيم والأرض !!

ولن نستطيع ان نحدد بالضبط تلك البدايات .. لكننا نعلم – كما مرّ بنا – أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدأ نشاطاً واسعاً ومشهودا إثر خروج المسلمين من حصارهم القاسي في (شعب أبي طالب) ، ذلك الحصار الذي استغرق سنين طوالا ، وجاء اشارة حاسمة إلى أن المشركين عامة ، والقيادة الوثنية القرشية على وجه الخصوص ، لا يمكن بحال أن تهادن المبدأ الجديد ، الذي جاء يمثل رفضاً حاسما لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وانهم سيظلون يدفعون حتى النهاية الأخطار التي يمثلها الإسلام بوجه أهدافهم وتقاليدهم ومصالحهم.

والرسول (صلى الله عليه وسلم) – الذي علمتنا سيرته مدى الواقعية الإيجابية التي كان يتمتع بها ، والحرص على الطاقة الإنسانية ألا تتبدد في غير مواضعها – سرعان مانجده يتحرك صوب الخروج الى مكان جديد يصلح لصياغة الطاقات الإسلامية في إطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار في المهمة بخطى أوسع ، وإمكانات اعظم بكثير من إمكانات افراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخل وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج ويستنزف طاقاتهم البناءة اضطهاد قريش ، بدلا من ان تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم.

إن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدأت فعلا يوم خرج إلى الطائف ، فصد صداً قاسياً ، لكنه لم ييأس ، لانه يعلم يقيناً أن الخاتمة ستكون له ، فقط إذا استمر على بذل جهده البشري الكامل في البحث والتخطيط للهجرة التي ستعقب دولة ، وللدولة التي ستعقب انتصاراً ... ووقف عند أسفل جدار لبستان في الطائف ، ريثما يستريح ونادى ربه (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي)!! ثم واصل الطريق وراح يتصل دون كلل بوفود القبائل التي كانت تنهال على مكة في مواسم الحج ، يعرض عليهم الدين الجديد ، ويعرض مع الدين الجديد طلباً بأن يمنحوه ارضهم ويحموه ، لكي يتمكن من (الإسراع) في أداء مهمته الصعبة قبل أن يجيء البين ويضطرب المصير.

إن الهجرة كان يمكن أن تكون الى الطائف ، أو الى ديار أية قبيلة عربية قوية الجانب عزيزة المنال ، سواء كانت بلادها في الشرق أو في الغرب .. لكن أياً من هذه القبائل (بنو كندة، بنو عامر بن صعصعة ، بنو حنيفة .. الخ) لم تمد يدها مبايعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومرحبة بهجرته إلى ارضها وديارها .. فقد أعمت الوثنية الجاهلية قلوبهم وأبصارهم عن الشرف الذي كان يمكن أن يحظوا به لو قالوا للرسول : بايعنا .. ونصرنا !!

ويمضي الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بحثه عن الطريق الذي سيهاجر عليه وأصحابه صوب هدفهم المحتوم. وكان أن بعث الله نفراً من يثرب .. ساقتهم إرادته التي لا تغلب، الى الرسول في السنة العاشرة للبعثة .. فالتقوا به عند العقبة ، المنفذ الذي يجتازه القادمون من يثرب صوب أم القرى ، وعرض عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبادىء الإسلام ، غاية في الوضوح والسماحة والعدل والمساواة والانسجام مع تكوين الإنسان ونشاطه وأهدافه .. فما كان منهم إلا ان لبوا الطلب ، وأعلنوا إسلامهم ، ووعدوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنهم سيرجعون إلى يثرب ويبشرون بدعوته العادلة هناك ، وقالوا ((إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى الله أن يجمعهم بك .. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك)) ، وقفلوا عائدين إلى بلدهم ، وراحوا يدعون قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ((فلم يبق دار من دور الانصار إلا وفيها ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)))[٢٥١].ومما ساعد هؤلاء الرواد ، والذين أعقبوهم ، على التحرك لنشر الدعوة في يثرب ، وساعد بالتالي على نجاح (الهجرة) ، أن الأوس والخزرج كانوا في هذا الوقت أصحاب الكلمة

---

(٢٥١) ابن هشام ، ص ١٠٨ الطبري : تاريخ ٣٥٣/٢-٣٥٥.

العليا في يثرب ، وكانوا قد اصبحوا سادة الموقف فيها ، واصبح اليهود يعتبرون موالي لهم ، فإذا تحالف النبي مع الأوس والخزرج ودخلوا في دينه ، كان له ألا يخشى اليهود ، كما كان في مقدور الأوس والخزرج أن يدخلوا في المدينة من شاؤوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم[٢٥٢].

وما لبثت السنة التالية أن جاءت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، في نفس المكان ، بوفد ثان من أوس يثرب وخزرجها : إثنا عشر رجلاً ، من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل ... جاؤوا لا ليعلنوا إسلامهم هذه المرة بل ليبايعوا الرسول على الإسلام ، تمسكا بأهدافه والتزاما بقيمه وأخلاقياته. ولم يشأ الرسول أن يتسرع الخطوة التالية ويعرض عليهم طلبه القديم : أن يمنحوه أرضهم وبلدهم وأن يحموه .. إنه بذكائه العجيب وبالهدي الإلهي الذي يمده بنوره ، كان ينتظر نتائج مساعي أصحابه الجدد ، ويجس النبض ويختبر الإمكانات. إنه في المرة الأولى اكتفى بأن يعرض الإسلام وأن يودع الستة الذين أسلموا دون أية بيعة ، وفي المرة الثانية بايعوه على الجانب السلمي – إذا صح التعبير – من برنامج الإسلام ((ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه في معروف))[٢٥٣]. وأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير – الذي لم يشأ أن يجازف به في المرة الأولى – أرسله هذه المرة بعد أن استبانت له ملامح المستقبل ، لكي يتولى شؤون الدعوة والتثقيف العقائدي هناك.

ومرت أشهر واشهر ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كللا ولا فتوراً .. يتحرك بالقرآن ، ويحرك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن .. كانت آيات الله تملك في بنيتها المعجزة سحر الإقناع ، وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته إياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع، مبهورة الانفاس من حوالي مصعب ، في أزقة المدينة وطرقاتها ، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم .. وعندما اقترب موسم الحج من السنة الثانية عشر للبعثة ، غادر مصعب يثرب ، يطير به الشوق للقاء رسوله وقائده. وفي مكة اجتمع به وعرض عليه نتائج مساعيه في يثرب ، وانه عما قريب سيلتقي الرسول بوفد كبير منهم تقر به عينه ويطمئن به باله.

---

(٢٥٢) إبراهيم الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٨٢.

(٢٥٣) ابن هشام ، ص ١٠٩ الطبري : تاريخ ٣٥٦/٢.

وعند العقبة أيضاً .. اجتمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأعضاء الوفد الموسع الجديد .. كان يضم هذه المرة ثلاثا وسبعين رجلا وامرأتين .. اتفق معهم سراً على أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل ، حين ينام الناس وتغفل العيون .. يتسللون اليه واحداً واحداً واثنين اثنين .. وتمت البيعة الثانية .. البيعة الكبرى .. هذه المرة صريحة واضحة مكتملة ، على كل جوانب الإسلام ، سلما كان أم قتالا – بعد أن أذن الله لرسوله بالقتال – ومدوا إليه أيديهم مصافحين ، ومقسمين بالله الواحد الذي آمنوا به ، أنهم سيحمون الرسول (صلى الله عليه وسلم) وينصرونه ، وانهم سيرفعون السلاح مدافعين بوجه أية قوة في الأرض ، سوداء كانت أم حمراء ، تسعى الى الفتك به وبدعوته وأصحابه ، وسأله أحدهم : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال – يعني اليهود – حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم[٢٥٤] ، أنا منكم وأنتم مني ، احارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[٢٥٥].

وقبل ان يرجعوا اختار الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بينهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[٢٥٦] ، ليشرفوا بأنفسهم على سير الدعوة في يثرب ، حيث استقام عود الإسلام هناك وكثر مثقفوه ، وحيث أراد الرسول – بفقهه العميق لأساليب الدعوة – أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم احداً من غيرهم ، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره ، ثم قال لهم : ارفضوا الى رحالكم ، فقال له احدهم ، وقد شعروا أن نبأهم بدأ يتسرب إلى قريش : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا!! فأجابه رسول الله : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم[٢٥٧].

خطوات محكمة ، واستخدام حصيف للإمكانات ، وفقه عميق لخطوات الحركة .. يرافق هذا كله هدي السماء الذي لم يفارق خطى الرسول لحظة ، والذي ساق اليه – بما أوجده من ظروف صعبة في يثرب – هذه الوفود التي جاءت تحمل اليه ما كان يرجوه ويعمل على تحقيقه جاهداً.

---

(٢٥٤) أي القبر والمنزل (عن تهذيب سيرة ابن هشام).

(٢٥٥) ابن هشام ، ص ١١٢–١١٣ ، الطبري : تاريخ ٣٦٣/٢.

(٢٥٦) انظر البلاذري : أنساب ٢٥٢/١–٢٥٣ ، وعن لقاءات العقبة انظر بالتفصيل ، ابن هشام ، ص ١٠٧–١٢٩ وبوهل في Ency.Art : Muhammad.

(٢٥٧) ابن هشام ، ص ١١٣–١١٤ : تاريخ ٣٦٤/٢–٣٦٥ ، ابن سعد ١٥٠/١/١.

((رجعنا الى مضاجعنا – يقول أحد المبايعين – فنمنا عليها حتى اصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش فقالوا : يا معشر الخزرج ، انه قد بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم ! فانبعث من هناك ، من مشركي قومنا ، يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ! – وبعضنا ينظر الى بعض – وقد صدقوا ، لم يعلموه !)).

((ونفر الناس من منى .. وتأكدوا صحة الخبر ، فخرجوا في طلب القوم فلم يدركوا ، وكانوا قد رحلوا ، سوى اثنين : سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو – وكلاهما كانا نقيباً – فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه وأوثقوه رباطاً ثم اقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه من شعره الكث)) ... لكنه سرعان ما تذكر اثنين من تجار المشركين ، كان يجيرهما لدى مرورهما بيثرب ويمنعهما ممن كان يريد ظلمهما هناك ، فاستجار بهما فهرعا إليه وخلصاه من أيدي القريشيين ، فأنطلق الى يثرب ليلحق برفاقه الذين سبقوه إليها[٢٥٨] ، وراحت قريش تشدد قبضتها على المسلمين في مكة وتزيد من اضطهادهم ، بعدما رأت من تجاوب أهل يثرب معهم ((فأصاب المسلمين جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة ، وكانت فتنتين ، فتنة أخرجت من خرج منهم إلى ارض الحبشة .. وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة))[٢٥٩].

[2]

أصدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أوامره إلى أصحابه بأن يبدأوا هجرتهم ، مختفين، متفرقين قدر الإمكان .. وبدأت طرقات مكة وبيوتها وأزقتها ونواديها تشهد يوماً بعد يوم غيابا مستمراً لأصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. أما هو (صلى الله عليه وسلم) فكان ينتظر تأمين هجرة أصحابه .. ثم يبدأ هو ومن سيختارهم للبقاء معه ، خطواته صوب المدينة ريثما يتلقى إشارة الوحي الأمين بالتحرك.

وفتح القرشيون يوما اعينهم على مكة وقد أقفرت من المسلمين !! لقد غادروها صوب المهمة التي تنتظرهم مخلفين وراءهم أموالاً وبيوتا ونساء وأطفالاً وشيوخا ومتاعاً كثيرا .. إن

---

(٢٥٨) ابن هشام ، ص ١١٤–١١٥ ، الطبري : تاريخ ٣٦٥/٢–٣٦٨ ، ابن سعد ١٥٠/١/١ ، البلاذري : أنساب ٢٥٤/١.

(٢٥٩) الطبري : تاريخ ٣٦٦/٢ ، البلاذري : أنساب ٢٥٧/١.

الهدف الذي تحركوا من اجله أغلى وأثمن من الأموال والبيوت والمتاع ، وأكثر الحاحا من تلبية مطالب جسدية أو حياتية أو اجتماعية .. إنهم مستعدون لأن يبذلوا أرواحهم ودماءهم في سبيل هذا الهدف الذي ينتظرهم هناك في نهاية الهجرة ، فكيف لايتخلون عن الأموال والنساء والمتاع ؟

وها هي رؤوس قريش تجتمع في (دار الندوة) قبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ولات حين مندم .. وطرحت آراء باعتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتكبيله بالأغلال أو بنفيه بعيدا في منقطع الصحراء ، وفي الحالتين كان صوته سيصل ، مجتازا الحواجز والعوائق ، ومن ثم فإن رأياً بقتله وتفريق دمه بين القبائل هو الذي حاز الموافقة والإعجاب. إنهم إن استطاعوا قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فقد استطاعوا قتل الدعوة التي لم تستكمل أسبابها بعد .. وإن طالبتهم بنو هاشم بدمه فسيشيرون إلى العشائر جميعاً وإلى سيوف أبنائها حيث تقطر دماء الرسول !!

ويجيء أمر الله يحمله الوحي إلى الرسول : تحرك يام حمد. كانت تلك هي الأشارة التي ينتظرها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بفارغ الصبر ، لكن شوقه للهجرة ، وتحرقه لأن يضع خطواته على الأرض الموعودة حيث أصحابه القدامى والجدد ينتظرونه على أحر من الجمر .. ورغم يقينه الكامل بأن الله معه يرعاه ، ويسدد خطاه ، فإنه لم يتعجل الحركة ، ولم يرتجل الخطوات. كان عليه أن يخطط للهجرة ، مستخدماً كل ما وهب من إمكانات الفكر والبصيرة والارادة .. لأنه بهذا وحده يستحق نصر الله ووعده .. وإلا فلأي شيء منحنا الله بصائر وعقولا وحرية وقدرة على التحرك والتخطيط ؟ وما أبرع البرنامج الذي رسمه رسولنا (صلى الله عليه وسلم) من أجل أن يصل إلى الهدف بأكبر قدر ممكن من الضمانات !!

انتقى من أصحابه أول أثنين أسلما في تاريخ الدعوة : أبا بكر وعلياً (رضي الله عنهما)، واستبقاهما لكي يؤديا الأدوار التي رسمت لهما في حركة الهجرة. أما علي فلكي يؤدي مهمة مزدوجة .. الإيهام ورد الأمانات إلى أهلها ، وقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((نم على فراشي ، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم))[٢٦٠]. ورب قائل يقول : إن وراء الهجرة هدفا اكبر بكثير من التمسك بجزئيات أخلاقية قد يسمح الظرف الخطير بتجاوزها. لكن منطق رسول الإسلام شيء آخر .. ما الفرق بين الإسلام وبين المبادىء الأخرى إذا كان هو متأسيا بها في تخليه عن أخلاقياته في ساعات

---

(٢٦٠) ابن هشام ، ص ١٢١ الطبري : تاريخ ٣٧٢/٢.

المحنة والخطر ؟ وماذا سيقول المشركون لو غادر (الأمين) مكة دون أن يردّ إليهم أماناتهم؟ ما أسرع ما يمكن أن يتهموه ، حيث يأكلهم الغيظ : الأمين تحول إلى سارق ، وضاعت الأمانة .. وحاشاه !

أما أبو بكر فقد اختير ليكون رفيق النبي وأخاه في هجرته .. تسلل إليه الرسول في ضحى أحد الأيام ، على غير عادته في التردد على داره صباحاً أو مساء .. خطوة من خطوات الإيهام والتدبير بأولئك الذين يريدون أن يمكروا به .. ودهش أهل الدار لمجيء الرسول في وقت لم يعتادوه ، لكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يلتفت الى دهشتهم ، بل يتجه إلى رفيقه فورا ويطلب منه أن يخرج ابنتيه من المكان ، فيطمئن أبو بكر الرسول بأنه ليس ثمة ما يخشى ، ويتكلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ((إن الله أذن لي في الخروج والهجرة)) فيرد عليه الصديق وهو يهتز فرحا : ((الصحبة يا رسول الله ؟)) فيجيبه الرسول : ((الصحبة)). وتقول عائشة : ((فو الله ما شعرت قط ، قبل ذلك اليوم ، أن أحداً يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ))!!

ومعاً استكملا الخطة ووضعا الأسباب ، وتركا – من ثم – مصيرهما ومصير الدعوة لله، صانع المصائر ومقدر الأقدار ... التسلل من شباك خلفي على غفلة من قريش .. التوجه جنوبا على طريق اليمن واللجوء الى إحدى مغارات جبل ثور هناك .. التوقف عن السير ثلاثة ايام ريثما تخف محاولات القرشيين المستميتة في البحث عن الرسول ، ثم الانطلاق – بعد ذلك – صوب يثرب في طريق وعر غير مطروق ، يعينهما في ذلك دليل ماهر من المشركين أنفسهم ، اختير اعتماداً على كفاءته العالية كدليل ، وعلى أمانته التي لابد وان يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد سبر أغوارها ، اما انباء تحركات القرشيين ومطارداتهم فسيأتيهما بها عبد الله بن أبي بكر ، وأما توفير الطعام فسيقوم به راعي أبو بكر ، عامر بن فهيرة ، الذي كلف بإراحة الأغنام عند الغار مساء كل يوم كي يحتلبها المهاجران ويشربا من لبنها .. كما كلفت أسماء بتوفير الطعام في المرحلة التالية من الهجرة ، وأما آثار الأقدام الذي سيخلفها عبد الله بن أبي بكر لدى ذهابه وإيابه ، والتي تقود الى الغار مباشرة فإن هناك راعي أبي بكر يعود في الأمسيات في أعقاب عبد الله لكي تطمس حوافر الأغنام على خطوات الرجال !!

خطة محكمة ورائعة .. ولا يبقى إلا أن يتنزل نصر الله على قادة استكملوا كل الأسباب التي منحهم الله إياها .. إنه التوافق المنغم الرائع ، الذي تحدثنا عنه ، بين مشيئة الله وإرادة الإنسان ، ويبين هدي الله وخطوات عباده الأبرار ..

وفي تجربة الهجرة يتنزل نصر الله ، فعلا مباشراً مرئياً ، ثلاث مرات .. فيما عدا خط الهجرة والتاريخ كله حيث إرادة الله التي لا راد لها .. لكننا هنا نريد أن نشير إلى أفعال الله المباشرة في هجرة رسوله (صلى الله عليه وسلم). مرة لدى مغادرته داره في أعقاب ليل مريع ، أحاط أبناء القبائل المسلحون طيلة ساعاته بدار الرسول ينتظرون اللحظة التي سيطيحون فيها برأسه ويفرقون دمه بين القبائل .. إلا أن هذه اللحظة السوداء لم تجىء ولن تجيء. لقد فتح الرسول (صلى الله عليه وسلم) الباب على مصراعيه وراح يقرأ آيات من سورة يس : **{يس(١)وَالقرآن الْحَكِيمِ(٢)إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ(٣)عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٤)تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٥)لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ(٦)لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٧)إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ(٨)وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}**[٢٦١]!! .. وعبر هذا السد الذي أغشى به الله أبصار المشركين أنطلق الرسول ورفيقه الى الهدف .. على الصراط المستقيم.

ومرةً أخرى عند الغار .. وما أخطر ساعات الغار بأيامها ولياليها. لقد رأى أبو بكر بأم عينه نعال المشركين المطاردين الحانقين تخفق عند أسفل الغار ، فأرتعد فرقاً .. ليس على نفسه، فما أهون النفس على أصحاب رسول الله ، وعلى رفيقه وصديقه بالذات ! لكن على الرسول نفسه ، وعلى ما يمثله الرسول. فيهمس في أذنه ((لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا !!))، ويجيء رد الرسول منبثقاً عن تلك اللحظات العليا حيث يقف الله مع عباده يدفع عنهم : ((يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟)) .. وتطيش الباب المشركين ، وعبثاً يرهق مقتفو الأثار أنفسهم .. إن الرسول ورفيقه في حماية الله .. وكفى .. ودون الوصول اليه المستحيل .. ولو اجتمعت جنود الأرض كلها عند الغار تطالب برأسه .. وما أروع كلمات الله وهو يعلن هذه الحماية التي لا حماية بعدها : **{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ**

---

(٢٦١) سورة يس ، (الآيات ١-٩).

هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ..[٢٦٢].

ومرة ثالثة في الطريق الى يثرب ، بعد ثلاث ليال من المكوث في الغار .. إن (سراقة بن مالك) الذي خلبت لبه الجائزة التي رصدتها قريش لمن يأتي بالرسول حياً أو ميتاً ، يلهث الآن ركضاً وراءها ، بفرسه المنطلقة ورمحه المصوب إلى هدفه .. إن سراقة كألوف من الأعراب ، بل كألوف من الناس ، نلتقي بهم في كل مكان وزمان .. أولئك الذين ما أن تبرق امام اعينهم قطع النقود ، وتطرق اسماعهم أصوات الذهب والفضة وهي ترن ، حتى يصبحوا على استعداد لأن يبعوا مبادئهم وضمائرهم وشرفهم وعرضهم ، من أجل أن يصلوا إلى قطع النقود ويضعوا ايديهم على أكوام الذهب والفضة .. إنهم موجودون في كل مكان وزمان. ولذا كانت خير وسيلة للأتيان بالزعماء الهاربين من وجه الظلم والطغيان هو أن يعلن عن جائزة قدرها (...) لمن يأتي بالهارب حياً أو ميتاً ... لكن إرادة الله لن تدع الرغائب السافلة تطغى على الأهداف العليا ... إن هذا الطغيان يحدث – يوم يحدث – عندما يتخلى اصحاب الاهداف الكبيرة عن حشد طاقاتهم والتخطيط العاقل لخطواتهم ، والتلقي الكامل عن خالقهم ، حينذاك تغدو كل امالهم وتمنياتهم كالزبد الذي يذهب جفاء ولا ينفع الناس .. أما والرسول قد استكمل الأسباب فإن سراقة تعثر به فرسه وتمرغه بالتراب ، كلما أقترب من هدفه ، مرة ومرتين .. فيطلب الأمان .. إنه الآن لا يطارد رجلين مرهقين ، قد عصرهما الجوع ، وأرهقهما السفر الطويل والتشرد .. لكنه يقف بإزاء جند الله التي لا ترى ، فأنى له ما يريد ؟ إنه بعد دقائق يلوي زمام فرسه ويقفل عائداً .. وكلما رأى احداً من اللآهثين كالكلاب الجائعة رده قائلاً : كفيت هذا الوجه. وذلك ما طلبه منه الرسول !.

ويحدثنا جماعة من الانصار عن ايام الانتظار القلقة التي سبقت وصول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقولون ((لما سمعنا في مخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة وتوقفنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ، ننتظر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوالله لا نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك في ايام حارة حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين دخلنا البيوت ،

---

(٢٦٢) سورة التوبة ، (الآية ٤٠).

فكان أول من راه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وانا ننتظر قدوم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علينا ، فصرخ بأعلى صوت : يا بني قيلة هذا جدكم[٢٦٣] قد جاء !! فخرجنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن راى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل ذلك ، وأزدحم عليه الناس وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقام أبو بكر فأظلّه بردائه فعرفناه عند ذلك))[٢٦٤]. وقال البراء ((جاء النبي (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة في الهجرة ، فما رأيت أشد فرحاً منهم بشيء من النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى سمعت النساء والصبيان والاماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء .. قد جاء)) [٢٦٥].

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (٢٤ أيلول ٦٣٢م) من السنة الثالثة عشرة للبعثة، وصل الرسول وصاحبه يثرب حيث جرى لهما أستقبال حافل من قبل أولئك الذين انتظروا رسولهم طويلاً .. وها هي تكبيراتهم تشق أجواز الفضاء .. إنهم سيبدؤون معه ، وبه ، ومن اجله وأجل دعوته عهداً جديدا كتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء .. الدائرة الثانية من دوائر الدعوة ، دائرة الدولة التي ستحمي المسلمين افرادا وجماعات ، وستمنح الإسلام خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر .. فلا عجب أن يخرج الانصار باسلحتهم يستقبلون الرسول ، فها هم أولاء الجنود الذين سينضمون الى اخوانهم المهاجرين ، وسيبنون معاً ، بقوة العقيدة والسلاح الدولة التي ستصنع حضارة تشرف الإنسان ، في كل مكان ، وتباركه ، وتضعه موضعه الحق الذي اراده له الله عندما استخلفه ومنحه السيادة على العالمين.

إن اليوم الثاني عشر من ربيع الاول هو نهاية حركة حاسمة من اجل اقامة (الدولة) لكنه في الوقت نفسه بدء حركة حاسمة اخرى من اجل تعزيز الدولة واقامة (الحضارة) تماما كما كانت بعثة الرسول – في البدء – حركة صوب تكوين (الانسان) صانع الدول والحضارات!!

---

(٢٦٣) الجد : الحظ.

(٢٦٤) ابن هشام ، ص ١٢٨-١٢٩ ، الطبري : تاريخ ٣٨١/٢-٣٨٢ ، ابن سعد ١٥٧/١/١-١٥٨ ، البخاري: تجريد ٧٤/٢ ، البلاذري : أنساب ٢٦٣/١ ، خليفة بن خياط : تاريخ ١١/١-١٢.

(٢٦٥) ابن سعد ١٥٨/١/١.

[4]

ولن نغادر حركة الهجرة قبل ان نستمد منها تعاليم أخرى قد تعيننا على فهم وتفسير تاريخ البشرية عامة وتاريخنا الأسلامي على وجه الخصوص .. إن أي حدث تاريخي – كما يتضح من خطوة الهجرة – إنما يجيء تعبيرا عن أرادة الله التي تصوغه من خلال أرادة الأنسان، أو مباشرة ، عن طريق إتصالها بالزمن والتراب ، ولا يمكن دراسة تاريخ الكون والطبيعة ، وتاريخ البشرية والاحياء الا من هذا المنطلق.

إن الفعل الالهي يتخذ اشكالاً ثلاثة لخلق الحدث وصياغته ، أولها مباشرة الفعل التاريخي (كما حدث في تجربة الهجرة ، في تلك اللحظات التي كان الرسول يجابه فيها موقفا يتعدى حدود قدراته وارادته وتخطيطه) ، والشكل الثاني يتم عن طريق مايمكن تسميته بالسببية التاريخية ، أي تهيئة الاسباب لتوجيه الأحداث هذه الوجهة أو تلك .. وقد تكون هذه الأسباب مادية طبيعية أو حيوية إنسانية ، وقد تجيء على شكل مجموعة من السنن التي تنظم حركة الكون والحياة والإنسان ، والتي تفرض حتمية قانونية على بعض احداث التاريخ (وقد رأينا في تجربة الهجرة كيف هيأ الله (سبحانه وتعالى) الأسباب لأن تكون يثرب الأرضية التي تقوم عليها دولة الإسلام ، ولأن يكون ابناؤها الطاقات البشرية التي تنصر هذه الدولة وتحميها ريثما (يتم البناء). أما الشكل الثالث للفعل الإلهي فيجيء عن طريق الحرية الإنسانية ذاتها ، والتي هي في مداها البعيد جزء من ارادة الله في خلق الافعال والاحداث. لقد منح الله الحرية للانسان ، ابتداء ، لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي ، ولكي يشكل مصيره فردا وجماعة ، اعتمادا على ما ركب في وجوده من قوى العقل والارادة والانفعال والحس والحركة (وهذا يبدو في تجربة الهجرة من خلال تلك الخطط الاجتهادية التي وضعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتي قدمت لحركته صوب اقامة الدولة ، ضمانات حاسمة في طريق النصر). والانسان بدوره ، عندما يستخدم حرية لصناعة الحدث وتوجيه المصير انما يعتمد على مقدمات لايمكنه بحال الاستغناء عنها ؛ الزمن ، التراب ، ثم التعاليم والقيم والاعراف والتقاليد ، وضعية كانت أو دينية .. وهاهو الرسول في هجرته ينسّق خطواته صوب هدفه ، مستخدما هذه العناصر الثلاث ، متخذا منها عجينته في صياغة الحركة وضمان الاهداف.

ان معظم مذاهب التفسير التاريخي ، وضعية كانت ام دينية ، قدمت معطياتها متخطية الاجابة على هذا السؤال المهم : ما هي العلاقة بين الله (سبحانه وتعالى) وبين الطبيعة ، بما

فيها القوى المادية ، والإنسان بما انه روح ومادة ، في صنع التاريخ واقامة الحضارات ؟ وهل من المحتم ان تتكىء احداث التاريخ على عامل واحد من هذه العوامل الثلاثة ويلغى العاملان الآخران ، أو على الاقل يغدوان ظلالا باهتا لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هذه الجدران التي اقيمت بين الله والطبيعة والانسان ؟!

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الاجابة عن هذا السؤال تاركة في طريقها ثغرة عميقة ، ومنغلقة ، في بحثها عن الفرضية الخاطئة التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد وتلغي العوامل الأخرى إلغاء .. ومن ثم برز التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ وتطور ليعبر عن نفسه بالتفسير اللاهوتي الذي ساد تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوربية ، كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ ، والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدتها بالمادية التاريخية التي يصفونها (بالعلمية) !!

ولقد أدرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين ، وعلى رأسهم أشبنغلر وتوينبي وكيسرلنج والناقد كولن ولسون ، أبعاد هذا الخطأ ، فعادوا خطوة متمعنة إلى الوراء لكي يجيبوا على السؤال الأول ، ويجتازوا – من ثم – طريقاً مرصوفاً لا ثغرات فيه. والحق ان التفسير الحضاري ، تقدم خطوات في هذا المجال ، خطوات تتسم – الى حد ما – بالاتزان والتعقل والموضوعية والشمول الذي يستند إلى نظرة كلية وإدراك عميق لمقومات الحدث التاريخي ، ولكن الموقع الذي رصد منه هؤلاء التاريخ وفلسفوا حركته ، تقف أمامه كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة والحكم الشامل الصحيح ، كما أن التجربة النفسية التي لامسوا بها أحداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر الذاتية المزدوجة والتأثيرات العلمانية ، لذا فإنهم لم يقدروا على اعادة الالتئام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاثة ، وأبقوا بعض الجدران المزيفة ، مرئية وغير مرئية ، بين الحضور والغياب ، والله والإنسان ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة.

صحيح انهم اعلنوا أن الحدث التاريخي لايمكن ان تصنعه قوة واحدة ، لأن أية (حركة) تاريخية إنما هي نتاج لقاء خلاق بين الله والإنسان والطبيعة – بما فيها الزمن – وأن اغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية لحركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر المذهبية المحدودة ، والنظرة الذاتية ، واضطراب التجربة النفسية في عملية الاستشراف والاستقراء التاريخي ، الأمر الذي ادى إلى تأرجح مواقع رؤياهم ، والوقوع بالتالي في كثير من الأخطاء ، ليس هذا بطبيعة الحال مجال سردها وتحليلها.

إن هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعلمنا كيف يرتبط تاريخ الدعوات بالحركة .. حركة الإنسان الفرد وحركة الجماعة ، كما تعلمنا أنه ليس من المحتم أبداً أن تكون (الحركة) صدورا عن صراع النقيضين كما أكد هيغل وماركس وغيرهما ، بل إنها في كثير من الاحيان تجيء بمثابة استجابة داخلية ، مقرونة بعمل خارجي ، لنداء من فوق .. إن هذا الحوار بين القيم العليا والوجود السفلي هو الذي يحرك – في أحيان كثيرة – أحداث التاريخ على خط صاعد.

إن المثل الأعلى كان دائما بمثابة هدف يتحرك إليه الذين يتخبطون من تحت أو الذين يتقلبون في الظلمات ، أو الذين يتعذبون بشتى صنوف العذاب وتمنعهم القوى المضادة من تحقيق أهدافهم (والهجرة تمثل حركة هذه الجماعة الأخيرة) .. إن بحث الضائعين والحائرين والمعذبين والمأسورين ، عن النجاة ، عن مثل أعلى ، عن هدف يطمحون للوصول اليه .. هذا البحث الجاد كان في معظم الأحيان المحرك الذي يسوق الأفراد والجماعات إلى مصائرهم ، ويصنع تاريخهم .. وإذن فإن من الخطأ والتزييف أن نصدر حكماً على كل حركات التاريخ بانها جاءت نتيجة لصراع النقيضين ..

إن (الصراع) نفسه يتخذ أشكالاً عديدة لا تقتصر على تقابل الضدين وتغلب أحدهما على الآخر .. إنه ليبدو – أحياناً – إرادة ذاتية تسعى إلى التوحّد والإئتمان الذاتي في وجدان الإنسان قمع المحيط الخارجي ، ويبدو احياناً أخرى رغبة فعالة في تحقيق تفاهم متبادل وسلم عام بين الإنسان والوجود .. وهو يبدو احيانا ثالثة عملية استقطاب للقوى والطاقات ، وتنظيم لها، وحماية لمقدراتها من اجل ان تصب جميعا في مجرى المبادىء الجديدة والدعوات الكبرى (كما حدث في تجربة الهجرة) ، وكل هذه الاشكال من الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد محاولة للالتئام والتوحّد والاستقطاب والتجمع .. وبعد هذا – وخلاله ايضاً – لابد للحركات أن تجتاز صراعا بين النقائض ، لكنها نقائض من مستويات شتى : نفسية وفكرية وعقيدية ووجدانية وعرفية واجتماعية وسياسية واقتصادية .. إلى آخره .. بمعنى آخر إنها نقائض بشرية ، فيها كل ما في الإنسان من مكونات روحية ونفسية ومادية .. ومن التزييف لتاريخ الحركات أن نقصر النقائض على جانب فحسب هو الجانب العقلي (كما عند هيغل) أو المادي الاقتصادي (كما عند أنغلز وماركس) ، لأن هذين الجانبين لا يغطيان كل مساحة الفاعلية

الإنسانية التي تنبثق عن رغبة إرادية شاملة في مصارعة كل ما يتعارض مع إرادتها ووجودها وأهدافها ، مادية كانت أو روحية[٢٦٦].

(٢٦٦) للتوسع في هذه المسألة انظر بالتفصيل كتاب المؤلف : (التفسير الإسلامي للتاريخ) المقدمة والفصل الثالث. (دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٧٥).

الفصل الخامس

دولة الإسلام في المدينـــة

بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ دخوله المدينة يسعى الى إنجاز المهام الملقاة على عاتقه في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة والتي تستهدف إنشاء (الدولة الإسلامية) على أسس راسخة وتهيئة كافة الشروط والمتطلبات لتحقيق هذا الهدف. ولقد كان بناء المسجد الخطوة الأولى على هذا الطريق ثم أعقبه إصدار (الوثيقة) والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار وتشكيل جيش إسلامي مقاتل يمتلك القدرة على حماية الدولة الناشئة والمساعدة على تحقيق أهدافها في الوقت نفسه.

أولاً : المسجد : دخل الرسول (صلى الله عليه وسلم) المدينة في ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من مبعثه وكان راكباً ناقته (القصواء) وكلما مر بعشيرة من أنصاره رجوه أن ينزل فيهم وقالوا : يارسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فيجيبهم : خلوا سبيلها – أي الناقة – فإنها مأمورة ، فجاوزت به بني سالم بن عوف وبني بياضة وبني ساعدة وبني الحارث بن خزرج وبني عدي بن النجار ، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في المكان الذي بنى فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسجده ، وكان يومئذ مربداً[٢٦٧] لغلامين يتيمين من بني النجار يربيهما معاذ بن عفراء ، فنزل عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحمل أبو ايوب خالد بن زيد رحله ووضعه في بيته حيث نزل عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضيفاً لحين إتمام بناء المسجد والحجرات التي أقام فيها الرسول وأهله بعد قليل. وعندما سأل عن المربد لمن هو ؟ أجابه معاذ بن عفراء: هو يارسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان وسأرضيهما عنه فاتخذه مسجداً[٢٦٨].

أصدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمره في البدء ببناء المسجد وأسهم بنفسه في العمل جنباً إلى جنب مع المهاجرين والأنصار ، وعندما رأى هؤلاء رسولهم الكريم يجهد كما يجهدون نشطوا في أداء المهمة وراحوا ينشدون :

لئن قعدنا والرسول يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

---

(٢٦٧) المربد : موضع يجفف فيه التمر.

(٢٦٨) ابن هشام : تهذيب ، ص ١٣٠-١٣١ الطبري : تاريخ ٣٩٦/٢ ابن سعد : طبقات ١٦٠/١/١ المسعودي : مروج الذهب ٢٧٩/٢-٢٨٠ البلاذري : فتوح البلدان ٤/١٠-٥ أنساب الأشراف ٢٦٦/١ البخاري : تجريد ٢٧٢/٢ ابن الأثير : الكامل ١٠٩/٢-١١٠ ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٤/٣-٢٢١ وانظر بالتفصيل السمهودي : وفاء الوفا ٢٢٩/١-٢٥٦.

فيجيبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

لا عـــــيش إلا عـــــيش الآخـــــرة اللهـم ارحـم الأنصـار والمهـاجرة[٢٦٩]

كان أسعد بن زرارة الأنصاري قد بنى – قبيل هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) – جداراً حول المربد دونما سقف وجعل قبلته إلى بيت المقدس وراح يصلي فيه بأصحابه حتى مقدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي بدأ بأن أمر أصحابه باقتلاع ما في الباحة من نخيل واشجار وتصريف ما فيها من ماء آسن وبدأ بناء المسجد باللبن فجعله مربع الشكل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وعرضه كذلك وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع أقيم اللبن فوقها، وجعل قبلته صوب بين المقدس وجعل له ثلاثة أبواب ، وجيء بجذوع الاشجار ليقام عليها سقف متواضع من جريد رغبة من الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إنجاز العمل بأسرع وقت ، وإلى جانب المسجد أقيم عدد من الحجرات سقفت هي الأخرى بجذوع النخل لسكنى الرسول وأهله[٢٧٠].

وسرعان ما غدا (المسجد) رمزاً لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل ، فقد أصبح مركزاً روحيا لممارسة الشعائر واداء العبادات ، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج ، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتدار في باحاتها الندوات وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات ، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والأخاء والانضباط. ومما لا ريب فيه أن (نقص) أموال الدولة الإسلامية في سنيّها الأولى وانشغالها الدائم في الداخل والخارج لم يمكنها من بناء وانشاء مزيد من المؤسسات المتخصصة لكي تمارس كل منها المهمة التي عهدت إليها ، الأمر الذي جعل المسجد يزدحم بالوظائف والمهام ويغدو – على بساطته – (مجمعاً) تلتقي فيه وتصدر منه كافة عمليات الحكومة وجزءاً مهما من نشاطات الجماعة الإسلامية في علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء.

لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة وبوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع

---

(٢٦٩) ابن هشام ، ص ١٣١ ، الطبري ٣٩٦/٢–٣٩٧ ، ابن سعد ٢/٢/١–٣ ، البخاري ٧٣/٢ ، وانظر بالتفصيل السمهودي ٢٢٩/١–٢٥٦.

(٢٧٠) ابن سعد ٢/٢/١–٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤/١–٥ ، وانظر بالتفصيل المسهودي ٢٢٩–٢٥٦.

والشراء وإقامة المناسبات المختلفة .. فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع[٢٧١].

ثانيا : الصحيفة : كانت خطوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الثانية في المدينة إصدار وثيقة نظم بموجبها العلاقات بين المجتمع المسلم الجديد نفسه وبينه وبين الكتل البشرية التي تعايشت في المدينة وبخاصة اليهود ، لقد جاء فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم امة واحدة من دون الناس ... وان المؤمنين لا يتركون مغرما[٢٧٢] بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، والا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٢٧٣] ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وان ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس ، وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... وانه لا يجير مشرك مالا لقرشي ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن . وانه لا يحل لمؤمن اقر ما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الاخر ، ان ينصر محدثا[٢٧٤] ولا يؤويه .. وانكم مهما اختلفتم فيه من شئ فان مرده الى الله (عز وجل) وإلى محمد ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم – مواليهم وانفسهم – الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ[٢٧٥] الا نفسه واهل بيته .. وانه لا يخرج منهم احد الا باذن محمد ، وانه لا ينحجز على ثأر جرح .. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وانه لم ياثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم .. وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .. وانه ما كان من اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله (عز وجل) والى محمد رسول الله ... وانه لا تجار قريش ومن نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم

---

(٢٧١) انور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ، ص ٣٢.

(٢٧٢) المغرم : المثقل بالدين الكثير العيال.

(٢٧٣) الدسيعة : الكبيرة.

(٢٧٤) المحدث : المجرم.

(٢٧٥) يوتغ : يهلك.

يصالحونه ويلبسونه ، الا من حارب في الدين .. وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وانه من خرج امن ومن قعد امن بالمدينة الا من ظلم وإثم[٢٧٦].

ان نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم في المبادئ العامة من حيث اعتبار المسلمين امة واحدة من دون الناس ، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ، ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار ، كذلك تحديد المسؤولية الشخصية والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها وفي وجوب الخضوع للقانون ورد الامر الى الدولة باجهزتها للتصرف بالامور وفي شؤون الحرب والسلم ، وان حرب الافراد وسلمهم انما تدخل في الاختصاص العام فلا تحدث فرديا كذلك معاونة الدولة في اقرار النظام والاخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو ايوائه[٢٧٧].

إن الصحيفة أعطت صفة للجماعة الإسلامية فقررت أنهم أمة واحدة من دون الناس .. وبهذا التقرير الغى النبي الحدود القبلية أو على الأقل لم يجعل لها وجوداً رسمياً بالنسبة للدولة ، أو بلفظ آخر ارتفع هو عن المستوى القبلي المحدد وبهذا اصبح الإسلام ملكا لمن دخل فيه ، فدخل بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الاسلام دون أن يضع الرسول أمامها عقبات تحول بينها وبين الاشتراك في حياة العالم الإسلامي[٢٧٨].

لقد أقرت الصحيفة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيه وضربت عرض الحائط مبدأ التعصب ومصادرة الاراء والمعتقدات ، ولم تكن المسألة مسألة تكتيك مرحلي ريثما يتسنى للرسول (صلى الله عليه وسلم) تصفية أعدائه في الخارج لكي يبدأ تصفية أخرى ازاء أولئك الذين عاهدهم .. وحاشاه .. إنما صدر هذا الموقف السمح المنفتح عن اعتقاد كامل بأن اليهود باعتبارهم أهل كتاب سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة وينهدون لإسنادها في لحظات الخطر والصراع ضد العدو الوثني المشترك – كما أكدت بنود الصحيفة نفسها – أو أنهم – على أسوأ الاحتمالات – سيكفون أيديهم عن إثارة المشاكل والعقبات ووضع العراقيل في طريق الدعوة وهي

---

(٢٧٦) ابن هشام ، ص ١٣٤–١٣٨ ، ابن كثير ٣/٢٢٤–٢٢٦ المقدسي : البدء والتاريخ ٤/١٥٣–١٥٤ ، محمد حميدالله : مجموعة الوثائق ص ٥٩–٦٢.

(٢٧٧) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام ، ص ٢٩٣–٣٩٤.

(٢٧٨) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام ، ص ٣٩٥ وانظر شرح الصحيفة وتحليلها: المصدر نفسه ، ص ٣٩٤–٣٩٩ وفلهوزن : الدولة العربية ، ص١١–١٥ وفتحي عثمان : دولة الفكرة، ص٥٩–٦٣.

تبني دولتها الجديدة وتصارع قوى الوثنية التي تتربص على الحدود. لكن الذي حدث بعد قليل من إصدار الوثيقة ، وطيلة سني العصر المدني ، غير مجرى العلاقات بين المسلمين واليهود وجمد البنود المتعلقة بهم ، لا لشيء إلا لأنهم اختاروا (النقض) على الوفاء ، والخيانة على الالتزام ، والانغلاق على مصالحهم القومية على الانفتاح على الأهداف العامة الكبيرة للأديان السماوية جمعاء.

إن اصدار الوثيقة يمثل تطوراً كبيرا في مفاهيم الاجتماع السياسية ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة في المدينة إلى أمد ولأول مرة بحكم القانون حيث ترد الأمور إلى الدولة ، ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع طوى الدستور صفحة اجتماعية طابعها القبلية ، وفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية وأقرب الى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية[٢٧٩].

ثالثاً : المؤاخاة : وخطا الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطوته الأخرى التي أراد أن يحل بها الأزمة المعاشية التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة ، وينظم علاقاتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار ، ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية ويتمكنوا من بلوغ مستوى الكفاية الاجتماعية ، فاعتمد أسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطرفين وقال (تآخوا في الله أخوين أخوين) فكان ممن تآخوا – على سبيل المثال – وثبتت لنا المصادر أسماءهم : أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير ، عمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك ، أبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ ، عبد الرحمن ابن عوف مع سعد بن الربيع ، الزبير بن العوام مع مسلمة بن سلامة ، عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت ، طلحة بن عبد الله مع كعب بن مالك ، سعيد بن زيد مع أبي بن كعب ، مصعب بن عمير مع أبي أيوب خالد بن زيد ، أبو حذيفة بن عتبة مع عباد بن بشر ، عمار بن ياسر مع حذيفة بن اليمان ، أبو ذر الغفاري مع المنذر ابن عمرو ،

---

(٢٧٩) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ ، ص ٣٣-٣٤.

حاطب بن أبي بلتعة مع عويم بن ساعدة ، سلمان الفارسي مع أبي الدرداء ، بلال مع أبي رويحة[٢٨٠].

بلغ من تأكيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على المؤاخاة أن ميراث الأنصاري كان يؤول بعد وفاته إلى اخيه المهاجر بدلا من ذوي رحمه من الأخوة أو الأبناء أو النساء .. واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المسلمون بمقادير لاباس بها من الغنائم والأموال فأنزل الله تعالى : {**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**} ، فعاد التوارث سيرته الأولى[٢٨١].

وقد تلقى الأنصار أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بفرح عميق وفتحوا قلوبهم ودورهم لرفاقهم في العقيدة حتى أن الواقدي يذكر بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما تحول من بني عمرو بن عوف في قباء إلى المدينة تحول اصحابه من المهاجرين فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان فما نزل أحد منهم على أحد إلا بقرعة سهم[٢٨٢] كما أعلن الأنصار أنهم يهبون الرسول (صلى الله عليه وسلم) كل فضل في خطط بلدهم وقالوا له : إن شئت فخذ منا منازلنا فقال لهم خيراً وخط لأصحابه في كل أرض ليست لأحد أو موهوبة من الأنصار[٢٨٣].

ولما غنم المسلمون أموال بني النضير دعا الرسول الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وإثرتهم على أنفسهم ثم قال : (إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم واموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم) فأجابه زعماء الأوس والخزرج : يا رسول الله بل نقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله[٢٨٤].

وقابل المهاجرون إيثار اخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة رافضين منذ البدء أن يكونوا إتكاليين على اخوانهم وعالة على أولئك الذين آؤوهم وقاسموهم .. وليست قصة

---

(٢٨٠) ابن هشام ، ص ١٣٨-١٣٩ ، البلاذري : أنساب ١/٢٧٠-٢٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢٢٦-٢٢٩ ، وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١/١٩٠-١٩١.

(٢٨١) سورة الأنفال : (الآية ٧٥) ، ابن سعد ١/٢/١ ، البلاذري : أنساب ١/٢٧٠.

(٢٨٢) الواقدي : مغازي رسول الله ١/٣٧٨.

(٢٨٣) البلاذري : أنساب ١/٢٧٠.

(٢٨٤) الواقدي : ١/٣٧٩.

عبد الرحمن بن عوف مع أخيه الانصاري سعد بن الربيع سوى مثل واحد من عديد من الأمثلة على هذا التقابل الأخوي العادل في الأخذ والعطاء. روى البخاري ان المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : أنا اكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين ولي إمرأتان فانظر أعجبهما اليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها. فقال عبدالرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تبع الغدو .. وما لبث أن جاء يوماً وعليه آثار زينة فقال النبي : مهيم ؟ أجاب : تزوجت. فقال : كم سقت إليها ؟ قال عبد الرحمن : نواة من ذهب.

لقد كان (الإخاء) تجربة رائدة في تاريخ العدل الإجتماعي ، ضرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه مثلا على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظرف المناسب على أشد (أشكال) العلاقات الإجتماعية مساواة وعدلاً ، ورد فيه ، وفق المنطق الإلهي الذي لايحابي ولا يداجي ، على كل القائلين بأن الإسلام جاء لكي يمثل (إصلاحا) جزئياً للمسألة الإجتماعية لأن (العصر) الذي تصوغه (وسائل الإنتاج) لم يتح له أن يتحرك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الإنتاجية بعد بصياغته ولم تأمر بها. وسنرى فيما بعد ، عبر سني الدعوة الحافلة المزيد من التجارب الإجتماعية التي تصفع هذا التحليل الخارجي الصارم ، تلك التجارب التي لا تقل في خطورتها ودلالتها عن تجربة الإخاء.

روى ابن سعد ان عدداً من أبناء القبائل قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في اعقاب فتح خيبر فكلم الرسول أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا[٢٨٥]. وروى الواقدي إن المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هنالك متاعا وسلاحا وأثاثاً كثيراً ((فأما الطعام والادم والعلف فلم يخمس يأخذ منه الناس حاجاتهم)) [٢٨٦]. كما يروى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نادى ، خلال حصار الطائف ، إن أي عبد نزل من الحصن وخرج الينا فهو حر. فخرج إليه بضة عشر رجلاً فأعتقهم وسلم كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله[٢٨٧]. ويروى ايضاً أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أستقرض في اعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين الف درهم

---

(٢٨٥) طبقات ٧٨/١/٢.

(٢٨٦) مغازي ٦٨٠/٢.

(٢٨٧) المصدر السابق ٩٣٢/٣.

من عدد من أغنياء قريش وقسمها بين أصحابه من أهل الضعف ، فيصيب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو اكثر[٢٨٨]. ويروى البلاذري أن يهود فدك صالحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على نصف الأرض فكان يصرف مايأتيه منها إلى ابناء السبيل[٢٨٩]. وفي رواية اخرى له عن ابيض بن جمال إنه استقطع رسول الله الملح الذي بمأرب فقال رجل : إنه كالماء العد فأبى أن يقطعه إياه[٢٩٠]. وفي أنساب الأشراف أن رجلاً من بلقين قال : ((أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بوادي القرى فقلت: يارسول الله لمن المغنم ؟ قال : لله سهم ولهؤلاء أربعة اسهم. قلت : فهل أحد احق بالمغنم من أحد ؟ قال : لا ، حتى السهم يأخذه احدكم من جنبه فليس بأحق به من أحد))[٢٩١]. وعن أبي بكر قال : ((سمعت رسول الله يقول : إنما هي – أي فدك – طعمة أطعمنيها الله حياتي فإذا مت فهي بين المسلمين))[٢٩٢]. وكان عمر بن الخطاب يقول : كان للرسول (صلى الله عليه وسلم) ثلاث صفايا فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه وكانت فدك لإبن السبيل وكانت خيبر قد جزّأها ثلاثة اجزاء ، فجزءان للمهاجرين وجزء كان ينفق منه على أهله فإن فضل رد على فقراء المهاجرين[٢٩٣] ، وليست مسألة توزيع أموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين وحجبها عن الانصار ، كي لا تكون الأموال دولة بين الأغنياء فحسب ، عنا ببعيدة.

لقد نجحت التجربة لأن الأرضية التي أقيمت عليها والقيادة التي خططتها ونفّذتها استكملتا كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ ، وتشده أواصر العقيدة وحدها ويوجهه الإيمان العميق في كل حركاته وأعماله وفعالياته ، ويقوده الرسول (الأسوة) الذي ضرب بتجرده وإيثاره وانسلاخه عن الأخذ وعطائه الدائم مثلاً عالياً مؤثراً يحرك حتى الحجارة الصم لكي تنبجس فيتدفق منها الماء. وأنى لتجربة كهذه أن تفشل وتتعثر والرسول (صلى الله عليه وسلم) يخوض مع أصحابه محنة الفقر والجوع في سني الهجرة الأولى ويعاني كما يعانون بل أكثر مما يعانون ، دون ان يفكر يوماً بأن يمتطي (منصبه الأعلى) ليسلك طريقا

---

(٢٨٨) المصدر السابق ٣/٨٦٣-٨٦٤.

(٢٨٩) فتوح البلدان ١/٣٣.

(٢٩٠) المصدر السابق ١/٨٨.

(٢٩١) البلاذري : أنساب ١/٣٥٢-٣٥٣.

(٢٩٢) المصدر السابق ١/٥١٩.

(٢٩٣) المصدر السابق ١/ ٥١٩ ، الواقدي ١/٣٧٧-٣٧٨.

آخر غير الذي يسلكه أصحابه ، فيثرى ويفقرون ، ويشبع ويجوعون ، ويأخذ ويعطون. أو لم يشك له أصحابه يوماً الجوع ويكشفوا عن بطونهم التي شد كل منهم عليها حجراً لكي يؤكدوا له ما يعانونه ، فإذا به يبتسم وقبل ان يتكلم يكشف عن بطنه فإذا بقطعتين من الحجارة قد شدتا عليها ؟

روى البخاري أن أنس بن مالك قال : ما أعلم النبي رأى رغيفا مرققاً حتى ألحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط. وعن عائشة قالت : إنا كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في بيوت رسول الله نار ، وقالت لقد توفي رسول الله وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رق لي. وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر قلت : لبيك يا رسول الله فقال ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً أموت وعندي منه دينار إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ، ثم مشى فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وقليل ما هم !!

وكانت عائشة (رضي الله عنها) تقول : ((كان لنا جيران من الأنصار نعم الجيران .. كانوا يهدوننا بعض الطعام)) ، (وصلى عليه السلام) مرة جالساً من شدة الجوع. قدموا له عصير اللوز فقال : أخروه عني هذا شراب المترفين. وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي اشترى منه ثلاثين قدحاً من الشعير أخذها لطعام أهله. ولم يكن لديه قط قميصان معاً ، ولا رداءان ، ولا إزاران ، ولا نعلان. وأهدي إليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا .. وحج في قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. كان يلبس الصوف – أرخص شيء وأكثره إيلاماً للجسد – ويخصف النعل ويرقع القميص ويركب الحمار. وكانت له حصيرة ينام عليها ، ويبسطها في النهار فيجلس عليها، ولقد نام عليها حتى أثرت في جنبه. وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف. وأحياناً ينام على عباءة تثنى مرتين فطوتها زوجته حفصة أربع مرات ، فلما نام عليها كان من لينها أن استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل فنهى حفصة عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة الى وضعها الأول. رأت أمراة من الأنصار ما ينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف فأمر عائشة بأن تردها ، أمرها ثلاث مرات وعائشة أم المؤمنين وزوجة رسول الله تقول : فلم أردها حتى أمرني ثلاث مرات لأنني كنت أحب ان يكون في بيتي مثل هذا. ولم يكن يحب الفقر ولا يرضى به وكان في دعائه يستعيذ منه. وكان يستطيع ان يملك ثروة جزيرة العرب كلها. وكان

يعطي كما وصفه أعرابي (عطاء من لا يخشى الفقر). ولو احتفظ بنصيبه من الغنائم كأي فرد من جيشه لكان من أغنياء العرب .. ولكن مادامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة وفيها الفقر والغنى فخير نظام تصل اليه هو ذلك الذي يجعل حكامها في جانب الفقراء ، فما أبشع أن تجتمع السلطة والغنى في جانب واحد .. وعشرات غير هذه الوقائع والأمثلة .. عشرات[٢٩٤].

إن تجربة المؤآخاة نجحت وكان لابد لها أن تنجح مادامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها الأسباب في القيادة والقاعدة على السواء ، وبغض النظر عن عدد الذين تآخوا عشرات كانوا أم مئات أم الوفاً.

وخلال ذلك اخذت الصلاة شكلها النهائي ، وفرضت زكاة الفطر ، وكتب الصيام ، ورسمت الحدود ، وفرض الحلال والحرام وحدد الأذان كنداء يدعى به المسلمون الى الصلوات الخمس وكانوا يجتمعون لمواقيتها دونما دعوة ، اما القبلة فقد كانت لأول أمرها متجهة صوب بيت المقدس ثم تحولت إلى الكعبة بعد سنة ونصف من الهجرة[٢٩٥].

رابعا : الجيش : هنالك أسباب عديدة ومتشعبة تفسر عدم السماح للرسول (صلى الله عليه وسلم) بإعلان الجهاد المسلح ضد الوثنية حتى أواخر العصر المكي ، وعلى وجه التحديد الأيام التي سبقت بيعة العقبة الثانية ، وهذه الأسباب ترتبط ولا ريب بالإسلام كحركة ، وبالأرضية أو البيئة التي يتحرك عليها. إذ لم يكن بمقدور الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يسمح لأصحابه بالقتال قبل ان يكتمل نموهم العقيدي ويصل مرحلة النضج ، وقبل أن يزداد (عددهم) بما يمكنهم من توجيه ضرباتهم وتحمل الضربات المضادة من جهة أخرى دون أن يتعرضوا للتشتت أو الفناء ، وقبل أن يضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطواته الأولى صوب بناء (الدولة) التي ستحمل العقيدة الجديدة وتحميها ، منتقلا بذلك من مرحلة بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة والتي استغرقت العصر المكي كله إلى هذا الطور الجديد.

---

(٢٩٤) انظر بالتفصيل محمد جلال كشك (الحق المر) ، ص ٤٤-٤٨ ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٨٢/٥-٢٨٤.

(٢٩٥) انظر : الطبري : تاريخ ٤٠٠/٢ : ٤١٥-٤١٨ ، وابن سعد ٣/٢/١-٥ ، والبلاذري : أنساب ٢٧١/١-٢٧٣، وابن الأثير : الكامل ١١٥/٢ ، وانظر بالتفصيل ابن كثير ٢٣١/٢-٢٣٣ ، ٢٥٢-٢٥٦.

في الجهة المقابلة كانت (البيئة) التي يتحرك فيها الإسلام بيئة قبلية تعير إهتماماً كبيرا لصلات النسب والقربى ، الأمر الذي مكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ان يجد حماية (طبيعية) في عشيرته بني هشام التي ذاقت معه – بسبب تقاليد مكة القبلية – أشد تجاربه ألماً ، والمتمثلة بسني الحصار الصعب في شعب أبي طالب. وكان رفع السلاح بوجه المشركين سيستفز عشيرة الرسول نفسه ، ويبعدها عن نصرته فتتركه وأصحابه وحيدين ليس من يحميهم ، فتصدهم سيوف قبائل قريش جميعاً. أما وهو ينشر دعوته (سلماً) ويتعرض وأصحابه لذلك الأضطهاد الذي لم يصل حد محاولة القتل إلا في اللحظات الأخيرة ، فإن ذلك لم يؤد الى إبقاء بني هاشم واحلافهم الى جانب دعوته فحيسب بل استفز نخوة الكثيرين من رجالات وابناء القبائل الاخرى للظلم الذي يلحق بأبناءهم واخوانهم ودفعهم إلى مناصرة الدعوة الجديدة أو الأنتماء اليها. وما يقال عن التركيب القبلي للمجتمع المكي ، يقال عن جزيرة العرب كلها حيث كانت قبائلها ستقف مرتاحة لزعيمتها قريش وهي تحصد رؤوس مجموعة من بنيها القتلة الذين حملوا السلاح ضد آبائهم واخوانهم ، ومهتاجة مغضبة إزاء الظلم والقسوة والاضطهاد الذي ينصب على الدعاة الجدد دون أن يحملوا سلاحاً أو يقتلوا أحداً .. هذا فضلا عن الأمل العميق في هداية قريش وإنتمائها الى الدين الجديد واعتمادها – كاعرق قبيلة في الجزيرة – منطلقا الى العرب جميعا.

الا ان مرحلة بناء الانسان والجماعة المسلمة ما كادت تشرف على نهايتها ويضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطواته الأولى صوب بناء الدولة الأسلامية في يثرب ، وتصعد قريش إضطهادها ومقاومتها لاتباع الدين الجديد حتى نزل الأذن بالقتال المسلح ، قبيل بيعة العقبة الثانية النتي انهت العصر المكي وفتحت الطريق الى العصر المدني الجديد.

يقول ابن هشام : ((كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل .. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ومعذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة أو في كل وجه. فلما عتت قريش على الله (عزّ وجّل)، وردوا عليهم ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده وصدق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عزّ وجّل لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بالقتال والأنتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له بالحرب وإحلاله له الدماء والقتال قول الله تبارك

وتعالى : {**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**}[٢٩٦] ثم أنزل الله تبارك وتعالى : {**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** } ...))[٢٩٧].

ورغم أن أتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان معظمهم قد مارس القتال في جاهليته وعرفوا كيف يحملون السلاح ويستخدمونه في ظروف لا (يبقى) فيها من لا يحمل سلاحاً، ورغم أن الأنصار الذين قامت دولة الإسلام في المدينة على أكتافهم قد أعربوا للرسول يوم بيعتهم الأخيرة في العقبة عن قدراتهم في القتال وبأسهم في الحرب وقالوا : ((نحن أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر)) إلا ان الظروف الجديدة التي بدأ الإسلام يجتازها ، وتصاعد الموقف الحربي بينه وبين القوى الوثنية وبخاصة في أعقاب الهجرة إلى المدينة ، ونزول الآيات القرآنية تؤذن ببدء القتال المسلح ، حتم على الرسول أن ينمي هذه القدرات وأن يدفع أتباعه إلى مزيد من التدريب والمهارة العسكرية في مواجهة الأعداء الذين يحيطون بالدولة الجديدة إحاطة السوار بالمعصم. وراح الرسول القائد طيلة العصر المدني يعمل دونما وهن على تعليم أتباعه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح رافعا شعاراً واضحاً لا غموض فيه : {**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**}[٢٩٨] ، معتمدا في سعيه لتكوين (المقاتل المسلم) على أسلوبين متوازيين : التوجيه المعنوي والتدريب العملي ، في أولاهما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يسعى إلى رفع معنويات المقاتلين ، يمنحهم أملا يقينياً بالنصر أو الجنة. ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظل هذا (الأمل) يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه الى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية من أجل كسب المعارك أو

---

(٢٩٦) سورة الحج ، (الآيات ٣٩-٤١).

(٢٩٧) سورة البقرة ، (الآية ١٣٩) ، ابن هشام ، ص ١١٦-١١٧ ، البلاذري : أنساب ١/ ٢٨٦ وانظر : محمد عزة دروزة : سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ٣١٩/٢.

(٢٩٨) سورة الأنفال ، (الآية ٦٠).

الموت تحت ظلال السيوف مجتازا باستشهاده الخاطف السريع الجسر الذي يصل أرض المعركة بالجنة ، حيث الخلود الدائم والنعيم المقيم ولذة القرب من الله سبحانه الذي قال مخاطباً المؤمنين: {**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩)فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ**}[٢٩٩]. وهذا (البذل) الذي شهده تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الذي كان يفجر طاقات المسلم القتالية ويحيل كلا منهم إلى عشرة مقاتلين. وسنرى الرسول الآن وفيما بعد ينادي أصحابه دوماً في لحظات المصير الحرجة بين النصر والهزيمة لكي يهرعوا الى الحسنيين : النصر أو الجنة ..

كان يقول لهم : (جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم) ويناديهم : (أن الله تعالى يقول ما من عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيلي إلا ضمنت له أن أرجعه مأجوراً غانماً .. أو شهيداً أغفر له ، وأرحمه ، وأدخله الجنة) ويعلمهم : (من أرسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم) ويبين لهم (من أعان مجاهداً في سبيل الله أظله الله يوم لا ظل إلا ظله) ، (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار)، (من جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة ، ويأتي ، جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون : فلان عليه طابع الشهداء) وكان يقول لأصحابه (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) ، و(مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في سبيل الله ستين سنة) ، ويقول (حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله) ويقول (من مات ولم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة) ، ويقول (والذي جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو قاتله حتى يقتل فذاك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة) ويناديهم مراراً (إن السيف محاء الخطايا) وإنكم (إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)[٣٠٠].

أما الاسلوب الثاني الذي اعتمده الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو التدريب العملي ، فقد سعى من خلاله إلى اعتماد كل طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء : رجالاً ونساءً وصبياناً وشباباً وشيوخاً ، والى التمرس على كل مهارة في القتال طعناً بالرمح وضرباً بالسيف

---

(٢٩٩) سورة آل عمران ، (الآيتان ١٦٩-١٧٠).

(٣٠٠) انظر : محمد جلال كشك (الحق المر) ، ص ٦٥-٦٧.

ورمياً بالنبل ومناورة على ظهور الخيل ، كما أكد على ضرورة تعلم القتال في كل ميدان براً وبحراً ، تنفيذاً لشعار الله : {**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** } على إطلاق القوة.

قال (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي) ، والرمي يعني إصابة الهدف .. وحتى العصر الحديث والحروب التقنية تجيء الانتصارات بالدرجة الأولى بمدى مقدرة الجندي على إصابة هدفه بالرصاص أو القنبلة أو الصاروخ .. وقال (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) دفعاً لأصحابه إلى التمرس على الفروسية وتعلم ركوب الخيل في قتال يلعب فيه الفرسان دوراً كبيراً ، وقال وكأنه ينظر إلى المدى البعيد حيث ستنساح رقعة دولته إلى أطراف القارات وسواحل البحار والمحيطات ، كيف لا وما هي بالدولة الإقليمية أو العنصرية وإنما هي دولة منفتحة على العالم كله ، على الإنسان أياً كان هذا الإنسان : (غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية جميعاً) وقال (من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة) والأمر سواء : سهم ينطلق في سبيل الله وحده من أجل تحرير الإنسان من العبودية للعباد و(عبد) يحرر من سيده لكي يغدو إنساناً.

وقال (صلى الله عليه وسلم) وهو يزج خطي التربية العسكرية المتوازيين : التوجيه والتدريب والأمل بالنصر أو الجنة ، وتقديم الجهد في ساحة القتال أو في الخطوط الخلفية صنعاً للسلاح أو امداداً به (إن الله عزوجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر ، الجنة .. صنائعه يحتسبه في عمل الخير والرامي به ومنبله) وشاهد رجل في أطراف المدينة عقبة بن عامر يحمل السلاح ويمارس التدريب راكضاً من مكان إلى مكان فسأله (تختلف بين هذين الموضعين وأنت شيخ كبير ؟) أجابه الشيخ : (سمعته يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) بهذه اللهجة الحاسمة (ليس منا) ذلك ان الذي لا يعرف السلاح ابتداء والذي يعرفه من الوقت ثم ينساه سواء .. على العكس أن هؤلاء الذين يذهبون إلى سوح القتال وهم يحملون سلاحاً لا يعرفون كيف يضربون به، سرعان ما يتعرضون للارتباك والرعب فتحصد رؤوسهم ويكونون كارثة على رفاقهم الذين يشل الموقف قدرتهم على استخدام السلاح.

***

بهذه الإجراءات الأربعة وضع القرآن والرسول (صلى الله عليه وسلم) القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة ، واخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوما بعد يوم ، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع وإنما وفق نفس الأسلوب الذي

كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان والجماعة المسلمة ، وهو أسلوب يرتبط ارتباطا عضوياً حيويا بالواقع الحركي والتجربة الحية المعيشة ، ومن ثم تجيء معطياته أشد التصاقا بحركة المسلمين ونمو دولتهم ، واكثر إلتحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعيش ، وأعمق فهما وإدراكاً لمتطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية ، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم.

لقد بدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية (العقائدية) في اعقاب الهجرة ، حيث كانت المرحلة السابقة ، مرحلة بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة ، قد اكتسبت ملامحها الأساسية في العصر المكي وغدا المسلمون افرادا وجماعات على استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبل ما سيجيء من تشريعات وما سيفرض من تنظيمات ويوضع من حدود ويرسم من علاقات ، بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل كل ما يصدر عن رسول الله و(الإسلام) لله و(الإيمان) به و(التقوى) خلال ممارسته في السر والعلن و(الاحسان) في إنجازه على احسن ما يكون الإنجاز ، دون تردد أو سلبية أو خيانة أو غش أو تملص أو رفض أو تهرب .. إنما هو الخضوع اليقيني المتبصر بأن هذا الذي يتنزل في ميدان التشريع والتقنين إنما هو الحق المطلق والخير الكامل والصواب الذي ليس بعده إلا الضلال المبين.

وقد أتاح هذا التطور المبرمج لسير الدعوة الإسلامية أن يشاد البناء الجديد على أسس متينة متوغلة في اعماق النفس المسلمة على المستوى الفردي والجماعي على السواء ، فجاء متماسكا مترابطا ثابت الأركان ، فضلا عن أن الإحساس الجديد (بالزمن) و(بالمسؤولية) و(يقظة الضمير) التي غرستها العقيدة الإسلامية في النفوس دفعت المسلم ليس إلى تقبل التشريعات والحدود والأوامر الجديدة وتنفيذها بدقة فحسب بل إلى كسب الوقت والمسارعة في تحويلها الى وقائع معيشة وتجارب وترجمات يومية وصيغ منقوشة على صفحة المكان والزمان ، كما دفعتهم الى السعي (للإحسان) في الأداء والإبداع في التنفيذ من أجل بلوغ المرحلة القصوى من رضا الله وطاعته ، وقد أتاح هذا كله اطراداً عجيبا في نمو الأجهزة التشريعية للدولة الناشئة وسرعة مدهشة في نزول متطلباتها الى الشارع والبيت والسوق والمسجد والميدان ، الأمر الذي يفسر لنا على المستوى الحضاري الاختزال الزمني المدهش الذي مارسه المسلمون وهم يبنون عالمهم الجديد وحضارتهم المتوازنة.

لقد أسهم القرآن الكريم والرسول ، جنباً الى جنب ، في رسم الخطط ووضع التشريعات وبناء المؤسسات وتغطية المتطلبات المتزايدة للدولة الجديدة. ولم يكن الدستور (أو الوثيقة) وحدها – رغم خطورتها في هذه المرحلة – هي كل شيء ، كما يحاول الكثير من الباحثين أن

يصوروا من خلال مبالغتهم[٣٠١] ، فالوثيقة ليست سوى لبنة واحدة في البناء التشريعي الكبير الذي وقع عبء إقامته على عاتق القرآن الكريم قبل كل شيء ، هذا الى ان الكثير مما ورد في الوثيقة لا يعدو ان يكون برنامجاً مرحليا بالنسبة للخارطة الثابتة الدائمة لدولة الإسلام واستراتيجيتها التشريعية الشاملة ، ومن ثم فان التأكيد على أهمية الوثيقة ، فضلا عن انه يعد بحد ذاته خطأ تاريخياً وموضوعياً ، فأنه يحجب في الوقت نفسه الحجم الحقيقي للتشريع القرآني الذي كان يتمخض باستمرار عن مزيد من القوانين والتشريعات ويقود الباحث بالتالي الى الرؤية الغريبة الوضعية التي تجد في (الوثيقة) محاولة بشرية أولية من المحاولات التي قام بها المشرعون على مدار التاريخ لتنظيم شؤون دولتهم الناشئة ، وانه يجب الا يغيب عن بالنا ابداً أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ينطق عن الهوى وأنه كان يصدر في الخطوط العريضة للدعوة عن وحي الله وأن هذا الوحي يبدو أكمل مايبدو في القرآن الكريم نفسه ، وكل الأنجازات والاعمال الاخرى انما هي امتداد وتوسيع وتفسير فحسب لهذا الأصل (الإلهي) الكبير.

وثمة مسألة أخرى تجدر الاشارة اليها في هذا المجال ، تلك هي اطلاق اسم (دولة المدينة) أو الدولة (اليثربية) على دولة الاسلام الاولى بحكم قيامها بالمدينة المنورة ، ذلك أن تعبير (دولة المدينة) قد يسوق ههنا إلى لبس يوهم أن المقصود انها كانت دولة من النوع الذي يقوم فيه الكيان الإقليمي للدولة على (مدينة) من المدن (City - State) مثل أثينا أو اسبرطة في التاريخ القديم. والحق أن دولة (الهجرة) ارتبطت بيثرب ارتباطا عارضا ، ولقد كانت دولة عقيدية عالمية من أول يوم ، وكان من الممكن أن تقوم في اي مكان يتبنى الفكرة ويدين للعقيدة[٣٠٢] ، كذلك فإن الدولة الجديدة في المدينة هي دولة الهجرة لا دولة المهاجرين. فالمهاجرون هنا لا يعمدون الى افناء السكان الأصليين أو اجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يصطنعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التي انتقلوا اليها. وهكذا لانجد تجارب توطين الأوربيين في أمريكا أو استراليا أو جنوب افريقيا على اختلاف درجات حرارتها. إنها دولة فكرية

---

(٣٠١) نذكر هنا من بين كثير من الأمثلة حول اعطاء اهمية مبالغ فيها للوثيقة (أو الدستور) ما ورد في كتاب (مكة والمدينة) للشريف (... يدل الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم الظروف ... ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على اساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الإسلامية ، فإنما تقوم الدول أولاً ثم يتطور أمرها الى وضع دستور ولكن النبي ما كاد يستقر في المدينة وما كاد العام الأول من هجرته ينتهي حتى كتب هذه الصحيفة المهمة جدا لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية ، وكذلك هي مهمة لفهم الحوادث التي نشأت بعدها) ، ص ٣٨٧-٣٨٨ وانظر فلهوزن الدولة العربية ، ص ١-١٥.

(٣٠٢) انظر ما سبق وأن ذكرناه لدى دراسة وتحليل هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

عقيدية سكانها المقيمون فيها من قبل والمهاجرون الوافدون سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق القانونية .. والعقيدة معروضة على كل انسان بحكم إنسانيته ، أياً كانت موطنه وأيا كانت عشيرته. انها دولة مفتوحة لاتغلق نفسها على جماعة معينة شأن اي دولة (دينية) أخرى قامت من قبل في التاريخ {**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ(٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٩)وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**}[٣٠٣].

إن هذه الدولة فذة في تاريخ البشرية لأنها أقرت مبدأين لاوجود لهما إلا في دولة غير دينية ، وأول هذين المبدأين هو حرية الاديان وهي حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب بل إنها تتعهد برعايتها. وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحا وإنسانية وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع افراد الدولة على اختلاف اجناسهم والوانهم ولغاتهم وعاداتهم[٣٠٤].

لقد استكملت دولة الإسلام كل مستلزمات البناء القانوني للدولة والذي يقوم على اركان ثلاثة : الأمة ، والسيادة الخارجية والداخلية ، ثم الاقليم .. ولكنها ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحد من هذه الاركان. فلقد قامت (دولة الهجرة) على (أمة) .. ولكنها امة تقوم على اساس الفكر والعقيدة ، فهي (أمة) لا يمكن حصرها أو ضبطها لأنها لا تحدها لغة أو جنس أو وطن ، فقد عرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عقيدته على كل فرد وقبيلة ومدينة استطاع ان يعرض هذه العقيدة عليها ، وترك المجال أمام (الإمكانيات الأيديولوجية) لا (الحتمية الجغرافية). وكان (لدولة الهجرة) (سيادة) داخلية وخارجية .. ولكنها (سيادة) تحققت في واقع الأمر من أول يوم في الإطار المثالي الذي تطلعت إليه فلسفة القانون الى وقتنا ولم تفلح في أن تجد له سبيلا الى التنفيذ. فهي سيادة قائمة على الاختيار الحر في اعتناق الفكرة من جانب الأفراد وفي الاجتماع لإقامة الدولة من جانب المجموع ، ومن ثم تأسست سياسة الدولة الجديدة فعلا وواقعا على تقديس الحرية الإنسانية بحيث تكون هذه الحرية هي أساس الدولة الفكري وقانونها الأعلى. وكان لدولة الهجرة (اقليم) اختارته الظروف لها وكان اختيارا موفقاً ... لكنها لم ترتبط به ولم تقتصر عليه ، وكان من الممكن ان تقوم في اي مكان آخر يقبل الدعوة ، مكة أو

---

(٣٠٣) سورة الحشر ، (الآيات ٨-١٠) ، فتحي عثمان. دولة الفكرة ، ص ١٦-١٧.

(٣٠٤) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٨٣-٣٨٤.

الطائف مثلاً ... ذلك ان الدولة الجديدة دولة (فكرة) والفكرة تجد وطنها في كل مكان يوجد فيه عقل إنسان[٣٠٥].

لقد كان من حسن حظ البشرية أن الإسلام تبرأ من اول يوم من حواجز الجنس والأرض واللسان واستهدف قيام الأخوة العالمية بين المؤمنين ، ((ولما كانت دعوة الاسلام لم تات من البداية إلى بلد بعينه فإنها كانت خطوة تقدمية الى الأمام نحو تحقيق مابذلت المحاولات لتحقيقه من بعد وهو تدويل المجتمع الإنساني ... وبجانب عالمية الدعوة فإن الأسلام أقام نظام (الحج) ونظام (الخلافة) من اجل تحقيق هذا الهدف[٣٠٦].

إن دولة الإسلام هي دولة (العقيدة) التي قامت منذ البدء على ان السلطة الحاكمة العليا هي الله .. القوة المحايدة التي تقرر المبادىء والموجهات العامة ، إذ هي لاتميل مع فرد أو جماعة ولاتنحاز لحاكم أو محكوم : {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**}[٣٠٧].

لقد اعطى الإسلام بمجتمعه الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلا يحتذى وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الإنساني السليم المتكامل الذي يقوم على الإخاء والحب والتسامح والتكامل ، وليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الإسلام ومضمونه (وأيديولوجيته). وما تزال صورة هذا المجتمع الإسلامي الأول باتساقها وصلابتها وسلامتها في فهم مضمون الإسلام ومنهجه ، تعطي علامة القوة في تطبيق الإسلام. فمن هذه الجماعة الإسلامية انطلقت (الدعوة الإسلامية) إلى العالم كله ، وليس صحيحا ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران أو انها توقّفت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر .. ولم يكن مجتمع المدينة ، كما تحاول ان تصوره مختلف كتب السيرة ، مجتمع حرب وغزوات وقتال ، فلو اننا احصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجموعه بضعة شهور من

---

(٣٠٥) فتحي عثمان : دولة الفكرة ، ص ١٨-٢٢.

(٣٠٦) حميد الله الحيدر آبادي : دولة الإسلام والعالم ، عن فتحي عثمان المصدر السابق ، ص ٥٨-٥٩.

(٣٠٧) سورة النساء ، (الآية ٥٩) ، فتحي عثمان : المرجع السابق ، ص ٧٣.

خلال عشر سنوات. ومن هنا فإن المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلاً وبنى خلالها دعامتين واضحتين : نظام مجتمع ونظام دولة ، كما بنى تشريعاً وقانوناً))[٣٠٨].

(٣٠٨) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ ، ص ٥٠-٥١.

الفصل السادس

الصراع مع الوثنية (المرحلة الأولى)

الســـــرايا

بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) فور تثبيت أسس دولته الجديدة في المدينة صراعا (مرحليا) ضد الوثنية العربية وزعيمتها قريش تمثل بشن حروب صغيرة متقطعة ضد القوافل والمواقع الوثنية ، أطلق عليها المؤرخون اسم (السرايا) ، استهدفت إرباك قريش وحلفائها وإضعافهم وتحطيم معنوياتهم وضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم وشريان وجودهم ، والحصول على مورد للتموين والتسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان المسلمون يعانونها في مطلع عهدهم بالهجرة ، كما استهدفت السرايا إنذار اعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها كاليهود في الداخل وجماعات البدو في الخارج بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف منجزاتهم التي حققوها طيلة أربعة عشر عاماً من الجهد والعناء.

ومن جهة اخرى جاءت هذه الهجمات أشبه بمناورات حية كان المقاتل المسلم يجس عن طريقها نبض أعدائه ويختبر إمكاناتهم الحربية ، ماديا ومعنوياً ، ويمارس مزيدا من التدريب وتنمية قدراته وطاقته على الصمود.

كانت المجموعة الأولى من السرايا قد انطلقت منذ منتصف السنة الأولى للهجرة. انطلق حمزة (رضي الله عنه) في رمضان من تلك السنة على رأس ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض قافلة لقريش عند ساحل البحر ولقي أبا جهل في ثلاثمائة رجل فحجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني .. ولم يقع اشتباك وكان يحمل لواء حمزة في هذه المحاولة رجل يدعى أبا مرثد.

وفي شوال انطلق عبيدة بن الحارث على رأس ستين رجلاً من المجاهدين يحمل امر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمسير الى بطن (رابغ) ، فالتقوا بمائتين من المشركين يقودهم أبو سفيان على ماء يدعى (أحياء) ، فوقعت بين الطرفين مناوشات بالسهام دون ان يدخلا في اشتباك مباشر. وفي ذي القعدة خرج سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلا مشياً على الاقدام فكانوا يكمنون نهارا ويسيرون ليلا ، وفي اليوم الخامس بلغوا الخرار حيث أمرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ألا يتجاوزوها ، وكانت القافلة القرشية سبقت سرية المسلمين بيوم كامل فلم يدركوها.

وفي صفر من السنة الثانية خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه على رأس عدد من أصحابه مستهدفا قريشا وبني ضمرة حتى بلغ ((ودّان)) فوادعه بنو ضمرة ثم قفل عائداً الى المدينة ولم يلق كيداً ، ثم ما لبث (صلى الله عليه وسلم) أن استخلف على المدينة أبا سلمة

ابن عبد الاسد وانطلق لغزو قريش حتى انتهى به المطاف إلى العشيرة قريبا من ينبع ، فأقام بها اياما ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم قفل عائدا الى المدينة. وبعد ايام معدودات من عودة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من غزوة العشيرة قام كرز بن جابر الفهري بغارة على مواشي المدينة وإبلها التي تسرح في اطرافها ، فلاحقه الرسول بنفسه حتى بلغ وادي (سفوان) قريبا من بدر ، وفاته كرز ولم يدركه فرجع الى المدينة وسميت هذه المطاردة باسم بدر الأولى[٣٠٩]. وما ان قفل عائدا الى المدينة حتى جرد ثمانية مقاتلين (وقيل اثني عشر) من المهاجرين بقيادة عبد الله بن جحش وكتب كتابا وامره ألا ينظر فيه قبل مسيرة يومين فيمضي لما امره الرسول به ولا يستكره من اصحابه احداً. وبعد يومين فتح عبد الله الكتاب السري وقرأ فيه :

((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بوادي نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارها)). وما أن اتم عبد الله قراءة الكتاب حتى قال : سمعاً وطاعة ، ثم التفت الى اصحابه وقال : قد أمرني الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن امضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن استكره احدا منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله. فأجابه أصحابه جميعا ومضوا حتى نزلوا بنخلة ، فمرت بهم قافلة لقريش تحمل تجارة لمكة فهاجموها وقتلوا أحد افرادها وهو عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين آخرين وقفلوا عائدين بالبضائع والأسيرين الى المدينة.وعندما أبلغوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفاصيل الحادث قال : ما أمرتكم بقتال في الاشهر الحرم وأوقف التصرف بالاموال والأسيرين وأبى ان ياخذ من ذلك شيئا ، فأسقط في ايدي القوم وعنفهم إخوانهم فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وغنموا الاموال وأسروا الرجال ، لكن آيات القرآن الكريم سرعان ما تنزلت لتحدد الموقف الحازم إزاء القيادة الوثنية التي كانت قد سبقت إلى انتهاك الأشهر الحرم ، فقاتلت المسلمين الجدد فيها وعذبتهم واضطهدتهم وفتنتهم عن دينهم ، وإنه قد آن للمسلمين أن يردوا

---

(٣٠٩) ابن هشام ، ص ١٤٢-١٤٥ ، الطبري : تاريخ ٤٠٢/٢-٤١٠ ، ابن سعد ١/١/٢-٥ ، الواقدي ٩/١-١٣ المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٠٠-٢٠٣ ، البلاذري : أنساب ٢٨٧/١ اليعقوبي : تاريخ ٥٧/٢-٥٨ ، خليفة بن الخياط : تاريخ ١٣/١-١٥ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٠٠-١٠٤ ، ابن الأثير : الكامل ١١١/٢-١١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٤/٣-٢٤٨.

على هذا الانتهاك الصريح لأن التشبث بحرمة الشكليات هزيمة لا مبرر لها في ساحة الصراع العنيف بين المعسكرين : {**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا** }(٣١٠) (٣١١).

ويمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش الجسر الذي إجتازه صراع المناوشات بين الإسلام والوثنية صوب القتال المنظم المكشوف الذي بدأته معركة بدر ، ذلك ان هذه السرية كشفت ، بسبب توغل مقاتليها بعيدا الى طريق التجارة المكية – اليمنية ، مدى خطورة الدولة الناشئة على تجارة مكة خاصة ووجودها الوثني عامة ، كما ان الاشتباك الذي وقع بين الطرفين وأدى الى قتل وثني وأسر آخرين أبان عن رغبة المقاتلين المسلمين برفع السلاح بوجه الوثنية دونما تردد أو مساومة ، هذا فضلا عن المنطلق المبدئي الجديد الذي حددته الآيات السالفة والذي ضربت فيه شكليات التقاليد القديمة ونفخت في المقاتل المسلم روحا جديدة دفعته الى مزيد من المجابهة والصراع والتحدي للقيادة المكية التي كانت قد سبقت المسلمين – كما بين القرآن – الى تجاوز الحرمات والاستهتار بالاعراف. وهكذا يمكن القول بان معركة بدر الكبرى لو لم تحدث بسبب غياب شروطها الواقعية لحدثت معركة أخرى بديلة عنها بسبب توافر الشروط الموضوعية للقتال الحاسم بين المعسكرين.

***

حقق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسراياه الأولى عدداً من المنجزات العامة يمكن حصرها بما يلي :

١ – الاستطلاع :

استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة ، خاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام ، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

---

(٣١٠) سورة البقرة : (الآية ٢١٧).

(٣١١) ابن هشام ، ص ١٤٥–١٤٧ ، الطبري : تاريخ ٤١٠/٢–٤١٥ ، ابن سعد ٥/١/٢ ، الواقدي ١٣/١–١٩ البلاذري : أنساب ١/ ٣٧١–٣٧٢ ، المسعودي : التنبيه ، ص ٢٠٣ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٨/٢.

٢- القتال :

أ - أثبت المسلمون أنهم اقوياء ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة وأهل المدينة وتجاه اليهود ، وقد أراد المسلمون من ذلك ان تترك لهم الحرية الكاملة لنشر دعوتهم دون تدخل من أعدائهم.

ب - تحالف المسلمين مع بعض القبائل المجاورة.

٣- الكتمان :

ابتكر الرسول أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين. والكتمان أكبر عامل من عوامل مبدأ المباغتة التي هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له. والكتمان من جملة الوسائل المهمة التي تؤدي إلى المباغتة وهي أهم مبدأ من مبادىء الحرب. وقد سبق المسلمون غيرهم في ابتكار هذا الأسلوب الدقيق.

٤- الحصار الاقتصادي :

هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام فاصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق مما أثر أسوأ الأثر على تجارة قريش التي تعيش عليها ، وهدد مكة بالحصار الاقتصادي لمحاولة حرمانها من سلوك طريق مكة الشام بأمان[٣١٢].

وكما حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على ان يوجد في داخل المدينة أداة للحكم وان ينظم شؤونها الداخلية كذلك حرص عن طريق السرايا على أن يضم إلى المدينة ما حولها من ريف وقبائل ، وأن يخطط لها مجالها ويقرر حدودها ويعقد لها احلافا مع القبائل النازلة حولها ، لان الحاضرة لا تستطيع ان تعيش بنفسها ولا تستغني عن ريف يمدها بالمؤن ويكون مجالا لنشاطها. وكان هذا أحد اسباب قيام النبي بعدة سرايا ابتدأت من المدينة واتجهت الى جميع الجهات فأمنت هذا الريف ، وعقدت في اثناء هذه السرايا احلافا مع القبائل المجاورة ، إذ انه لابد لسكان المدن التي تقوم في وسط جو بدوي أن تعمل حسابا كبيرا لغزوات البدو ولا يكون ذلك الا عن طريق محالفة البدو ثم كسر شوكتهم بالضرب على أيديهم عند اللزوم وإشعارهم دائما بقوة المدينة وقدرتها على الضرب[٣١٣]. وكانت استراتيجية الرسول في توجيه سراياه ، وغزواته

---

(٣١٢) محمود شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٦٠-٦١.

(٣١٣) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٠٠.

كذلك ، تعتمد الحذر الدائم والحرص على ان يعرف من اخبار القبائل مايمكنه من تدبير أمره لإقرار هيبة الدولة في نفوس البدو ، فكان لايترك فرصة لهم للتجمع لغزوه ومهاجمته بل كان يقظاً سريع الحركة ما يكاد يسمع بتجمع اعدائه حتى يفاجئهم قبل ان يستكملوا أمرهم فيشتت شملهم ويلقي الرعب في قلوبهم ، فالهجوم عنده اقوى وسائل الدفاع ، وتحطيم قوة العدو قبل ان تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها. ولقد أتاحت هذه الظروف للدولة الإسلامية في المدينة فرصة الاستقرار[٣١٤].

(٣١٤) المرجع السابق ، ص ٤٥١.

معركة بدر الكبرى

وقد بدأت الأسباب الواقعية التاريخية التي قادت الى المعركة الحاسمة تتجمع إلى بعضها منذ اللحظة التي أبلغ فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن قافلة كبيرة لقريش تضم ألف بعير قادمة من الشام صوب مكة يقودها أبو سفيان في ثلاثين أو اربعين تاجراً مكيا[٣١٥] [٣١٥] ، وبمبادرة لا تردد فيها قال لأصحابه : (هذه عير قريش ، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)[٣١٦].

ونظرا إلى ان نداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن أمراً ملزماً بل كان ندبا ، ونظرا الى ان احدا لم يكن يتوقع أن لقاء مسلحا حاسما سيتمخض عن التحدي الجديد هذا ، فقد خرج بعض المسلمين بقيادة رسولهم الكريم (صلى الله عليه وسلم) لمهاجمة القافلة ، وتخلف بعضهم الآخر ، كما ان هؤلاء خرجوا ولم يأخذوا أهبتهم الكاملة من السلاح والتأهب .. [٣١٧] وما ان سمع أبو سفيان بنبأ تحرك المسلمين لمجابهة قافلته حتى أرسل الى مكة على جناح السرعة ضمضم بن عمرو الغفاري وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم الى اموالهم ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لها في الطريق .. وما إن وصل ضمضم إلى مكة حتى جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق قميصه وراح يصرخ : يا معشر قريش !! اللطيمة اللطيمة !! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !! وسرعان ما استجاب الناس لندائه وهرعوا الى الكعبة وهو يقولون : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي (الذي كان قد قتل في سرية ابن جحش) كلا .. والله ليعلمن ذلك. فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا .. وتجمعت قريش كلها تسعمائة وخمسين مقاتلا تصحبهم مائة فرس ولم يتخلف من

---

(٣١٥) وقيل سبعين (من قبائل قريش كلها) ، الطبري : تاريخ ٤٢١/٢ ، وعن حجم القافلة ، انظر : الواقدي ٢٧/١-٢٨ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٠٤-١٠٦ ، المقدسي ١٨٢/٤-١٨٤ ، ابن الأثير : الكامل ١١٣/٢-١١٥ ، ابن كثير ٢٤٨/٣-٢٥٢.

(٣١٦) ابن هشام ، ص ١٤٨ ، وانظر : الطبري : تاريخ ٤٢١/٢-٤٢٧ ، ابن سعد ٦/١/٢ ، الواقدي ٢٠/١.

(٣١٧) ابن سعد ٦/١/٢ ، الواقدي ٢٠/١ - ٢١ ، البلاذري : أنساب ٢٨٨/١.

أشرافها احد خلا أبا لهب الذي يبدو ان مرضه وكبره أقعده عن اللحاق بالمستنفرين[٣١٨] ، واستطاع ابو سفيان خلال ذلك ان يفلت من قبضة المسلمين بإسراعه وتجنبه الطريق الداخلي صوب الساحل. وما أن اطمأن على قافلته حتى أرسل الى رفاقه في مكة : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم فقد نجاها الله فارجعوا. إلا ان أبا جهل ابن هشام كان أبعد نظرا منه عندما أصر على الخروج والنزول في بدر حيث ان للعرب هناك سوقا يجتمعون له كل عام ثلاثة أيام ((ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها))[٣١٩]. فما دامت سرايا المسلمين قد حققت للدولة الجديدة في المدينة طيلة الأشهر السابقة نصرا عسكريا وإعلامياً ونفسيا ضد قريش وثبتت كلمة الإسلام ورايته في أعماق الصحراء فإنه لابد لقريش أن ترد بنفس الأسلوب وتعلم العرب الذين ينتمون اليها أن الكلمة كلمتها وأن الصحراء ستظل موطىء أقدامها دون منازع.

***

وفي الجبهة الاخرى كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أنطلق بأصحابه البالغ عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً مستخلفا على المدينة (أبا لبابة) ومقيما (عمرو بن أم مكتوم) إماماً على الصلاة بالناس ، ودفع اللواء الابيض إلى مصعب بن عمير الداعية الشاب، واما الرايتان السوداوان فقد حمل علي إحداهما وتدعى العقاب ، أما الاخرى فقد حملها بعض الانصار. ووزع الرسول (صلى الله عليه وسلم) السبعين بعيرا التي كانت بحوزة المسلمين على أصحابه كل ثلاثة يتناوبون واحداً منها ، ولم يكن معهم من الخيول سوى اثنتين. وعندما وصلوا قريبا من بدر حيث طريق القوافل بين مكة وبلاد الشام بعث الرسول إلى هناك اثنين من أتباعه ليتحسسا له الأخبار عن قافلة أبي سفيان التي كانوا يظنون انها لازالت في المنطقة ، وانطلق هو وأصحابه في أعقابهما[٣٢٠] وما لبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن عسكر باصحابه قريباً من ماء بدر ، وعندما حل المساء بعث ثلاثة من رجاله المعتمدين هم الزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص على رأس جماعة من المسلمين ليستطلعوا جلية

---

(٣١٨) ابن هشام ، ص ١٤٨-١٥١ ، الطبري : تاريخ ٤٢١/٢-٤٢٢ ، ٤٢٧-٤٣١ ، ابن سعد ٧/١/٢ الواقدي ٢٨/١-٣٠ ، البلاذري : أنساب ٢٩٠/١-٢٩١.

(٣١٩) ابن هشام ، ص ١٥٥-١٥٦ الطبري : تاريخ ٤٢٤/٢ ، ٤٣٨ ، ابن سعد ٧/١/٢ ، الواقدي ٤٣/١-٤٥، البلاذري : أنساب ٢٩٠/١-٢٩١.

(٣٢٠) ابن هشام ، ص ١٥١-١٥٢ ، ابن سعد ٦/١/٢-٧ ، الواقدي ٢٣/١-٢٧.

الأخبار ويعرفوا شيئا عن مصير القافلة فاستطاعوا القاء القبض على اثنين من سقاة قريش جاؤوا بهما الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) معتقدين انهما من أتباع ابي سفيان ، إلا انهما أكدا انتماءهما للجيش القرشي الذي يعسكر الآن قريبا من المسلمين تحجبهم التلال والكثبان عنهم ، فقال الرسول : أخبراني عن قريش. قالوا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهم : كم القوم ؟ قالا : لا ندري. قال : كم تنحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا، فقال (صلى الله عليه وسلم) : القوم بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما : فمن فيها من أشراف قريش ؟ فطفقا يستعرضان عددا من قادة قريش فيهم عتبة وشيبة ابناء ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود وغيرهم ، وحينذاك أقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه وقال : هذه مكة ألقت إليكم افلاذ كبدها[٣٢١]. وقد ادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه رغم ضياع الهدف القريب المتمثل بقافلة أبي سفيان فإن عليه ان يقود أصحابه إلى هدف أبعد : أن تظل كلمتهم تتردد في جنبات الصحراء ، وان لايتراجع وجودهم العسكري الذي بنته السرايا السابقة صوب المدينة فتكون الهزيمة بعينها في نظر العرب جميعاً. ورغم قلة السلاح ونقص الاستعداد فإن الرسول كان يجد انه لامناص من التوغل في الصحراء لتحقيق هذا الهدف البعيد وكأنه ، بإحساسه الصادق العميق ، كان يرى الهدف الذي خرجت قريش من أجله والذي تجاوز منطق الدفاع عن مصالحها التجارية المتمثلة بحماية قافلة أبي سفيان إلى تحدي المسلمين. فإن لم يتصد لها الإسلام في أول تحد حاسم فإن نكسة خطيرة ستصيب الدعوة والدولة الإسلامية على السواء.

استشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وأذاع عليهم تفاصيل ما ورده من أنباء عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : ((يارسول الله امض لما أراك فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى .. {**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**}[٣٢٢] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد) (مدينة في الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها)). وبهذا عبر المهاجرون على لسان قادتهم عن رغباتهم

---

(٣٢١) ابن هشام ، ص ١٥٤-١٥٥ ، ١٥٦-١٥٧ ، الطبري : تاريخ ٢/٤٢٢-٤٢٤ ، ٤٣٦-٤٣٧ ، ابن سعد ٢/١/٨-٩ ، الواقدي ١/٥٢-٥٣.

(٣٢٢) سورة المائدة ، (الآية ٢٤).

العميقة في القتال دون الدعوة ، وإطاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي رأى وجوب أخذ رأي الأنصار فسألهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أشيروا علي أيها الناس! فقام سعد بن معاذ فقال : ((قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا إنما جئت به هو الحق. فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف عنك رجل واحد ، فسر على بركة الله)). فسر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال لأصحابه : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[٣٢٣]. وتقدم بأصحابه حتى إذا جاء ادنى ماء من بدر نزل به ، فسأله الحباب بن المنذر : يا رسول الله ارأيت هذا المنزل ؟ أمنزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه بالماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : لقد أشرت بالرأي ، ثم أمر بتنفيذ الخطة ، وعرض عليه سعد بن معاذ أن يقام له عريش يتولى منه قيادة المعركة ، فنفذ الرسول رأيه. وما لبثت السماء ان امطرت مطرا خفيفا فلبدت ارض الصحراء بما يتيح للمسلمين الحركة السريعة فوقها ، وراح الرسول يدعو الله : اللهم هذي قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني. وعندما حل الفجر صلى بالمسلمين وراح ينظمهم صفوفاً ويحرضهم على القتال[٣٢٤].

ما لبث الرسول أن أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود رضي الله عنهما فأطافا بالمشركين ثم رجعا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالا : يا رسول الله القوم مذعورون فزعون ، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه مع ان السماء تسح عليهم .. وفي معسكر قريش حدث خلاف بين قادتها ، وطرح بعضهم ، وعلى رأسهم حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة ، رأياً بالتخلي عن القتال والعودة إلى مكة بعد ما عرفوا من نزول المسلمين قريباً منهم ، إلا ان أبا جهل أصر

---

(٣٢٣) ابن هشام ، ص ١٥٢-١٥٣ ، الطبري : تاريخ ٤٣٤/٢-٤٣٥ ، ابن سعد ٨/١/٢ ، الواقدي ٤٨/١-٤٩ ، وانظر البخاري : التجريد ٧٦/٢.

(٣٢٤) ابن هشام ، ص ١٥٤-١٥٥ ، ١٥٦-١٥٧ ، الطبري : تاريخ ٤٢٥/٢ ، ٤٤٠-٤٤١ ، الواقدي ٥٣/١-٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨-٥٩ ، البلاذري : أنساب ٢٩٣/١ ، ابن سعد ٩/١/٢.

على الحرب واستثار عامر بن الحضرمي بتذكيره بمقتل أخيه عمرو في سرية عبد الله بن جحش فصرخ واعمراه واعمراه الأمر الذي استفز قريشاً جميعا ودفعها إلى اتخاذ موقف القتال.

وفي صبيحة الجمعة السابع عشر من رمضان تقدم الأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي عرف بشراسة الطبع وسوء الخلق وقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو أموتن دونه ! فتصدى له حمزة بن عبد المطلب وتمكن من قتله في الحوض نفسه. وبرز عتبة بن ربيعة يحف به أخوه شيبة وابنه الوليد ودعا الى المبارزة فخرج إليه ثلاثة من فتيان الأنصار فسألهم القرشيون : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار. قالوا : مالنا بكم حاجة ، ونادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فاستجاب الرسول لهذا التحدي وأمر عبيدة بن الحارث وحمزة وعلياً (رضي الله عنهم) أن يتصدوا لهم. وسرعان ما تمكن حمزة من قتل شيبة وفعل علي ذلك بغريمه الوليد ، أما عبيدة فقد جرح غريمه وأصابه هو الآخر بجرح مميت فانقض علي وحمزة على الفتى القرشي وأجهزا عليه وحملا عبيدة إلى معسكر المسلمين حيث توفي هناك(٣٢٥).

استفزت هذه البداية كلا المعسكرين فزحفا نحو بعضهما ، واصدر الرسول أوامره إلى أصحابه ألا يهاجموا حتى يأذن لهم وأن يبعدوا مهاجميهم القرشيين بالنبال ، وسوى صفوفهم ، ورجع الى العريش بصحبة أبي بكر رضي الله عنه وراح يناشد ربه ماوعده من النصر ويقول: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد) فيرد عليه أبو بكر : يانبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك ! وما لبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن انتبه فجأة وقال والبشر يكسو وجهه : (أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله !! هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع)(٣٢٦). وانطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحضهم على القتال (والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر إلا ادخله الله الجنة) فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا ان يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل القوم حتى قتل(٣٢٧). وراح الرسول

---

(٣٢٥) ابن هشام ، ص ١٥٨-١٦٠ ، الطبري : تاريخ ٤٢٥/٢-٤٢٦ ، ٤٤٢-٤٤٦ ، ابن سعد ١٠/١/٢-١١ ، الواقدي ٥٢/١ ، ٦٢ - ٧٠.

(٣٢٦) عن دور الملائكة في المعركة انظر : الطبري : تاريخ ٤٥٣/٢-٤٥٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، والواقدي ٧٠/١-٨٠.

(٣٢٧) ابن هشام ، ص ١٦٠-١٦١ ، الطبري : تاريخ ٤٤٦/٢-٤٤٨ ، الواقدي ٦٧/١ ، ٧٠-٧١ ، ٨١ ، وانظر البخاري ٧٧/٢.

(صلى الله عليه وسلم) يجالد المشركين بنفسه ويتقدم الصفوف حتى أن علياً رضي الله عنه قال فيما بعد : لما أن كان يوم بدر وحضر البأس التقينا برسول الله وكان أشد الناس بأسا وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه[٣٢٨] ، ثم مالبث أن اخذ حفنة من الحصباء واستقبل قريشا بها وصاح : شاهدت الوجوه ، وضربها بوجههم ونادى أصحابه : شدوا ، فحمل المسلمون حملة صادقة تسوقهم إلى اعدائهم موجة من الإيمان العارم ورغبة عميقة في الأستشهاد ، وراحوا يحصدون صناديد قريش ويأسرون ابطالها .. وحمل معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل وقد لجأ إلى مجموعة كثيفة من الاشجار يحيط به عدد من اتباعه فضربه فقطع ساقه. ويتحدث معاذ عما تبع ذلك فيقول ((ضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لاسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها)) ، ثم مر بأبي جهل وهو جريح معوذ فضربه حتى اصابه بجرح لم يستطع معه حراكا وظل معوذ يقاتل حتى قتل. ومر عبد الله بن مسعود بأبي جهل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فوضع رجله على عنقه وقال : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فأجاب ابو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ! فاحتز عبد الله رأسه[٣٢٩]. وما لبثت الهزيمة أن حاقت بالمشركين الذين فروا من ساحة القتال لا يلوون على شيء مخلفين وراءهم ما يربو على سبعين قتيلا ومثلهم أسرى[٣٣٠]. أما خسائر المسلمين فلقد بلغت أربعة عشر شهيداً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، والتمس الرسول (صلى الله عليه وسلم) رأس أبي جهل فجاء بها عبد الله بن مسعود فحمد الله ثم أمر أن يطرح قتلى المشركين في قليب قريب.. وسمعه اصحابه في جوف الليل وهو يقول : (يا أهل القليب ، ياعتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً) ؟ فسأله أصحابه : يارسول الله أتنادي قوما قد جيفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما اقول منهم ولكنهم لا يستطيعون ان

---

(٣٢٨) الطبري : تاريخ ٤٢٦/٢.

(٣٢٩) الطبري : تاريخ ٢٥٤/٢-٢٥٦ ، وانظر الواقدي ٨٦/١-٩١.

(٣٣٠) الطبري : تاريخ ٤٧٤/٢ ، ابن سعد ١١/١/٢ ، الواقدي ١٣٨/١-١٤٤ ، ١٤٧-١٥٢ ، وانظر : المسعودي : التنبيه ، ص ٢٠٥ ، اليعقوبي : تاريخ ٣٧/٢. أما خسائر المسلمين فقد بلغت أربعة عشر شهيدا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار : الطبري ٤٧٧/٢ ، ابن سعد ١١/١/٢ ، الواقدي ١٠٢/١ ، ١٤٥-١٤٧. وعن قوائم مسلمي بدر انظر ابن كثير : البداية ٣١٥/٢-٣٢٥.

يجيبوني[٣٣١]. بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عبد الله بن رواحة وزيد بن الحارثة إلى المدينة ليبشّرا أهلها بأنتصار المسلمين ، واقبل في أعقابهما بعد تسعة عشر يوما من غيابه عنها مستصحبا معه أسرى المشركين بعد أن قسّم الغنائم على المسلمين على السواء. وعند الروحاء قريبا من المدينة لقيه المسلمون الذين لم يخرجوا للقتال يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .. وما أن وصل المدينة حتى فرق الأسرى بين أصحابه وقال : أستوصوا بالأسرى خيرا ، وما لبثت قريش أن بعثت في فداء أسرهم ، ففودي كل أسير بين الألف والأربعة آلاف درهم ومن لم يكن منهم يملك شيئا منّ عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٣٣٢].

***

ثمة أسباب عديدة تمخضت عن انتصار القلة على الكثرة في معركة بدر الحاسمة ، ولا بأس هنا أن نلخص أهم هذه الأسباب التي عرضها (خطاب) في كتاب (الرسول القائد) لأنها يمكن أن تعد الأسباب النموذجية التي تفسر لنا الكثير من الانتصارات التي حققها المسلمون ضد أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة ، ليس في عصر الرسول فقط بل فيما تلاه من عصور واول هذه الأسباب :

القيادة الموحدة :

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر ، وكان المسلمون يعملون كيد واحدة تحت قيادته ويوجههم في الوقت الحاسم للقيام بعمل حاسم ، وهذا هو واجب القائد الكفء. وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثالاً رائعا للضبط الحقيقي المتين ، وإذا كان الضبط أساس الجندية ، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلى بضبط ممتاز ، فقد كان جيش المسلمين جيشاً ممتازا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وان معنى الضبط هو إطاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وعن طيب خاطر ، وقد فعل المسلمون ذلك لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالي .. ضبطاً للأعصاب في الشدائد ، شجاعة نادرة في المواقف ، مساواة لنفسه مع أصحابه ، استشارة في كل عمل حاسم. أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام ، كان اكثر سراة قريش مع قوات المشركين ولكن البارزين من هؤلاء على مايظهر

---

(٣٣١) ابن هشام ، ص ١٦١-١٦٣ ، الطبري ٢/٤٤٩-٤٥٠ ، ٤٥٦-٤٥٧ ، الواقدي ١/٨١ ، ١١١-١١٢.

(٣٣٢) ابن هشام ، ص ١٦٣-١٦٨ ، الطبري ٢/٤٥٨-٤٥٩ ، ابن سعد ٢/١/١٢ ، والواقدي ١/١١٤-١١٦.

رجلان هما عتبة بن ربيعة وأبو جهل ، ولم يكونا على رأي واحد وليس لهم هدف موحد ، لذلك طغت الأنانية الفردية على المصلحة الموحدة أثناء القتال.

التعبئة الجديدة :

طبق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في (مسير الاقتراب) من المدينة الى بدر تشكيلة لا تختلف تماما عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء ، كان لهم مقدمة وقسم أكبر ومؤخرة ، واستفاد من دوريات الاستطلاع للحصول على المعلومات ، وتلك هي الاساليب الصحيحة لتشكيلات مسير الاقتراب في حرب الصحراء حتى في العصر الحاضر. أما في المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر وهو أسلوب قديم لايلائم الأوضاع المستجدة.

العقيدة الراسخة :

رأينا كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول حين استشارهم في قتال قريش ، فقد كان للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها هي أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم حتى تكون كلمة الله العليا ، فما هي أهداف قريش من حربها إلا أن تنحر الجزور وتطعم الطعام وتشرب الخمر وتعزف القيان فتسمع العرب بمسيرها فيهابونها ابداً بعدها ؟ وهل نستطيع تسمية ذلك أهدافاً ام أن ذلك طيش وغرور وعصبية جاهلية ؟

المعنويات العالية :

شجع الرسول أصحابه قبل القتال وأثناءه وقوى معنوياتهم حتى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم عدداً ، ولم تكن معنويات الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين عالية فحسب إنما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالا عالية ايضاً ... لقد أثبتت كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحل المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة الى كل ذلك[٣٣٣]. ولقد تمخضت معركة بدر

---

(٣٣٣) انظر بالتفصيل : شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٧٨–٨٤.

عن نتائج مهمة ، فقد هددت طرق تجارة المكيين وهي عصب حياتهم وأضعفت هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ونمت قوة الإسلام وعززت دولته الجديدة في المدينة ، وانفسح المجال لنشر دعوته وازداد التضامن بين المهاجرين والأنصار قوة وتماسكا. وكان تشريع خمس الغنائم في أعقاب بدر ذا خطورة عظيمة نظرا لأنه أول تشريع قرآني مالي رسمي غير الزكاة توطد به بيت المال في الإسلام وتيسر تحقيق ما دعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق في سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمي غير قائم على التبرع[٣٣٤].

(٣٣٤) عزة دروزة : سيرة الرسول ٣٢٩/٢ – ٣٣٠. وعن الايات المتعلقة بمعركة بدر أنظر: سورة الانفال : (الآيات : ١–٤ ، ٥–١٤ ، ١٧–١٩ ، ٢٠–٢٨ ، ٣٦–٤٤ ، ٤٥–٤٩ ، ٦٧–٧٢).

معركة أحـــــد

راحت قريش تعد العدة كي تثأر من المسلمين في اعقاب الهزيمة النكراء التي منيت بها في بدر ، وأقسم أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، فخرج في ذي الحجة على رأس مائتي راكب من قريش ، تدفعه رغبة انتقامية ، ليبر بيمينه ، وعندما بلغ مشارف المدينة ، تسلل ليلا الى احياء بني النضير ، وطرق الباب على احد زعمائهم (حيي بن أخطب)، فدفعه خوفه الى ان يغلق الباب ، فانصرف ابو سفيان الى سلام بن مشكم ، سيد بني النضير ، آنذاك ، فاستضافه وقدم له بعض المعلومات. وفي اليوم التالي قام أبو سفيان بأرسال جماعة من اصحابه الى ناحية (العريض) في المدينة فحرقوا نخيلها وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له وهما يعملان في حرث لهما ، ثم انصرفوا راجعين. وعندما انتشر نبأ الهجوم بين الناس خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه لطلبهم ، واستعمل على المدينة ((بشير بن عبد المنذر)) فلما أحس ابو سفيان واصحابه أنهم مدركون تخففوا من ازوادهم ومعظمها من السويق ، طارحين إياها في عرض الطريق ، وتمكنوا من النجاة[٣٣٥].

وإذ شددت النتيجة التي تمخضت عنها معركة بدر من قبضة المسلمين على طريق مكة التجاري إلى الشام ، قررت قريش من اجل أن تتجاوز هذا الحصار ان تسلك في تجارتها طريقا اخر ، دلها عليه بعض العارفين ، وهو الذي يتجه الى العراق ، صوب الشمال الشرقي بعيدا عن يثرب ، وقد عبر (صفوان بن أمية) عن مخاوف القرشيين بقوله : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع وأصحابه لايبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ، ودخل عامتهم معه فما ندري اين نسلك ؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس اموالنا ، ونحن في دارنا هذه .. إنما نزلناها على التجارة الى الشام في الصيف ، وفي الشتاء الى ارض الحبشة[٣٣٦].

وقد خرجت احدى قوافلهم تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، يقودها عدد كبير من الرجال فيهم أبو سفيان ، ويدلها على الطريق الجديد (فرات بن حيان) ، الا ان الرسول (صلى الله عليه

---

(٣٣٥) ابن هشام ، ص ١٦٩-١٧٠ ، الطبري ٤٨٣/٢-٤٨٥ ، ابن سعد ٢٠/١/٢ ، الواقدي ١٨١/١-١٨٢ المسعودي : التنبيه ، ص ٢٠٧ ، البلاذري : أنساب ٣١٠/١ ، خليفة بن الخياط : تاريخ ١٦/١-١٧ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٥٢-١٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٣٩/٢-١٤٠ ، ابن كثير ٣٤٤/٣.

(٣٣٦) الواقدي ١٩٧/١.

وسلم) سرعان ما بلغته أنباء القافلة الغنية فبعث على جناح السرعة ، سرية يقودها زيد بن حارثة ، تمكن من مباغتة القافلة في منطقة في نجد تدعى (ماء القردة) فهرب رجالها تاركين بضائعهم لقمة سائغة للقائد المسلم الذي عاد بها الى المدينة كي يقتسمها المسلمون[٣٣٧].

***

كانت هذه المقدمات تسوق قريش الى الاسراع بتوجيه ضربة قاصمة للمسلمين انتقاماً لما لحقهم بمعركة بدر ، وكسرا للحصار الاقتصادي الذي إزدادت وطأته في اعقاب بدر وذي القردة، واجتمع عدد من زعمائها ممن اصيب اقرباؤهم ببدر، بأبي سفيان وتم الاتفاق على ان يتنازل اهل مكة عن اموالهم في القافلة التي قدم بها ابو سفيان من الشام قبيل معركة بدر لاستخدامها في التهيؤ للمعركة المرتقبة.

استنفرت قريش كل قادر على حمل السلاح من ابنائها ، ودعت الأحابيش وحلفاءها من قبائل كنانة ، واهل تهامة وثقيف للانضمام اليها فبلغوا ثلاثة الآف رجل بضمنهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة الآف بعير ... واستدعيت النساء للخروج كي يثرن الحمية في نفوس المقاتلين ويمنعنهم من الفرار ، وتولى القيادة أبو سفيان ، فسار بهم طاويا الصحراء حتى نزل قريبا من جبل احد شمالي المدينة ، وعندما سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك بعث ثلاثة من اصحابه ليأتوه بأخبارهم وأمر بتشديد الحراسة على المدينة وعرض على اصحابه ان يظلوا في المدينة ويدعوا قريشا حيث نزلت (فإن اقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها) فكأنه (صلى الله عليه وسلم) كان يريد ان يعتمد الخطة التي يسمونها اليوم (حرب الشوارع) أو (الحارات) ، فحيثما كان المهاجمون اكثر عددا من المدافعين كان الاجدر ان يحتمي هؤلاء داخل مدنهم ، كي يتمكنوا من انزال ضرباتهم بالعدو الذي سيجد نفسه مضطرا الى التشتت في انحاء المدينة التي لا يعرف الكثير عن منعطفاتها وزواياها ، هذا فضلا عن ان قتالا كهذا سيتيح حتى للنساء والاطفال ان يشاركوا في القتال ، إلا ان المسلمين الذين فاتهم شرف القتال في بدر، وخاصة الشباب منهم الحوا بالخروج وقالوا : يا رسول الله اخرج بنا الى اعدائنا ، لا يرونا ان جبّنا عنهم وضعفنا ! وايد عبد الله بن أبي – زعيم المنافقين – ، غير صادق ، رأي الرسول (صلى

---

(٣٣٧) ابن هشام ، ص ١٧٣ ، الطبري ٤٩٢/٢-٤٩٣ ، ابن سعد ٢٤/٢/١-٢٥ ، الواقدي ١٩٧/١-١٩٨ البلاذري : انساب ٣٧٤/١ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٩/٢ ، ابن الأثير : الكامل ١٤٥/٢ ، ابن كثير : ٤/٤-٥.

الله عليه وسلم) ، بينما الح عدد كبير من الصحابة على الخروج قائلين : إنا نخشى يا رسول الله ان يظن عدونا انا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه الله الينا في ساحتنا ... وقال مالك بن سنان : يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إما ان يظفرنا الله بهم ، أو يرزقنا الشهادة. وقال حمزة : والذي انزل عليك الكتاب أطعم اليوم طعاما حتى اجالدهم بسيفي هذا خارجا من المدينة. وقال النعمان بن مالك اخو بني سالم : يا رسول الله لم تحرمنا الجنة ؟ فو الذي لا إله الا هو لأدخلنها.

سأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بم ؟ قال : إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف. فقال الرسول : صدقت. وقال اياس بن أوس : يا رسول الله ، نحن بنو عبد الاشهل نرجو ان نذبح ويذبح فينا فنصير الى الجّنة ويصيرون الى النار مع إني يارسول لاأحب ان ترجع قريش الى قومها فيقولون : حصرنا محمدا في صياصي يثرب واطامها فيكون هذا جرأة لقريش. وقال عبد الله بن جحش : اللهم إني أسألك ان القى العدو غدا ، فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ويجدعوا انفي واذني وتسألني فيم ذاك ، فأقول فيك[٣٣٨].

ومما لا ريب فيه ان مواقف كبار الصحابة هؤلاء تبين لنا ان الإلحاح على الخروج للقتال بعيدا عن المدينة ، لم يجيء من الشباب والذين لم يشهدوا بدرا فحسب بل اسهم معهم في ذلك عدد كبير من كبار المسلمين ، الأمر الذي يفسر لنا إستجابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لوجهة النظر هذه ، وعدم تردده في قبولها إعتمادا على ثقته الكبيرة بهذا العدد الكبير من اتباعه الراغبين في الخروج.

وخوفا من ان يطول النقاش وتتعرض وحدة الصف المسلم للخطر ، وتلبية لنداء الشباب المتحمسين للقتال والشهادة ، أسوة بأخوانهم في بدر اسرع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فدخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه ، وما ان رآه المسلمون الذين الحوا بالخروج حتى ندموا وقالوا :

إستكرهنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن لنا ذلك ، وعرضوا عليه ان يعود الى رأيه الأول ، إلا انه اجابهم ((ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه ، فلكم النصر ما صبرتم)) ، ومن ثم غادر المدينة على رأس ألف مقاتل ،

---

(٣٣٨) الواقدي ١٩٩/١-٢٠٠ و ٢١٠/١-٢١٣ ، ٢٣٣ وانظر عن بطولات أحد بالتفصيل : الطبري ٥٠٣/٢، ٥٠٥-٥٠٦ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢-٥٣٣ ، ٥٣٤-٥٣٥.

بعد ان وضع نساءها وصبيانها في الحصون والاطام حتى إذا قطعوا شوطا من الطريق الى أحد انسحب ابن أبي بثلث الناس وقال مبررا ذلك : اطاعهم وعصاني ، ما ندري على ما نقتل انفسنا ها هنا أيها الناس ؟ فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يحثهم على الرجوع لاخوانهم ، فلم يستجيبوا ، وكان الأنصار قد عرضوا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يستعين باليهود فرفض(٣٣٩).

***

عسكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأصحابه السبعمائة قريبا من أحد جاعلا ظهورهم اليه وسوى صفوف المسلمين ، وطلب منهم أن لايقاتلوا حتى يأمرهم بذلك ، واختار خمسين رجلا وضعهم على الجبل وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال له : إنضح الخيل عنا بالنبال لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فأثبت نؤتين من قبلك ، ولبس (صلى الله عليه وسلم) درعين زيادة في الحيطة ودفع اللواء الى مصعب بن عمير. أما قريش فعّبأت رجالها بمواجهة المسلمين وقسمت فرسانها الذين بلغوا مائتي رجل الى قسمين ، احدهما في الميمنة بقيادة خالد بن الوليد والآخر في الميسرة بقيادة عكرمة بن ابي جهل ، وسلم اللواء الى بني عبد الدار ، وراح أبو سفيان يحرضهم على القتال ... فقالوا : ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع(٣٤٠).

وما ان التقى الطرفان (السبت منتصف شوال) ودنا بعضهم من بعض حتى راحت هند بنت عتبة والنسوة يحرضن الرجال ويضربن الدفوف وينشدن الأراجيز الحماسية للتحريض على القتال.

ورفع المسلمون شعارهم : أمت أمت ، وراحوا ينادون به ليعرف بعضهم بعضا وجرد رسول الله سيفه ونادى : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فسأله أبو دجانة : وما حقه يارسول الله ؟ أجابه : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، فقال أبو دجانة أنا اخذه بحقه يارسول الله ، واستلم

---

(٣٣٩) ابن هشام ، ص ١٧٣-١٧٦ ، الطبري ٢/٤٩٩-٥٠٤ ، ابن سعد ٢/١/٢٦-٢٧ ، الواقدي ١/٢٠٠-٢١٩ المسعودي : التنبيه ، ص ٢١١ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٣٨-٣٩ ، البلاذزي : انساب ١/٣١٢-٣١٥.

(٣٤٠) ابن هشام ، ص ١٧٦-١٧٧ ، الطبري ٢/٥٠٧ ، ٥١٢ ، ابن سعد ٢/١/٢٧-٢٨ ، الواقدي ١/٢١٩-٢٢٣ البلاذري : أنساب ١/٣١٦-٣١٧.

السيف ، وعصب رأسه بعصابة حمراء كعادته ، واندفع الى قلب المعركة لا يعترضه احد من المشركين إلا قتله. وراح حمزة يقطف رؤوس القرشيين واحدا واحدا ويحدث في صفوفهم خلل واضطرابا ، وهو ينهد عليهم يمينا وشمالا ، لولا ان كمن له وحشي – غلام جبير بن مطعم – الذي يجيد الاصابة بحربته الحبشية ، والذي كان قد وعد من قبل سيده ، أن ينال حريته إذا ما تمكن من قتل حمزة. ويحدثنا وحشي كيف قضى على العملاق ((... وهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت في ثنّته حتى خرجت من بين رجليه. فأقبل نحوي ، فغلب فوقع ، وامهلته حتى إذا مات جئت ، واخذت حربتي ، ثم تنحيت الى العسكر ، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره ...))[٣٤١].

استمرت المعركة بين المعسكرين غير المتكافئين ، إلا ان حرارة الإيمان والرغبة العميقة في الشهادة مكنت القلة ان تواصل القتال وتقتل من المشركين اضعاف قتلاها ، وتحرز انتصارا تدريجيا. شّد الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود عن المشركين فهزماهم ، وحمل النبي (صلى الله عليه وسلم) واصحابه فهزموا ابا سفيان فلما رأى ذلك خالد بن الوليد حمل على المسلمين فرمته الرماة فتراجع واختفى ... واعاد المحاولة مرة اخرى ونبال الرماة تنهال على اصحابه فتقتل منهم من تقتل وتضطرهم الى الإنسحاب[٣٤٢].

وقاتل مصعب بن عمير دون الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى قتل على يد إبن قميئة الليثي الذي ظنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتسلم اللواء علي رضي الله عنه بأمر من الرسول ، وراح المسلمون يجالدون اعداءهم حتى انزل الله نصره عليهم وصدقهم وعده ، فراحوا يستأصلونهم بالسيوف حتى كشفوهم عن مواقعهم ، وكانت الهزيمة لا شك فيها[٣٤٣].

الا ان لحظة من لحظات الضعف البشري ساقت الرماة الذين كانوا على جبل أحد الى نسيان أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) ومغادرة مواقعهم لمشاركة اخوانهم في مطاردة المشركين وجمع الغنائم ، فنادى عبد الله بن جبير : أما علمتم عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليكم ؟ فلم يلتفتوا اليه ، وقالت طائفة اخرى من الرماة : بل نطيع الرسول (صلى الله

---

(٣٤١) ابن هشام ، ص ١٧٧–١٧٩ ، الطبري ٢/٥١٦–٥١٧ ، الواقدي ١/٢٢٣–٢٢٨ وانظر بالتفصيل البخاري : التجريد ٢/٨١–٨٢ والواقدي (كذلك) ١/٢٨٥–٢٩٠.

(٣٤٢) الطبري ٢/٥١٠ ، الواقدي ١/٢٢٥–٢٢٩.

(٣٤٣) ابن هشام ، ص ١٧٩–١٨١ ، الطبري ٢/٥٠٧–٥١٠ ، ابن سعد ٢/١/٢٨–٢٩ ، الواقدي ١/٢٢٩–٢٣١ البلاذري : أنساب ١/٣١٧–٣١٨ ، خليفة بن خياط ١/٢٧–٢٨.

عليه وسلم) فنثبت في مكاننا. وبقي بن جبير في عشرة من أصحابه أمرهم بالأنتشار بالجبل لئلا يتيحوا ثغرة للعدو ، واستقبلوا الشمس فانقض خالد عليهم يتبعه عكرمة وقام بحركة التفاف من وراء الجبل[٣٤٤] ، فجرح وقتل الرماة الذين ثبتوا في اماكنهم ، وراح عبد الله بن جبير يقاتلهم بما تبقى معه من نبال حتى فنيت ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر فكسر جفن سيفه وراح يقاتلهم حتى قتل[٣٤٥] ، وخرجت امعاؤه من ضربات الرماح[٣٤٦] ، ثم انقض خالد بخيالته على ظهور المسلمين يعمل فيهم قتلا وجرحا ، وصرخ صارخا ان محمدا قد قتل ، فتشتت المسلمون تحت وقع المباغتة المميتة وما ان راى المشركون المنهزمون ما فعل خالد ، حتى عادوا ثانية الى ساحة القتال ، واوقعوا المسلمين في شقي الرحى ، وراحوا يحصدونهم حصدا[٣٤٧].

ولم يفقد الرسول (صلى الله عليه وسلم) رباطة جأشه ، وقدرته على القيادة والتخطيط للخروج من المحنة القاسية التي كادت تأتي على أصحابه ، ودعوته ، وتعرض مصير ست عشرة سنة من الجهد والعذاب للضياع ... فرأى أن يتخذ من مكان قيادته مركزا يتجمع المسلمون فيه ثانية كي لا يتبعثروا وينفرد المشركون بهم ويحيلوا نصرهم إلى عملية إبادة شاملة ، فاتجه صوب الشعب يصحبه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وجماعة من المسلمين بلغوا ثلاثين رجلا ، بينما كان الآخرون قد تشتتوا في أطراف الميدان وعاد بعضهم الى المدينة. ورأت طائفة اخرى أن يبعثوا الى عبد الله بن أبي كي يطلب الأمان لهم من أبي سفيان وقالوا : يا قوم ، إن محمدا قد قتل ، فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فأعترض أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا ما قاتل عليه محمد ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل.

وراح الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ، حتى صارت قوسه شظايا ، ويقاتل معه اصحابه المحيطون به ، قتالا بطوليا مريراً ، تساقط منهم خلاله الكثير وهم ينافحون عن نبيهم ودعوتهم. وقف ستة رجال من الأنصار ، يدافعون عنه (صلى الله عليه وسلم) ويقتلون دونه وكان آخرهم رجل يسمى زياد بن السكن ، أصابه جرح مميت فنادى الرسول (صلى الله عليه

---

(٣٤٤) الواقدي ٢٨٤/١ ، البلاذري أنساب : ٣١٨/١-٣١٩.

(٣٤٥) الواقدي ٢٣٢/١.

(٣٤٦) الواقدي ٢٨٤/١.

(٣٤٧) ابن هشام ، ص ١٨١ ، الطبري ٥٠٩/٢-٥١٠ ، ابن سعد ٢٩/١/٢ ، الواقدي ٢٢٩-٢٣٣.

وسلم) ادنوه مني فأدنوه منه فوسده قدمه وبه أربعة عشر جرحا ، فمات هناك. ورمى سعد ابن أبي وقاص ، دون الرسول (صلى الله عليه وسلم) والرسول يناوله النبل ويقول : فداك أبي وأمي. وترّس ابو دجانة بنفسه دون الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل ، وخلص بعض المشركين الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعتزمون قتله ، وانهالت الحجارة عليه ... فأصيبت رباعيته ، وجرح وجهه وكلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فجعل الدم يسيل على وجهه وجعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ ... وما لبث أن ادركه أبي ابن خلف وهو يقول : أي محمد لانجوت إن نجوت ! فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال : دعوه ، وتناول حربته واستقبل بها غريمه وقذفه بها فاستقرت في عنقه فسقط عن فرسه يتلوى ومات في عودته إلى مكة[٣٤٨] ، واقبل الحباب بن المنذر يصيح يا آل سلمى فأقبلوا كتلة واحدة وهم يهتفون لبيك داعي الله لبيك ، وترتفع حناجرهم بشعار المسلمين : أمت أمت[٣٤٩] ، وقاتل كعب بن مالك قتالاً شديداً حتى جرح سبعة عشر جرحا[٣٥٠] ، ونثر ابوطلحة كنانته بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان راميا وجعل يصيح : يا رسول الله نفسي دون نفسك ، فلم يزل يرمي بها سهما سهما حتى فنيت نبله وهو يقول لنبيه : نحري دون نحرك جعلني الله فداك[٣٥١]. وانقض سعد بن أبي وقاص باحثا عن اخيه الذي كسر رباعية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتله ولكنه افلت منه[٣٥٢]. وقاتل طلحة بن عبيد الله عن النبي قتالا شديدا ، واصابه سهم شل إصبعه حتى أن سعد بن ابي وقاص قال عنه : يرحمه الله إنه كان اعظمنا غناءً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم أحد ، لزم النبي وكنا نتفرق عنه ونؤوب اليه ، لقد رأيته يدور حول النبي (صلى الله عليه وسلم) يترس بنفسه !! وقال عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) : من احب أن ينظر إلى رجل يمشي

---

(٣٤٨) ابن هشام ، ص ١٨١-١٨٤ ، الطبري : تاريخ ٥١٤/٢-٥١٩ ، ابن سعد ٢٩/١/٢ ، الواقدي ٢٣٩/١-٢٦٢ ، البلاذري : أنساب ٣١٨/١-٣٢١.

(٣٤٩) الواقدي ٢٣٤/١.

(٣٥٠) الواقدي ٢٣٦/١.

(٣٥١) الواقدي ٢٤٣/١.

(٣٥٢) الواقدي ٢٤٥/١.

في الدنيا وهو من أهل الجنة فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله[٣٥٣] ، وقد تلقى وهو يقاتل المشركين، ضربة قاسية على رأسه ، من أحد المشركين ، فنزف منه الدم ، واغمي عليه ، فقال الرسول لأبي بكر : عليك بابن عمك فجأءه وراح ينضح الماء على وجهه ولما أفاق سأل : مافعل الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ أجابه أبو بكر : خيرا ، هو ارسلني. فرد طلحة : الحمد لله ، كل مصيبة بعده جلل[٣٥٤].

واقبل وهب بن قابوس المزني ، وابن اخيه الحارث بن عقبة ومعهما غنم لهما فدخلا المدينة ، فلقياها قد خلت من الناس !فقالا : اين الناس ؟ فقيل بأحد ، وخبرا الخبر ، فخرجا مقاتلين حتى قتلا[٣٥٥]. ومر احد المقاتلين على خارجة بن زيد وبه ثلاثة عشر جرحا كلها قد خلص إلى مقتل فقال : أما علمت أن محمداً قد قتل ؟ قال خارجة : إن قتل محمد فإن الله حي لا يموت ، فقاتل عن دينك ، فقد بلغ محمد رسالة ربه[٣٥٦]. وقاتلت نسيبة بنت كعب مع زوجها وولدها ، وابلت بلاء حسن فجرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ودافعت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إزاء محاولات قتله من قبل المشركين دفاعا مستميتا ، ولما جرح احد ابنيها ، وراح الدم ينزف منه بغزارة ، من عضده اليسرى ، سعت امه اليه وربطت جرحه بعصابة كانت قد اعدتها لمداواة الجرحى ثم قالت له إنهض يا بني فضارب القوم ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يناديها : ومن يطيق ماتطيقين يا أم عمارة ؟ ويلتفت الى اصحابه قائلا : ما التفت يمينا وشمالا إلا وأنا اراها تقاتل دوني ، فسألته نسيبة : أدع الله أن نرافقك في الجنة قال : أللهم إجعلهم رفاقي في الجنة. فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا[٣٥٧]. وخرجت السميراء بنت قيس وقد أصيب إبناها ، فلما نعيا لها قالت : ما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالوا : خيراً ، وهو بحمد الله على ما تحبين. قالت : ارونيه أنظر

---

(٣٥٣) الواقدي ٢٥٤/١-٢٥٥.

(٣٥٤) الواقدي ٢٥٥/١ ، وانظر عن بطولات كذلك ، المصدر نفسه ٢٥٦/١-٢٦٢ ، ٢٧٤-٢٨٤ ، ٣٩١. وعن بطولات النساء انظر : المصدر نفسه ٢٦٤/١-٢٧٤ ، ٢٩٢ ، وانظر هامش (٣٠) وما يليه.

(٣٥٥) البلاذري : أنساب ٣٢٦/١.

(٣٥٦) المصدر السابق ٣٢٦/١.

(٣٥٧) الواقدي ٢٦٨/١-٢٧٣.

إليه، فأشاروا لها إليه فقالت : كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[٣٥٨]. ولقيت أم أيمن جماعة من المنهزمين ، فجعلت تنثر التراب في وجوههم وتقول : هاك المغزل فاغزل به[٣٥٩].

***

تمكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) واصحابه من الصمود لهجمات المشركين وعرف المسلمون الذين تشتتوا في ميدان المعركة ، في اعقاب التفاف خالد ، وانتشار شائعة وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، عرفوا أن رسولهم لم يمت فتجمعوا حوله ، وطلب (صلى الله عليه وسلم) منهم أن يتراجعوا صوب جبل أحد وأن يحصبوا المشركين بالحجارة ، وان لا يسمحوا لهم بأن يلتفوا عليهم من فوقهم. وسعت فرقة من القرشيين إلى الالتفاف حول المسلمين كرة اخرى والانقضاض عليهم من جبل أحد فتصدى لهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وجماعة من المهاجرين حتى اجلوهم عن الجبل ونهض (صلى الله عليه وسلم) الى صخرة أحد ليعلوها فلم يستطع لشدة إعيائه وثقل دروعه فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض حتى استوى عليها. وادرك المشركون ان دون إبادة المسلمين وتفتيتهم المستحيل وكانوا قد اصابهم التعب والجراح فآثروا الإنسحاب مكتفين بهذا القدر من النصر على المسلمين وهو قدر كما أعتقدوا ليس بالقليل، واشرف ابو سفيان على مرتفع عال ونادى بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر اعلى هبل ! فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعمر : قم فأجبه وقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فطلب أبو سفيان من عمر أن يقترب وقال له : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : أللهم لا ، وانه ليسمع كلامك الآن ، فأنصرف أبو سفيان ومن معه وهو ينادي : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال (صلى الله عليه وسلم) لعمر قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد[٣٦٠]!! وتوقف القتال ، وقد خسر المسلمون بضعة وسبعين قتيلا، وقيل خمسة وستين ، أما المشركون فلم يزد عدد قتلاهم على ثلاثة وعشرين رجلاً[٣٦١]. ولم تغب عن ذهنه (صلى الله عليه وسلم) وهو يعاني التعب والسهر والجراح ، ان المشركين ربما فكروا بهجوم حاسم على المدينة فقطعوا الطريق على المسلمين في أحد وعرضوهم لمصير أشد حلكة

---

(٣٥٨) الواقدي ٢٩٢/١.

(٣٥٩) البلاذري : أنساب ٣٢٦/١.

(٣٦٠) ابن هشام ، ص ١٨٦-١٨٧ ، الطبري ٥٢١/١-٥٢٢ ، ٥٢٦ - ٥٢٧ ، ابن سعد ٣٣/١/٢ ، الواقدي ٢٩٤/١-٢٩٨ ، البلاذري : أنساب ٣٢٧/١.

(٣٦١) ابن سعد ٢٩/١/٢ - ٣٠ ، البلاذري : انساب ٣٢٨/١-٣٣٥ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٣٤/١.

وخطرا من المعركة نفسها ، فطلب من علي (رضي الله عنه) أن يخرج في أعقاب القوم فينظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الأبل فأنهم يريدون مكة ، وأن ركبوا الخيل وساقوا الأبل فإنهم يريدون المدينة ، وأقسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) (والذي نفسي بيده لأن أرادوها لأسيرن اليهم ثم لاناجزنهم فيها) ، لكن علياً مالبث أن عاد ، ليخبره بأن المشركين أمتطوا الأبل ويمموا وجوههم شطر مكة[٣٦٢]. ومن اجل المزيد من ضمان عدم عودة المشركين لمهاجمة المدينة ، أنتدب (صلى الله عليه وسلم) سبعين رجلا من أصحابه لمتابعة المشركين والتأكد من عدم إعتزامهم الرجوع[٣٦٣].

لقد أجمع المؤرخون على اعتبار نتيجة أحد نصرا للمشركين على المسلمين ، لكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما اجمع عليه هؤلاء. لقد كان بامكان المشركين القضاء على قوات المسلمين في معركة أحد ، بعد ان استطاعوا إحاطتهم من كافة الجوانب ، بقوات متفوقة عليهم تفوقا ساحقاً ، ومع ذلك استطاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يشق طريقه بين القوات المحيطة به ويخلص تسعة اعشار قواته من فناء أكيد.

إن فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد ان احاطوهم بقواتهم المتفوقة يعتبر اندحارا لهم ، وان نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين والتخلص منه بخسائر عشرة بالمائة بقواتهم القليلة يعتبر نصرا لهم. وبالاضافة الى نجاح المسلمين في التخلص من الفناء التام في أحد ، فقد نجحوا في معرفة المنافقين في صفوفهم قبل المعركة وبعدها ، مما اتاح لهم القيام بالتطهير التام في صفوفهم بعد احد على هدى وبصيرة ، وبذلك تظهر الفائدة العظيمة لغزوة احد للمسلمين. ان نتيجة احد نصر تعبوي[٣٦٤] للمشركين على المسلمين ولكنه فشل سوقي[٣٦٥] للمشركين ، ولا يعد النصر التعبوي شيئا يذكر الى جانب الفشل السوقي[٣٦٦].

***

(٣٦٢) ابن هشام ، ص ١٨٧ ، الطبري ٥٢٧/٢ – ٥٢٨ ، الواقدي ٢٩٨/١–٢٩٩.

(٣٦٣) البخاري : التجريد ٨٢/٢.

(٣٦٤) التعبية : هي الأعمال العسكرية في المعركة : خطاب : الرسول القائد ، هامش ١ ، ص ١٢٥.

(٣٦٥) السوق : هو الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب. ومن ذلك يتضح ان السوق يعني نتائج الحرب كلها بينما تعني التعبية نتائج معركة محلية واحدة : المرجع السابق ، هامش ١ ، ص ١٢٥.

(٣٦٦) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ١٢٤–١٢٥.

فزع الناس لقتلاهم فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا انظر لك يارسول الله ما فعل سعد ، فنظر فوجده جريحا في القتلى وبه رمق فقال له : إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمرني أن انظر في الاموات أنت أم في الأحياء ؟ قال : أنا في الأموات فأبلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) عني السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف[٣٦٧].

وخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) يبحث عن جسد حمزة فوجده ببطن الوادي ، قد بقرت بطنه فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم !! فلما رأى المسلمون حزن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وغيظه قالوا : والله لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، إلا ان الآيات القرآنية نزلت بالقيم الثابتة التي تتجاوز مواقف الانفعال والآلام {**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ(١٢٦)وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**}[٣٦٨] فعفا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونهى عن المثلة ، ثم أمر بحمزة فسجي ببردة ثم صلى عليه ثم أمر بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة واحدا واحدا ، فصلى عليهم وعليه حتى أنه صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة هي عدد القتلى من المسلمين ، وآثر (صلى الله عليه وسلم) مصعبا بن عمير وهو مقتول ببردة له ، وقال : ((رحمك الله ، لقد رأيتك بمكة ومابها أرق خلة ولا أحسن حلة منك ، ثم أنت في أشعث بردة))[٣٦٩]. وجاءت صفية بنت عبد المطلب وقد سمعت بأن أخاها قد مثل به فقالت : ما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبّن ولأصبرن إن شاء الله ! ، وكان بعض المسلمين قد حملوا قتلاهم ليدفنوهم في المدينة فنهاهم (صلى الله عليه وسلم) قائلا : ((ادفنوهم حيث صرعوا)).

---

(٣٦٧) ابن هشام ، ص ١٨٧-١٨٨ ، الطبري ٥٢٨/٢ ، الواقدي ٢٩٢/١-٢٩٣.

(٣٦٨) سورة النحل ، (الآيتان ١٢٦-١٢٧).

(٣٦٩) البلاذري : انساب ٣٣٦/١.

ثم وقف عليهم وقال : ((أنا شهيد على هؤلاء ، إنه مامن جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك)) ، ثم قفل (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه عائدين إلى المدينة في نفس اليوم السبت الخامس عشر من شوال[٣٧٠].

***

لم يلبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اليوم التالي أن قام بمناورة عسكرية استهدفت تحقيق أهداف عدة منها إرهاب العدو ، مشركين واعرابا ، منافقين ويهودا ، وإشعارهم ان المسلمين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية ، وان هزيمة أحد لم توهنهم عن أهدافهم ، ومنها رفع معنويات المسلمين وإزالة الآثار النفسية المؤلمة ، التي خلفتها معركة أحد ، والتي كان بإمكانها أن تحفر في نفوسهم خنادق وحفراً لا تمحوها الأيام ، فنادى مناديه في السادس عشر من شوال أن يتهيأ الناس لطلب العدو وأن لا يخرج معهم احد لم يشترك في معركة أحد ، يوم أمس ، وانطلق (صلى الله عليه وسلم) واصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية اميال من المدينة ، وكان المشركون قد بلغوا الروحاء على بعد ليلتين من المدينة ، وعسكروا هناك ، واجمعوا امرهم على العودة ثانية لقتال المسلمين بعد ان ادركوا انهم لم يستأصلوا شأفتهم ، لكن رجلاً من خزاعة ، حلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مر بهم واعلمهم أن محمدا يطلبهم على رأس قوة كبيرة من المسلمين تتحرق شوقا لقتالهم ، انضم اليها حتى الذين لم يشهدوا أحدا ، فعدل المشركون عن رأيهم ، واستأنفوا طريق عودتهم إلى مكة ، الا ان أبا سفيان رأى ان يستفز المسلمين ويرهبهم فدس إليهم من يخبرهم ، أن قريشاً عائدة لاستئصالهم ، فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا ان قال : حسبنا الله ونعم الوكيل. واقام هناك ثلاثة ايام ، ثم قفل عائدا وقد حقق الأهداف التي توخّاها من مناورته تلك[٣٧١].

***

---

(٣٧٠) ابن هشام ، ص ١٨٨-١٩٠ ، الطبري ٢/٥٢٨-٥٢٩ ، ٥٣٢ ، الواقدي ١/٢٨٩-٢٩٠ ، ٣٠٩-٣١٧.

(٣٧١) ان هشام ، ص ١٩١-١٩٣ ، الطبري ٢/٥٣٤-٥٣٦ ، ابن سعد ٢/١/٣٤ ، الواقدي ١/٣٣٤-٣٤٠ خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٥ ، المسعودي تنبيه ، ص ٢١١ ، البلاذري : انساب ١/٣٣٨-٣٣٩ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٢/١٦٤-١٦٥ ابن كثير : البداية ٤/٤٨-٥٢. وعن الآيات المتعلقة بمعركة احد انظر : سورة آل عمران : (الآيات ١٢١-١٢٨ ، ١٣٧-١٦١ ، ١٦٤-١٧٦).

لقد جاءت هزيمة أحد تعليما قيما للمسلمين ، عبر دروب صراعهم المرير ضد الأعداء ، وكأن ارادة الله شاءت أن يكبو المسلمون هذه الكبوة ، بعد سلسلة الانتصارات التي حققوها قبل بدر وبعدها ، لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الاعمى والاتكالية السالبة ويحشر في صفوفهم الكثير الكثير من ضعاف الايمان وطالبي المغانم ، فلا بد من هزة عنيفة تنخل المنتمين الى الدعوة وتسقط عنهم اولئك الذين لا يقدرون على الصمود ومجابهة الخطر وجها لوجه ، وممارسة الموت بإيمان.

ولقد ظل القرآن الكريم ، الذي خصص الكثير من آياته في سورة آل عمران لهذه التجربة المرة ، ظل طيلة العصر المدني ، كما كان شأنه في العصر المكي ، يعلم المسلمين بالتجارب والاحداث ويبني حركتهم بالهزائم والانتصارات وتتنزل آياته مفرقة وعلى مكث ، واحدة واحدة ، ومجموعة مجموعة ، إثر كل حادث يمارسه المسلمون ، وعقب كل تجربة يخوضونها ... تتنزل لكي تمتزج مع حيوية التجربة المعيشة وواقعيتها وثقلها ، لكي ما تلبث هذه الآيات ان تغدو جزءا من كيان المسلم ، متمثلا في دمه ولحمه وعصبه ووجدانه ، انه الارتباط الشرطي الذي أشار اليه ((علم النفس)) ، إن القيم والتعاليم إذا ارتبطت بحدث خطير له في النفوس وقع كبير سرعان ما تستقر في اعماق النفوس والقلوب والعقول ، وتبقى هنالك حتى النهاية ، تؤتي ثمارها نضجا للتجربة وتقويما للحركة واستقامة على الطريق.

ولا بأس هنا ان نختار فقرات من (فقه السيرة) يعقب فيها محمد الغزالي على موقف القرآن الكريم إثر معركة (احد) من الهزيمة التي كان لابد منها في علم الله وقدرته لكي يتعلم المسلمون من نارها الممحصة وعن طريق ما يرتبط بها من آيات بينات ملامح الطريق : {**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**}[٣٧٢]. فلقد ((ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات ، ولا غرو فحساب المنتصر على اخطائه أشد من حساب المنكسر. في المرة الأولى قال : {**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧)لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}[٣٧٣].

---

(٣٧٢) سورة آل عمران ، (الآية ١٧٩).

(٣٧٣) سورة الانفال ، (الآيتان ٦٧-٦٨).

أما في أحد فقال : {**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين**}[٣٧٤].

حسب المخطئين ما لحقهم من أوضار الهزيمة ، وفي القصاص العاجل درس يذكر المخطىء بسوء ما وقع فيه. وقد اتجهت الآيات الى مزج العقاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين النفوس المؤمنة ، حتى لايتحول انكسارهم في الميدان الى قنوط يغل قواهم ، وحسرة تشل انتاجهم {**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١٣٧)هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٨)وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**}[٣٧٥]، ثم مضى الوحي يذكر المسلمين ما جهلوا من سنن الحياة ويذكرهم بما نسوا من ذلك فيبين أن المؤمن مهما عظمت بالله صلته فلا ينبغي أن يغتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه ! كلا ، كلا. فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئا منها لم يكن عليه ، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع {**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...**}[٣٧٦] {**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**}[٣٧٧]. واولو الألباب يستحيون ان يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه ، وهم يبدون استعدادهم للتضحية بانفسهم لقاء ماينشدون ، بيد ان الاستعداد ايام الامن يجب ان لا يزول ايام الروع. ان الانسان في عافيته قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخداع ، فليحذر المؤمن هذا الموقف وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء : {**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**}[٣٧٨] ، ثم عاتب الله عز وجل من اسقط في ايديهم وانكسرت همتهم لما أشيع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مات. ماكذلك يسلك اصحاب العقائد ، انهم اتباع مبادىء لا أتباع اشخاص ، ولو افترض ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قتل وهو ينافح عن دين الله فحق على اصحابه ان يثبتوا في مستنقع الموت ، وان يردوا المصير نفسه

---

(٣٧٤) سورة آل عمران ، (الآية ١٥٢).

(٣٧٥) سورة آل عمران ، (الآيات ١٣٧-١٣٩).

(٣٧٦) سورة آل عمران ، (الآية ١٤٠).

(٣٧٧) سورة آل عمران ، (الآية ١٤٢).

(٣٧٨) سورة آل عمران ، (الآية ١٤٣).

الذي ورده رائدهم ، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ... إن عمل محمد (صلى الله عليه وسلم) ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمة في فكر الإنسان وضميره ، فإذا أدى رسالته ومضى فهل يسوغ للمستنير أن يعود الى ظلماته فلا يخرج منها ؟ لقد جمع (صلى الله عليه وسلم) الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله ، والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق وصلة لهم بالله ، فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية {**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**}[٣٧٩] .. ولعل ماترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة والجندية ... فإحسان الطاعة كإحسان القيادة. فكما أن إصدار الأوامر يحتاج الى حكمة ، فإن انفاذها يحتاج الى كبح وكبت ، ولكن عقبى الطاعة في هذه الشؤون تعود على الجماعة بالخير الجزيل. لذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله أنهم هم مصدرها ، فما أخلفهم موعدا ولا ظلمهم حقا : {**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}[٣٨٠] ...))[٣٨١].

ولذلك أيضاً يحدثنا مجاهد بأن الملائكة حضرت معركة أحد لكنها لم تقاتل لما كان من المسلمين ، كما يحدثنا عبد الحميد بن سهيل بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يمد يوم أحد بملك واحد[٣٨٢] ، هذا بينما كان مقاتلو بدر قد تلقوا ساعة الصمود والصبر معونة سماوية قدرت بآلاف الملائكة مردفين كما تلقى الرجال الذين قاموا وراء الخندق ، فيما بعد ، عشرين ليلة ، باذلين كل جهدهم وإمكاناتهم ، معونة إلهية اخرى جاءت على شكل ريح عاتية لم تدع للمعسكر الوثني ، بعد التصدع النفسي الذي أصابه ، فرصة للتجمع والتفكير والاستقرار ، فكان الانسحاب ... ذلك هو منطق العون الإلهي الذي علمنا إياه الإسلام منذ تجربة الهجرة وما قبلها .. إن مدد الله لا يتنزل الا على أولئك الذين استكملوا الأسباب البشرية جميعا ... حركة وعقلا وإرادة وتصميماً ، وبدون ذلك لن تتنزل معونة الله حتى لو حبسوا أنفسهم في المساجد ليلا ونهاراً.

---

(٣٧٩) سورة آل عمران ، (الآية ١٤٤).

(٣٨٠) سورة آل عمران ، (الآية ١٦٥).

(٣٨١) انظر بالتفصيل : محمد الغزالي : فقه السيرة ، ص ٢٨٠-٢٨٩ والمؤلف : في النقد الإسلامي المعاصر ص ١٣٦-١٣٩-١٤١.

(٣٨٢) البلاذري : أنساب ٣٢٢/١.

***

وجدت الوثنية العربية فرصتها للانتقام من المسلمين في أعقاب هزيمتهم في أحد وراحت توجه اليهم الضربات الغادرة كلما تمكنت منها ، متجاوزة في ذلك أعرافها وقيمها الجاهلية التي درجت عليها مئات السنين.

فبعد وقت قصير من عودة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة بعد أحد قدم عليه وفد من قبيلتي عضل والقارة في صفر ، وقالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من اصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) معهم سبعة من أصحابه ... مرثد بن أبي ، خالد بن أبي البكير ، معتب بن عبيد ، عاصم بن ثابت ، خبيب بن عدي ، زيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد[٣٨٣]. فانطلق الدعاة يتجاوزون الصحراء حتى إذا بلغوا ماء الرجيع بين عسفان ومكة ، حيث تقطن بنو هذيل ، غدر بهم أعراب عضل والقارة ، فاستصرخوا عليهم هذيلاً ، التي كان زعيمها سفيان بن خالد قد قتل على أيدي المسلمين في اعقاب أحد حيث حشد اتباعه للهجوم على المدينة ، فلم يرع الدعاة إلا والرجال بأيديهم السيوف يحيطون بهم، فشهروا أسيافهم ليقاتلوهم فقال لهم رجال بني هذيل : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكن نريد أن نصيب بكم مالاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لانقتلكم. فأما خالد ومرثد وعاصم ومعتب فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، وانطلقوا يقاتلون وعاصم ينشد :

.. .. **الموت حق والحياة باطل**

وكل ما حمّ الإله باطل بالمرء والمرء إليه آيل

حتى قتلوا جميعا ... أما اخوانهم الثلاثة ، فقد أسرتهم هذيل وحملتهم الى مكة لتبيعهم بها ، ومعنى هذا أنها تسلمهم لمصارعهم ، حتى إذا بلغوا الظهران تمكن عبد الله بن طارق من انتزاع يده من الحبل الذي شدت به ، واشهار سيفه ، فانهال عليه آسروه ضربا بالحجارة حتى قتل.

واقتيد خبيب وزيد إلى مكة حيث استبدلا هناك بأسيرين كانا في مكة. فأما زيد فقد ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله ثأرا لأبيه ، أمية بن خلف ، وبعث به إلى مكان خارج مكة ليلاقي مصيره، واجتمع حوله رهط من قريش وسأله أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يازيد أتحب

---

(٣٨٣) يجعلهم ابن سعد عشرة : ٣٩/١/٢.

أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإني جالس في أهلي. فقال ابو سفيان للملأ من حوله : ما رايت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتل زيد رحمه الله[٣٨٤].

وخرجوا بخبيب الى نفس المكان ليصلبوه فسألهم أن يمنحوه فرصة يركع فيها ركعتين ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سن ركعتي القتل عند المسلمين. وعندما رفعوه على الخشبة وأوثقوه ، رفع وجهه الى السماء فقال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ... اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم احدا وصلبوه وهو ينشد :

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناي من غير مجزع
فو الله ما أرجو إذا مت مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي[٣٨٥]

***

وفي صفر في نفس العام ، قدم أبو براء عامر بن مالك ، الملقب بملاعب الأسنة ، على رسول الله في المدينة ، فعرض عليه الرسول الإسلام ، ودعاه اليه ، فلم يسلم ، ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم الى أمرك ، رجوت ان يستجيبوا لك. وعندما أعلمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إنه يخشى عليهم أهل نجد ، بعد ان اصيب أصحابه في ماء الرجيع ، قال : أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى

---

(٣٨٤) ابن هشام ، ص ١٩٦-١٩٦ ، الطبري ٢/٥٣٨-٥٤٢ ، ابن سعد ٢/١/٣٩-٤٠ ، الواقدي ١/٣٥٤-٣٦٣ ، خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٦ - ٣٧ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٧٦-١٧٨ ، المقدسي ٤/٢٠٩-٢١١ ، ابن كثير : البداية ٤/٦٢-٦٧.

(٣٨٥) ابن هشام ، ص ١٩٧-١٩٩ ، الطبري : تاريخ ٢/٥٤١ ، الواقدي ١/٣٥٧-٣٦١ ، المسعودي : التنبيه، ص ٢١٢-٢١٣ ، خليفة بن خياط ١/٣٦-٣٧.

أمرك[٣٨٦]. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرف يقيناً ان انتصار دعوته وانتشارها لا يتحقق بغير تضحيات ، وأن الانسياق وراء الحيطة والحذر في ميدان التضحية والفداء لا يقود إلى النصر ، وأن عليه أن يختار في هذه اللحظات القلقة ، الطريق الصعب كي لاتقول العرب إن الرسول قد عجز عن الاستمرار في الطريق حتى النهاية ، اخافته مقاتل أصحابه ، هذا الى ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث اصحابه هذه المرة لكي ينتحروا ، فهم الآن أكثر عددا ، وفي جوار رجل وضعهم في جواره ، ولم يعرف عن العرب ، حتى تلك اللحظة ، إنهم خرقوا قدسية الجوار ، ولا علم للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالغيب ، فلينطلق أصحابه على بركة الله.

سار الدعاة الاربعون بقيادة المنذر بن عمرو ، حتى نزلوا بئر معونة قريبا من ديار بني عامر ، وتقدم حرام بن ملحان ، بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى زعيم القوم ، عامر بن الطفيل ، لكن عامرا ما أن نظر في الكتاب حتى عدا على حرام فضربه برمح في جنبه خرج من الشق الآخر ، وهو ينادي : فزت ورب الكعبة ! ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه ، التزاما بجوار أبي براء ، فاستصرخ بقبائل سليم المجاورة ، فأجابوه وأحاطوا بالدعاة وهم في رحالهم ، فهرعوا الى سيوفهم ، وقاتلوا القوم قتالا مريرا ، حتى حصدوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد فقد انسحب جريحا من المجزرة ، وتمكن من الوصول إلى المدينة حيث قتل شهيدا في الخندق[٣٨٧].

وكان الدعاة قد تركوا في سرحهم اثنين من رفاقهم هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد الأنصاري ، فلم ينبههما بمصاب اصحابهما إلا الطير تحوم حول المعسكر ، فاقبلا لينظرا فإذا إخوانهما يتضرجون بدمائهم ، ومن حولهم المغيرون على خيولهم ، فرأى عمرو أن

---

(٣٨٦) ابن هشام ، ص ٢٠٠ ، الطبري ٥٤٥/٢-٥٤٦ ، ابن سعد ٣٦/١/٢ ، ويذكر الواقدي ٣٤٩/١ بأن نبأ مأساة الرجيع وصل المدينة في نفس اليوم الذي وصل فيه نبأ الكارثة الأخرى في بئر معونة ، إلا ان تريث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الاستجابة لطلب أبي براء يوحي بأن الرجيع سبقت حادثة بئر معونة رغم عدم امكان الجزم بذلك. وانظر خليفة بن خياط : تاريخ ٣٦/١-٣٩.

(٣٨٧) ابن هشام ، ص ٢٠٠-٢٠١ ، الطبري ٥٤٦/٢-٥٤٩ ، ٥٤٩-٥٥٠ ، ابن سعد ٣٦/١/٢-٣٩ ، الواقدي ٣٤٦/١-٣٤٨ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٣٨/١-٣٩ ، البلاذري : أنساب ٣٧٥/١ ، اليعقوبي تاريخ ٦١/٢ المقدسي ٢١١/٤-٢١٢ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٧٨-١٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ١٧١/٢-١٧٢ ، ابن كثير : البداية ٧١/٤-٧٤.

يعود الى المدينة ، ليخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما حدث ، وأما رفيقه فقد قال : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، أحد اصدقائه ، وما كنت لأبقى حتى تخبرني عنه الرجال ، ثم انقض على القوم ، حتى سقط ، متضرجا بدمائه(٣٨٨).

وفي ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة ، حل الموعد الذي ضربه المسلمون مع أبي سفيان للقاء جديد في بدر ، فخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى هناك على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه ، واقام ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان ، الذي كان قد غادر مكة على رأس مقاتليها ، وعندما بلغ الظهران ، بدأت تتناوشه المخاوف من لقاء المسلمين ، وأخذ يفكر بالرجوع قائلاً : يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فأرجعوا ، فقفلوا عائدين إلى مكة.

وعندما أيقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن أبا سفيان قد نكل عن الموعد ، عاد الى المدينة ، وقد حقق نصرا معنويا ضد قريش ، كما عزز مكانة المسلمين في الصحراء بعدما تعرضت له من تأرجح في أعقاب أحد(٣٨٩).

وانطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أعقاب ذلك صوب قبائل نجد ردا على ما لحق بدعاته في مأساتي الرجيع وبئر معونة ، فيما سمي ((بغزوة ذات الرقاع)) ، بسبب الحجارة التي أوهنت اقدامهم فشدوا عليها رقاعا ، وربما لوجود جبل هناك بهذا الاسم ، الا ان غطفان ، كبرى قبائل نجد ، جمعت للرسول جمعا عظيما ، وعندما تقارب الطرفان تخوف أحدهما الاخر ، وراى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن من المجازفة الاشتباك مع قوات تفوق المسلمين اضعافا مضاعفة فقفل عائدا إلى المدينة(٣٩٠).

---

(٣٨٨) ابن هشام ، ص ٢٠١ ، الطبري ٥٤٧/٢ ، الواقدي ٣٤٨/١-٣٥٢ ، اليعقوبي : تاريخ ٦١/٢.

(٣٨٩) ابن هشام ، ص ٢٠٩-٢١٠ ، الطبري ٥٥٩/٢-٥٦١ ، ابن سعد ٤٢/١/٢-٤٣ ، الواقدي ٣٨٤/١-٣٩١ ، البلاذري : أنساب ٣٣٩/١-٣٤٠ ، المسعودي : التنبيه ، ص ٢١٤.

(٣٩٠) ابن هشام ، ص ٢٠٦ ، الطبري ٥٥٥/٢-٥٥٧ ، ويذهب ابن سعد (٤٣/١/٢-٤٤) إلى أن قبائل غطفان انسحبت من اماكنها ، وهربت الاعراب الى رؤوس الجبال وكذلك يؤكد البلاذري: أنساب ٣٤٠/١-٣٤١، وانظر الواقدي ٣٩٥/١-٤٠٢ ، والبخاري : التجريد ٨٣/٢.

معركة الخنـــدق

عندما بدأت الهزائم تحدق باليهود ، سيما بعد إجلاء بني النضير ، رأى هؤلاء ان يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها ويحدق خطرها بالوجود اليهودي في جزيرة العرب ... وأدركوا أن استثارة قريش وحدها ضد المسلمين أمر غير مضمون العواقب ، وأن انفراد كل قوة وثنية في مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكن الإسلام من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلا بد إذا من أن تتجمع القوى الوثنية كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفة الإسلام ومن ورائها مكر اليهود وأموالهم ..

خرج خمسة من زعماء اليهود وهم سلام بن أبي الحقيق ، كنانة بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب (من بني النضير) وأبو عمار وهوذا بن قيس (من بني وائل) وقدموا إلى مكة واتصلوا بقادة قريش ودعوهم الى حرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله ! وجاءت هذه الدعوة في فترة كانت قريش تعاني فيها من حصار المسلمين الاقتصادي ، وتزداد يقينا بأن معركة أحد لم تفعل شيئاً ، فاستجابت للعرض اليهودي بينما انطلق النفر الخمسة إلى غطفان ودعوهم الى حرب المسلمين لقاء إعطائهم تمر خيبر مدة سنة ، واخبروهم بأنهم سيكونون معهم وان قريشا قد أعدت العدة لهذا الأمر ، وكذلك فعل اليهود مع عدد من القبائل اليهودية الأخرى[٣٩١].

انطلقت الأحزاب الوثنية البالغ عددها عشرة الآف مقاتل[٣٩٢] صوب المدينة .. قريش وأحلافها من بني كنانة وأهل تهامة والأحابيش يقودها أبو سفيان ابن حرب ، وغطفان يقودها عيينة بن حصن الفزاري ، وبنو مرة يقودها الحارث بن عوف ، واشجع يقودها مسعود بن رخيلة .. وما أن سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنباء التحرك الخطير حتى بدأ يخطط لصد أكبر هجوم على الإسلام منذ مولد الدعوة الإسلامية ، وكان الامر يحتم اتخاذ خطة دفاعية، فاستشار أصحابه ورسم معهم مايجب عمله وهو يقضي فيما أشار به سلمان الفارسي (رضي الله عنه) بحفر الخندق لحماية الاجزاء الشمالية المكشوفة من المدينة .. أما الاجزاء الاخرى

---

(٣٩١) ابن هشام ، ص ٢١١-٢١٢ ، الطبري ٢/٥٦٥-٥٦٦ ، ابن سعد ٢/١/٤٧ ، الواقدي ٢/٤٤١-٤٤٣ البلاذري : أنساب ١/٣٤٣ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٤١.

(٣٩٢) يخطىء المسعودي (التنبيه ، ص ٢١٦) في القول بأن عدد الأحزاب بلغ أربعة وعشرين الفاً.

فكانت تتمتع بحصانة طبيعية حيث تمتد حرة واقم إلى الشرق ، وحرة الوبرة إلى الغرب وتتكاثف اشجار النخيل إلى الجنوب .. وكان سائر المدينة فيما عدا جهة الشمال كما يقول ابن سعد : مشبكا بالبنيان فهي كالحصن[٣٩٣] .. الأمر الذي جعل فكرة حفر الخندق أمراً يمكن تنفيذه قبل انقضاض الاحزاب ..

قسم الرسول أصحابه إلى مجموعات كل منها تتكون من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعا .. وأسهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع سائر العاملين في حفر الخندق بهمة ودأب ، وراح ينقل التراب مع أصحابه وينشد وإياهم وقد غطى التراب على بطنه وصدره :

ألاهــمّ ، لــولا أنــت مــا اهتــدينا ولا تصــــــدقنا ولا صــــــلينا

فــــأنزلن ســــكينة علينــــا وثبــــت الأقــــدام إن لاقينــــا

إن الأولـــى لقـــد بغـــوا علينـــا إذا أرادوا فتنـــــــة أبينـــــــا

وكلّما وصلوا المقاطع الأخيرة مدها الرسول رافعا بها صوته[٣٩٤] .. ويحدثنا أحد الصحابة الذين كانوا يعملون في الخندق فيقول : كنت أرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ومرة يحمل التراب في المكتل ، وقد رأيته يوما بلغ منه فجلس (صلى الله عليه وسلم) ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يبعدان الناس أن يمروا به فينبهوه[٣٩٥] ، وقد أدى هذا كله إلى جعل أصحابه يتفانون في العمل ولا يغادر أحدهم موقعه لقضاء حاجياته إلا بعد استئذان الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما أن ينتهي حتى يعود على جناح السرعة لإتمام ما كلف به ايمانا واحتساباً ، وفي هؤلاء العاملين نزلت كلمات الله : **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**[٣٩٦] [٣٩٧].

---

(٣٩٣) ابن سعد ٤٨/١/٢ ، الواقدي ٤٥٠/٢.

(٣٩٤) ابن سعد ٥١/١/٢ ، الواقدي ٤٤٩/٢.

(٣٩٥) الواقدي ٤٥٣/٢.

(٣٩٦) سورة النور ، (الآية ٦٢).

(٣٩٧) ابن هشام ، ص ٢١٢-٢١٣ ، الطبري ٥٦٦/٢-٥٦٨.

كان لتقسيم العمل وإسهام الرسول فيه إلى جانب اصحابه ، والايمان العميق الذي كان يدفع المسلمين إلى بذل كل طاقاتهم لإنجاز الخطة الدفاعية ، وشعورهم بعظم الخطر المحدق بهم ، إن هوجمت المدينة قبل ان ينجز حفر الخندق ، فضلا عن تأميل الرسول (صلى الله عليه وسلم) جنده بالنصر القريب في الأرض وبالأجر العريض في السماء. كان لهذه الامور جميعا الأثر الحاسم في تمكين المسلمين من حفر الخندق الذي يمتد اثني عشر الف ذراع في ستة أيام قبل ان يدهمهم الأعداء .. ومن أجل استكمال الخطة الدفاعية عسكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمقاتلين الثلاثة الآف[٣٩٨] وراء الخندق جاعلا ظهورهم إلى جبل سلع ، موزعا النساء والأطفال في القلاع الحصينة كي يتمكن المسلمون من التحرك بسهولة ويسر إذا حدث وأن تسرب المشركون الى الداخل .. كما شكل كتائب من اصحابه أمرها بان تعسكر في جهات المدينة الأخرى سيما وان هنالك مناطق في الشرق والغرب والجنوب يمكن اجتيازها دون عناء كبير .. كما شكل جماعات أخرى تتجول في المدينة لحراستها من غدرات اليهود .. وتظهر التكبير من أجل رفع معنويات أهليها[٣٩٩] ، وأسهم بنفسه (صلى الله عليه وسلم) في حراسة الخندق إسوة بأصحابه فكان يبيت منفردا هنالك ، كما يحدثنا الواقدي ، في ثلمة كان يخاف أن يتسلل منها المشركون حتى يلفحه البرد[٤٠٠].

***

أقبلت قوات الأحزاب البالغة حوالي عشرة الآف مقاتل وعسكرت قريبا من المدينة في الجهات الممتدة شمالا ، وسرعان ما فوجئت بالخندق وقد سد عليها الطريق الى المدينة فقال زعماؤها : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، وقرروا ان يضربوا الحصار على المسلمين ويسعون بين الحين والحين الى ان يجدوا ثغرة في دفاعهم يتسربون منها للداخل .. وظل المسلمون مفتحي الاعين حذرين ازاء أية محاولة يمكن ان تمنح المشركين جسرا يعبرون عليه إليهم فتكون الطامة الكبرى. وطالت ايام الحصار تخللها رمي بالنبال دون ان يحدث اشتباك حاسم بين المعسكرين ، ورأت مجموعة من فرسان قريش أن تقوم بهجوم سريع علها تنفذ الى الداخل .. فتقدم عمرو بن عبد ود العامري وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب

---

(٣٩٨) يخطىء ابن حزم (جوامع ، ص ١٨٧) بقوله في أن عدد المسلمين في الخندق كانوا تسعمائة.

(٣٩٩) ابن سعد ٤٨/١/٢ ، الواقدي ٤٥٠/٢-٤٥٤.

(٤٠٠) الواقدي ٤٦٣/٢-٤٦٤.

وهبيرة بن أبي وهب ، بعد ان أوعزوا الى اصحابهم بالتهيؤ للقتال واختاروا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمته وسرعان ما تصدى لهم الزبير وعلي وعمر رضي الله عنهم في نفر من المسلمين ، تمكنوا من إجلاء الخيول المغيرة بعد أن قتل علي رضي الله عنه قائدها عمرو بن عبد ود[٤٠١].

كما جرت محاولات عديدة للتسلل الى داخل المدينة من اماكن اخرى ولقد تمكنت كتيبة قرشية شديدة المراس من التوغل في معسكر المسلمين إلا انهم تصدوا لها واشتبكوا معها في قتال استغرق معظم النهار وجزءا من الليل واضطروها اخيرا الى الانسحاب .. وحاولت قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد اكثر من مرة أن تنتهز غرة من المسلمين لإيجاد موضع قدم في الداخل ، إلا أن المسلمين كانوا يردونها بالحجارة والنبال على أعقابها ، هذا بينما ظلت طلائع الأحزاب تتجول ليلا باحثة عن منفذ تنساب منه الى قلب المدينة لتطويق المسلمين من الخلف ولكن دون جدوى[٤٠٢] .. وكل الضحايا الذين سقطوا خلال أيام الحصار لايتجاوزون العشرة من الطرفين[٤٠٣].

لم يكن حصار المشركين وحده هو الذي يضيق الخناق على المسلمين بل كان هنالك من الداخل ما يزيدهم إرهاقا وخوفا وعناء .. الأقوات القليلة المتناقصة يوما بعد يوم ، وشبح الجوع الذي لا يرحم[٤٠٤] ، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة[٤٠٥] ، والحرب النفسية العاتية التي شنتها جيوب المنافقين في صفوف المسلمين مخذلة مخوفة معوقة .. والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى ان محمد بن مسلمة قال : كان ليلنا بالخندق نهارا حتى فرجه الله[٤٠٦] ، ثم جاء انتقاض بني قريظة علامة خطر أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد ، فعظم البلاء واشتد الخوف حتى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يسمح لاحد من أصحابه بالتوجه إلى

---

(٤٠١) ابن هشام ، ص ٢١٧-٢١٨ ، الطبري ٢/٥٧٣-٥٧٤ ، ابن سعد ٢/١/٤٨-٤٩ ، الواقدي ٢/٤٧٠-٤٧٢ ، البلاذري : أنساب ١/٣٤٥.

(٤٠٢) ابن سعد ٢/١/٤٩ ، وانظر الواقدي : ٢/٤٦٤-٤٦٩ ، ٤٧٢-٤٧٣ ، ٤٧٤.

(٤٠٣) الواقدي ٢/٤٩٥-٤٩٦.

(٤٠٤) انظر الواقدي ٢/٤٦٥ ، ٤٧٥-٤٧٦ ، ٤٨٩.

(٤٠٥) انظر الواقدي ٢/٤٦٣ ، ٤٧٥-٤٧٦ ، ٤٨٩.

(٤٠٦) الواقدي ٢/٤٦٨.

داخل المدينة الا وهو يحمل سلاحه حذرا من غدر بني قريظة[٤٠٧] ، وعن أيام المحنة تلك تحدث تحدث القرآن الكريم فيما بعد : {**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(١٠)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا**}[٤٠٨].

***

نشط الرسول (صلى الله عليه وسلم) في العمل على كل الجبهات العسكرية والنفسية لبعث روح المقاومة والصمود في صفوف اتباعه المتعبين القلقين ، فراح يرفع معنوياتهم وينفخ فيها الأمل بالنصر في اللحظات التي تتعرض فيها لليأس المرير. إنه ، وهم يحفرون الخندق ، يؤملهم بأن خيولهم ستطأ في يوم قريب عواصم العالم القديم وستتهاوى تحت وقع سنابكها عروش كسرى وقيصر ، وستمرغ بأسيافهم أنوف كانت تستعلي على الناس زيفا وخديعة وكذبا.

وعند مت تجيء الأخبار مؤكدة نبأ انتقاض بني قريظة ، ينادي : الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين[٤٠٩] ويعدهم بأن مفاتيح الكعبة ستسلم اليه في يوم من الأيام. وزادهم معنوية وصمودا تلك الأمثلة العالية من التضحية والصبر والبطولة ضربها بعض اخوانهم فالتمعت في قلب المحنة شررا تحرك المقاتلون على ضوئه الى اهدافهم ، دفاعا عن المصير الذي صاغوا بدمائهم وأعصابهم جوانب منه ، وسينطلقون فيما بعد لإتمام صياغته إيمانا واحتسابا.

وعلى الجبهة العسكرية لم يدع الرسول واصحابه ثغرة ينفذ منه العدو ولا ترك جانبا يمكن ان يعزز خطة الدفاع والمقاومة إلا اعتمده ونفذه بسرعة ، وها هو الآن يسعى إلى تفتيت جبهة الأحزاب وبدون ذلك لا يتحقق النصر ولا يزول الخطر .. فيبعث إلى قائدي غطفان وبني مرة ويغريهما بثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما ويتخليا عن الحصار ، وانتهت اتصالاته بهما إلى كتابة وثيقة صلح بين الطرفين ، تعمد الرسول أن يؤجل توقيعها ريثما يستشير قادة الأنصار أصحاب المدينة ، فبعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعرض عليهما الأمر فقالا له : يارسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ... والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت ان أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ، فأجاب سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن ياكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى

---

(٤٠٧) نفسه ٤٧٤/٢.

(٤٠٨) سورة الأحزاب ، (الآيتان ١٠-١١).

(٤٠٩) ابن هشام ، ص ٢١٥ ، الطبري ٥٧٢/٢.

يحكم الله بيننا وبينهم ، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : فأنت وذاك : فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحى ما فيها وقال : ليجهدوا علينا ! ومن ثم اطمأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى رغبة أصحابه عامة والأنصار خاصة في الصمود حتى النهاية بوجه الأحزاب(٤١٠).

لم يأل الرسول جهدا لتحقيق هدفه في تفتيت جبهة الأحزاب وتقطيع الرباط الذي يشد بعضها إلى بعض لاسيما ذلك الذي يوحد بين الوثنية في الخارج ويهود قريظة في الداخل ، إذ ان أي تنسيق يحدث بين الطرفين سيمنح المشركين طريقا أمينا يختارونه عبر أحياء بني قريظة إلى قلب المدينة ، وهنالك تقع الكارثة ويجد المسلمون أنفسهم وهم محاطون بالآف المشركين يجوبون ديارهم ويعملون فيهم قتلا وأسرا وتشريدا.

وما لبثت العناية الإلهية أن ساقت اليه رجلا قد أسلم حديثا يدعى نعيم بن مسعود ، فعرض على الرسول خدماته قائلا : إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة(٤١١).

غادر نعيم بن مسعود معسكر المسلمين صوب بني قريظة ، وكان نديما لهم في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم ، فيه أموالكم وابناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على ان تحوّلوا منه إلى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليهم وبلدهم واموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على ان تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه!! .. فقالوا له : لقد أشرت بالرأي. ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان ومن معه من زعماء مكة : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقا أن ابلغه لكم ، نصحا لكم فأكتموا عني ، فقالوا نفعل ، قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينكم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا ،

---

(٤١٠) ابن هشام ، ص ٢١٦-٢١٧ ، الطبري ٢/٥٧٢-٥٧٣ ، ابن سعد ٢/١/٤٩ ، الواقدي ٢/٤٧٧-٤٨٠، البلاذري : أنساب ١/٣٤٦-٣٤٧.

(٤١١) ابن هشام ، ص ٢١٨-٢١٩ ، الطبري ٢/٥٧٨ ، الواقدي ٢/٤٨٠-٤٨١.

فهل يرضيك أن ناخذ اليك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من اشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا .. واتجه نعيم بعد ذلك إلى غطفان وأقنعهم بما أقنع به قريشا(٤١٢).

وفي ليلة السبت من شوال السنة الخامسة للهجرة أرسلت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين إلى بني قريظة لكي يقولوا لهم إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسل لهم اليهود ، إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإننا نخشى إذا ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تذهبوا الى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه(٤١٣)!.

فلما عاد الوفد الوثني وأخبر قريشا وغطفان بما دار من حديث مع بني قريظة ازداد يقين القبيلتين بما قاله نعيم بن مسعود وأرسلوا الى بني قريظة : إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا ، وعندما بلغ بني قريظة ذلك ، قال زعماؤها : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن سنحت لهم الفرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلو بينكم وبين الرجل في بلدكم. فكان جوابهم لقريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهائن ، فأبى المشركون الاستجابة لطلبهم وتحقق بذلك هدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تفتيت الجبهة الوثنية – اليهودية، وكان ذلك بداية النصر الذي بدأ يلوح في الأفق في أعقاب حصار جاوز العشرين يوماً.

***

ولما كان المسلمون قد استكملوا جدهم في العمل والصمود فإن نصر الله المباشر سرعان ما تنزل رياحا شتائية شديدة البرودة سلطها الله (سبحانه وتعالى) على معسكرات المشركين فراحت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم وتنزع خيامهم ، فلم يعد يقر لهم معها قرار .. وحينذاك بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) صحابيا موثوقا من كبار أصحابه هو حذيفة بن اليمان لكي يتسلل الى المعسكرات المشركين ويطلع على جلية الأخبار.

---

(٤١٢) ابن هشام ، ص ٢١٩-٢٢٠ ، الطبري ٢/٥٧٨-٥٧٩ ، الواقدي ٢/٤٨١-٤٨٢.

(٤١٣) ابن هشام ، ص ٢٢٠ ، الطبري ٢/٥٧٩ ، ابن سعد ٢/١/٤٩-٥٠ ، الواقدي ٢/٤٨٢-٤٨٥.

ويحدثنا حذيفة نفسه عن المهمة التي كلف بها : ((دعاني الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليلا وقال : ياحذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولاتحدث شيئا حتى تأتينا ، فذهبت ودخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء. وقام أبو سفيان وقال : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه ؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان بجانبي فقلت له : من أنت ؟ فقال فلان بن فلان ، ثم قال ابو سفيان : يا معشر قريش والله إنكم ما اصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام وأطلق عقال جمله ، ولو عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلي أن لا أحدث شيئا حتى آتيه ثم شئت لقتلته بسهم لكني عدت واخبرت الرسول (صلى الله عليه وسلم) الخبر ...)).

وعندما سمعت غطفان بما فعلت قريش قفلت هي الاخرى عائدة الى بلادها[٤١٤]. ومد المسلمون أبصارهم فجر اليوم التالي إلى ما وراء الخندق فلم يروا احدا فعرفوا آنذاك إن مقاومتهم التي تجاوزت العشرين يوما قد آتت ثمارها وان ايمانهم قد صمد لأخطر محنة جابهوها طيلة حياة الكدح والمطاردة والحرب والكفاح .. ليس هذا فحسب ، بل ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أعلمهم أن الموقف العسكري إزاء الوثنية قد تبدل أساسا وانقلب من الدفاع الى الهجوم فقال مخاطبا جموع المقاتلين عند الخندق : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم[٤١٥].

ومن الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصرا عظيما ، ولا نرتاب في أنه ذا أثر كبير فيما تم من تعالي الإسلام وانتشار قوته ودعوته فيما بعد .. وانه كان لهذا الارتداد اثره السلبي والإيجابي في آن واحد ، إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني والقوة المعنوية العظيمة فيقفون عند حدهم. ولم يفكر المكيون بعد بمتابعة عدوانهم[٤١٦] ، ولم يعد في الإمكان بعد هذا اليوم أن يتجمع خصوم المدينة على هذه

---

(٤١٤) ابن هشام ، ص ٢٢٠-٢٢٢ ، الطبري ٢/٥٧٩-٥٨١ ، ابن سعد ٢/١/٥٠ ، الواقدي ٢/٤٨٧-٤٩١.

(٤١٥) ابن هشام ، ص ٢٣٣ ، الطبري ٢/٥٩٣ ، البخاري : تجريد ٢/٨٢. وعن الآيات المتعلقة بمعركة الخندق انظر : سورة الأحزاب ، (الآيات ٩-٢٧).

(٤١٦) دروزة ٢/٢٤٥-٢٤٦.

الصورة ، فقد اصبحت قريش تشك في ولاء القبائل العربية ، كما اصبحت القبائل نفسها تشك في قدرة قريش وفي إمكانها التغلب على المسلمين[٤١٧].

(٤١٧) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٥٨. وعن سرايا ما بعد الخندق أحيل القارىء إلى ابن سعد ٢/١/٥٦-٦٨ ، الواقدي ٢/٥٣١-٥٧١ ، والمسعودي : التنبيه ، ص ٢١٨-٢٢١.

الفصل السابع

الصراع مع الوثنية
(المرحلة الثانيــة)

صلح الحديبيــة

من مركز القوة الذي أحرزه المسلمون بعد الخندق ، قرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن ينطلق ليعتمر بأصحابه في مكة مستهدفاً تحقيق أهداف ثلاثة ، أولها اشعار الناس جميعا أن علاقات الإسلام بالقوى الاخرى ليس شرطا أن تظل قائمة على الحرب والعنف والقتال ، وان بالإمكان ان تسودها فترات من السلم ، والتهادن والتعايش المشترك على خلاف المذاهب والاتجاهات. وثانيها تجميد الصراع ضد قريش ، ذلك الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة الإسلامية ، والالتفات الى الجهات الأخرى لغرض التركيز عليها ، سيما بعد التصعيد الذي شهده الصراع ضد اليهود من جهة ، وضد البيزنطيين وحلفائهم نصارى العرب من جهة اخرى. وأما ثالث الاهداف فهو اقرار حقيقة أن مكة ومقدساتها ليست حكرا للوثنية تمارس تقاليدها بحرية ، وتسيطر على مقدراتها ، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء .. على العكس ، إن المسلمين أحفاد إبراهيم (عليه السلام) أبي الحنيفية ، وباني الكعبة، أحق وأجدر بدخول الحرم الآمن ، وممارسة شعائرهم القائمة على التوحيد الخالص ، الذي من أجله أقيم البلد الحرام في الوادي غير ذي الزرع.

ثم ان المسلمين المهاجرين ورسولهم (صلى الله عليه وسلم) لا زالوا يحنون إلى وطنهم القديم ويطوون جوانحهم – عبر سني الصراع الطويل – على الشوق العارم إلى الديار التي ولدوا فيها ، وترعرعوا بين أكنافها ، وآثروا دعوة الحق بين طرقاتها وأحيائها .. الحنين الذي كان بلال قد باح به في أيام الهجرة الاولى ، والحمى تعتصره :

ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة بفخ وحولي أذخر وجليل ؟

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل تبدون لي شامة وطفيل ؟

وها هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجيب على السؤال ويعلن – في ذي القعدة – أنه سيتجه إلى مكة معتمراً ، لا يريد حربا ، ويستنفر العرب وأهل البوادي من حوله ليخرجوا معه، ويخشى ان تعرض له قريش بحرب ، أو تصده عن البيت[٤١٨].

***

(٤١٨) ابن هشام ، ص ٢٤٩ ، الطبري ٦٢٠/٢ ، ابن سعد ٦٩/١/٢ ، الواقدي ٥٧٢/٢-٥٧٣.

أبطأ كثير من الأعراب عن الاستجابة لنداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) تخوفا من نشوب قتال مع قريش لا يهمهم من قريب أو بعيد ، وأنطلق المهاجرون والأنصار ، ومن لحق بهم من مسلمي المناطق المجاورة ، يسوقون الهدي صوب مكة ، وأمرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) باستبدال ملابسهم بثياب الإحرام ، ليأمن الناس الحرب ، وليعلمهم انه إنما خرج زائراً لبيت الله الحرام ومعظما له. وعندما بلغ المسلمون عسفان ، الواقعة على بعد مرحلتين من مكة ، لقيهم من يقول لهم إن قريشا قد خرجت بمقاتليها وفرسانها لمجابهة المسلمين ومنعهم من دخول مكة مهما كان الثمن !! فكان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (يا ويح قريش!! لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوه ، وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش ؟ فو الله لا أزال اجاهد بالذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة). وطلب من أحد الأدلأء أن يقودهم ، عبر طرق غير مسلوكة الى مكان اخر تجنباً للصدام مع قريش ، فقادهم الدليل في ارض وعرة ، ومسالك جبلية ، وانتهى بهم إلى ارض سهلة عند منعطف الوادي اسفل مكة تدعى الحديبية. وعندما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : (لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ، كان فرسان قريش يكرون عائدين اعتقادا منهم ان محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتاح مكة عنوة[٤١٩].

رأت قريش ، وقد لمست رغبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإصراره على دخول مكة وأداء العمرة ، ان تبعث اليه من يكلمه بالأمر ويقنعه بأن لا جدوى من محاولته تلك ، واعتقدت ان مجرد السماح للمسلمين بدخول بلدهم ، بعد ذلك الصراع الحامي ، يمثل هزيمة منكرة لقريش، زعيمة الوثنية ، وتنازلا لخصومها كي يطؤوا حرمها المقدس ... وستقول العرب : لقد نكصت قريش عن حماية البيت الحرام ، ولم تعط الأمر حقه ، ثم ما تلبث أن تنصرف عنها.

كان بديل بن ورقاء الخزاعي أول سفراء قريش الى معسكر المسلمين ، فقدم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصحبه رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه : ماالذي جاء به ؟ فأخبرهم انه لم يات يريد حرباً ، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته (فمن صدنا عنه قاتلناه). فرجع بديل الى قريش وقال : يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، وأن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت. فما كان من زعماء قريش إلا أن اتهموه وعنفوه وقالوا له : وإن كان جاء لا يريد

---

(٤١٩) ابن هشام ، ص ٢٢٩-٢٥١ ، الطبري ٢/٦٢٣-٦٢٤ ، الواقدي ٢/٥٧٤-٥٩٤.

قتالاً ، فو الله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب. وما لبثوا أن بعثوا إلى المسلمين سفيرهم الثاني : مكرز بن حفص ، الذي عاد بما كان رفيقه قد عاد به إلى زعماء قريش[٤٢٠].

وكان الحليس بن علقمة ، سيد الأحابيش ، السفير الثالث ، فلما رآه الرسول (صلى الله عليه وسلم) مقبلا قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما راى الهدي ينساب صوبه في عرض الوادي ، قفل عائدا قبل ان يقابل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إعظاما لما شهد ، وأخبر القرشيين بالذي راى ، فقالوا له : اجلس ، إنما انت أعرابي لاعلم لك !! فغضب عند ذاك وقال منددا : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم .. أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له : مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به. ثم ما لبثوا ان بعثوا سفيرهم الرابع : عروة بن مسعود الثقفي ، وعندما جلس بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : يا محمد ، أجمعت أو شاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت ، وقد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابداً. وأيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا ! فعنفه أبو بكر الذي كان يجلس وراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : أنحن ننكشف عنه ؟ وراح عروة يتناول لحية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف بسلاحه على رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) فجعل يقرع يد المفاوض ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل ان اتصل اليك !! فيجيبه عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك !! ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبتسم. وعاد عروة إلى قريش ليعلمها بما حدثه به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من انه لم يأت يريد حربا ، وليقول لها : يامعشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً. فروا رأيكم[٤٢١].

---

(٤٢٠) ابن هشام ، ص ٢٥١-٢٥٢ ، ابن سعد ٧٠/١/٢ ، الواقدي ٥٩٣/٢-٥٩٤.

(٤٢١) ابن هشام ، ص ٢٥٢-٢٥٤ ، الطبري ٦٢٨/٢ ، ابن سعد ٧٠/١/٢ ، الواقدي ٥٩٤/٢-٦٠٠ ، اليعقوبي : تاريخ ٤٥/٢.

***

رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يبعث من جهته سفيرا الى قريش ليوضح لهم الهدف الذي جاء المسلمون من اجله ، فاختار خراش بن أمية الخزاعي لأداء المهمة ، إلا ان خراشا ما ان بلغ مكة حتى عقر أشرافها بعيره وأرادوا الفتك به لولا ان منعته الأحابيش ، فخلوا سبيله لكي مايلبث أن يرجع الى معسكر المسلمين. ليس هذا فحسب بل ان قريشا ارسلت خمسين من رجالها المسلحين ليتسللوا إلى معسكر المسلمين ويصيبوا بعض رجاله في محاولة لاستفزاز الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودفعه الى اتخاذ اجراء إنتقامي يعزز موقف قريش لدى العرب. لكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فؤت عليهم الفرصة بعد ما جاء به أصحابه من أسرى دون عناء كبير ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم[٤٢٢].

ويحدثنا رجل من معسكر المسلمين فيقول : ((أتيت شجرة فكسحت شوكها ثم اضطجعت في ظلها ، فأتاني اربعة من المشركين من أهل مكة ، فتحولت الى شجرة اخرى ، فعلقوا سلاحهم ثم اضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد أسفل الوادي : ياللمهاجرين ، قتل ابن زنيم ، فاستللت سيفي على اولئك الاربعة وهم رقود ، وأخذت سلاحهم ، ثم قلت : لا يرفع أحدكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه !! ثم جئت بهم أقودهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وجاء عمي برجل آخر حتى وقفنا بهم على رسول الله في سبعين من المشركين .. فنظر اليهم رسول الله فقال : (دعوهم يكن لهم بدء الفجور) وعفا عنهم[٤٢٣]. وفي رواية اخرى للواقدي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) احتفظ بأسرى قريش رهائن ريثما تطلق من في ايديها من مسلمين كانوا قد دخلوا مكة لزيارة أهليهم وكانوا أحد عشر رجلا ، فاستجابت قريش لعرضه فأطلق سراحهم[٤٢٤].

لم ييأس الرسول وكأنه كان يرى بثاقب بصره الثمار الحلوة التي ستجنيها الدعوة الإسلامية إذا ما سادت العلاقات السلمية فترة من الوقت مع قريش زعيمة الوثنية ، فدعا عمر بن الخطاب ليسفر له لدى قريش فقال عمر : يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس في مكة من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان ابن عفان.

---

(٤٢٢) الطبري ٦٣١/٢ ، الواقدي ٦٠٢/٢.

(٤٢٣) الطبري ٦٢٩/٢-٦٣٠.

(٤٢٤) الواقدي ٦٠٣/٢-٦٠٤ ، وانظر : المقريزي : إمتاع الأسماع ٢٩٠/١.

إنطلق عثمان إلى مكة ودخل في جوار قريب له يدعى أبان بن سعيد بن العاص ريثما يبلغ زعماء قريش ماجاء به فأجابه هؤلاء : إن شئت ان تطوف في البيت فطف ! فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وراح عثمان يتصل بمسلمي مكة المستضعفين من الرجال والنساء ويقول لهم : ((إن رسول الله يبشركم بالفتح)) ، فكانت الدموع تسيل من أعينهم فرحا بذلك وهو يقولون : أقرىء رسول الله منا السلام ، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة[٤٢٥]. وما لبثت قريش ان اعتقلته فبلغ الرسول واصحابه ان عثمان قد قتل[٤٢٦].

***

لم يجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدأ من التهيؤ للقتال ... بعد فشل كل محاولاته الودية لدخول مكة .. وبعد الموقف السيء الذي وقفته قريش من سفرائه اليها ، ودعا الناس الى البيعة على عدم الفرار والصمود بوجه قريش ، فانهال عليه المسلمون يبايعونه وهو واقف تحت شجرة سميت فيما بعد بشجرة الرضوان نسبة الى البيعة التي تمت تحتها ، ولم يتخلف عن مبايعته احد من اصحابه ، إلا ان الأنباء ما لبثت ان جاءت لتنفي ما أشيع عن مقتل عثمان ... وأعقب ذلك قيام قريش بإرسال سهيل بن عمرو سفيرا خامسا الى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ربما لتخوفها من استعداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول على الصمود ، وكلفت رجلها أن يسعى جاهدا لمصالحة محمد (صلى الله عليه وسلم) شرط أن يرجع عنهم هذا العام ((فوالله لا تحدث العرب عنا أن محمداً دخلها علينا عنوة أبداً))[٤٢٧].

التقى سهيل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وأدرك الرسول ، عندما لمحه قادما من بعد ، أن قريشا تسعى للصلح. وجرى بين الطرفين كلام طويل انتهى بالموافقة على الصلح ولم يبق إلا صياغة الوثيقة .. هناك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى ... قال : او لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى. قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ... قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

أجاب أبو بكر : يا عمر الزم أمره فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ... وراى عمر الذي فطر على الصراحة والوضوح ، أن يلتقي بالرسول (صلى الله

---

(٤٢٥) الواقدي ٦٠١/٢.

(٤٢٦) ابن هشام ، ص ٢٥٤-٢٥٥ ، الطبري ٦٣١/٢-٦٣٢ ، ابن سعد ٧٠/١/٢ ، الواقدي ٦٠٠/٢-٦٠٢.

(٤٢٧) ابن هشام ، ص ٢٥٥-٢٥٦ ، الطبري ٦٣٢/٢-٦٣٣ ، الواقدي ٦٠٣/٢-٦٠٥ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٤٣/١-٤٤.

عليه وسلم) نفسه ويطرح عليه نفس الأسئلة ... فكان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف امره ولن يضيعني ...

ثم ما لبث ان دعا عليا ليملي عليه صيغة الصلح وقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، قال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فكتبها ، ثم قال لعلي : اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلاً بن عمرو) فقال سهيل : لو شهدت إنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فأجابه الرسول إلى ما أراد(٤٢٨).

كان الصلح يقضي بعقد هدنة أمدها عشر سنوات(٤٢٩) ، وان يرجع المسلمون هذا العام ولهم ان يدخلوا مكة في العام المقبل والسيوف في اغمادها ، وان لكل قبيلة الحق بالدخول في عهد مع أي من الطرفين تشاء ... وأنه لا إسلال ولا إغلال .. وإن من اتى محمدا من قريش بغير إذن وليه فعليه أن يرده ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد (صلى الله عليه وسلم) لاتجد نفسها ملزمة برده ... وسرعان ما أعلنت خزاعة دخولها في عقد محمد وعهده ... بينما دخلت بنو بكر عقد قريش وعهدها ... وقبل ان يتم إملاء الشروط وصل معسكر المسلمين أبو جندل ، ابن المفاوض القرشي سهيل بن عمرو ، وهو يرسف بالحديد فانقض عليه أبوه يضرب وجهه ويأخذ بتلابيبه قائلا للرسول : إن شروط الصلح قد أبرمت قبل وصول أبي جندل فأجابه الرسول : صدقت ... وراح أبو جندل يصرخ بأعلى صوته ... يا معشر المسلمين أارد إلى المشركين يفتوني في ديني ؟ فما كان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا ان قال : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ... إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا واعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله .. وإنا لا نغدر بهم .. ووثب عمر وراح يمشي إلى جوار أبي جندل ويقول : اصبر يا أبا جندل فإنهم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب !! وعندما تم املاء الكتاب شهد على الصلح أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد ابن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعن الجانب المشرك مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى(٤٣٠).

---

(٤٢٨) ابن هشام ، ص ٢٥٦-٢٥٧ ، الطبري ٢/٦٣٣-٦٣٤ ، الواقدي ٢/٦٠٦-٦٠٧.

(٤٢٩) يخطىء اليعقوبي في قوله بأن مدة الهدنة كانت ثلاث سنوات. تاريخ ٢/٤٥.

(٤٣٠) ابن هشام ، ص ٢٥٧-٢٥٨ ، الطبري ٢/٦٣٤-٦٣٦ ، ابن سعد ٢/١/٧٠-٧١ ، الواقدي ٢/٦٠٧-٦٠٩ ، ٦١١-٦١٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ١/٤١ ، انساب ١/٣٥٠-٣٥٢ ، وانظر عن نص وثيقة الصلح: محمد حميد الله : الوثائق ، ص ٧٧-٨٠.

لم يرتح المسلمون لأحداث الصلح ونتائجه سيما وانهم جاؤوا يحملون أملاً بدخول مكة والطواف في البيت العتيق في أعقاب رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وها هم يعودون من حيث جاؤوا دون أن يتحقق أملهم ، هذا فضلا عما في بنود الصلح نفسها وصيغته من أمور رأوا فيها تنازلا للمشركين. هذا إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يستشر أصحابه على غير ماألفوا منه في هذا الاتفاق المقترح مع انه في شؤون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع اليهم .. وربما نزل على رأيهم وهو له كاره .. لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة[٤٣١]. ثم جاءت قضية تسليم أبي جندل لأعدائهم إثارة جديدة لأعصابهم المرهقة وحنقهم الذي عبر عنه (عمر) صراحة.

من أجل ذلك كله (دخل عليهم أمر عظيم حتى كادوا يهلكون) وعندما أمرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنحر الهدي وحلق رؤوسهم إيذانا بالعودة للمدينة .. لم يستجيبوا له لأول مرة في حياتهم .. فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد استشارة زوجته أم سلمة إلا ان يخرج عليهم فينحر ويحلق رأسه ، فلما راى أصحابه ذلك راحوا ينحرون ويحلقون وهم يتميزون غيظا وألماً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[٤٣٢] ، دون ان يدركوا ان الصلح الذي تمخض عن مرونة الرسول وتنازله عن بعض الشكليات في صياغة الوثيقة وبنودها كان اكبر فتح في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ انبعاثها قبل تسع عشرة سنة ، وأن الرسول بموقفه ذاك قد فتح طريقا جديدا امام الحركة الإسلامية أوصلها إلى آفاق جديدة ومساحات واسعة لم يكن احد من المسلمين يطمع في الوصول اليها قبل مرور سنين وسنين.

***

وفي طريق العودة نزلت آيات القرآن الكريم لتؤكد البعد الحقيقي للصلح مع زعيمة الوثنية: {**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا(١)لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**}[٤٣٣] ، وتستطرد الآيات الكريمة مؤكدة دخول المسجد الحرام عما قريب وتحقق رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي تجيء دوما كفلق الصبح : {**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ**

---

(٤٣١) محمد الغزالي : فقه السيرة ، ص ٣٥٩.

(٤٣٢) الواقدي ٦١٣/٢-٦١٦.

(٤٣٣) سورة الفتح ، (الآيتان ١ و ٢).

رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}[٤٣٤].

ولم يكن هذا الفتح كما يقول ابن هشام سوى صلح الحديبية :

(ما فتح في الإسلام .. يقول الزهري .. فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس ... فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا فلم يكّلم احد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ... ولقد دخل في تينك السنتين مثل ماكان في الإسلام قبل ذلك أو اكثر) بدليل أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج إلى الحديبية في ألف واربعمائة ثم خرج في فتح مكة بعد سنتين على رأس عشرة الآف رجل[٤٣٥].

وما من شك أن مجرد دخول قريش في عهد مع المسلمين يمثل اعترافا منها بالدولة الفتية والدين الجديد بعد حرب الإفناء الطويلة التي شنتها ضدهما ..

ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس فإن توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حل من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها وأن لها الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسبا دخولا في دينه أو صداقة معه ..

وقد فتح ذلك المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا وينتشروا في الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء والحلفاء والمنتمين إلى الدين الجديد ، مستغلين من جهة أخرى فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية.

وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك أن جزءاً كبيراً من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم يعدون من بطونها ، وبذلك ضم محمد جزءا كبيرا من هذه القوة إلى جانبه وأضعف بذلك مركز قريش الحربي[٤٣٦].

ويرى (أرنولد) أن الحروب المتصلة التي كان الرسول قد شنها على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل ، التي تقيم جنوبي هذه المدينة حتى تخوم اليمن ، بعيدين بعداً يكاد

---

(٤٣٤) سورة الفتح ، (الآية ٢٧).

(٤٣٥) ابن هشام ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ، الطبري ٦٣٨/٢ ، وانظر : الواقدي ٦٠٩/٢-٦١٠ ، ٦٢٤ ، وعن الآيات المتعلقة بالحديبية انظر : سورة الفتح ، (الآيات ١-٦ ، ١٠-١٣ ، ١٨-٢٠ ، ٢٤-٢٨).

(٤٣٦) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٦٩.

يكون تاما عن سلطان الدين الجديد ... ولكن هدنة الحديبية جعلت الأتصال مع بلاد العرب الجنوبية امرا ميسورا في ذلك الحين[٤٣٧].

وقد كان لانتشار الإسلام في اليمن في الفترة التي أعقبت الحديبية أهمية خاصة من الناحية العسكرية ، فقد جعل قريشا محفوفة بالمسلمين من الشمال والجنوب وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائياً[٤٣٨] ... هذا في الوقت الذي كانت قريش فيه قد توخت أهدافا سطحية دفعتها إليها العصبية الجاهلية وهي رد المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العام ليعودوا إلى زيارته في العام المقبل ، ورد الذين يسلمون من قريش بدون رضى أوليائهم حتى لا يكثر عدد المسلمين وان ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار للتفرغ لتجارتهم وهو اهم هدف حيوي بالنسبة لقريش[٤٣٩].

ولم ينس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان ينتزع من هذه الفرصة الثمينة كل ما يستطيع انتزاعه ، فضلا عن كسب الناس الى الاسلام وصداقتهم لدولته .. صراعا ضد القوى الأخرى المضادة للإسلام كاليهود الذين تكتلوا في خيبر والمواقع المجاورة له ، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية بازدياد نشاط الإسلام هناك ، فضلا عن التجمعات القبلية البدوية المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لأنزال الضربات باتباعه. وها هو الرسول وقد فصم عقدها بهدنته مع زعيمتها قريش يوجه إليها السرايا تلو السرايا طيلة السنة السابعة ليصدها عن المضي فيما تبتغيه وليشعرها بمقدرة المسلمين على العقاب !

خرج عمر بن الخطاب على رأس ثلاثين رجلا إلى إحدى قبائل هوازن ، وكان يسير برجاله ليلا ويكمن نهارا ، وما إن سمع اعداؤه خبر هجومه المباغت حتى فروا فقفل عائدا ولم يلق كيدا. وخرج أبو بكر الصديق إلى نجد ، وبشير بن سعد إلى بني مرة على رأس ثلاثين رجلا أصيب بعضهم فاضطر الى العودة الى المدينة ، وانطلق غالب بن عبد الله ، يقود مائة وثلاثين رجلا إلى بني عبد بن ثعلبة فأغاروا عليهم واستاقوا نعمهم وعادوا بها الى المدينة ، ومالبث بشير

---

(٤٣٧) الدعوة الى الإسلام ، ص ٥٧.

(٤٣٨) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٢١٢.

(٤٣٩) المصدر السابق ، ص ١٩٠.

بن سعد ان خرج ثانية على رأس سرية أخرى للهجوم على بعض القبائل من غطفان بدأت تتحرك للهجوم على المسلمين ، فباغتها سعد واستاق نعمها[٤٤٠].

وطيلة الاشهر الاولى من السنة التالية استمرت السرايا الإسلامية تغادر المدينة منطلقة إلى اهدافها التي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحددها لها في قلب الصحراء .. خرج غالب بن عبد الله الليثي ليغير على بني الملوح بمنطقة تدعى الكديد. ويحدثنا احد أبطال السرية فيقول : ((.. نزلنا بطن كديد بعد العصر ، فبعثني أصحابي ربيئة ، فعمدت الى تل يطلعني على الحي ، فانبطحت عليه ، قبيل المغرب ، فخرج منهم رجل فنظر فرآني منبطحا على التل فقال لامرأته : والله إني لأرى على هذا التل سوادا ما كنت رايته أول النهار ، فانظري لا تكون الكلاب جرت بعض أوعيتك ! فنظرت فقالت : والله ما فقدت شيئا. قال : فناوليني قوسي فناولته، فرماني بسهم فوضعه في جنبي ، فنزعته فوضعته ، ولم اتحرك ، ثم رماني بالآخر فوضعه في راس منكبي فنزعته فوضعته ولم اتحرك. فقال الرجل : أما والله لقد خالطه سهماي ولو كان طليعة لتحرك. وأمهلناهم حتى إذا سكنوا وذهبت عتمة من الليل ، شننا عليهم الغارة ، فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم وقفلنا عائدين بعد ان جاءنا منهم مالا قبل لنا به ...)) ولم يكن عدد أفراد هذه السرية يجاوز البضعة عشر رجلاً[٤٤١].

وانطلق شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلا إلى بني عامر فشن عليهم الغارة وأصاب نعما وشاة[٤٤٢]. وسار ابو عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار مستهدفين قبائل جهينة ... وكان الطريق طويلا ، فنفد ما معهم من قوت ، وراح الجوع يعتصرهم، وقال رجل منهم : كان ابو عبيدة يقبض لنا قبضة من التمر ، ثم تمرة تمرة ، فنمصها ونشرب عليها الماء إلى الليل حتى نفد ما في الجراب فكنا نجني الخبط ، إذ جعنا جوعا شديدا ، وما لبث البحر ان القى الينا حوتا ميتا فأكلنا منه حتى شبعنا[٤٤٣]. وسرايا اخرى قادها مسلمون

---

(٤٤٠) الطبري ٣/٢٢-٢٣ ، ابن سعد ٢/١/٨٥-٨٧ ، الواقدي ٢/٧٢٢-٧٣١ ، المسعودي التنبيه ، ص ٢٢٧.

(٤٤١) الطبري ٣/٢٧-٢٨ ، ابن سعد ٢/١/٨٩-٩١ ، الواقدي ٢/٧٥٠-٧٥٢.

(٤٤٢) الطبري ٣/٢٩ ، ابن سعد ٢/١/٩١-٩٢ ، الواقدي ٢/٧٥٣-٧٥٥.

(٤٤٣) الطبري ٣/٣٢-٣٣ ، ابن سعد ٢/١/٩٥ ، الواقدي ٢/٧٧٤-٧٧٧.

آخرون ، انطلقت الى اهدافها بشجاعة ، وعادت وقد لقنت الأعراب ودعاة الفتنة دروسا لن ينسوها(٤٤٤).

***

ولم يقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند حد اعتماد الهدنة مع قريش لتأديب الأعراب ، بل نشط منذ أواخر السنة السادسة ، وحتى فتح مكة ، في توجيه دعاته وسفرائه الى كبار أمراء العرب الوثنيين وزعمائهم ومشايخهم يدعوهم إلى الإسلام ، في نفس الفترة التي كان قد وجه فيها سفراءه ومبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بعث بها إلى الناس جميعاً ..

أرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ، أمير البحرين والمناطق الشمالية المطلة على الخليج العربي ، وكتب إليه كتابا جاء فيه : ((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله الا هو. أما بعد فإن كتابك جاءني ورسلك ، وإن من صلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فإنه مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ، ومن أبى فعليه الجزية)). فأسلم المنذر ومعه الكثيرون من رعاياه ، أما الذين بقوا على مجوسيتهم فصالحهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الجزية ، على ألا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم. وبقي العلاء هناك اميراً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في البحرين(٤٤٥).

وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين بعمان ، فصدقا النبي وأقرا ما جاء به ، فعرض الزكاة على أموال مسلميهم والجزية على من بقي على مجوسيته من اتباعهم(٤٤٦). وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ، ويبدو ان ذهاب وفد بني حنيفة في السنة التالية المسماة بعام الوفود كان استجابة من زعماء هذه القبيلة الكبيرة لنداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يرتد مسيلمة هناك(٤٤٧).

---

(٤٤٤) انظر : الطبري ٣/٣٤-٣٦ ، وابن سعد ٢/١/٩١-٩٦ ، والواقدي ٢/٧٤١ ، ٧٥٢-٧٥٣ ، ٧٧٧-٧٨٠.

(٤٤٥) الطبري ٣/٢٩ ، ١٣٧ ، ابن هشام ، ص ٣٧٥ ، ابن سعد ١/٢/١٩ ، البلاذري : فتوح ١/٩٥-٩٩ وعن نصوص الكتب المتبادلة بين الرسول وأمير البحرين انظر حميد الله : الوثائق ، ص ١٤٤-١٥٣.

(٤٤٦) الطبري ٣/٢٩ ، ابن هشام ، ص ٣٧٥ ، ابن سعد ١/٢/١٨ ، البلاذري : فتوح ١/٩٢.

(٤٤٧) ابن هشام ، ص ٣٧٥ ، الطبري ٢/٦٤٤-٦٤٥ ، ابن سعد ١/٢/١٨.

وخرج عمرو بن كعب الغفاري يصحبه خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح على حدود الشام ، فوجدوا جمعا كثيرا ، فدعوهم الى الإسلام فأبوا أن يجيبوا وانقضوا على أصحاب عمرو فأبادوهم جميعا ، وتحامل عمرو حتى بلغ المدينة[٤٤٨] فيما يذكر بمأساتي الرجيع وبئر معونة ، ويبين لنا كم كانت الدعوة إلى الإسلام تعطي من تضحيات قبل أن تتمكن من تثبيت أقدامها في قلب الصحراء.

والى زعماء اليمن ومشايخها وبقايا ملوك حمير بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل ومالك بن مرارة يحملان اليهم وإلى أهل اليمن دعوة الإسلام ، فأسلم الكثيرون منهم[٤٤٩]. كما كتب (صلى الله عليه وسلم) إلى أمراء كندة وحضرموت رسائل مطولة يشرح لهم فيها تعاليم الإسلام وشرائعه. ويسرد ابن سعد أسماء عدد كبير من الزعماء العرب في الجنوب والشمال ممن تلقوا نداء الإسلام من الرسول (صلى الله عليه وسلم) فاستجاب له الكثير منهم ، وبقي الآخرون على شركهم. ومن بين هؤلاء الذين راسلهم الرسول على سبيل المثال : خالد بن ضماد الأزدي ، ونعيم بن أوس أخي تميم الداري ، والحصين بن أوس الأسلمي ، وبنو قرة ابن عبد الله ، وبنو الضباب بن الحارث بن كعب ، ويزيد بن الطفيل الحارثي ، وبنو قنان بن ثعلبة من بني الحارث ، وعبد يغوث بن وعلة الحارثي ، وبنو زياد بن الحارث ، ويزيد بن المحجل الحارثي ، وبنو فهد حلفاء بني الحارث ، وعاصم بن الحارث ، وبنو جرول الطائيين ، وعامر بن أسود الطائي وقومه طيىء ، وبنو جوين الطائيين ، وبنو معن الطائيين ، وجنادة الازدي وقومه ، وقبيلتا سعد وهذيم القضاعية وجذام وبنو زرعة ، وبنو الربعة ابن جهينة ، وبنو جعيل بن بلى ، واسلم بن خزاعة ، وعوسجة بن حرملة الجهني ، وبنو شفخ والجرمز بن ربيعة والحرقة وعمرو بن معيد الجهنيين ، وبلال بن الحارث المزني ، وبنو عمرو ، والعداء بن خالد بن عامر ، ومسيلمة الكذاب الذي رد على كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه نبي مثله ، وسأله أن يقاسمه الأرض ، وأن قريشا قوم لايعدلون ، فكتب إليه النبي (صلى الله عليه وسلم): ((بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله ، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ..)).

---

(٤٤٨) الطبري ٣/٢٩.

(٤٤٩) ابن سعد ١/٢/٢٠-٢١.

كما كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لسلمة بن مالك من بني حارثة والعباس بن مرداس وهوذة بن نبيشة والأجب وراشد بن عبد الله وحرام بن عبد عوف السلميين ، وجميل ابن رزام العدوي ، وحصين بن فضلة الأسدي ، وبني ضمرة بن بكر بن كنانة ، والهلال أحد زعماء البحرين ، وأسيبخت بن عبد الله صاحب هجر الذي جاء في كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليه : ((... إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، واني قد شفعتك وصدقت رسولك من قومك ، فأبشر فيما سألتني وطلبتني بالذي تحب .. فإن جئتنا أكرمك وأن تقعد أكرمك أما بعد فإني لا أستهدي أحداً ، وان تهد إليّ أقبل هديتك وقد حمد عمالي مكانك ، وأوصيك بأحسن الذي انت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين ، وإني قد سميت قومك بني عبد الله ، فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل ، وأبشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين)).

وإلى جماعة من العبيد وقطاع الطريق في جبل تهامة كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد أن استقبل وفدا منهم : ((هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء ، إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حر ومولاهم محمد. ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها ، وماكان فيهم من أدم أصابوه أو مال أخذوه فهولهم ، وماكان لهم من دين في الناس ردّ إليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان ..)).

كما كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى بني زهير بن أقيش وأبي ظبيان الأزدي وحبيب ابن عمر الأجيثي وسمعان بن عمرو الكلابي وبكر بن وائل والسعير بن عداء وبني عبد القيس ونفاثة بن فروة الدائلي ملك السماوة ، وبني عذرة ومطرف بن الكاهن الباهلي ونهشل بن مالك الوائلي وسعيد بن سفيان الرعلي ومسلمة بن مالك السلمي ، وبني جناب ، ومهري بن الأبيض أمير مهرة ، وبني خثعم ، وقبائل ثمالة والحدان في صحار ، ووائل بن حجر قيل حضرموت(٤٥٠).

***

(٤٥٠) انظر بالتفصيل ابن سعد ١/٢/١٨-٣٨ وعن نصوص الرسائل المتبادلة بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين أمراء العرب وملوكهم وزعمائهم انظر : حميد الله : الوثائق ص ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٣٣٢.

وفي ذي القعدة من السنة التالية (٧ هجرية) حان موعد دخول المسلمين مكة فيما أسمته الروايات (عمرة القضاء) تنفيذا لشروط الحديبية. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أمر كل الذين شهدوا الحديبية بأن يتجهوا للعمرة ، وأمر بحمل السلاح حذرا وحيطة ، فلما علمت قريش ذلك أصابها الخوف ، وأرسلت اليه رجلا لقيه بمر الظهران وأعرب له عن مخاوف قريش فأجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((ما عرفت صغيرا ولا كبيرا إلا بالوفاء ، وما أريد أدخال السلاح عليهم ، ولكن يكون قريبا إليّ)). فعاد المبعوث لكي يطمئن قريشا ان المسلمين لا ينوون دخول مكة مسلحين ، وانهم سيبقون السلاح بعيدا عنها[٤٥١].

وما ان اقترب المسلمون من مكة حتى انسحبت قريش صوب المرتفعات المحيطة خوفا من حدوث احتكاك بين الطرفين ، إلا انها عبرت عن غيظها بإشاعة بثتها بين الناس مفادها أن محمداً وأصحابه يعانون شدة وعسرة وجهداً ، فاصطف بعضهم عند دار الندوة لينظروا الى الرسول والى اصحابه ، فلم يشأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا ان يجابه الشائعات بالأفعال ، فشد ردائه وأخرج عضده اليمنى وقال : أرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم ، ثم أستلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه ، حتى إذا واراهم البيت عن أعين القرشيين عادوا صوب الكعبة ، فاعلين ذلك ثلاثا ، ثم أمر بلالاً أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيؤذن هناك. وبعد ثلاثة أيام من إقامة المسلمين في مكة وأداء مراسيم العمرة ، بعثت قريش إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) من يقول له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا ، فقفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأصحابه عائدا إلى المدينة ، وصدقت رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلمات الله : **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}**[٤٥٢]**!!**

كان لعمرة القضاء – وأحداث الحديبية من قبلها – أثرها الخطير في مكة نفسها ، فإن أهلها رأوا من تضامن المسلمين وتعاونهم وتعاطفهم ، وحسن نظامهم والتفاهم بينهم ، واقتدائهم بنبيهم ، ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف في وجهها وليس من أمل في

---

(٤٥١) الطبري ٢٦/٣.

(٤٥٢) سورة الفتح ، (الآية ٢٧) ، ابن هشام ، ص ٢٦٨–٢٧٠ ، الطبري ٢٣/١–٢٥ ، ابن سعد ٨٧/١/٢–٨٩ ، الواقدي ٧٣١/٢–٧٤١ ، البلاذري : أنساب ٣٥٣/١ ، المسعودي : التنبيه ٢٢٨ ، ابن حزم : جوامع ، ص ٢١٩–٢٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ٢٢٧/٢–٢٢٨ ، ابن كثير : البداية ٢٢٦/٤–٢٣٢.

التغلب عليها ، حتى لقد كانت عمرة القضاء قضاء تاما على روح العناد والمقاومة في قريش ، وحتى لقد أدرك عقلاؤها ان من الخير الانضمام الى محمد ، يتمثل ذلك في إسلام خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة ، حارس الكعبة. وبإسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من اهل مكة وأصبحت مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه للدعوة الإسلامية ، ولم يبق إلا ان تفتح أبوابها وتسلم القياد للمسلمين(٤٥٣) ، ومن ثم يمكن اعتبار فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء لأن هذه العمرة أثرت على معنويات قريش أعظم التأثير. إن عمرة القضاء فتحت قلوب قريش ، وغزوة الفتح فتحت أبوابها(٤٥٤)!!

(٤٥٣) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٤٥٤) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٢٣٨.

فتح مكـة

بدأت قريش تزداد يقينا ، يوم بعد يوم بأن شروط صلح الحديبية لم تكن في صالحها ، وانها إذا ما ظلت ملتزمة بها فسوف تجد نفسها في يوم قريب أو بعيد وحيدة عزلاء وسط بحر إسلامي تضرب أمواجه حدود أمبراطورتي العالم القديم وتكتسح مواقع الوثنية البائدة. وحتى الشرط الذي ظنته لصالحها وظنه المسلمون إذلالهم ، ذالك الذي يعطي قريشا الحق في استرداد من يلحق بالمسلمين ويحجب هذا الحق عن المسلمين ، حتى هذا الشرط اخذ يلحق بمشركي مكة متاعب صارت تزداد مع الايام.

فالمضطهدون الهاربون من قبضة قريش كانوا يجدون انفسهم ملزمين بعدم الالتحاق باخوانهم ودولتهم الجديدة في المدينة والا ردوا الى مضطهديهم تنفيذا للعهد ، فكانوا يلجأؤون الى جبال تهامة المطلة على طريق القوافل المكية الى الشام ، ويقومون من هناك بحروب عصابات ضد القوافل القرشية الذاهبة والآتية من الشام ، فيقتلون حراسها وأصحابها ويغنمون أموالها ، وكان يقودهم في نشاطهم هذا فدائي مسلم يدعى (أبا بصير) كان قد فر من مضطهديه في مكة إلى المدينة إلا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) رده بصحبة أثنين من حراس مكة جاءا لكي يعيداه إلى سادته فقتل أحدهما واضطر الاخر الى الفرار ، ثم انطلق صوب جبال تهامة لكي يبدأ من هناك حربه ضد قريش ، وأخذ يلتحق به كل هارب من جحيم الوثنية[٤٥٥]. وما لبثت قريش ان وجدت نفسها مسوقة الى أن تطلب من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الغاء هذا الشرط فأجابها إلى ما ارادت ، ولكن الأيام مضت وقريش تزداد عزلة وتوترا وتجارتها بوارا وكساداً ، والمسلمون يزدادون نشاطاً ودأباً ، ومن ثم راح زعماء مكة ينتظرون الفرصة لضرب المعاهدة وإبطال شروطها جميعا لأن ثماني سنوات أخرى من الصلح ستؤدي حتما إلى اختناق قريش ، ومالبثت الأحداث أن مكنتها من تحقيق هدفها ، إلا انها لم تكن تدري آنذاك أنها تسعى الى حفر قبرها بيدها وأنها تضع بيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المعول الذي سيهدم به آلهتها وأصنامها ، وسيهيل التراب على قيمها الخاطئة وتقاليدها الظالمة وعقائدها الوثنية إلى الأبد.

ذلك أن بني بكر حليفة قريش ، اعتدت في شعبان من السنة الثامنة على خزاعة حليفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وداهمتها في ديارها فقتلت احد رجالها ، ففزعت خزاعة تدافع

---

(٤٥٥) انظر : الطبري ٦٣٨/٢-٦٣٩ ، الواقدي ٦٢٤/٢-٦٢٩ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٠٤/٣-٣٠٥.

عن نفسها ، واتسع نطاق القتال وراحت قريش ترفد حليفتها بالسلاح والرجال يقاتلون تحت جناح الليل حتى ألجأوا خزاعة إلى الحرم وقتلوا منها ثلاثة وعشرين رجلا ، فنادت بنو بكر بزعيمها نوفل بن معاوية : إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك فأجاب نوفل : لا إله اليوم ، يابني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري انكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ ورأت خزاعة ان قريشا قد نقضت عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ اسهمت في قتالها وهي حليفة المسلمين فبعثت عمرو ابن سالم الخزاعي في اربعين راكبا يعرض على الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفاصيل العدوان ويستنجده على الغادرين ، وأعقبه بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة يؤكد ما ذهب اليه عمرو ، ولم يزد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أن قال لمن حوله : (كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشد العقد ويزيد المدة) ، وكأنه (صلى الله عليه وسلم) اعتزم أمرا لم يشأ أن يكشفه لرسل خزاعة أو لاصحابه حرصا على السرية والكتمان ، ولقد صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ ما لبثت قريش ان ادركت خطأها وأنها ليست بقادرة اليوم على مجابهة غضبة المسلمين وقد ازدادوا قوة وعددا فرأت ان تبعث زعيمها أبا سفيان الى المدينة على جناح السرعة علة يعيد الامور إلى مجاريها ويجدد مع المسلمين بنود معاهدة كان هو ورفاقه قد قتلوها[٤٥٦]. التقى أبو سفيان بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلمه في الأمر فلم يرد عليه ، فذهب إلى أبي بكر فتوسط لديه ان يكلم له الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما أنا بفاعل ، فأتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال عمر : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر (الغبار) لجاهدتكم به. فجاء إلى علي وقال : ياعلي إنك أمس القوم بي رحما ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأجابه علي : ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه. ولم يكن هذا الأمر سوى الإعداد الحاسم لاستئصال رأس الوثنية واكتساحها. وعاد أبو سفيان خائبا لكي يخبر قريشا بفشل مسعاه[٤٥٧].

***

---

(٤٥٦) ابن هشام ، ص ٢٧٦-٢٧٩ ، الطبري ٣/٤٣-٤٥ ، ابن سعد ٢/١/٩٦-٩٧ ، الواقدي ٣/٧٨١-٧٨٦، ٧٨٨ -٧٨٩ ، البلاذري : فتوح ١/٤٢ ، أنساب ١/٣٥٣-٣٥٤.

(٤٥٧) ابن هشام ، ص ٢٧٩-٢٨٠ ، الطبري ٣/٤٦-٤٧ ، ابن سعد ٢/١/٩٧ ، الواقدي ٢/٧٩٢-٧٩٥ ، البلاذري فتوح : ١/٤٢.

حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلال التجهز على كتمان الأمر حتى عن أقرب أصحابه إليه من أجل ان يفاجيء مكة بهجومه الحاسم فلا تستطيع مقاومة ودفاعا فتذعن للأمر وتحقن الدماء ، حتى ان زوجته عائشة عندما سألها ابوها أين ترينه يريد ؟ أجابت : لا والله ما أدري ! وما ان تمّ الاعداد والتجهيز حتى انطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأصحابه صوب مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ. وقد روى الواقدي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج الى مكة ((ولا يعلم احد وجهته وقائل يقول يريد قريشا وقائل يقول هوازن وآخر يقول يريد ثقيفا ... ولم يعقد الأولوية ولم ينشر الرايات حتى بلغ (كديد))). وعندما سأله احد اصحابه في الطريق : يا رسول الله والله ما أرى آلة الحرب ولا تهيئة الإحرام ، فأين نتوجه يا رسول الله ؟ أجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث شاء الله[٤٥٨] وفي مكان آخر يقول الواقدي إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخذ بالأنقاب (أي سد طرق المدينة) وعمى عليهم الاخبار فكان عمر بن الخطاب يطوف على الانقاب قيما بهم فيقول : لاتدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه[٤٥٩]. وعندما ألح عليه أبو بكر بسؤاله : أين تريد يارسول الله ؟ أجابه الرسول : قريشا واخف ذلك يا أبا بكر[٤٦٠]. ودعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) (اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها). واستجاب الله لدعاء رسوله وأعلمه وحيه الأمين أن محاولة لاخبار قريش بتحرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) قام بها احد المسلمين (حاطب ابن ابي بلتعة) حيث كتب الى قريش بهدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتابا حمله امرأة أخفته في طيات شعرها وانطلقت صوب مكة ، فأدركها علي والزبير في منتصف الطريق وأخذا الكتاب منها وقفلا عائدين ليسلماه إلى الرسول. فدعا الرسول حاطبا وسأله : ما حملك على هذا ؟ فأجاب : أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت وما بدلت ، ولكني كنت أمرء ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه. فقال عمر : يارسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق : فقال الرسول : وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع إلى اصحاب بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ إن ماضي حاطب في الجهاد في سبيل الدعوة وإسهامه مع رفاقه في مقاومة الوثنية في أوج

---

(٤٥٨) الطبري ٣/٥١-٥٢ ، الواقدي ٢/٧٩٦-٧٩٧.

(٤٥٩) مغازي ٢/٧٨٧ ، ٧٩٦.

(٤٦٠) نفسه ٢/٧٩٧.

عنفوانها يحجب عنه الآن الزلة الكبيرة التي ساقته قدماه إليها ، والماضي الكبير يحجب الخطأ الكبير ما دام الايمان لم ينقلب بعد إلى كفر صريح ... ونزلت كلمات الله لكي تحدد للمسلمين ، انطلاقا من هذه المناسبة العابرة ، موقفا دائما عليهم أن لا ينحرفوا عنه : {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** ... }[٤٦١].

انطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في العاشر من رمضان مستخلفا على المدينة أبا رهم الغفاري ومستنفرا كل قادر على القتال من المسلمين ، وعندما بلغ مر الظهران عسكر هناك في عشرة آلاف من المسلمين من بني سليم وبني غفار وبني مزينة وتميم وقيس وأسد التي دعاها لموافاته في المدينة ، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار احد. ولم تكن قريش ، وقد عميت الأخبار عنها ، تعرف حتى ذلك الحين شيئا عما يفعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) هل يريد قريشا أم هوازن أم ثقيف[٤٦٢]؟ ويذكر الواقدي ان المسلمين عسكروا بمر الظهران ولم يبلغ قريشا حرف واحد من مسير رسول الله إليهم ، فقد اغتموا وهم يخافون ان يغزوهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٤٦٣] وكان العباس عم الرسول قد التحق بمعسكر المسلمين وجعل هدفه ان تقتنع قريش بعدم جدوى المقاومة وأن يجيء زعماؤها فيستأمنوا الرسول قبل وقوع المحذور ، فخرج يبحث عن رجل يذهب إلى مكة ليخبر أهلها بمكان معسكر المسلمين لكي يجيئوا فيعتذروا ويستأمنوا ، وإذا به يسمع عن قرب أبا سفيان وهو يقول لبديل بن ورقاء وقد خرجا فيمن خرج من زعماء قريش يتحسسان الأخبار : ما رأيت نيرانا قط ولا عسكرا بهذا الشكل ، فيجيبه بديل : هذه والله خزاعة قد حمشتها ((أحرقتها)) الحرب ، فيرد أبو سفيان : خزاعة أذل واقل من ان تكون هذه نيرانها وعسكرها ! فتقدم العباس إليهما وأعلمهما حقيقة الخبر وأردف أبا سفيان وراءه في محاولة لاستئمان الرسول (صلى الله عليه وسلم) إياه ، أما صاحبه فقد قفل عائدا ، ولمحهما عمر بن الخطاب وهما يجتازان معسكرات المسلمين فانطلق الى الرسول قائلا : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه ، إلا ان العباس سرعان ما اعلن جواره له. ولما راى عمر يلح على قتله قال له : مهلا ياعمر فوالله إن لو كان من بني

---

(٤٦١) سورة الممتحنة ، (الآية ١). ابن هشام ، ص ٢٨١-٢٨٢ ، الطبري ٣/٤٧-٤٩ ، ابن سعد ٢/١/٩٧ الواقدي ٢/٧٩٦-٧٩٩ ، البلاذري : انساب ١/٣٥٤ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٤٧-٤٨.

(٤٦٢) انظر : الطبري ٣/٥٥.

(٤٦٣) مغازي ٢/٨١٤.

عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فأجابه عمر : مهلا يا عباس فلإسلامك يوم اسلمت كان احب الي من إسلام الخطاب لو أسلم ! واصدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمره إلى عمه ان يذهب بأبي سفيان إلى رحله فإذا اصبح اتاه به ، وفي الصباح جيء به الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال له : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك ان تعلم أنه لا إله الا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد !!

استمر الرسول : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي .. أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا. فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. عند ذاك أعلن أبو سفيان إسلامه. وأراد الرسول أن يتخذ منه مفتاح امان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون اراقة الدماء ويكبت به روح المقاومة الوثنية المتعطشة للقتل والدماء ، فأراد ان يشبع فيه عاطفة الفخر ويحقق هدفه عن هذا الطريق ، فأعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن. وبذلك سعى الرسول إلى تنفيذ اسلوب (منع التجوّل) لكي يتمكن من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات وإراقة الدماء.

وجعل لدار ابي سفيان مكانة خاصة كي يكون ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء. ولم يكتف الرسول بذلك بل أمر العباس أن يحجز أبا سفيان عند مدخل المضيق الذي ستنساب منه قوات المسلمين في طريقها الى مكة فيراها رأي العين فيزداد يقينا بألاقدرة للمكيين على المقاومة[٤٦٤]. ووقف العباس وأبو سفيان حيثما أمره الرسول (صلى الله عليه وسلم) وراحت قبائل المسلمين تمر حاملة راياتها الخاصة واحدة تلو الاخرى ، وكلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا فسأل أبو سفيان : يا عباس من هذه ؟ فيقول سليم ، فيقول : ما لي ولسليم ! ثم تمر القبيلة الاخرى فيسأل : ياعباس من هؤلاء ؟ فيجيبه مزينة ، فيقول : ما لي ولمزينة ، حتى إذا استعرضت القبائل كلها مر رسول الله في كتيبته (الخضراء) التي تضم ألف درع من المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق خلل الحديد ، فسأل أبو سفيان : سبحان الله يا عباس من

---

(٤٦٤) ابن هشام ، ص ٢٨٢-٢٨٦ ، الطبري ٣/٤٩-٥٤ ، ابن سعد ٢/١/٩٧-٩٨ ، الواقدي ٢/٧٩٩-٨٠١، ٨١٤-٨١٨ ، البخاري : تجريد ٢/٩٠ ، البلاذري : أنساب ١/٣٥٥ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٤٨.

هؤلاء؟ فأجابه : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. فقال ابو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. فطلب منه العباس أن يسرع الى قومه يعلمهم بما رأى وسمع(٤٦٥).

دخل ابو سفيان مكة وراح يصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فانبرت له امرأته تقبح رأيه ، وقام القوم مستنكرين قائلين : قاتلك الله ، وماتغني عنا دارك ؟ فاستأنف أبو سفيان : ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، وأدركت الاغلبية العظمى من المكيين أن لاجدوى من مخالفة زعيمها أبي سفيان وهو يدعوهم الى الأمان قبل أن تكتسحها سيوف المسلمين ، فتفرقت الى دورها وإلى المسجد الحرام وأغلقت من دونها الأبواب(٤٦٦).

***

وزع الرسول (صلى الله عليه وسلم) قواده لكي يدخلوا كل من جهة التي حددت له : سعد ابن عبادة وابنه يدخلان بقواتهما مكة من الجهة الشرقية ، أبو عبيدة عامر بن الجراح يتقدم بقواته بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليدخل مكة من جهتها الغربية ، الزبير بن العوام يقود خيل المهاجرين والأنصار إلى أعلى مكة حيث الحجون لكي يغرز راية المسلمين هناك ، وخالد بن الوليد يدخل مكة من الجنوب حيث تجمع مقاتلو قريش وحلفاؤهم وأحابيشهم لمنع القوات الإسلامية من اجتياز مكة.

وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) قواده ألا يقاتلوا إلا اضطرارا ، وسمى نفرا من مكة أمر بقتلهم حتى ولو تعلّقوا بأستار الكعبة بسبب مواقف كانوا قد اتخذوها ارتدادا عن الإسلام ، أو قتلا لمسلمين ، أو إيذاء لدعاتهم في مكة أو هجاء قبيحا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بلغ عددهم ثمانية بين رجل وامرأة قتل بعضهم وفر البعض الآخر واستأمنت فئة ثالثة فأمنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعفا عنها.

وقد دخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الاربع بسهولة بالغة ، بعد أن هزم خالد القوات القرشية التي اعترضت مسيرته في الجنوب وقتل وجرح منهم ثلاثة عشر رجلا(٤٦٧).

---

(٤٦٥) ابن هشام ، ص ٢٨٦-٢٨٧ ، الطبري ٥٤/٣ ، الواقدي ٨١٨/٢ ، البخاري : تجريد ٩٠/٢.

(٤٦٦) ابن هشام ، ص ٢٨٧ ، الطبري ٥٤/٣ ، الواقدي ٨٢٢/٢-٨٢٣.

(٤٦٧) وقيل ثمان وعشرين : الواقدي ٨٢٥/٢-٨٢٦ ، البلاذري : فتوح ٤٤/١.

ولم يفقد من رجاله سوى اثنين كانا قد شذا عن الطريق التي سلكها[٤٦٨].

وما أن تمت سيطرة المسلمين على مكة في العشر الأواخر من رمضان واستقر امرهم فيها حتى خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خيمته التي ضربت له بالحجون حيث رفض النزول في بيوت مكة طيلة مكوثه هناك[٤٦٩].

خرج على راحلته فطاف بالبيت سبعا وتكبيرات المسلمين من ورائه تشق عنان الفضاء ، ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها وكسر أوثانها بيده وطرحها ارضا ومحا صور الملائكة والأنبياء ، وعندما رأى إبراهيم عليه السلام مصورا في يده الأزلام يستقسم بها قال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ما شأن إبراهيم والأزلام {**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ**}[٤٧٠].

ثم أمر بتلك الصور فطمست وخرج إلى الأصنام المصفوفة حول البيت والمشدودة بالرصاص فراح يعمل بها تحطيماً ويقول {**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**}[٤٧١]. وأرسل خالد بن الوليد إلى بطن نخلة ليهدم العزى كبير آلهة المنطقة ، فانطلق خالد إلى هدفه فكسر الصنم وهدم بيته وسادنه يصرخ : أعزى اغضبي بعض غضباتك ، دونما جدوى[٤٧٢]. وانطلق عمرو بن العاص لهدم سواع ، وكان حجراً ، وجرى بينه وبين السادن هذا الحوار :

السادن : ما تريد ؟

عمرو : هدم سواع.

السادن : لا تطيق هدمه.

عمرو : أنت في الباطل بعد.

---

(٤٦٨) ابن هشام ، ص ٢٨٩-٢٩١ ، الطبري ٢/٥٦-٦٠ ، ٦٣-٦٤ ، ابن سعد ٢/١/٩٨ ، الواقدي ٢/٨٢٣-٨٢٨ ، البلاذري : فتوح ١/٤٤ ، أنساب ١/٣٥٥-٣٦١ ، البخاري تجريد ٢/٩٠.

(٤٦٩) الواقدي ٢/٨٢٩.

(٤٧٠) سورة آل عمران ، (الآية ٦٧).

(٤٧١) سورة الإسراء ، (الآية ٨١) ، ابن هشام ، ص ٢٩١-٢٩٤ ، ابن سعد ٢/١/٩٨-٩٩ ، الواقدي ٢/٨٣١-٨٣٢ ، ٨٣٤ ، البلاذري : فتوح ١/٤٦ ، البخاري : تجريد ٢/٩٠-٩١.

(٤٧٢) الواقدي ٢/٨٧٠ ، الطبري ٣/٦٥ ، ابن سعد ٢/١/١٠٥ ، خليفة بن خياط ١/٥١.

وهدم الوثن فلم يجد في خزانته شيئاً. وفي الوقت نفسه كان سعد بن زيد الأنصاري يهدم مناة ، الإله الذي كانت الأوس والخزرج تعبده وتطوف به ايام الجاهلية[٤٧٣]. ومن مكة أيضاً بث الرسول (صلى الله عليه وسلم) سراياه في الجهات المحيطة تدعو إلى الإسلام وهي تحمل أمراً بعدم القتال ، مستهدفا بذلك تعزيز انتصاره على الزعامة الوثنية ومد الدعوة الى مناطق كانت قريش قد جعلتها حكرا على آلهتها وأصنامها[٤٧٤].

وقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) على باب الكعبة وقد تجمع الناس في المسجد فخاطبهم قائلاً : (لا إله إلا الله وحده ، ألا كل مأثره أو دم أو مال فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. يامعشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب : **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**[٤٧٥].

(يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم ؟ أجابوه بصوت واحد : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء).

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يستهدف من حرصه على السلم تأليف القلوب وتوحيد كلمتها لتقبل على الإسلام ، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذي آلت اليه وهي سيدة العرب دون منازع لأنها أعظمهم حضارة وأشدهم بأساً وأكثرهم مالاً وفي بلدها البيت الحرام ، ليس من السهل أن تقبل قريش بمصيرها هذا وتقبل على الإسلام طائعة وتحمل رايات الجهاد لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية التي لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس عداوة للإسلام إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام[٤٧٦].

جلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده وقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : أين عثمان بن طلحة ؟ فلما جيء به ، قال له : هاك مفتاحك

---

(٤٧٣) الطبري ٦٦/٣ ، الواقدي ٨٧/٢ ، ابن سعد ١٠٥/١/٢-١٠٦.

(٤٧٤) الطبري ٦٦/٣ ، ابن سعد ١٠٦/١/٢-١٠٨ ، الواقدي ٨٧٥/٣-٨٨٤ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٥١/١.

(٤٧٥) سورة الحجرات ، (الآية ١٣).

(٤٧٦) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٢٣٩-٢٤٠.

يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء[٤٧٧]. وأمر مؤذنه بلالاً أن يصعد فيؤذن في الناس معلنا بشهادته انتهاء عهد الوثنية في مكة ، قلب الوثنية ، وبداية عهد جديد لايعبد فيه غير الله ، وفق التعاليم التي جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : العبادة التي تحرر الإنسان وتباركه وتزكيه وتقوده الى الفلاح الواحد في الدنيا والآخرة وترفع رأسه فلا يعود ينخفض مرة اخرى لقوة في الأرض بشرا كانت أم حجارة صماء[٤٧٨].

وفي يوم الفتح هذا يقول الغزالي : ((ترجع بنا الذكريات الى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ، ولم يسمعوا صوت بلال يرن فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الاصنام مكبوبة على وجوهها .. إنهم قتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة التي نشبت بين الإيمان والكفر ، ولكن النصر الذي يجني الأحياء ثماره لهم اليوم فيه نصيب كبير وجزاؤهم عليه مكفول عند من لايظلم مثقال ذرة. إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل ، فقد يحترمه الاجل في المراحل الاولى وقد يصرع في هزيمة عارضة كما وقع لسيد الشهداء حمزة ومن معه. والقرآن الكريم ينبه اصحاب الحق الى ان المعول في الحساب الكامل على الدار الآخرة لا على الدار الدنيا فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً : **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٧٧)}**[٤٧٩].

***

ولد سقوط مكة قاعدة الوثنية رد فعل عنيف لدى القبائل العربية في الشمال وعلى رأسها هوازن وثقيف ، ورأت ان تتحرك لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الإسلامية قبل ان يستفحل الخطر وتجد هذه القبائل نفسها محاطة من كل مكان. إذ ان السكوت إزاء ما يحققه المسلمون من انتصارات ، يعني فتح الطريق امامهم لتغطية الجزيرة كلها بدينهم الجديد ، واكتساح مواقع الوثنية واحدة واحدة ، سيما وان (أم القرى) قد القت السلاح دونما قتال أو مقاومة ، هذا الى ان هذه القبائل كانت – لدى سماعها بمغادرة الرسول المدينة على رأس قواته – قد تجمعت خوفا من ان

---

(٤٧٧) ابن هشام ٢٩٢-٢٩٣ ، الطبري ٣/٦٠-٦١ ، ابن سعد ٢/١/٩٩ ، الواقدي ٢/٨٣٣-٨٣٨ ، البلاذري: فتوح ١/٤٧-٤٨ ، أنساب ١/٣٥٥-٣٥٦ ، وانظر عن نص خطبة الرسول في اعقاب فتح مكة : حميد الله : الوثائق ، ص ٩٠-٩١.

(٤٧٨) عن الآيات المتعلقة بفتح مكة انظر سورة التوبة : (الآيات ٨-١٦ ، ٢٣-٢٤) ، سورة الممتحنة ، (الآيات ١-٣).

(٤٧٩) سورة غافر ، (الآية ٧٧) ، فقه السيرة ، ص ٤١٨.

يغزوها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقال زعماؤها بعد فتح مكة : ((قد فرغ لنا ، فلا ناهية له دوننا ، والرأي ان نغزوه)).

وتولت هوازن كبر المحاولة حيث جمعها زعيمها مالك بن عوف النصري وانضمت اليها ثقيف كلها ، ولحق بهما بعد قليل قبائل نصر وجشم وسعد بن بكر وعدد من ابناء بني هلال وبني مالك ، واتفق قادتهم على ان يسلموا بزعامة مالك ابن عوف ، فرأى هذا ان يسير مع المقاتلين ، نساؤهم وأطفالهم واموالهم كي يستميتوا في القتال ... وعندما عسكر في أوطاس ، احد وديان هوازن ، اعترض دريد بن الصمة الجشمي على رأي مالك في جلب النساء والاطفال والاموال ، وسأله لم ذاك ؟ فأجاب مالك : أردت ان اجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد وهو شيخ كبير مجرب : راعي ضأن والله ! وهل يردّ المنهزم شيء ؟ إنها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. فرفض مالك الأخذ برأيه أنفة واستعلاء ونادى قومه : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد(٤٨٠).

عندما سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) نبأ هذا التحرك الوثني بعث احد أصحابه مستخبرا ، وأمره ان يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم. فتسلل الرجل الى مواقع العدو وعاد ليخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما اجمع عليه هؤلاء من قتال المسلمين. فانطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مطلع شوال على رأس اثني عشر الف مقاتل كان من ضمنهم ألفان من المكيين أسلموا بعد الفتح. وسرعان ماوجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى اجتياز واد من أودية تهامة ، شديد الانحدار يدعى حنينا ، في طريقهم لمجابهة التجمع الوثني ، ولم يكن الصبح قد اتضح بعد ، وكان المشركون قد سبقوهم الى الوادي فكمنوا لهم في شعابه ومضايقه ، وتهيؤا للانقضاض على المسلمين في جو يسوده المطر والضباب. وما أن دخلت قوات المسلمين الوادي حتى انقض عليهم أعداؤهم دفعة واحدة ، من حيث لم يكونوا يتوقعون ، فأصابهم الفزع والاضطراب وكروا راجعين لايلوي احد على احد(٤٨١)!!

---

(٤٨٠) ابن هشام ، ص ٢٩٧-٢٩٩ ، الطبري ٣/٧٠-٧٢ ، الواقدي ٣/٨٨٥-٨٨٩.

(٤٨١) ابن هشام ، ص ٢٩٩-٣٠١ ، الطبري ٣/٧٢-٧٤ ، ابن سعد ٢/١/١٠٨ ، الواقدي ٣م ، ٨٨٩-٨٩٧.

انحاز الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات اليمين ونادى : (أيها الناس هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله) ، ثم تقدم بحربته أمام المقاتلين ، وكان يقف إلى جانبه صامدا عشرات من المهاجرين والأنصار فيهم علي وأبو بكر وأسامة وعمر ... وقال للعباس ذي الصوت الجهوري ((ياعباس أصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة)) وسرعان ما انطلقت النداءات من بعيد (لبيك لبيك) ، وكان الرجل منهم إذا ما اراد ثني بعيره والانطلاق ثانية إلى قلب المعركة ، لا يقدر على ذلك ، لشدة التدافع والزحام وضغط المتراجعين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره مخليا سبيلها ، ومنطلقا صوب النداء. حتى إذا اجتمع الى الرسول مائة من المقاتلين ، استقبلوا العدو واقتتلوا معه قتالا مريرا وقال الرسول وقد رأى أصحابه يجتلدون مع المشركين : الآن حمي الوطيس. وتمكن علي ورجل من الانصار من قتل حامل راية هوازن. وبدأت الكفة ترجح لصالح المسلمين ، وما لبث المشركون أن اخذوا بالتراجع صوب الوراء وانقض عليهم المسلمون يعملون فيهم قتلا وأسرا ... وما أن عاد إلى الميدان أولئك الذين تراجعوا إلى الخلف من المسلمين ، حتى وجدوا أسارى المشركين مكتفين بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٤٨٢].

تراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف ، وعسكر بعضهم في أوطاس ، وتوجهت فئة ثالثة نحو نخلة ، ولم يتح لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرصة يستردون فيها قواهم ويعيدون تنظيم انفسهم ، فأرسل قوة من المسلمين لمطاردة أولئك الذين توجهوا نحو نخلة ، وقوة ثانية بقيادة أبي عامر الأشعري كلفت بقتال المشركين في أوطاس ، فأصابوه بسهم أودى بحياته ، فأخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعري وقاتلهم حتى فتح عليه وتمكن من هزيمتهم[٤٨٣].

***

وبعد أن أمر الرسول بحبس سبايا معركة حنين وأموالها الكثيرة في مكان يدعى (الجعرانة) مجمداً التصرف بها ، انطلق صوب الطائف حيث أعتصم المنهزمون بحصونها

---

(٤٨٢) ابن هشام ، ص ٣٠١-٣٠٣ ، الطبري ٣/٧٤-٧٧ ، ابن سعد ٢/١/١٠٩ ، الواقدي ٣/٨٩٧-٩١٤ ، البلاذري : أنساب ١/٣٦٥ ، اليعقوبي : تاريخ ٢/٥٢.

(٤٨٣) ابن هشام ، ص ٣٠٥ ، الطبري ٣٣/٧٨-٨٠ ، ابن سعد ٢/١/١٠٩ ، الواقدي ٣/٩١٥-٩١٦ ، البلاذري : فتوح ١/٦٥ ، أنساب : ١/٣٦٥ ، البخاري : تجريد ٢/٩١-٩٢.

المنيعة وأعدوا العدة للقتال ، ونزل قريبا منها حيث عسكر هناك وجرت مناوشات بين الطرفين ذهب ضحيتها نفر من المسلمين بنبال العدو ، الأمر الذي دفع الرسول إلى ابعاد معسكره عن مدى النبال التي كانت تنطلق من حصون ثقيف. وظل يحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، قدمت خلالها وفود المناطق المجاورة معلنة إسلامها. واستمر القتال ، عنيفاً حينا ومتقطعا احيانا ، أستعمل فيه المسلمون آلات الحصار كالمنجنيق والدبابة وقد تمكنت قوة من المسلمين من الزحف بدباباتهم إلى جدار الطائف وبدأوا بخرقه لولا ان ارسلت عليهم ثقيف قطعا من حديد محمية بالنار اضطرتهم إلى الانسحاب بعد أن سقط عدد منهم. وردا على المقاومة العنيفة التي أبداها المشركون ، أمر الرسول بتقطيع كروم ثقيف المنتشرة في البساتين المجاورة لإرغامهم على التسليم ، وتسلل إلى معسكر المسلمين من الطائف ، آنذاك ، نفر من عبيدها أعلنوا إسلامهم ، فأعتقهم الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٤٨٤].

لم ير الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضرورة للاستمرار في الحصار ، وادرك ان الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها بحر طام من كل مكان ، وستسعى إليه حينذاك طالبة الانتماء إلى الدين الجديد ، رغبة وإيماناً لا حقداً وخوفاً. وبدلا من ان تكون هذه المدينة ذات الطاقات البشرية المعروفة ، على المسلمين في مستقبل الايام ، فإنها ستكون لهم. ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوغ القول إن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم ير خطرا من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك[٤٨٥]. لذلك كله لم يشأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يفتحها عنوة ، ولم يأمر بهجوم حاسم عليها ، كما حدث في العام الماضي مع حصون خيبر على سبيل المثال ، وأكتفى بأن يدير القتال على أضيق نطاق ، بحيث ان جميع من أستشهد من اصحابه خلال الحصار لم يتجاوزوا اثنى عشر رجلا[٤٨٦] ، ومن ثم أمر ان يؤذن في الناس بالرحيل ، فقفل المسلمون عائدين ، بعد بضع وعشرين يوما من الحصار ، إلى الجعرانة حيث جمعت السبايا والغنائم الكثيرة في أعقاب حنين : ستة الآف رأس من السبي ، وأربعة وعشرون الف بعير ، واربعون الف

---

(٤٨٤) ابن هشام ، ص ٣٠٧-٣١٠ ، الطبري ٣/٨٣-٨٥ ، ابن سعد ٢/١/١١٤ ، الواقدي ٣/٩٢٣-٩٣٧ ، البلاذري : فتوح ١/٦٥ ، أنساب ١/٣٦٧ ، خليفة بن خياط : تاريخ ١/٥٣.

(٤٨٥) دروزة : سيرة الرسول ٢/٣٦٩-٣٧٠.

(٤٨٦) ابن هشام ، ص ٣١٠ ، الطبري ٣/٨٥ ، ابن سعد ٢/١/١١٤-١١٥ ، خليفة بن خياط : تاريخ ١/٥٤-٥٥.

شاة ، واربعة الاف أوقية من الفضة. ولم يتسرع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في توزيعها املاً في ان يعود قادة هوازن مسلمين فيرد عليهم سبيهم وأموالهم ، ولكنهم لم يجيئوا إلا بعد انتظار طويل وزعت خلاله المغانم. وفي الجعرانة التقوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وقالوا له : يارسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنا اهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك. فسألهم الرسول : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ، فأجابوه : نساؤنا وابناؤنا ، فردهم اليهم عن طيب خاطر من المسلمين ، وسألهم ان يخبروا زعيمهم مالك بن عوف الذي كان قد احتمى بالطائف أنه إذا جاء مسلما رد عليه الرسول أهله وماله ، فاستجاب مالك لدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتسلل من الطائف حيث قدم عليه معلنا إسلامه ، فرد عليه الرسول أهله وماله واستعمله على من اسلم من قومه والقبائل المجاورة. فأخذ مالك يداهم ثقيفا بمسلمي قومه ، ويهاجم قطعانهم وقوافلهم حتى ضيق عليهم[٤٨٧]. وبذلك حقق الرسول (صلى الله عليه وسلم) هدفين اثنين بسياسته المرنة هذه أولهما كسب قبيلة هوازن ذات الشوكة وحلفاءها إلى معسكر المسلمين ، وثانيهما اتخاذها رأس حربة يضرب بها بقايا القوى الوثنية في المنطقة.

***

بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك مهمة توزيع الغنائم على جنده واتباعه. وناداه الأعراب : يا رسول الله ، أقسم علينا من الابل والغنم ، وازدحموا عليه حتى الجؤوه إلى جذع شجرة اختطفت عنه رداءه فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس فوالله إن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً. ثم تقدم الى بعير قريب منه فاستل منه وبرة جعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال : (أيها الناس ، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم)!! ثم راح يوزع الغنائم ، مختصا بقسمها الأكبر زعماء القبائل العربية التي أسلمت أخيرا من أجل أن يتألفهم وقومهم بها ، فأعطى كل واحد منهم عشرات من الجمال. وعندما رأى الأنصار أن الغنائم قد حجبت عنهم ، وانصبت بين أيدي قريش وقبائل المنطقة وجدوا في انفسهم ، وتناوشتهم الظنون ، فراحوا يتهامسون بها ، وقال

---

(٤٨٧) ابن هشام ، ص ٣١١-٣١١ ، الطبري ٣/٨٦-٨٩ ، ابن سعد ٢/١/١١٠-١١١ ، الواقدي ٣/٩٤٩-٩٥٦.

قائلهم : لقي والله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قومه ، ولم يشأ زعيمهم سعد بن عبادة إلا ان يصارح الرسول بما يدور بين أتباعه ، فسأله الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ أجاب: يا رسول الله ما أنا الا من قومي ، فقال له الرسول : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

وقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) في جموع الأنصار خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، والله ورسوله أمن وأفضل. قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل. قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك. أوجدتم يامعشر الانصار في انفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الانصار ان يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتم أمراً من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار). فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا[٤٨٨]. وانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتفرقوا وهم يعلمون يقينا البعد الحقيقي للدرس الذي منحهم اياه نبيهم ومعلمهم.

إن هذه الكتلة النقية في تاريخ الحركة الإسلامية يجب أن تظل على نقائها تعطي ولا تأخذ ، ولا تؤخر ، لأن الذي قادها إلى الإيمان ورفعها مجاهدة في طريقه اللاحب الطويل ، شيء اخر غير اهتمامات الذهب والفضة .. انه النور العميق الذي انقدح في اعماقهم يوم بايعوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. واما الكتل الجديدة من تاريخ الدعوة ، فأسلوب التعامل معها، وكسبها ، وكف أذاها ، غير اسلوب التعامل مع كتلة كالانصار آثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبقى معها دوما : حياً وميتاً (معاذ الله ... قال لهم الرسول – المحيا محياكم والممات مماتكم) !!

***

(٤٨٨) ابن هشام ، ص ٣١٤–٣١٨ ، الطبري ٣/٨٩–٩٤ ، ابن سعد ٢/١/١١٠–١١١ ، الواقدي ٣/٩٤٣–٩٤٩ ، ٩٥٦–٩٥٨ ، وانظر البخاري : تجريد ٢/٩٣.

قفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عائدا الى مكة فأدى مناسك العمرة هناك في ذي القعدة وولى عتاب بن أسيد إمرة مكة ، ومعاذ بن جبل تفقيه الناس في الدين وتعليمهم القرآن ، ومنح عتابا راتبا يوميا مقداره درهم واحد !! وقد قام الامير الشاب يوما خطيباً في الناس فاعرب عن قناعته بما يتقاضى اجرا على اتعابه ، قال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم، وقد رزقني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) درهما كل يوم فليست بي حاجة الى احد. وقد حج عتاب بالمسلمين ذلك العام الذي شهد حجا مختلطا شمل المسلمين والوثنيين على السواء(٤٨٩). وفي الايام الاخيرة من ذي القعدة ومطلع الشهر التالي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) واصحابه قد سلكوا طريق العودة من المدينة في أعقاب أكبر انتصارين حققهم الإسلام في صراعه مع الوثنية.

(٤٨٩) ابن هشام ، ص ٣١٨ ، الطبري ٣/٩٤-٩٥ ، الواقدي ٣/٩٥٩-٩٦٠.

عام الوفود وتصفية الوجود الوثني

كان سقوط مكة زعيمة الشرك بأيدي الفاتحين ، وهزيمة التحالف الوثني الاخير في حنين، آخر ضربتين حاسمتين للوجود الوثني في جزيرة العرب ، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بخفة وسرعة ، حيث ازيلت العوائق ، إلى كل مكان. وادركت القبائل العربية التي ظلت على وثنيتها ألا مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته المتفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلها ، وأن عنادها وتشبثها بمواقفها السابقة فقد مبرراته بدخول مكة في الإسلام ، وانتماء هوازن ، اكبر القبائل الوثنية ، للدين الجديد. فراحت هذه القبائل تتسابق في إرسال وفودها الى المدينة ، قاعدة الإسلام ، مبايعة على الاسلام أو مصالحة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ولكثرة هذه الوفود التي انهالت على المدينة في العام التالي لفتح مكة ومطلع الذي يليه ، سماه المؤرخون (عام الوفود) ، وكان في طليعتها وفد ثقيف الذي قدم الى المدينة في شهر رمضان في أعقاب عودة الرسول من غزوة تبوك. قال بن إسحاق : ((وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش ، كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك. وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة بحرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله عز وجل أفواجا يضربون إليه من كل وجه))[٤٩٠].

وكان عروة بن مسعود ، أحد زعماء ثقيف ، قد ادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في طريق عودته ، قبل ان يصل المدينة ، وأعلن إسلامه ، وقفل عائدا الى الطائف يدعو قومه إلى الإسلام متحصناً بمنزلته فيهم ومحبتهم وطاعتهم له ، إلا أن حميتهم الجاهلية أنستهم ذلك كله فرموه بالنبل من كل وجه وأصابه أحدها فخر صريعا ، وعندما سئل ، وهو يتضرج بدمائه : ما ترى في دمك ؟ أجاب : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله الي ، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل ان يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم. ومرت الشهور على مصرع عروة ، وبدأت ثقيف تدرك ألا طاقة لها بحرب من حولها من القبائل العربية التي بايعت وأسلمت ، فاتفق زعماؤها على ان يرسلوا الى الرسول

---

(٤٩٠) ابن هشام ، ص ٣٤٢.

(صلى الله عليه وسلم) رجلا يكلمه ، ووقع اختيارهم على عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، احد أشراف الطائف ، إلا انه تخوف أن يصنعوا به ، بعد عودته ، ماصنوا بعروة ، وطلب منهم ان يرسلوا برفقته رجالا من شتى عشائر ثقيف ، فأجابوه واختاروا له خمسة رجال اتجه بهم إلى المدينة[٤٩١].

لقيهم المغيرة بن شعبة في أطراف المدينة فهرع ليبشر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقدومهم عليه ، فلما رآه أبو بكر وعرف النبأ رجاه ألا يسبقه إلى الرسول ، حتى يكون الصديق أول من يحدثه بالنبأ ، ففعل المغيرة. وعندما التقوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وبدؤوا حديثهم معه سألوه أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله عليهم ذلك فما برحوا يسألونه ، سنة سنة ، ويأبى عليهم ، حتى تنازلوا إلى التماس إبقائها شهرا واحدا ، والرسول يأبى أن يدعها يوما واحدا .. وكان غرضهم من ذلك أن يسلموا – بعد عودتهم – من سخط سفهائهم ونسائهم وصبيانهم ، وألا يروعوا قومهم بهدمها ، حتى ينتشر الإسلام بينهم ، فسألوه أن يعفيهم من تحطيم أصنامهم بأيديهم. فأجابهم الى ذلك وأرسل معهم ابا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليهدماها وبعد ان اعلنوا إسلامهم ، كتب لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتاباً وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص رغم حداثة سنه ، لكونه أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن[٤٩٢].

عاد الوفد الى الطائف يصحبه المغيرة وأبو سفيان ، وتوجه المغيرة فور وصوله الى اللات وراح يعمل فيها ضربا بمعوله ، وقومه يحمونه خشية ان يرمى أو يصاب كما اصيب عروة بن مسعود. وخرجت نساء بني ثقيف حاسرات يبكين ويندبن إلههن وهو يتهاوى إلى الارض قطعا من الحجارة الصماء. وما لبث المغيرة أن أتم مهمته ، ومحا من الطائف ذلك المركز المهم الثالث في شمال الجزيرة ، رمزها الوثني الذي حجبها عن الالتحاق بالدعوة الجديدة ردحا طويلاً[٤٩٣]. وغدا الطائفيون من أشد الجماعات إخلاصا للدعوة حتى أن المغيرة قال عنهم : ((لا أعلم قوما من العرب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاما ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه

---

(٤٩١) ابن هشام ، ص ٣٣٦–٣٣٧ ، الطبري ٣/٩٦–٩٨ ، ابن سعد ١/٢/٥٢ ، الواقدي ٣/٩٦٠–٩٦٣.

(٤٩٢) ابن هشام ، ٣٣٧–٣٣٩ ، الطبري ٣/٩٨–٩٩ ، ابن سعد ١/٢/٥٣–٥٤ ، الواقدي ٣/٩٦٣–٩٦٩ ، ابن الأثير : الكامل ٢/٢٨٣–٢٨٤ ، ابن حزم : جوامع ٢٥٥–٢٥٧.

(٤٩٣) ابن هشام ، ص ٣٣٩–٣٤٠ ، الطبري ٣/٩٩–١٠٠ ، الواقدي ٣/٩٦٩–٩٧٣ ، ابن حزم : جوامع ٢٥٧–٢٥٨.

منهم))[٤٩٤] .. وهكذا جاء البذار الذي زرعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل عام واحد عند أسوار الطائف ، بثماره الحلوة !!

***

كان الوفد الثاني الذي قدم المدينة ، بني تميم ، وكان يترأسه عطارد بن حاجب في عدد كبير من رجالات تميم وأشرافها. وعندما وصلوا المسجد ظهراً ، نادوا رسول الله من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يامحمد ! فخرج إليهم الرسول وهو غير مرتاح لأسلوبهم البدوي الخشن في ندائه ، وقام زعيمهم فألقى كلمة عدد فيها مآثر بني تميم وفضلهم في الناس. فأمر الرسول خطيبه ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد على الرجل. فقام قيس خطيبا بالمجتمعين ، فبدأ كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم تطرق إلى نبوة الرسول وفضله وختم خطابه قائلا : ((... واستجاب لله حين دعاهم رسول الله ، نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله ابداً ، وكان قتله علينا يسيراً ...)) ، وأعقبه الزبرقان بن بدر شاعر تميم بقصيدة أكبر فيها مكانة تميم بين العرب ، فأمر الرسول شاعره حسان بن ثابت أن يرد على الرجل ، فأجابه بقصيدة اخرى. ولما انتهى الطرفان من إلقاء خطبهم وقصائدهم أعلن وفد بني تميم الإسلام ، فمنحهم الرسول الجوائز والعطايا[٤٩٥].

وأرسلت بنو عبد القيس وفدها الى المدينة برئاسة الجارود بن عمرو ، فأسلم وأصحابه ، كما قدم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب ، فتركه قومه في رحالهم وذهبوا لمقابلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولما أسلموا وقفلوا عائدين إلى ديارهم أعلن مسيلمة أنه قد أشرك في الأمر مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وراح يتلو عليهم سجعه الذي ظن أنه إنما يضاهي به القرآن[٤٩٦].

وقدم عدي بن حاتم الذي كان قد اعتنق النصرانية ولجأ الى الشام إثر اتساع سلطان المسلمين ، وقال له الرسول : ((لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من

---

(٤٩٤) ابن سعد ٥٤/٢/١.

(٤٩٥) ابن هشام ، ص ٣٤٢-٣٤٦ ، الطبري ١١٥/٣-١٢٠ ، ابن سعد ٤٠/٢/١-٤١ ، الواقدي ٩٧٥/٣-٩٨٠.

(٤٩٦) ابن هشام ، ص ٣٥٠-٣٥٢ ، الطبري ١٣٦/٣-١٣٨ ، ابن سعد ٥٥/٢/١-٥٦ ، وانظر البخاري : تجريد ٩٦/٢-٩٧.

حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه إنك ترى ان الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم)). وما لبث عدي أن أعلن إسلامه[٤٩٧].

وراحت الوفود وزعماء القبائل تترى على المدينة : قدم فروة بن مسيك المرادي مفارقا لملوك كندة ، فاعلن إسلامه ، فاستعمله الرسول على قبائل مراد وزبيد ومذ حج وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة. وقدم عمرو بن معد يكرب في رجال من بني زبيد فأعلنوا اسلامهم. وقدم وفد كندة ، البالغ ثمانين رجلا بزعامة الاشعث بن قيس وأعلنوا اسلامهم ، وقدم صرد بن عبد الله الأزدي في وفد من الأزد واعلنوا اسلامهم ، فأمره الرسول على قومه ، وأمره ان يجاهد بمن أسلم منهم مشركي القبائل اليمنية المجاورة. كما قدم وفد اخر يحمل كتابا من ملوك حمير يعلنون فيه إسلامهم ومفارقتهم الشرك واهله ، فأجابهم الرسول بكتاب يبين لهم فيه بعض فرائض الإسلام ويعلمهم بأنه سيرسل اليهم عددا من خيرة أصحابه فيهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وغيرهم ، وعليهم أن يؤدوا إليهم ما سيجبونه من صدقة وجزية ، وأمر عليهم معاذ بن جبل[٤٩٨].

وقدمت كذلك وفود بلى والداريين (من لخم) وسلامان وغسان وغامد وبنو أسد وقال هؤلاء للرسول : قدمنا يارسول الله من قبل أن ترسل الينا رسولا فأنزل الله (سبحانه وتعالى) فيهم : {**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**}[٤٩٩] ، كما قدمت وفود بهراء وبني البكاء وبني فزارة[٥٠٠]. وأرسلت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة إلى رسول الله ، فقدم عليه ، وأناخ بعيره عند باب المسجد ثم دخل المسجد ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس بين أصحابه ، ووقف قريبا منه وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ أجاب الرسول : أنا. قال الرجل : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك. قال : لاأجد في نفسي فسل عما بدا لك. قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال : اللهم نعم. قال:

---

(٤٩٧) ابن هشام ، ص ٣٥٢-٣٥٦ ، الطبري ١١٢/٣-١١٥ ، ابن سعد ٥٩/٢/١-٦٠.

(٤٩٨) انظر ابن هشام ، ص ٣٥٦-٣٦٤ ، الطبري ١٢٠/٣-١٢٢ ، ١٣٢-١٣٩ ، وانظر بالتفصيل ابن سعد ٣٨/٢/١-٨٦.

(٤٩٩) سورة الحجرات ، (الآية ١٧) ، وانظر : الطبري ٩٦/٣-١٣٠.

(٥٠٠) الطبري : ١٢٢/٣.

فأنشدك بالله .. الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كانت آباؤنا تعبد من دونه ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فأنشدك بالله ... الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال : اللهم نعم. ثم جعل ضمام يذكر فرائض الإسلام واحدة واحدة ، حتى إذا فرغ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً رسول الله. وانصرف راجعا حتى إذا قدم على قومه ، اجتمعوا اليه فراح يصرخ فيهم : بئست اللات والعزى قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ! قال : ويحكم ، إنهما والله لا ينفعان ولا يضران ، وإن الله قد بعث رسولا ، وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني اشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه. قال ابن عباس : فوالله ما أمسى ذلك اليوم وفي حيه رجل ولا امرأة إلا مسلماً[٥٠١]. ذلك وفد – يقول الغزالي – ((يمثل بساطة الأميين في منطقهم ، وسلامة طريقتهم ، في جدلهم وخلو أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمح. ولانكران في ان جهاد الدعوة القديم له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة ، وهذا طبيعي ، فإن تغيير دين ليس كتجديد زي ، وضمام كان يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي ، ثم وهو يخطب قومه، أن هذه الرسالة الجديدة مرت بأطوار شتى من المحن والفتن ثم كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها فليس إيمانه وإيمان قومه وليد ساعة من كلام))[٥٠٢].

***

وبعد قليل استقبلت المدينة عددا آخر من الوفود انهالوا عليها من كل مكان : وفد محارب ووفد الرهاويين ووفد عنس[٥٠٣] ، ووفد من طيىء برئاسة الشاعر زيد الخيل[٥٠٤] ، ووفد بني عامر بن صعصعة[٥٠٥] ... وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد بعث بخالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب في نجران ليدعوهم إلى الإسلام ، فأستجابوا لدعوته وأرسلوا الى المدينة وفدا اعلن إسلامه ، فأمر عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) قيس بن الحصين ،

---

(٥٠١) نفسه ٣/١٢٤-١٢٥.

(٥٠٢) فقه السيرة ، ص ٤٥٧.

(٥٠٣) الطبري ٣/١٣٩.

(٥٠٤) نفسه ٣/١٤٥.

(٥٠٥) نفسه ٣/١٤٤ ، وانظر عن الوفود بالتفصيل : ابن سعد ١/٢/٣٨-٨٦ ، واليعقوبي تاريخ ٢/٦٨-٦٩ ، وابن كثير : البداية ٥/٤٠-٩٦ ، وأرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٥٥-٦١

والحق بهم – بعد مغادرتهم المدينة – عمرا بن حزم ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومبادىء الإسلام ويجبي صدقاتهم ، وسلمه كتابا يبين فيه الكثير من تعاليم الإسلام التي كلف بإبلاغها للقاطنين هناك ، وختم الكتاب بقوله ((... وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني أسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها ...)) [٥٠٦].

وفي مقابل ذلك قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بإرسال أمرائه وعماله الى المناطق التي انتشر فيها الإسلام والقبائل التي أعلنت انتماءها للدين الجديد لكي يجبوا الصدقات ويعلموا الناس أصول دينهم. فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء ، وزياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت وعدي بن حاتم الى طيىء وبني أسد ، ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة ، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد ، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى اليمن[٥٠٧]. وقد تمكن بعض أولئك الدعاة من نشر الإسلام بين عدد من القبائل اليمينية[٥٠٨]. ثم ما لبثت الدعوة الإسلامية أن أخذت تنتشر بسرعة في تلك الاصقاع. وشهدت السنة العاشرة إسلام عدد من الأبناء الفرس هناك وتوج ذلك بإسلام باذان حاكم اليمن الفارسي حيث أرسل الى النبي (صلى الله عليه وسلم) كتابا يعلمه فيه بإسلامه[٥٠٩].

***

وعندما أشرف العام التاسع للهجرة على نهايته وحان موعد الحج وجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه مضطرا للبقاء في المدينة كي يتفرغ للوفود القادمة إليها دونما انقطاع ، وانابَ عنه لإمامة المسلمين في حجهم ذاك أبا بكر الصديق رضي الله عنه. وما أن غادر ابو بكر المدينة في طريقه الى البيت الحرام حتى نزلت آيات (براءة) من سورة (التوبة) تلك التي تعلن تصفية الوجود الوثني من شبه جزيرة العرب ومنح اتباعه وقتا كافيا للتفكير في الخروج من حضيض الجاهلية الذي ظلوا يتمرغون فيه مئات السنين ، وها قد آن الاوان لكي يؤوبوا إلى الحق ويلتزموا الطريق المستقيم ، وإلا فإن الدين الجديد لن يمنحهم فرصة

---

(٥٠٦) ابن هشام ، ص ٣٦٥-٣٦٩ ، الطبري ١٢٦/٣-١٢٩ ، ابن سعد ١٢٢/١/٢.

(٥٠٧) ابن هشام ، ص ٣٧٠-٣٧١ ، الطبري ١٤٧/٣ ، وانظر اليعقوبي : تاريخ ٦٩/٢-٧١.

(٥٠٨) الطبري ١٣١/٣-١٣٢ ، ابن سعد ١٢٢/١/٢ ، المسعودي : التنبيه ، ص ٢٣٨-٢٣٩ ، خليفة بن خياط ٥٨/١ البلاذري : فتوح ٨٢/١ ، أنساب ٣٨٤/١.

(٥٠٩) الطبري ١٥٨/٣.

أخرى بعد ما صبر عليهم وقتاً طويلاً : {**بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١)فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢)وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** }[٥١٠]. وسرعان ما حمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليا بن أبي طالب هذه الآيات والتعليمات المرفقة بها وأمره أن ينطلق بها إلى الكعبة يتلوها على جموع الحجاج هناك وفيهم الكثير من الذين لايزالون على شركهم وجاهليتهم ... وبينما تولى أبو بكر إمارة الحج راح علي يتلو على الناس تعليمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وآيات براءة في يوم الاضحى : ((لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا ، ولايطوفن بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عهد فله عهده إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فمدته أربعة أشهر .. وإن الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً ..))[٥١١].

يقول محمد الغزالي بهذا الصدد : ((ليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية ، عمل إنساني نبيل. وإن اعتراضا عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ويتمنى لها السمو والكرامة ، وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاما يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلما أتيحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتال كلما وقف في طريقه الجهال والضلال يبطلون سعيه أو يصدون عنه. وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء ، ولم يفعل ذلك إعزازا لها ، إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وضميره .. فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شيء وأنهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل ، لم يبق لتركهم من حكم .. ومن ثم نزل الوحي يعالن المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم لم ينفكوا عنها يوما ولا يرجى أن ينفكوا عنها ابداً))[٥١٢].

---

(٥١٠) سورة التوبة ، (الآيات ١-٣).

(٥١١) الطبري ١٢٢/٣-١٢٣ ، ابن سعد ١٢١/١/٢ ، البلاذري : أنساب ٣٨٣/١ ، المقدسي ٢٤٠/٤-٢٤١ ابن حزم : جوامع ، ص ٢٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩١/٢-٢٩٢ ، ابن كثير : البداية ٢٦/٤-٣٩ ، المسعودي : مروج ٢٩٠/٢ ، التنبيه ، ص ٢٣٧-٢٣٨. ويذكر المسعودي - المصدر السابق - إنه لم تمض سنة على ذلك حتى دخلت العرب في الاسلام ، وكانوا اكثر من مئة الف وتعايروا بالشرك بينهم والمقام عليه. وانظر : دروزة : سيرة الرسول ٢٨/٢ ، هامش (١).

(٥١٢) فقه السيرة ، ص ٤٥٣-٤٥٤.

إن مكة قاعدة الوثنية سقطت ، وأصبحت الدولة الإسلامية هي القوة السياسية المتفردة في زعامة الجزيرة ، فلا بد من تحديد جميع سكانها موقفهم في الولاء. فأما أهل الذمة فكانت الجزية رمز انتمائهم وولائهم ، واما العرب فقد اعلنت معظم قبائلهم في عام الوفود وقبله عن انتمائها للدولة والدين الجديد ، ولم يتبق إلا قلة كان لابد من توجيه نداء اليها لتحديد موقفها. ووجود فئة لا تدين بمبادىء الدولة ولا تخضع لقوانينها أمر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي، وكان لابد أن يخضع هؤلاء الناس لنظام الدولة أو يحاربوه ، بمعنى أن يوضعوا في حكم الأعداء ، ولكنهم أعداء داخليون يترتب على عدوانهم خطر كبير على كيان الدولة ، ومن هنا لم يقبل الإسلام منهم إلا الدخول فيه. وليس للمشركين ديانة تحترم ولا مثل تفرض هذا الاحترام كأصحاب الديانات السماوية الأخرى التي اعترف بها الإسلام واعتبر الدين وحدة واحدة(٥١٣).

وواضح أنه لا يرد أي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والحظر لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، واصبحت تقاليد الحج مثل ذلك وصار تحت السلطان الإسلامي ، وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ما له من الحق الطبيعي في سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين(٥١٤). وقد أتى هذا البيان ثمرته ، فإن النبي قد حج في العام العاشر حجته الأخيرة على النظام الإسلامي الكامل ، وحج معه فيها حوالي مائة ألف من حاج العرب(٥١٥) ، لم يكن من بينهم مشرك واحد. وفي الفترة التي تقع بين إعلان براءة ووفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبق الرسول قانون براءة بحذر شديد وكياسة سياسية بارعة وتجنب الاصطدام بالقبائل وإلا جرح كبرياءها وأثار عصبيتها ، ولذلك كان يكتفي من وفودها بإعلان إسلامهم وانضمامهم إلى حكومتة ، ويرسل معهم عند عودتهم مسلمين يعلمونهم الإسلام في بلادهم(٥١٦).

والواقع أن (إعلان براءة) بوقف الوثنية نهائيا ، أمر لا يمكن إدراك ابعاده إلا إذا نظرنا إلى المسألة من جانبيها (الحضاري) و(الاستراتيجي) كضرورتين يرتبط بعضهما ببعض وتسوقان

---

(٥١٣) الشريف : مكة والمدينة ، الصفحات ٥٣٠-٥٣٦.

(٥١٤) دروزة : سيرة الرسول ٣٧١/٢.

(٥١٥) انظر : المقريزي : إمتاع ٥١٢/١.

(٥١٦) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٥٣٨.

الى اتخاذ إجراء حاسم كهذا. فأما اولاهما فهي ان الوثنية ، على خلاف سائر الأديات الأخرى ، تمثل الدرك الأسفل في موقف الإنسان الديني من الكون ، موقف يشده الى الحجارة ويصده عن التقدم إلى الأمام ويحجب عن بصيرته الرؤية الشاملة لدور الإنسان في الارض وعلاقته بالقوى الأخرى في الوجود. ولو بقي العربي على وثنيته لظل بحكم موقفه المحدود هذا ، أسير جهله وتأخره ، وسجين عالم تضيق آفاقه لكي ما تلبث ان تعزله عن العالم وتحصره في قلب الصحراء[٥١٧].

وأما ثانيتهما فتقوم على أن الدولة (العقيدية) التي انشئت في قلب المنطقة العربية ، وامتد نفوذها السياسي الى كافة أرجاء الجزيرة ، وبدأت تحشد قواها وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك الى العالم المحيط كله .. هذه الدولة كان عليها أن تعتمد استراتيجية صارمة ، واضحة المعالم ، من أجل ان تحمي وجودها في شبه الجزيرة ، من جيوب الوثنية العربية ومراكز القوى الجاهلية ، وأن تحيط مركز انطلاقها إلى العالم بسياج من الوحدة العقيدية والسياسية على السواء ، لئلا تضرب من الخلف وهي تمارس صراعها مع القوى الخارجية ، حاشدة له جل طاقاتها.

وعلى ضوء هذا الارتباط بين الضرورتين الحضارية والاستراتيجية يمكن ان نتفهم موقف الحركة الإسلامية ، نظرية وتطبيقا ، إزاء عدد من الاديان. فمهادنتها اليهودية والنصرانية في شبه الجزيرة نفسها كان ينبثق عن كون الديانتين كتابيتين متقدمتين (فكريا) على سائر الديانات الأخرى السابقة والمعاصرة للإسلام ، فضلا عن كونهما لا تمثلان – من الناحية الكمية – خطراً استراتيجيا على الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة. إلا أن اليهود عندما نشطوا قبل غزوة خيبر الحاسمة وبعدها لضرب الدولة ، وإجراء اتصالات عديدة مع القوى الخارجية المتربصة ، صدر أمر بعدم السماح لهم بالبقاء في الجزيرة ، وفي أقسامها الشمالية على الأقل ، وقد تمثل هذا الأمر بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) (لا يجتمع دينان في الجزيرة) ، كما تمثل بخطوات عمر بن الخطاب العملية لإجلاء معظم اليهود عن المنطقة.

وموقف الإسلام – كذلك – من المجوسية والبوذية ، وعدم سعيه لتصفيتهما – رغم تأخرهما الحضاري – يعود الى انهما لايشكلان خطرا استراتيجيا مباشرا على قاعدة انطلاقه الى العالم ، شأن الوثنية في شبه الجزيرة. وهكذا يجيء إعلان (براءة) نصرا حضاريا واستراتيجيا

---

(٥١٧) انظر كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف ، فصل (مواقع العلم والدين).

لدولة الإسلام ، وهي تتهيأ للخطوة التالية في (تحضير) العالم و(جهاد) قياداته (الكافرة) جميعا من أجل منح حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان.

الفصل الثامن

العلاقات بين الإسلام والجبهة البيزنطية – النصرانية

[1]

ترجع البدايات الاولى لعلاقة الإسلام بالنصرانية وزعيمتها الدولة البيزنطية إلى اللحظة التي وقف فيها ورقة بن نوفل قبالة الرسول ، بعد ساعات من بعثه نبياً إلى العالم ، لكي يقول له: ((والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه !)) ثم أدنى رأسه منه وقبله[٥١٨]. لكن ورقة توفي قبل أن يدرك (اليوم) الذي كذب فيه الرسول واؤذي وأخرج وقوتل من قبل الوثنية العربية.

بل إننا لنرجع بالبدايات إلى ما هو أبعد في الزمن .. إلى الإرهاصات المتبقية في العهدين القديم والجديد .. وأحاديث رهبان النصارى وأحبار اليهود وكهان الوثنية وأحنافها الذين كانوا قد تحدثوا ، كما يقول ابن هشام ((بأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه لما تقارب من زمانه. أما الاحبار من يهود والرهبان من النصارى فعمّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ..))[٥١٩].

وقبل ان ندلف إلى تلك الارهاصات والأحاديث لابد أن نشير إلى الضعف والتهافت اللذين يسودان تلك الرواية التي سبق وان عرضنا لها بإيجاز[٥٢٠] والتي تتحدث عن لقاء مبكر تم بين محمد الصبي الذي صحب عمه أبا طالب في رحلته الأولى إلى بلاد الشام وبين بحيرى الراهب.. ونستطيع أن نجد في بحث الدكتور محسن عبدالحميد تقييما للرواية يضعها في مكانها الأقرب إلى الصواب. فهو ، بعد أن يعرض بالنقد لأسانيد الرواية ومتونها ، يخلص إلى القول بأن ((.. هذه الروايات كلها مردودة سندا ومتنا لما فيها من الضعف والنكارة ولما فيها من فساد المتون وبطلانها من الناحية التاريخية وتعارضها مع قواعد العمران البشري والقوانين مما يثبت إثباتا قاطعا أن هذه الرواية موضوعة ، نقلها المؤرخون وبعض المحدثين الذين لايتشددون في شروط الرواية ، ظنا منهم انهم بذلك يضيفون دليلا جديدا يسند بنوة رسولنا الاعظم (عليه

---

(٥١٨) ابن هشام : تهذيب ، ص ٤٨.

(٥١٩) نفسه ، ص ٤٢ وانظر الطبري : تاريخ ٢/٢٩٥-٢٩٧ ، وعن الأحناف انظر : ملحق ج. من كتاب (محمد في مكة) لمونتكمري وات و Bell في مجلة العالم الإسلامي Islamic Quarterly عدد ٢٠ ، سنة ٣٠ ، ومقالة (حنيف) لبوهل في دائرة المعارف الإسلامية : Tor Andrae : Mahomet, p.109.

(٥٢٠) انظر ، ص ٣٣ و ٣٤.

الصلاة والسلام) ، ولم ينتبهوا الى ان أمثال هذه القصص فيها من الشر أكثر مما فيها من الخير ، لأن أعداء الإسلام منذ القديم أرادوا أن يروجوا أمثال هذه الروايات الواهنة كي يثبتوا وجود بحيرى وغيره من القسس في أطراف الجزيرة العربية الذين كان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وسلم) – في زعمهم – يتصل بهم ويأخذ عنهم.

ولقد اهتم بهذه الروايات الكاذبة والباطلة المؤرخون والمستشرقون الغربيون وبنوا عليها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا يمكن أن تقف لحظة واحدة امام الحقائق التاريخية ، منهم وليام موير ومارغليوث ودرابر وغيرهم كثيرون حيث اعتبروا أن أسرار الإسلام كلها أخذها محمد (صلى الله عليه وسلم) من هذا الراهب. ولم يدعهم تعصبهم أن يفطروا كيف يمكن لطفل عمره تسع سنوات أن يأخذ كل هذه الأسرار في لقاء عابر من بحيرى أو أمثال بحيرى))[٥٢١].

والآن .. ما الذي قدمته الأناجيل ورجالاتها من معطيات بصدد النبوة الجديدة ؟

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكتوب في الإنجيل ((لا فظ ، ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح)). وعن سهل مولى عتيبة – وكان نصرانيا من أهل مريس ، يتيما في حجر أهله وعمه – قال : ((أخذت مصحفا لعمي فقرأته حتى مرت بي ورقة فأنكرت كتابتها حين مرت بي ، ومسستها بيدي ، فنظرت فإذا فصول الورقة ملصق بغراء ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه لا قصير ولا طويل أبيض ذو ضفيرتين ، بين كتفيه خاتم ، يكثر الاحتباء ولا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحتلب الشاة ويلبس قميصا مرقوعا ، ومن فعل ذلك فقد برىء من الكبر ، وهو يفعل ذلك ، وهو من ذرية إسماعيل اسمه احمد. فلما انتهيت إلى هذا جاء عمي فلما راى الورقة ضربني وقال : مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها ؟ فقلت : فيها نعت النبي أحمد. فقال : إنه لم يأت بعد))[٥٢٢]. وقال أمية ابن أبي الصلت لأبي سفيان – يوما – : إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا ، فكنت أظنه أني هو ، وكنت اتحدث بذلك ، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف. ووصف الراهب (بكا) من بلاد الشام الرسول المنتظر لأبان بن سعيد حتى قال أبان : ((فوصفه فما أخطأ في وصفه شيئاً ، ثم قال لي : هو والله نبي هذه الأمة، والله ليظهرن)). وتحدث راهب من عمورية إلى سلمان الفارسي وهو يجوب الأرض بحثاً

---

(٥٢١) تحقيق قصة بحيرى ، مجلة الجامعة ، العدد الرابع ، السنة التاسعة ، ص ٦٩–٧٣.

(٥٢٢) ابن سعد : الطبقات ٨٩/٢/١.

عن الحقيقة : ((قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى ارض بين حرتين .. بين كتفيه خاتم النبوة))[٥٢٣].

وماذا – بعد – في الإنجيل عن محمد ، النبي الأخير ؟ : ((من أبغضني – يقول عيسى عليه السلام – فقد أبغض الرب. ولولا اني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها احد من قبلي ماكانت لهم خطيئة. ولكن من الآية بطروا وظنوا انهم يعزونني (يغلبونني) وأيضاً للرب ، ولكن لابد من أن تتم الكلمة التي في الناموس. إنهم أبغضوني مجاناً (باطلاً) فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله اليكم من عند الرب. روح القدس. هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي. في هذا قلت لكم لكيما تشكوا))[٥٢٤]. والمنحمنا بالسريانية تعني محمداً[٥٢٥].

كما ورد في الإنجيل مايدل على انتقال النبوة من ولد إسحاق إلى ولد إسماعيل في قوله: ((الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا ، كذلك اقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره))[٥٢٦]. والحجر الذي رفضه البناؤون كناية عن إسماعيل جد محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي قال : ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه واجمله ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : الا وضعت ها هنا لبنة ليتم البناء؟ فأنا اللبنة ، جئت ، فختمت الأنبياء)). وقال المسيح للحواريين ((إن لي اموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون الآن ان تحتملوا ، وأما متى جاء ذاك – روح الحق – فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية))[٥٢٧].

ويؤخذ من المخطوطات التي عثر عليها بجوار البحر الميت أن عيسى (عليه السلام) كان (مسيا) المسيحيين (ومسيا كلمة آرامية معناها الرسول) وأن هناك مسيا آخر سيأتي بعده وقد

---

(٥٢٣) محمد رواس قلعجي : محمد في الكتب المقدسة ، مجلة حضارة الإسلام ، عدد ١–٢ ، سنة ٨.

(٥٢٤) إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٣–٢٦.

(٥٢٥) ابن هشام ، ص ٤٤–٤٥.

(٥٢٦) إنجيل متى ٢١ : ٤٢–٤٣.

(٥٢٧) إنجيل يوحنا ١٦ : ١٢ ، ١٣.

قال عنه المسيح ((ومتى جاء المعزي – البار قليط – فهو يشهد لي))[٥٢٨]. ومحمد (صلى الله عليه وسلم) هو الذي جاء بعده فشهد له وأنصفه ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة التي جاء بها. وقد جاء في إنجيل برنابا ، الذي استبعدته الكنيسة في العهد الاول وحرم البابا جلاسيوس قراءته سنة (٤٩٢م)[٥٢٩] ما يؤيد هذه المخطوطات ، ويوضح ما فيها من اجمال ، قال : ((فلما كان الناس قد دعوني الله ، وابن الله ، على أني كنت بريئا في العالم ، أراد الله أن يهزأ الناس في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين انني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله))[٥٣٠].

ويرد كذلك في نفس الإنجيل ، غير المعتمد لدى النصارى ((ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم (٢٨) صدقوني إني رايته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي (٢٩) لأن الله يعطيهم روحه نبوة (٣٠). ولما رايته امتلأت عزاء قائلاً : يا محمد ليكن الله معك(٣١))[٥٣١]. وعن نسب الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحدثنا الإنجيل المذكور ((٢٥) ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون ؟؟ (٢٦) أجاب التلاميذ : من داود (٢٧) فأجاب يسوع : لا تغشوا انفسكم (٢٨) لأن داود يدعوه في الأزل : الروح قائلا : قال الله ربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك

---

(٥٢٨) كلمة (المعزي) هذه التي وردت في إنجيل يوحنا هي ترجمة (Paraclete) ومعناها محمد أو أحمد أو محمود. وهناك كلمة تشابهها وهي (Peraclyte) ومعناها المعزي ... فإن كانت الاولى فإن عيسى (عليه السلام) يكون قد بشر بمحمد صراحة فيما ذكره إنجيل يوحنا ، وهذا أمر لا لبس فيه ولا غموض ، وإن كانت الثانية (المعزي) يكون عيسى قد كنى عن رسول الله بالمعزي بدلا من محمد ، لأن الاوصاف التي ذكرت في إنجيل يوحنا لا تنطبق إلا على محمد : قلعجي : محمد في الكتب المقدسة ، مجلة حضارة الاسلام ، عدد ١–٢ ، سنة ٨.

(٥٢٩) وقد اعلن تشارلس فرنسيس بوتر في كتابه (السنين المفقودة من عيسى تكشف) ، ص ١٢٧ ما يلي : (لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات–المكتشفة في البحر الميت–هي حقيقة (هبة الله إلى البشر) لأن في كل ورقة تفتح تأتي إثباتات جديدة على ان عيسى كان كما قال عن نفسه (ابن الانسان) أكثر منه (ابن الله) كما ادعي عليه وهو بريء)) ، وقال في ص ١٢ : ((من العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج الى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات (البحر الميت) وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التي تقوم عليها الشريعة)) انظر : ابراهيم خليل احمد : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، ص ٩٢–٩٣.

(٥٣٠) إنجيل برنابا ، الباب ٢٢٠ ، وانظر ابراهيم خليل احمد : المصدر السابق المقدمات ، ص ٢٢–٢٣.

(٥٣١) برنابا ٤١:٢٧ ، فما بعد.

موطئا لقدميك ... (٣٠) صدقوني لأني أقول لكم الحق ، إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق))[٥٣٢]. ونقرأ في إنجيل متى ((لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل))[٥٣٣].

هذا وقد عقد السيد رشيد رضا في الجزء التاسع من (تفسير المنار) فصلا طويلا عن بشارات الكتب المقدسة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، أورد فيه ثماني عشرة بشارة مستمدة من أسفار العهد القديم والأناجيل ، وناقش الشبهات التي يوردها المبشرون ، واورد من الحجج ما فيه المقنع بصواب استنتاجاته وقوة حججه. وليس هناك أي دليل على أن الأسفار المتداولة اليوم من العهدين القديم والجديد هي كل ما كان متداولا في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبله، وليس يمنع أن يكون فيما لم يصل الينا بشارات وأوصاف أكثر صراحة مما هو وارد في الأسفار المتداولة اليوم. (وآية الأعراف/١٥٧) {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** } قد نزلت في الذين تبعوا النبي من أهل الكتاب في مكة بناء على ما وجدوه فيه من صفات مطابقة لما كان بين أيديهم من أسفار ومن المحال ان يكون ذلك جزافا. وهنالك إنجيل متداول ومنسوب إلى حواري اسمه برنابا فيه نصوص متفقة مع نصوص القرآن عن عيسى وحياته وشخصيته ورسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفاته[٥٣٤]. وصدق الله العظيم : {**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}[٥٣٥] {**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ**

---

(٥٣٢) برنابا ٤٣ : ٢٥ ، فما بعد.

(٥٣٣) الإصحاح فقرة : ١ وانظر عن آثار محمد واصحابه : إنجيل متى ١٧/٤ ، ٤٢/١١ -٤٤ ، ٢٤/١٣-٣٢، ١٦/٢٠.

(٥٣٤) دروزة : عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) : هامش (١) ، جزء ١ ، ص ١١١. وعن نبوءات الأناجيل بالرسول وتحليلها انظر بالتفصيل : إبراهيم خليل احمد : محمد بين التوراة والإنجيل والقرآن ، ص ٤٣-٤٨ ، ومحمد رواس قلعجي محمد في الكتب المقدسة : مجلة حضارة الإسلام ، عدد ١-٢ ، سنة ٨ ، وجواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ، ص ٨٣-٨٦ ، وانظر كذلك : علي عبدالجليل راضي : المسيح قادم ، ومحمد فتحي عثمان : المسيح في الأناجيل الاربعة.

(٥٣٥) سورة البقرة ، (الآية ١٤٦).

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[٥٣٦].

ورغم هذه البينات كلها فإن الغالبية العظمى من حملة الإنجيل (شكوا) ... ليس هذا فحسب بل تحول شكهم إلى استنكار وسخرية ومعارضة ومقاومة ومجابهة ، ثم إلى قتال مسلح حيناً وتآمر خفي أحيانا .. وكانت تلتمع بين الحين والحين أضواء تنير الطريق لرجالات النصرانية : رهبانا وقادة وحكاما إلى قلب الإسلام الرحيب المنفتح على كل دين جاء من عند الله ، وقرآنه المصدق لما بين يديه من الكتاب ، ونبيه الممجد لإخوانه الأنبياء الذين سبقوه كدحا على الدرب الطويل المنبثق عن المصدر الواحد والذاهب إلى المصير الواحد.

[2]

ويحدثنا (درمنغم) كيف ان مكة كانت تضم عددا كبيرا من نصارى من مختلف الأصول حيث كانت لهم مقبرة فيها .. وكان أناس من نصارى الحبشة قد جاؤوا الى مكة ليحيوا النبي الجديد الذي اعرب عن عطفه على دينهم فدمغ باطل المشركين بالحجج البالغة التي يقره عليها اهل الكتاب .. وكان يصادف في عكاظ وفي الأسواق الاخرى أناسا من عرب نجران والحيرة .. وكان – كما أشار القرآن – يرى في الأسواق التي يقصدها نصارى آخرين من بلاد أخرى ولا سيما من الشام لبيع مامعهم من البر .. وكان عملاء بني أسد من الغساسنة يقيمون بوسط مكة، أي بالقرب من الكعبة ، ولكن أكثر أولئك النصارى كانوا يقيمون بالضواحي[٥٣٧]. ولاريب أن إبراد قصة ولادة يحيى وعيسى وإنكار ألوهية عيسى مما يوحي بأن أكثر المخاطبين من أهل الكتاب كانوا نصارى ، ثم أن خبر انهزام الروم والبشرى بفوزهم مما يدل على ذلك ايضاً .. وتلهم الآيات القرآنية أن النبي قد أتصل بهؤلاء النصارى ودعاهم إلى التصديق برسالته ، وأنه كان منهم من كان ذا سعة في المال يمكنه من الإنفاق في سبيل الخير ، وأن منهم من كان قوي الشخصية والنفس بحيث لا يبالي بلوم المشركين ، وأن منهم من كان متميزا بثقافته الدينية بحيث كان اهلا للرجوع اليه والاستشهاد به في أمر الرسالة[٥٣٨].

وكان القرآن الكريم منذ الوقت المبكر من العهد المكي يؤكد – وظل على ذلك في مختلف أدوار التنزيل – على وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ووحدة

---

(٥٣٦) سورة الصف ، (الآية ٦).

(٥٣٧) درمنغم : حياة محمد ، ص ١٢٥-١٢٦.

(٥٣٨) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٣٢-٢٣٣.

الأهداف والمبادىء التي تضمنها القرآن وتلك الكتب ، وتأييد القرآن والنبي (صلى الله عليه وسلم) للأنبياء السابقين والكتب السابقة ، والتنويه بهم ، واستشهد ، وظل يستشهد ، بأهل الكتاب على صحة رسالته النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية ، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعة وتوقع استجابتهم للدعوة الإسلامية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها(٥٣٩).

ولم يخف محمد عطفه على النصارى ، والقرآن مملوء بالشواهد على ذلك .. فكان محمد يرى المثال في شهداء نصارى القرون القديمة وفي شهداء نصارى القرون الأخيرة في اليمن (شهداء الأخدود) وكان يثني على القسيسين والرهبان الذين قدر فضائلهم في تخوم الشام. وسر محمدا ما أسفر عنه انتصار الروم من عدم هدم كنائس النصارى وبيعهم التي (يذكر فيها اسم الله كثيرا). وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يرى في أهل الكتاب الحلفاء الذين يؤيدون مايقول ، ويؤمنون بالحق الذي يدعو اليه والذين : {**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ**}(٥٤٠) وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يتخذ من انضمام حملة العلم من أهل الكتاب إليه دليلا على صدق الإسلام وبطلان دعوى المشركين ، وكان يصرح بأن رسالته مما بشر به الكتاب المقدس(٥٤١).

---

(٥٣٩) انظر : سورة المدثر ، (الآية ٣١) ، سورة الاعلى ، (الآيتان ١٨-١٩) ، سورة الاعراف ، (الآيتان ١٥٦-١٥٧) ، سورة فاطر ، (الآيتان ٣١-٣٢) ، سورة يونس ، (الآيتان ٣٧-٩٤) ، سورة يوسف : (الآية ١١١) ، سورة الأحقاف ، (الآية ١٢) ، سورة طه ، (الآية ١٣٣) ، سورة الشعراء ، (الآية ١٩٧) ، سورة الانعام، (الآيات ٢٠ ، ٨٤-٩٠ ، ٩٢ ، ١١٤) ، سورة غافر ، (الآيتان ٥٣-٥٤) ، سورة الشورى، (الآية ١٣) ، سورة الأنبياء ، (الآيتان ٧ ، ٩٣) ، وانظر سور : الفجر ، القمر ، ص ، الأعراف ، يس ، مريم ، طه ، الشعراء ، النحل ، القصص ، ، يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، الانعام، الصافات ، سبأ ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الذاريات ، نوح ، إبراهيم ، الأنبياء ، المؤمنون ، حيث ترد قصص أنبياء أهل الكتاب وأحوالهم الخاصة وسيرة أقوامهم معهم ، مما يتطابق قليلا أو كثيرا مع ما ورد في كتب أهل الكتاب وما فيها من ثناء على هؤلاء الأنبياء ودعوة للتأسي بهم واحترامهم ، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية وبالتالي بين الإسلام وأهل الكتاب : دروزة : عصر الرسول ٣٣٥/١-٣٤٤.

(٥٤٠) سورة المائدة ، (آية ٨٣).

(٥٤١) درمنغم : المرجع السابق ، ص ١٢٨-١٣٠.

وللمسيح في القرآن مقام عال ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس ، وهو رسول الله الذي خاطبه الله جهرا .. وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده .. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول إن عيسى كلمة الله أو روح الله ألقاها إلى مريم وإنه من البشر .. وهو يذم مذهب القائلين بألوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عادة ثم أكله ، وما إلى ذلك من مذاهب الأسماء النصرانية لا النصرانية الصحيحة. ولا يسع النصراني إلا ان يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم : **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}**(٥٤٢).

وبدلا من أن تكون النصرانية موحدة في فرقة واحدة في جزيرة العرب قائلة بالنظام والمحبة ، كانت مجزأة إلى شيع متعادية منهمكة في المجادلات العقيمة ، فلا عجب إذا بقي الإسلام بعيدا عن هذه المناقشات البيزنطية حول العقائد .. وما كان يقع في سبيل النصرانية المشرقية من المنازعات المذهبية موجب للخزي ، فقد صار النصاربيضطهد بعضهم بعضا في سبيل معنى إحدى الكلمات ، والعلماء يصرون على مجادلاتهم الكلامية ، والخرافات تفسد الجمهور بفضل العدوى(٥٤٣).

ومن الطبيعي – يقول دروزة – أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي أوحي إليه منذ الوقت المبكر بما أوحي ، وظل يوحى إليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة ، المتحد معهم في الأهداف والمبادىء ، المحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها .. ومضامين المفردات القرآنية التي اشرنا اليها آنفاً ، والأسلوب الهادىء الذي ظل متسقا في أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب .. ثانيا إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة، ثالثاً ، كل ذلك يسوغ القول بجزم أن الكتابيين في الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة القرآنية موقف العطف والتأييد وظلوا كذلك إلى آخر العهد المكي وأنه لم يقع بينهم وبين النبي احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة(٥٤٤).

---

(٥٤٢) سورة المائدة ، (آية ١١٦). المرجع السابق ، ص ١٣١-١٣٢.

(٥٤٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨-١٣٩.

(٥٤٤) دروزة : عصر الرسول ١/٣٤٤-٣٤٥.

إلا أن الكتابيين لم يبقوا عند هذا الحد ، بل حققوا ما كان متوقعاً من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها. ففي سورة الاعراف (الآية ١٥٧) نجد أن فريقا من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والإنجيل فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية[٥٤٥]. ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الاسماء النصرانية ، كما ان بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعا نبأ النبي العربي وأعلن إيمانه به[٥٤٦].

وفي نفس الوقت تنزلت آيات أخرى تعرض واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعا فيما بينهم ، ودعوتهم الى الانضواء الى راية القرآن الذي يمت الى المصدر الذي تمت إليه كتبهم ، والذي يعود بدين الله الى صفائه ومبادئه السامية التي لاتحتمل في أصلها خلافا ، واتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .. والتسليم بما جاء به القرآن من حلول لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية .. ولعل من الحق ان يقال إنه كان لهذه الدعوة القرآنية أثر فيما كان من تنبيه الكتابيين في مكة في مبدأ الأمر إلى ما وصل إليه أمرهم من خلاف ، فكان ذلك عاملا في إقبالهم على الإسلام[٥٤٧].

وبعد قليل احتضن نجاشي الحبشة المهاجرين من اضطهاد مكة ، أولئك الذين قال لهم رسولهم وهو يبحث لهم عن موطن يأوون إليه ريثما تكسر حدة العدوان الوثني (لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ..) ورد المبعوثين اللذين أرسلتهما قريش لاسترداد المسلمين بعد أن أبى إلا أن يستمع لصوت الإسلام بمواجهة صوت الوثنية متمثلا بآيات من القرآن الكريم اختارها جعفر بن أبي طالب من سورة مريم دفعت النجاشي إلى ان يرفع عودا صغيرا من الأرض ويقول .. والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود فاعترض بطارقته فأسكتهم وقال للمهاجرين : أذهبوا فأنتم آمنون بأرضي من سبكم

---

(٥٤٥) المرجع السابق ١/٣٤٥-٣٤٨ ، وانظر كذلك سورة القصص ، (الآيات ٥٢-٥٥) ، وسورة الإسراء ، (الآيات ١٠٧-١٠٩) ، وسورة الاحقاف ، (الآية ١٠) ، وسورة الرعد ، (الآية ٣٦).

(٥٤٦) دروزة : عصر الرسول ١/٣٤٨-٣٤٩.

(٥٤٧) المرجع السابق ١/٣٥٠-٣٥٣ ، وانظر سورة هود ، (الآية ١١٠) ، وسورة فصلت ، (الآية ٤٥) ، وسورة الشورى ، (الآيتان ٣ ، ١٤) ، وسورة الزخرف ، (الآيات ٦٣-٦٥) ، وسورة الغاشية ، (الآيتان ١٦-١٧)، وسورة مريم ، (الآيات ٣٤-٣٦).

غرم ، من سبكم غرم .. ثم التفت إلى المبعوثين المشركين قائلاً : انطلقا فلا والله لأسلمهم إليكما[٥٤٨].

وفيما بعد ، عندما خطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي بأرض الحبشة تقديرا لموقفها الفذ في سبيل الدعوة ، بمواجهة إغراءات أبيها زعيم الوثنية ، أصدقها النجاشي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أربعمائة دينار وهو الذي ناب عن الرسول في خطبتها وكانت قبله عند عبيدالله بن جحش الذي كان قد ارتد إلى النصرانية[٥٤٩]!!

وفي المقابل نجد المسلمين ، وهم قلة مضطهدة في مكة ، يهزهم نبأ الهزيمة الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنيين ، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش ، وتنزل آيات القرآن الكريم تتحدث عن الواقعة الحاسمة وتتنبأ بالانتصار الحاسم الذي سيحققه المعسكر النصراني ضد أعدائه المجوس ، حيث يفرح المؤمنون **{الم(١)غُلِبَتْ الرُّومُ(٢)فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤)}**[٥٥٠].

وقد تحققت النبوة القرآنية التي لا تخطىء ، وفي بضع سنين ألحقت القوات البيزنطية ، بقيادة هرقل ، هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية ، استردت في أثرها بلاد الشام وفلسطين وأجزاء واسعة من العراق ، وذهب هرقل إلى بيت المقدس لكي يسجد شكراً لله ، وغمرت الفرحة قلوب القلة المضطهدة في ظلمات الوثنية.

لكن هذا كله لم يمنع الكثرة من النصارى العرب أن تلعب دورها في العصر المدني بمواجهة الإسلام وتتخذ المواقف العدائية ضده على شتى المستويات بدفع من الدولة والكنيسة البيزنطية في معظم الأحيان ، وبمعزل عنهما في بعض الأحيان.

---

(٥٤٨) ابن هشام ، ص ٧٢-٧٧.

(٥٤٩) المصدر السابق ، ص ٣٨١ ، الطبري ٢/٦٥٣-٦٥٤.

(٥٥٠) سورة الروم ، الآيات : ١-٤.

[3]

والعصر المدني ، على خلاف العصر المكي ، غني بالروايات والأحداث التي تلقي ضوءاً شاملا على العلاقات بين الطرفين ، سيما وأن الإسلام كان قد تمكن آنذاك من بناء دولته التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الإقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب وهم جميعا محسوبون على المعسكر النصراني ، منتمون اليه جدا وإخلاصا ، أو هزلا واكتسابا .. والأمر سواء.

وفي السنين الأولى من العصر المدني كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) منهمكاً في تثبيت أسس الدولة الجديدة وفي مجابهة القوى الوثنية واليهودية ، ولم يكن الامتداد الجغرافي للدولة الإسلامية آنذاك قد بلغ الحد الذي يستفز الدولة البيزنطية وحلفاءها العرب ، ويدفعهم الى إثارة المشاكل في طريق الإسلام وحكومته. ورغم ذلك فإننا نجد في السور المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم وما كان بينهم من خلاف ونزاع وهي اكثر وأحد منها في القرآن المكي ، وهي تحمل تنديدا اكثر .. وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي (صلى الله عليه وسلم) والنصارى في العهد المدني كانت اوسع منها في ذلك العهد ، وأن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي واحتك بهم أكثر تنوعا ، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا اكثر تجردا عن الهوى والرغبات المادية وأكثر استعدادا للاستجابة للدعوة والاندماج فيها. وهناك رواية تذكر إنه كان في المدينة جالية من النصارى تسكن في مكان يقال له سوق النبط[٥٥١].

إلا انه تجدر الأشارة إلى ان الجالية النصرانية في المدينة لم تكن ذات شأن وكيان يؤدي إلى أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام ، وان يصدر عنها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود ، ومن ثم فإن الآيات التي وردت في حالة النصارى والتنديد بهم – مع ما في بعضها من عنف – إلا انه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء في حق اليهود.

---

(٥٥١) دروزة : عصر الرسول ٢/٢١٦-٢٢٢.

هذا الى ان هناك آيات تحتوي ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب غير جانحين إلى عنف وكيد(٥٥٢).

وبمرور الوقت وأتساع نفوذ الإسلام شمالاً ، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال .. بدأ المعسكر البيزنطي يفتح عينيه على الخطر المحدق بوجوده من جهة الجنوب. وأغلب الظن ان الأمبراطور البيزنطي وكبار قادته تصوروا – الأمر في بدايته – مجرد اندفاع قبلي كبير صوب الشمال ، أو محاولة إمارة عربية ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية كما كانت تفعل إمارة (كندة) أو (تدمر) على سبيل المثال ، ورأوا ان بأمكان حلفائهم العرب أنفسهم أن يكفوا الدولة البيزنطية عناء وقف هذا الامتداد ، وصد هذه الإمارة الطموحة عن الامتداد الى الشمال.

أكثر من هذا أنهم اعتقدوا أن بإمكان قبيلة من أتباعهم أن تتحرك صوب الجنوب – بإشارة من سادتها – لتضرب القوة الجديدة في قاعدتها نفسها وتقصم ظهرها .. وأغلب الظن أيضاً أن هذا الاعتقاد هو الذي دفع القبائل القاطنة في دومة الجندل ، في أقصى الشمال ، والتي يتزعمها أكيدر بن عبد الملك الكندي الذي يدين بالنصرانية ويخضع لهرقل ، إلى أن تتجمع وتتهيأ في زحف سريع لضرب المسلمين في المدينة (في ربيع الاول من السنة الخامسة للهجرة)، إلا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخذ زمام المبادرة ، وتحرك بسرعة صوب الشمال ، على رأس الف من أتباعه ، معتمدا أسلوب (إضرب قبل أن تضرب). ومن اجل أن يباغت القوم في ديارهم أخذ يسير بأصحابه ليلاً ويكمن نهاراً ، حتى اقترب من هدفه فجعلت القبائل العربية

---

(٥٥٢) المرجع السابق ٢/٢١٥ ، ٢٥٣ ، وانظر عن وصف القرآن الكريم لحالة النصارى في العهد المدني ونقد أخطائهم : المرجع السابق ٢/٢١٦-٢٢٢ وعن دعوتهم للإسلام ومواقفهم إزاءها ٢/٢٢٣-٢٣٠ وانظر بشكل خاص عن مسألة قدوم وفد من نصارى الشمال في أواسط العهد المدني ومناقشته للرسول بحكمة واعتناقه الدين الجديد : المرجع نفسه ٢/٢٢٥-٢٢٧ وتفاسير آيات سورة المائدة ، (الآيات ٨٢-٨٦) (وبخاصة تفسير الطبري) وعن المناظرات والمناقشات بين النصارى والمسلمين انظر : المرجع السابق ٢/٢٣٦-٢٥٢ ، وعن وفد نجران ٢/٢٣٧-٢٤٨ ، والمؤلف يميل الى ان قدوم الوفد كان بعد صلح الحديبية أي في أواخر السنة السادسة للهجرة.

القاطنة هناك تهرب من بين يديه لاتلوي على شيء. وبعد ان بث سراياه في المنطقة قفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عائدا دون أن يلقى من العدو كيدا(٥٥٣).

وهكذا يمكن اعتبار غزوة (دومة الجندل) هذه أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الإسلام والنصرانية ، ويؤكد هذا ما ذكره الواقدي من أنه قيل للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل : إنها طرف من أفواه الشام فلو دنوت لها لكان ذلك مما يفزع قيصر(٥٥٤).

ولم يمض سوى عام حتى قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بإرسال عبدالرحمن بن عوف (في شعبان من السنة السادسة) لقتال قبيلة كلب النصرانية في نفس المنطقة وقال له : (اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا) ، وطلب منه أن يتزوج ابنة ملكهم ان استجابوا له ، تعزيزا للعلاقات بين الطرفين وكسبا لود هذه القبيلة الموالية للعدو البيزنطي. فتقدم عبدالرحمن إلى دومة الجندل ، ومكث هناك ثلاثة ايام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، أميرهم النصراني ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، بينما وافق الآخرون على الاستمرار في دفع الجزية مع البقاء على دينهم. ونفذ عبد الرحمن أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتزوج تماضر ابنة الاصبغ وقدم بها إلى المدينة(٥٥٥).

وكان من نتائج هذين الانتصارين أن ادركت القبائل الضاربة هناك ان حجم القوة الإسلامية وقدرتها على التحرك أكبر مما كانت تظن ، وربما بلغ ذلك القيادة البيزنطية نفسها فكفت عن تكرار المحاولة ، ردحا طويلا من الزمن ، أتاح للمسلمين تحقيق انتصارهم على الوثنية ، في صلح الحديبية ، وتصفية المواقع اليهودية في الشمال : خيبر والقرى المحيطة بها ، وقيام رسولهم (صلى الله عليه وسلم) بمكاتبة ملوك وأمراء العالم ، بمن فيهم الأمبراطور البيزنطي وأتباعه الغساسنة وحكام مصر والحبشة.

---

(٥٥٣) ابن هشام ، ص ٢١١ ، الطبري : تاريخ ٥٦٤/٢ ، ابن سعد ٤٤/١/٢-٤٥ ، الواقدي ٤٠٢/١-٤٠٤، المسعودي التنبيه والإشراف ، ص ٢١٤-٢١٥ ، ابن حزم : جوامع ، ص ١٨٤-١٨٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٢/٤.

(٥٥٤) مغازي رسول الله ٤٠٣/١.

(٥٥٥) ابن سعد ٦٤/١/٢-٦٥.

[4]

والحق أن المعسكر البيزنطي – النصراني هو الذي حظى بالقسط الأعظم من حركة الرسول العالمية المعروفة في التاريخ بأسم (مكاتبة الملوك والأمراء) ، ربما لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أدرك ان الوشائج التي تربط الإسلام بهذه الجبهة ، باعتبارها تنتمي إلى دين سماوي تنص مصادره الدينية على نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ستقودهم الى تفهم دعوته التي انطلق بها سفراؤه إلى ملوك وحكام هذا المعسكر ، فضلا عن قربه الجغرافي من شبه الجزيرة ، إلا أن ردود الفعل النصرانية لم تكن سواء ، وتدرجت بين الانتماء إلى الدعوة الجديدة أو الموقف الودي منها ، وبين الرفض الغاضب الوقح !!

ولم يحدد مؤرخونا القدامى تواريخ هذه السفارات ، فيجعلونها حينا في أواخر السنة السادسة ، ويجعلونها حينا آخر السنة السابعة أو ما بعدها ، إلا ان هذا الالتباس يزول فيما ذكره بن اسحاق من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرق رجالا من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاة إلى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته[٥٥٦]. وقد خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه ذات غداة فقال لهم : (إني بعثت رحمة وكافة ، فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم) قالوا : يارسول الله وكيف كان اختلافهم ؟ قال : (دعا إلى مثل ما دعوتكم اليه ، فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد به فكره وأبى ..)[٥٥٧].

في أعقاب صلح الحديبية بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أربعة من رجاله إلى العالم النصراني : دحية بن خليفة الكلبي إلى الامبراطور البيزنطي هرقل ، حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر ، عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي حاكم الحبشة ، شجاع بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق[٥٥٨].

انطلق دحية الى هرقل يحمل كتابا جاء فيه ((بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد ، أسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله

---

(٥٥٦) الطبري : تاريخ ٦٤٤/٢-٦٤٥.

(٥٥٧) المصدر السابق ٦٤٥/٢ ، ابن هشام ، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٥٥٨) الطبري : تاريخ ٦٤٤/٢ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٤١/١.

أجرك مرتين ، وإن تتولى فإن إثم الأكارين عليك))[٥٥٩]. ويورد محمد حميد الله صورة أخرى للكتاب جاء فيها ((.. إني أدعوك إلى الاسلام فإن أسلمت فلك ماللمسلمين وعليك ماعليهم. فإن لم تدخل في الإسلام فاعط الجزية فإن الله تبارك وتعالى يقول : **{قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}**[٥٦٠] ، وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية))[٥٦١] ، وهذه الصيغة أكثر انسجاما مع طبيعة الدعوة الإسلامية من الصيغة السابقة التي تكتفي بعرض الإسلام فقط دون تمييز بينه وبين الخضوع لسلطان الدولة الإسلامية بدفع الجزية والسماح للمواطنين بدفعها.

وصادف ان وصل مبعوث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بلاد الشام وهرقل يحج إلى بيت المقدس في احتفال مهيب ، شكرا لله على مامنحه إياه من نصر حاسم على أعدائه الفرس. وهناك تسلم الأمبراطور كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقرأه. ويسرد لنا كل من ابن إسحاق والطبري نقلا عن رواتهما وبضمنهم بعض من نصارى الشام ، وأبو سفيان الذي كان حينذاك في رحلة تجارية لقريش إلى الشام ، عددا من الروايات تشير الى ان هرقل وكبير أساقفته المدعو (صغاطر) لما اطلعا على الكتاب قالا : إنه للنبي الذي كنا ننتظره ، لا شك فيه ، نعرفه بصفته ونجده في كتبنا باسمه. وإن صغاطر خرج على الروم وهم في الكنيسة فقال : يامعشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب من أحمد ، يدعونا فيه إلى الله (عزّ وجّل) ، وإني أشهد (أن لا إله الا الله وأن أحمد عبده ورسوله) ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه حتى قتلوه. فلما عرف هرقل الخبر تنازل عن أقواله وقال : إنا نخافهم على أنفسنا ! صغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني[٥٦٢]. ويورد اليعقوبي صيغة الرسالة الجوابية التي بعث بها هرقل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وجاء فيها ((إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى. من قيصر ملك الروم. إنه جاءني كتابك مع رسولك وإني أشهد أنك رسول الله ، نجدك عندنا في الإنجيل ،

---

(٥٥٩) الطبري : تاريخ ٦٤٩/٢.

(٥٦٠) سورة التوبة ، (الآية ٢٩).

(٥٦١) مجموعة الوثائق ، ص ١١٠ ، وانظر المصدر نفسه ، ص ١٠٦-١١٤.

(٥٦٢) انظر : الطبري : تاريخ ٢٤٦/٢-٦٥١ ، وابن سعد ١٦/٢/١.

بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو اطاعوني لكان خيراً لهم ..))[٥٦٣].

غير انا نشك في صحة هذه الروايات لما يغلب عليها من مبالغة وسرد قصصي سيما وأنها تتحدث عن فترة كان امبراطور الروم قد غدا فيها سيد العالم في أعقاب انتصاره على غريمه الفارسي ، وأن نشوة النصر لايمكن أن تقوده الى الحذر والتحسب لما ستجيء به الايام ، ولما يمكن ان يتمخض على أيدي قوم من العرب ، لم يكن لهم حتى ذلك الحين وزن في الميدان الدولي[٥٦٤].

ورغم ذلك فإن الاهتمام الذي أبداه هرقل تجاه السفارة النبوية وترحيبه بمبعوث النبي (صلى الله عليه وسلم) دفع حاشيته الى الهياج ، وزادهم هياجا ما عرضه عليهم – لا ندري جاداً أم هازلاً – من اعتناق الدين الجديد. وهرقل في نظرنا رجل سياسي ، وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه ، وقد تولى شؤون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنيسية حول طبيعة المسيح تغلي غليان المرجل وتثير في الأمة انقسامات مخيفة ، وقد حاول التقريب في وجهات النظر المتباينة وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد ، فعجز وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم في مصر والشام. فالكلام في الإلهيات ليس غريبا عليه ، والتقريب بين وجهات النظر لمصلحة الدولة ديدنه ، ولعله في اعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعا .. وشاءت لباقة قيصر السياسي أن يستدعي دحية وأن يحاول إيهامه بأنه أسلم ، ثم أعطاه قدرا من الدنانير وصرفه. وعاد دحية إلى رسول الله بالنبأ فقال النبي : كذب عدو الله ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين[٥٦٥].

وانطلق شجاع الى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني امير دمشق ، يحمل كتابا جاء فيه ((سلام على من اتبع الهدى وآمن به. إني أدعوك الى ان تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك)). فماذا كان جواب الأمير الذي يتعاطى العمالة والتبعية لسيده البيزنطي ؟ ((من ينزع مني ملكي ؟ أنا سائر اليه ولو كان باليمن)) وأمر باعداد الخيل ، ثم قال للرسول : أخبر

---

(٥٦٣) تاريخ اليعقوبي : ٦٧/٢.

(٥٦٤) انظر الطبري : تاريخ ٦٥١/٢.

(٥٦٥) الغزالي : فقه السيرة ، ص ٣٨٥-٣٨٦.

صاحبك ما ترى ، كما كتب إلى قيصر يطلعه على ما جرى وما اعتزم عمله ، فكتب إليه قيصر ألا تسير إليه ، وأله عنه ، ووافني بإيلياء[٥٦٦].

ولم يستطع الحارث – بالطبع – أن يتحرك ضد المسلمين لأن أمره ليس بيده ولأن سيده البيزنطي كان اكثر ذكاء منه فلم يتحرك الا بعد حوالي السنتين ، وبعد أن تأكد من طبيعة الدولة الجديدة في الجنوب وأدرك أبعادها الحقيقية .. لكن (الصغار) كثيرا ماينـدفعون امام (الكبار) ويجاوزونهم خطوات وخطوات ، ملتفتين إليهم بين الحين والحين بإعجاب ، لكي يحظوا بتشجيعهم وهداياهم !

والى النجاشي ، حاكم الحبشة ، بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عمرو بن أمية الضمري ليتكلم معه بشأن المهاجرين ، وليدعوه في الوقت نفسه إلى الإسلام ، حاملا معه كتابيه بهذا الشأن وقد جاء في كتاب دعوته إلى الإسلام ((.. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة. سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والولاء على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاؤك بأكرمهم ، ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى))[٥٦٧].

ويحدثنا ابن إسحاق وابن سعد كيف أن النجاشي تقبل الرسالة بقبول حسن وأجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) برسالة رقيقة يعلن فيها إسلامه وأن ماقاله في عيسى عليه السلام هو الصدق والحق. وأنه قد استضاف ابن عمه وأصحابه على الرحب والسعة .. ويختم رسالته قائلاً : ((وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم .. وان شئت آن أتيك فعلت يارسول الله ، فإني أشهد أن ما تقول الحق ، والسلام عليك يارسول الله)). ويختتم ابن إسحاق حديثه قائلا : ((وقد ذكر لي ان

---

(٥٦٦) الطبري : تاريخ ٦٥٢/٢ ، وابن سعد ١٧/٢/١.

(٥٦٧) الطبري : تاريخ ٦٥٢/١ ، ابن سعد ١٥/٢/١ ، وانظر النص الكامل في محمد حميد الله : الوثائق ، ص ٩٩-١٠٦.

النجاشي بعث إبنه في ستين من الحبشة في سفينة ، فإذا كانوا في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا))[٥٦٨].

وإلى المقوقس حاكم مصر القبطي انطلق حاطب بن أبي بلتعة ، فاستقبله استقبالا حسنا لا يقل كرماً وطيبة عن استقبال زميله الحبشي لمبعوث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجرى حوار بين حاطب والمقوقس قال فيه حاطب : إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى. وما بشارة موسى بعيسى عليه السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وما دعاؤنا إياك الى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبي ادرك قوما فهم أمته ، فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به.

وقد أعرب المقوقس عن موقفه الودي من الرسول بأن بعث اليه رسالة جاء فيها : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت ان نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغلة تركبها)) وقد دعا حاطب – في طريق عودته – الجاريتين مارية واختها سيرين إلى الإسلام فأسلمتا. ورداً على هذا الموقف الطيب تقبل الرسول الهدية وتزوج مارية التي ولدت له – فيما بعد– إبراهيم ، وبعث الاخرى إلى شاعره حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن[٥٦٩]. وكان من حصيلة هذه الزيجات المباركة والمواقف الطيبة ، تعاطف اكثر لأصهار الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأقباط مع المسلمين ، وتعاون صادق مع فاتحيهم وهم يتحركون على ارض مصر لإسقاط الحكم البيزنطي وتحرير المصريين من تعسفه وتعصبه وجوره[٥٧٠].

ويلاحظ ان كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى مصر يستهل بهذه العبارة ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ..))[٥٧١] . وهنا يجب ان نقف قليلا عند شخصية المقوقس هذا الذي تعرفه الرواية الإسلامية دائماً بأنه عظيم القبط. فقد

---

(٥٦٨) الطبري : تاريخ ٦٥٢/٢–٦٥٣ ، ابن سعد ١٥/٢/١ ، وانظر البلاذري : أنساب ٢٢٩/١.

(٥٦٩) ابن سعد ١٦/٢/١–١٧ ، الطبري : تاريخ ٢١/٣–٢٢ ، الغزالي : فقه السيرة ، ص ٣٨٧ ، وانظر محمد حميد الله : الوثائق ، ص ١٣٥–١٣٨.

(٥٧٠) يمكن الرجوع في هذا المجال الى كتابي : بتلر (فتح العرب لمصر) وتوماس أرنولد (الدعوة الى الاسلام).

(٥٧١) راجع نص الكتاب في اخبار مصر لابن عبدالحكم ، ص ٤٦ وصبح الاعشى للقلقشندي ٣٧٧/٦.

كانت مصر يومئذ ولاية رومانية تخضع لقيصر قسطنطينية ، ولم يكن لأهلها القبط أي نوع من الاستقلال ، ولم تكن هذه الحقيقة مجهولة في المدينة حيث تدل كتب النبي ورسائله على ان الاحداث والاوضاع السياسية التي كانت تسود الجزيرة العربية وما يجاورها من الممالك كانت معروفة من النبي وصحبه. وقد كان حاكم مصر الروماني في الوقت الذي نتحدث عنه هو الحبر كيروس ، وهو في نفس الوقت حاكم مصر وبطريقها الأكبر ، وقد استطاع البحث الحديث ان يلقي كثيرا من الضياء على شخصية المقوقس وان يتعرف فيها على شخصية كيروس نفسه. واذن فالمرجح ان المقوقس الذي تردد الرواية العربية اسمه إنما هو كيروس حاكم مصر الروماني(٥٧٢). ومما يؤيد هذه الحقيقة أن السفير النبوي قصد الى الاسكندرية ليؤدي مهمته، وقد كانت الإسكندرية يومئذ مقر الحاكم العام الروماني(٥٧٣).

ونحن نجد في رسائل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى حكام العالم تأكيده الدائم على شهادة **(لا إله إلا الله)** في عصر طغت فيه الربوبيات الزائفة واتخاذ الناس بعضهم بعضا ارباباً من دون الله. ولم يتهادن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في طرح هذا الشعار إزاء حكام العالم ، كما لم يتهادن به في صراعه مع الوثنية العربية منذ أول لحظة ، فهو المنطلق الأساسي للدعوة الجديدة ، والقاعدة التي يقوم عليها صرح الإسلام وبدونها يتميع ويتفكك ويضيع. ونلمح ، في الوقت نفسه – وفيما وراء هذا الشعار – مرونة وتكييفا دبلوماسيا كان الرسول يصوغ بموجبه رسائله الى الحكام فيعرض عليهم بعض جوانب اللقاء الديني بين الإسلام والنصرانية ، ويمنيهم بالخير العميم في الدنيا والآخرة في حال انتمائهم للدين الجديد ، الذي هو ليس سوى إتمام للشوط الذي كان موسى وعيسى عليهما السلام قد سارا عليه من قبل ، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) كان يدفع خلال السطور كلمات وعبارات ينذرهم فيها أنهم ان لم يستجيبوا فإنهم سيعرضون مراكزهم للخطر وزعاماتهم للبوار !! وكان (صلى الله عليه وسلم) فضلا عن هذا وذاك يقدر طبيعة الموقف الذي يصدر عنه (الحاكم) فيرد عليه بما يشبهه ويوازيه : تهديدا للحاكمين الذين

---

(٥٧٢) انظر بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ١٢٦ ، ٤٤٤ وما بعدها.

(٥٧٣) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ص ٢٠٤–٢٠٥ وهوامشهما. ويشكك عبدالحميد بخيت (عصر الخلفاء الراشدين ، ص ٥٤٣–٥٤٤) دون دليل مقنع بصحة النتيجة التي توصل اليها بتلر ونقلها عنه عنان ، فيقول : ((حاول الفريد بتلر ان يحل بعض المشكلات المتعلقة بشخصية المقوقس فلم يخرج الا بنتيجة واحدة قبلها الناس زمانا ولكنها الآن موضع شك كبير ، ونعني بذلك قوله أن المقوقس هو قيرس (كيروس) ولم يستند في ذلك القول الا على عباراة تحتمل اكثر من تفسير وجدها عند سواريس بن المقفع اسقف الاشمونين ... ولو ان المقوقس هذا كان قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية أو واحد منها على الاقل) ، وانظر : تاريخ الحضارة المصرية ، عدد ٥ ، من المجلد الثاني ، ص ٣٢٥.

يتمادون في الضلال ويشيحون عن مصدر النداء ، ويعربون عن مواقفهم بكلمات والفاظ عدائية، وقبولا وانفتاحا على الساسة الذين يصدرون عن نيات طيبة وإخلاص صادق.

إلا ان المكسب الأكبر الذي حققه (صلى الله عليه وسلم) من وراء مكاتباته تلك ، أنها جاءت حملة (اعلامية) على النطاق الدولي من ان هذا الدين ليس دين عرب أو جزيرة عربية، وإنما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان .. ونداء الى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح – على الأقل – لدعاتها بممارسة نشاطهم بحرية ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع اليهم كي يختاروا عقيدتهم على بينة ، بعيدا عن الضغط والقسر والإكراه .. وإنذارا لهذه السلطات بأنها إن لم تلب وتستجب فإن جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عما قريب في مشارق الارض ومغاربها لكي تسقط التيجان وتثل العروش وتنزل السلطات من مناصبها العليا ، وتخرج الناس – بذلك وحده – من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل. لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ويوسعونه جحودا ، فما يكون شأن الروم والعجم وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ؟ بيد أن اصحاب الرسالات لا ينظرون الى الأمور على ضوء الحاضر الضيق ، فإن ثقتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها تعترض العقبات المفروضة في الطريق وتجعلها هباءا منثورا .. ثم ان الخرافة التي افسدت عقل بدوي تترب ثيابه رياح نجد هي بعينها الخرافة التي تفسد فكر كسرى عاهل الفرس العظيم. ما الفارق بين الحمى تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكاً ؟ ان الطبيب يصف لهما على الحالتين دواء واحدا ويتخذ ضد عدواهما حصانات واحدة. وقد أراد النبي ان يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم ، وان يناولهم جميعا الدواء الذي يصحون به ... قد يكون اؤلئك الملوك محجبين وراء اسوار مشيدة وحولهم من الاتباع والجند والأبهة والرياش مايبهر العين ، لكن اي عين تنبهر لهذه المظاهر ؟ إن الأنبياء لا يرون في القوم إلا أنهم جهال يجب ان يتعلموا ، سفهاء يجب ان يسترشدوا ، وأن ما حولهم من الدنيا يجعل تبعتهم أخطر[٥٧٤].

لقد كانت سفارات الرسول وكتبه عملا بديعا من اعمال الدبلوماسية ، بل كانت اول عمل قام به الإسلام في هذا الميدان .. لم يذهب عبثا كما رأينا .. ولا ريب ان النبي لم يكن يتوقع أن

---

(٥٧٤) الغزالي : فقه السيرة ، ص ٣٩١-٣٩٢.

يلبي أولئك الملوك الاقوياء دعوته وهو مايزال يكافح في بثها بين قومه وعشيرته ، بيد ان إيفاد هذه البعوث يعد عملا متمما للرسالة النبوية. وكان العالم القديم الذي يتجه اليه النبي العربي بدعوته يقوم يومئذ على أسس واهية تنذر بالانهيار من وقت الى آخر ، وكانت الاديان القديمة قد ادركها الانحلال والوهن ، فكانت الدعوة الإسلامية تبدو في جدتها وبساطتها وقوتها ظاهرة تستحق البحث والدرس ، ولم يكن عسيرا أن يستشف أولو النظر البعيد ماوراء هذه الدعوة الجديدة من قوى تنذر بالانفجار ، وقد كان الانفجار في الواقع سريعا جدا[٥٧٥].

[5]

في السنة الثامنة كان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يتخذ موقفاً حازما إزاء القبائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين ، بعد المواقف الغادرة التي اتخذها بعض أمرائها من دعاة الإسلام ورسلهم الى الشام. وكانت حادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة هي التي استفزت الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتأديب عرب الشمال الموالين للبيزنطيين[٥٧٦] ، فجهز جيشا كبيرا – نسبيا – يبلغ ثلاثة الآف مقاتل ولى قيادته زيد بن حارثة[٥٧٧] وأمره بالانطلاق صوب الشمال لتأديب القبائل العربية على فعلتها – إن لم تستجب لدعوة الإسلام – وإشعارها بقوة الدولة الإسلامية وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يرون في الحماية البيزنطية سببا يدفعهم الى الجرأة والعدوان ، ولاستطلاع قوة وكفاية وطبيعة الأرض هناك.

ونظرا لبعد الطرق واحتمال مجابهة قوى كثيرة العدد ، الحق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقائد الجيش قائدين احتياطيين هما جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، يتوليان الأمر ، أحدهما بعد الآخر ، في حالة اصابة القائد الأول ، مما يدل على بعد النظر الذي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتمتع به. ومن السذاجة ان يتبادر الى الاذهان أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم مسبقا المصير الذي كان ينتظر أعز أصحابه ، فلم يعرف عنه انه ساق أتباعه إلى حتفهم أو رمى بهم الى عمليات ينتحرون فيها. كل ما هنالك أن كثرة مشاغله منعته

---

(٥٧٥) عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٠٨.

(٥٧٦) ابن سعد ٩٢/١/٢ ، الواقدي ٧٥٥/٢–٧٥٦ ، المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠.

(٥٧٧) يورد اليعقوبي كعادته (تاريخ ٥٤/٢) رواية خاطئة مفادها أن جعفر بن ابي طالب ربما كان الأمير الأول على الجيش الذاهب إلى مؤتة.

من قيادة الجيش بنفسه ، ومن اجل ضمان وحدة قواته ومنعا للفوضى والاضطراب في ارض متطرفة شمالا ، عين هؤلاء القادة الاحتياطيين[٥٧٨].

خرج المسلمون في جمادي الأولى ، رجالا ونساء وأطفالا ، لتوديع المقاتلين الذاهبين إلى أقصى الشمال ، وتعالت اصواتهم (صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين) ، وراح عبد الله بن رواحة الشاعر ينشد :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع[٥٧٩] تقذف الزبدا[٥٨٠]

أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال ، إذا مروا على جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

وعندما ودعهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانصرف راجعاً أنشد ابن رواحة :

خلف السلام على امرىء ودعته في النخل خير مشيع وخليل[٥٨١]

مضت قوات المسلمين حتى بلغت معان جنوبي الاردن ، فعسكرت فيها ، وبلغ قادتها هناك ان الامبراطور البيزنطي قد سمع نبأ التحرك الإسلامي فتقدم على رأس مائة ألف من الروم – فيما تذكر الروايات – وعسكر في مآب من أرض البلقاء. ويذكر المسعودي أن هرقل كان مقيما آنذاك في أنطاكية وانه ولى قيادة جيشه تيادوتس البطريق[٥٨٢] ، ويؤكد بروكلمان ماذهب اليه المسعودي مصححا أسم القائد البيزنطي (ثيودورس)[٥٨٣]. وفي مآب التحقت بالقوات البيزنطية القبائل العربية الموالية من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى ، قادهم شرحبيل بن عمرو الغساني وبلغوا – فيما تذكره الروايات – مائة الف ، ولا ريب ان المبالغات التي أعقبت هذه المعركة التي انسحب فيها المسلمون كثرت من عدد العدو وجعلته يبلغ هذا الرقم الخيالي ، وان كان بمستطاع القبائل العربية الضاربة في المنطقة ان تهرع لنجدة سيدها بعشرات الآلاف من المقاتلين[٥٨٤].

---

(٥٧٨) ابن هشام ، ص ٢٧٠ ، الطبري : تاريخ ٣٦/٣ ، ابن سعد ٩٢/١/٢-٩٣ ، الواقدي ٧٥٦/٢ ، البخاري: التجريد ٨٩/٢.

(٥٧٩) الفرع : السعة.

(٥٨٠) الزبد : رغوة الدم.

(٥٨١) ابن هشام ، ص ٢٧٠-٢٧١ ، الطبري : تاريخ ٣٧/٣ ، والواقدي ٧٥٦/٢-٧٥٩.

(٥٨٢) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠.

(٥٨٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٥٩.

(٥٨٤) ابن هشام ، ص ٢٧١ ، الطبري ٣م٣٧ ، ابن سعد ٩٣/١/٢ ، الواقدي ٧٦٠/٢.

ظل المسلمون معسكرين في معان طيلة ليلتين ، يتدبرون أمرهم ، وقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنخبره بعدد عدونا ، فأما ان يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. إلا ان عبد الله بن رواحة اندفع بفورة حماس يعرفها جيدا من يعيش فورات التجربة الشعرية وانفعاليتها مقترنة بزخم إيماني لا ترده روية أو تمهل ، راح ينادي أصحابه : يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة !! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة !! فأجابه الناس الذين لم يعرفوا خوفا يوما أو تراجعا ، والذين يدركون جيدا كم هو عظيم الهدف الذي خرجوا من اجله ، وكم هي غالية (الشهادة) على قلوب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قد والله صدق ابن رواحة[٥٨٥].

غادر المسلمون معسكرهم في معان وانطلقوا شمالا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم والعرب في قرية من قرى البلقاء تدعى مشارف ، فانحازوا صوب قرية مؤتة ، وهناك عباؤوا انفسهم فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يسمى عباية ابن المالك وبدأ القتال المرير ، وانطلق زيد بن حارثة براية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقاتل حتى شاط في رمح القوم وغرق بدمائه ، فتسلم الراية جعفر بن أبي طالب ذو الثلاث والثلاثين سنة من العمر وانطلق يقاتل حتى إذا احاط به العدو من كل مكان وسددوا اليه ضرباتهم ، اقتحم عن فرسه الشقراء وضرب قوائمها بالسيف وراح يجالد القوم وهو ينشد :

يـــا حبـــذا الجنـــة واقترابهـــا طيبـــــة وبـــــارداً شـــــرابها

والـــــروم قـــد دنـــا عـــذابها كـــــافرة بعيـــــدة أنســـــابها

علي إذ لاقيتهـــا ضرابهـــا

كان جعفر يحمل الراية بيمينه فلما قطعوها أخذها بشماله ، فلما قطعوها احتضنها بعضديه حتى قتل في أعقاب ضربة من جندي رومي قطعته نصفين فانقض عبد الله بن رواحة وحمل الراية وتقدم بها على فرسه. وفي موجة من الرعب الذي لا يرحم ، منبثقا هذه المرة أيضا من انفعالية الشعراء وتأرجحهم النفسي ، وحساسيتهم ، تردد عبد الله بعض التردد إلا انه ما لبث أن تفوق على خوفه وتردده ، فنزل عن فرسه لكي يشتبكبأعداء الله وهو ينشد :

---

(٥٨٥) ابن هشام ، ص ٢٧١-٢٧٢ ، الطبري : تاريخ ٣/٣٧-٣٨ ، الواقدي ٢/٧٦٠.

أقســـــمت يـــــانفس لتنزلنـــــه لتنزلنـــــــــــه أو لتكرهنـــــــــه

إن اجلـب النـاس وشـدوا الرنـه[٥٨٦] مـــــالي أراك تكرهيـــــن الجنـــــه؟

يـــا نفـــس الا تقتلـــي تمـــوتي هـــذا حمـــام المـــوت قـــد صـــليت

ومـــا تنيـــت فقـــد اعطيـــت ان تفعلـــــي فعلهمـــــا هـــــديت

وأتاه ابن عم له بقطعة لحم وقال : شد بها صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت !! فأخذها منه واقتطع منها مضغة لكنه مالبث أن سمع احتدام القتال قريبا منه ، فخاطب نفسه : وأنت في الدنيا ؟ ألقى قطعة اللحم من يده ثم أخذ سيفه وتقدم ، فقاتل حتى قتل[٥٨٧].

أخذ الراية رجل من المسلمين يدعى ثابت بن أقرم ونادى : يامشعر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. قالوا : أنت. قال : ماأنا بفاعل. فتشاور الناس واتفقوا على تسليم القيادة الى خالد بن الوليد. وفي قلب الفجيعة واحتدام القتال كان المسلمون ينفذون (قيما) ويصنعون أخرى.. ثابت بن أقرم وهو يرفض القيادة ، لا خوفا أو جبناً ولكن ادراكا لقدراته وطلبا للأكفأ والأحسن ، والمقاتلون وهم (يتشاورون) لاختيار قائدهم الجديد بعد فجيعتهم برؤسائهم الثلاثة[٥٨٨].

ولقد كان خالد عند ظن أصحابه ، التمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه ، فجعل هدفه أن ينسحب بالمسلمين وان يجنبهم عملية إبادة شاملة هي الآن قاب قوسين أو أدنى منهم .. وماذا بعد ضياع زهرة قوات المسلمين وتبعثر جثث ثلاثة الآف مقاتل في الصحراء بعيدا عن رسولهم وأهليهم ؟ سيقول الامبراطور إن اندفاعا حماسياً من جزيرة العرب قد سحق ، وعلى أعراب الجنوب ألا يفكروا مرة أخرى بمصارعة سيدة العالم ، المنتصرة على الساسانيين وسيقول اتباعه من نصارى العرب إن كلمة سيدنا هي الكلمة ، وإن تبعيتنا وطاعتنا في مكانها ، لن يحرفها نداء رجل جاء يدعونا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة العباد ! وسترفع الوثنية واليهودية وحركة النفاق رؤوسها ثانية في قلب الجزيرة في محاولة لاسترداد مواقعها القديمة التي أزاحها عنها الإسلام.

---

(٥٨٦) الرنة : ترجيع شبيه بالبكاء.

(٥٨٧) ابن هشام ، ص ٢٧٢-٢٧٣ ، الطبري : تاريخ ٣/٣٩-٤٠ ، ابن سعد : ٢/١/٩٣ ، الواقدي ٢/٧٦١.

(٥٨٨) ابن هشام ، ص ٢٧٣ ، ابن سعد ٢/١/٦٤ ، الطبري : تاريخ ٣/٤٠ ، الواقدي ٢/٧٦٣-٧٦٤.

ولقد بدأ خالد تحقيق هدفه هذا بأن رسم خطة سعى فيها إلى إيهام العدو أن المسلمين لا زالوا في أماكنهم يقاتلون ، فدفع مقدمتهم إلى مناوشة العدو وأجرى تغييرات في مواقع جنده ، بين ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة ، وارسل خلف الجيش عددا من الرجال والخيول يحدثون جلبة شديدة ويثيرون النقع ، ليوهم العدو أن مدداً قد جاءه ، وما ان حل الظلام حتى انسحب من الميدان ، وأخذ طريقه جنوبا ، منقذا معظم المسلمين من فناء محقق[٥٨٩] ، ولم يخسر المسلمون، في رواية للواقدي ، سوى ثمانية قتلى[٥٩٠] أو أثنى عشر على الأغلب ، بينما كانت خسائر العدو أضعافا مضاعفة مما أثر في معنوياتهم وصدهم عن مطاردة المسلمين. ومعروف ان عملية الإنسحاب تعد من أصعب العمليات العسكرية ، لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة ، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين ... ولا تعد خسائر المسلمين الضئيلة في مؤتة شيئا يذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادها الإطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها مما اتضح أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد[٥٩١].

ابتعد المقاتلون عن ميدان القتال قبل ان تصلهم النجدة التي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استنفرها لدى سماعه أنباء القتال[٥٩٢] ، ووصلوا المدينة بعد مسيرة مجهدة في جحيم الصحراء ، وتلقاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون ، والصبيان يعدون ورائهم ويهتفون : يا فرار فررتم في سبيل الله ؟ فيجيبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى[٥٩٣]. ولقد كروا فعلا على أعدائهم بعد قليل ، فأمة يستنكر فيها الهزيمة حتى أطفالها الصغار الذين لم (يعتادوا) عودة (كبارهم) مقهورين ، لابد أن يجول كبارها جولات وجولات حتى تتحقق الكلمة التي حملوها إلى العالم !!

ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة حتى بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان جمعا من قضاعة ، القاطنين في الشمال والموالين للروم ، قد تجمعوا يريدون القيام بهجوم على أطراف الدولة الإسلامية ، فدعا عمرو بن العاص ووجهه على رأس ثلاثمائة من أبطال

---

(٥٨٩) انظر الواقدي ٧٦٤/٢.

(٥٩٠) الواقدي ، المصدر السابق ٧٦٩/٢.

(٥٩١) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٢٠٦-٢٠٧ ، وعن مؤتة انظر كذلك : Encyclopeadia of Isalm. art. Mu'ta.

(٥٩٢) الطبري : تاريخ ٤١/٣.

(٥٩٣) ابن هشام ، ص ٢٧٤ ، الطبري : تاريخ ٤٢/٣ ، ابن سعد ٩٣/١/٢ ، الواقدي ٧٦٥/٢.

المهاجرين والأنصار ، وأمره أن يستعين بمن يمر بهم من قبائل بلى وعذرة وبلقين ، الموالية للمسلمين. فانطلق عمرو يسير ليلا ويكمن نهارا ، فلما اقترب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيراً ، فبعث إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطلب منه مدداً فأسرع بإرسال أبي عبيدة بن الجراح على رأس مائتي مقاتل من كبار المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم وأمره أن يلحق بابن العاص وان يعملا سوية لإنجاز المهمة التي كلفا بها. وانطلق عمرو – بعد أن وصله مدد أبي عبيدة – حتى ((وطىء بلاد بلى ودوخها ، حتى أتى الى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين)). ولقي في نهاية زحفه جمعا فحمل عليهم فهربوا بين يديه وتفرقوا في البلاد ، بعد ان قتل منهم عددا كبيرا[٥٩٤] ثم قفل جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم) عائدا بعد ان غطى بانتصاراته الأخيرة هذه في أقصى الشمال ، على مأساة مؤتة ، ومكن للنفوذ الإسلامي في أقصى الشمال ، وأشعر العرب الموالين للبيزنطيين بأن هزيمة المسلمين في معركة لا تعني أبداً انحسار دولتهم في أراضي الشمال.

[6]

بعد عودة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة في أواخر السنة الثامنة ، في أعقاب دخوله مكة وانتصاره في حنين ، بلغته أنباء خطيرة عن تحركات يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة ، القيام بها ضد الدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية ، وتشكل خطراً حاسما على الوجود البيزنطي في بلاد الشام ، وقد قامت هذه القبائل فعلا بإرسال طلائعها إلى البلقاء.

كان الوقت صيفاً ، والصحراء تحترق ناراً ، والبلاد تعاني جدبا ومحلاً ، والطريق طويلا، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص لقطع الآف الاميال عبر الصحراء ، وقتال قوم هم سادة الدنيا ، ومحنة مؤتة ، فوق هذا كله ، ليست بعيدة عن الاذهان ، لكن منطق الرسول (صلى الله عليه وسلم) يفوق التحديات ويتجاوز المصاعب ، لأن السكوت على التحرك البيزنطي معناه الاندحار ، وانتظارهم لكي يوجهوا (هم) ضربتهم معناها الانتحار ،

---

(٥٩٤) ابن سعد ٢/١/٩٤-٩٥ ، الواقدي ٢/٧٧٠-٧٧١ ، الطبري : تاريخ ٢٩/٣ ، ٣١-٣١ الابلاذري : أنساب ١/٣٨٠-٣٨١ ، اليعقوبي : تاريخ ٦٤/٢ ، المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل ٢٣٢/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٢٧٣-٢٧٥.

فلا بد إذن من التجهز بسرعة ، وتولي زمام المبادرة ، والانطلاق عبر المتاعب والمصاعب للرد على تحدي سيدة العالم ، وإشعار العرب الخاضعين لها أن هناك دولة ثانية وكلمة أخرى.

وفي معظم الغزوات كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان ، على العكس إنه كان يعلن عن أهداف غير تلك التي يريد قصدها ، أما في غزوة تبوك فقد بينه للناس ((لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ، ليتأهب الناس لذلك أهبته)). وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالتجهيز وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وحض الذين يملكون على النفقة في سبيل الله وتهيئة الدواب التي ستنقل المقاتلين إلى الشمال. ثم مالبث ان انطلق في رجب بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة الإسلامية حتى ذلك الحين ، قيل أنه بلغ ثلاثين ألفاً ، تصحبها عشرة الآف فرس ، مستخلفا في المدينة علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه)[٥٩٥]. ودافعاً لواءه الأعظم إلى أبي بكر ورايته إلى الزبير رضي الله عنهما[٥٩٦].

بدأ المسلمون مسيرتهم التي قطعوا فيها آلاف الأميال ، وعانوا آلام العطش والجوع والحر وقلة وسائل الركوب وبعد الطريق .. ويحدثنا عبد الله بن العباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده[٥٩٧]. لقد كان جوب البادية – يقول درمنغم – صعبا ، وجعل وجعل محمد (صلى الله عليه وسلم) وجنوده يعسكرون بعد غروب الشمس المحرقة تحت عاصفة من الرمال جياعا عطاشا ، وتوارى هؤلاء الجنود خلف جمالهم ، مولين الرياح ظهورهم مدثرين بأرديتهم ، متشبثين بالأرض ، وخرج اثنان من المعسكر فاختنق احدهما واحتملت الريح الاخر. فلما أصبح الناس بدؤوا يزحفون منهوكين محمري العيون ، مفطري الأرجل ، مجمدي الريق ، مدويي الآذان ، مفريي الجلود ، زالقين على ألواح حجرية سود ، متخرقين لصخور بادية على

---

(٥٩٥) ابن هشام ، ص ٣٢٥ ، الطبري : تاريخ ٣/١-١٠١ ، ١٠٣-١٠٤ ، ابن سعد ٢/١/١١٨-١١٩ ويذكر الاخير ان (محمد بن مسلمة) هو الذي استخلف على المدينة ، الواقدي ٣/٩٨٩-٩٩١.

(٥٩٦) الواقدي ٣/٩٩٦. ويخطىء اليعقوبي (تاريخ ٢/٥٦) كشأنه مرارا في قوله متحدثا عن غزوة تبوك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج الى ارض الشام ((يطلب بدم جعفر بن أبي طالب)) بينما يشير سياق الاحداث ، وحجم التحرك العسكري ، وطبيعة الظروف السياسية ، إلى ان الأمر اكبر بكثير من مجرد هجمة ثأرية لمقتل رجل من المسلمين.

(٥٩٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٩.

شكل سوق الشجر .. وبلغ بعضهم من الهذيان ماصب معه في حلوقهم ووضع على صدورهم سوائل ، أخذت من كروش الإبل[٥٩٨].

انتهى المطاف بالمسلمين إلى تبوك في أقصى الشمال ، ويبدو ان الروم وحلفاءهم سمعوا أنباء هذا الجيش الكبير ، وقدرته على اجتياز المصاعب ، وإصراره على لقاء الأعداء فآثروا الانسحاب الى الداخل ، عبر أراضي الاردن وفلسطين ، صوب حمص حيث استقر هرقل ، مستهدفين – في الوقت نفسه – جر القوات الإسلامية إلى الداخل والانقضاض عليها هناك[٥٩٩]. إلا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يتح لهم تحقيق هدفهم هذا وعسكر في تبوك جاعلا إياها آخر نقطة في توغله شمالاً. ويذكر الواقدي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) شاور أصحابه في التقدم ، فأجابه عمر بن الخطاب : يارسول الله إن للروم جموعا كثيرة، وليس بها احد من اهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك ، فلو إنك رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله (عزّ وجّل) لك في ذلك أمراً[٦٠٠].

وفي تبوك راح الرسول (صلى الله عليه وسلم) يراقب الروم ويتحداهم أن يبرزوا له ويقاتلوه. ويذكر المسعودي أنه جرت خلال ذلك مراسلات بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين هرقل الذي كان يقيم آنذاك في حمص وربما في دمشق[٦٠١]. ويشير درمنغم إلى أن اتفاقا سرياً تم بين محمد وهرقل يقضي بسماح الأخير لعرب الشمال باعتناق الإسلام[٦٠٢] ، ويبدو أن درمنغم بنى استنتاجه هذا على رواية المسعودي آنفة الذكر وإن لم يكن من المستبعد أن يقرّ هرقل اتفاقاً كهذا يخلصه من كثير من المشاكل التي بدأت دولة الإسلام تسببها لحدوده الجنوبية.

---

(٥٩٨) حياة محمد ، ص ٣٦٥.

(٥٩٩) في رواية للواقدي (١٠١٩/٣) إن هرقل ظل في موقعه في حمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذي خبر النبي من بعثته أصحابه ودنوه الى ادنى الشام باطلا ، ولم يرد ذلك ولم يزحف ، ولم يهم به ، وليس من السهل الاخذ بهذه الرواية ، سيما وان الواقدي نفسه يذكر في بدء حديثه عن غزوة تبوك ان الذي نقل انباء احتشاد الروم وحلفائهم شهود عيان من الاقباط الذين كانوا يردون على المدينة حينا بعد حين لبيع الدقيق ، والزيت (٩٨٩/٣-٩٩٠) كما أن سير الاحداث وما قدمته الروايات الأخرى من تفاصيل ، لا ينسجم وما يذهب اليه الواقدي في روايته تلك. ويذكر البلاذري (أنساب ٣٦٨/١) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما سار الى هرقل وحلفائه (هابوا محاربته فلم يلق كيداً).

(٦٠٠) مغازي رسول الله ١٠١٩/٣.

(٦٠١) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٦.

(٦٠٢) حياة محمد ، ص ٣٦٦.

أخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتصل في الوقت نفسه بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة ويتلقى سفاراتهم ، فيعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون ، ويقطع – بذلك – ولاءهم للدولة البيزنطية ويحولهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية ، وهو الهدف الذي كان يطمح إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم. وكان ممن جاء الى تبوك يوحنة بن رؤبة صاحب أيلة حيث صالح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووافق على منحه الجزية. كما جاءه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية التي تعني إشعارا ماديا بانتمائهم إلى الدولة الإسلامية وقطع علاقاتهم وارتباطاتهم بمن سواها. وقد كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليوحنة عهداً يمثل (نموذجاً) للعهود التي كان يكتبها للجماعات النصرانية مانحا إياهم فيها حرية الدين والمواطنة على السواء ، ومؤكدا على كونهم قد غدوا مرتبطين بالدولة الإسلامية وحمايتها وسلطتها : ((بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر)). كما وجه (صلى الله عليه وسلم) خالدا بن الوليد على رأس كتيبة إلى أمير دومة النصراني المدعو أكيدر بن عبد الملك ، فتمكن خالد من أسره وقتل أخيه والعودة بالأمير إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحقن الرسول دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم أطلق سبيله فرجع إلى بلده[٦٠٣].

وبعد عشرين ليلة قضاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقواته في تبوك ، قفل عائدا الى المدينة بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصارا على الجبهة النصرانية – البيزنطية ، لا يقل خطرا عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنية واليهودية. فقد كسب عددا من القبائل العربية القاطنة في جنوب الشام إلى جانب الدولة الإسلامية ، وقطع علاقتها بالروم ، وأشعر القبائل الاخرى بمدى قوة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها الى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالح سادتهم الروم ، ويلعبون دورا خطيرا في مقاومة امتداد الإسلام صوب الشمال. ولم

---

(٦٠٣) ابن هشام ، ص ٣٣٢-٣٣٤ ، الطبري : تاريخ ١٠٨/٣-١٠٩ ، ابن سعد ٢٨/٢/١-٢٩ ، ٣٧ و١٢٠/١/٢ ، الواقدي ١٠٢٥/٣-١٠٣٢ ، البلاذري : فتوح ٧١/١-٧٣ ، المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٦ ، وانظر حميدالله : الوثائق ص ١١٦-١١٨ ، ١١٨-١١٩ ، ١١٩-١٢٤.

تكن محنة مؤتة سوى محاولة واحدة من عدد من محاولات هؤلاء العرب بوجه الإسلام. وها هم الآن – بعد تبوك – قد أقتنعوا بأن الاحتماء بالسلطة البيزنطية لن ينقذهم من العقاب ، فبدؤوا يتهافتون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) طالبين الصلح معه ودفع الجزية له !!

الا ان الانتصار الأهم ، هو ان استجابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتحدي الروم، وتقدمه لقتالهم وانسحابهم من طريقه ، وانتظاره إياهم قرابة عشرين يوما دون ان يحركوا ساكنا ، جاء ضربة قاصمة للسيادة البيزنطية في بلاد الشام ، وإضعافا لمركزها الادبي وسطوتها على القبائل العربية ، وكسرا لجدار الخوف العربي من القوة البيزنطية ، وهو انتصار نفسي حاسم مكن العرب ، بعد سنين معدودات ، من تجاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيين والحاق الهزائم بهم وطردهم الى بلادهم التي جاؤوا منها.

ان غزوة تبوك تمثل خطوة من خطوات الحركة الإسلامية المسلحة صوب الخارج ، وتخطيا لنطاق العرب وجزيرتهم الى العالم ، وبادرة متقدمة لحركة الفتوحات التي شهدها عصر الراشدين.

ولقد جاءت تجربة تبوك التي سماها المسلمون (غزوة العسرة) وقالوا انها جاءت عسرة من الماء وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة ، شبيهة بمحنة (أحد) نارا ممحصة على حريقها ووهجها تميز المنتمون الى معسكر الإسلام ، درجات بعضها فوق بعض ، وهذا شأن كل معسكر في تاريخ البشرية ، فليس بنو ادم ملائكة يقفون صفا واحدا ولكنهم يتميزون في إيمانهم واخلاصهم وانتمائهم ، تميزهم الانتصارات الحاسمة والانكسارات الخطيرة وتفرق بينهم تجارب الراحة والسعادة والآم المحن والنكبات. فها نحن اولاء نجد ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو المسلمين ان يتجهزوا للرد على التحدي البيزنطي عبر المجاعة والعطش وجحيم الصحراء وطريقها الطويل ، اناسا يقفون في القمة ، وآخرين يتحركون صعدا في منتصف الطريق لا يقدرون على الصعود خطوات اخرى الى الاعلى ، وهم مع ذلك يحاولون ويحاولون ، وفئة ثالثة حرنت في مواقعها لا تريد ان تسعى ولا ان تتحرك .. وهنالك في الاسفل ، عند جدار المرتفع وفي منخفضاته ، طوائف كثيرة من المنافقين والمنهزمين ، يتخبطون كالحشرات والديدان دوارا على انفسهم وبقاء في الحفر الضيقة !!

أنفق عثمان بن عفان – يومها – نفقة عظيمة لم ينفق احد مثلها ، بلغت – فيما ذكره البلاذري – سبعين ألف درهم[٦٠٤] ، وتصدى بماله لمشكلة النقص الخطير في وسائل الركوب .. فردد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) وجاء أبو بكر بماله كله : أربعة الآف درهم فقال له (صلى الله عليه وسلم) : هل أبقيت شيئاً ؟ فأجابه : الله ورسوله أعلم. وجاء عمر بنصف ماله. يقول الواقدي : ((ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف وقووا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم ، حتى ان الرجل ليأتي بالبعير الى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما فتعاقبانه ، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج ، حتى ان كنا النساء ليعن بكل ما قدرن عليه !! قالت ام سنان الاسلمية : لقد رأيت ثوبا مبسوطا بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة رضي الله عنها فيه اسورة ومعاضد وخلاخل واقرطة وخواتيم .. مما يبعث به النساء يعن به المسلمين في جهازهم ..))[٦٠٥].

وجاء سبعة من الانصار من فقراء بني عمرو بن عوف ، وتوسلوا الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يحملهم على الدواب ، فأجابهم (لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لا يجدوا ما ينفقون. ولقي رجل من اهل المدينة اثنين منهما يبكيان فسألهما (ما يبكيكما؟) أجابا : جئنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فأعطاهما جملا له يستقي عليه الماء ، وزودهما بشيء من التمر ، فارتحلا الجمل وخرجا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٦٠٦].

ورجع أبو خيثمة ، بعد أن سار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اياما ، الى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيّأت له فيه طعاماً. فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل

---

(٦٠٤) انساب الاشراف ٣٦٨/١.

(٦٠٥) مغازي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ٩٩١/٣-٩٩٢.

(٦٠٦) ابن هشام ، ص ٣٢٦-٣٢٧ ، الطبري : تاريخ ١٠٢/٣ ، الواقدي ٩٩٣/٣-٩٩٤ ، البخاري ٩٩/٢.

بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله (صلى الله عليه وسلم). فهيآ لي زاداً[٦٠٧].

وأبو ذر !! لما أبطأ بعيره ، تعبا وارهاقا ، اخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع أثر المسلمين ماشياً !! وفي مكان ما من الصحراء الممتدة نظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله إن هذا رجل يمشي على الطريق وحده ، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحدسه العميق : كن أبا ذر (رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده)[٦٠٨].

وهنالك من أبطأت بهم نياتهم عن الاستجابة للنداء ، ولكن من وراء نياتهم وأفعالهم الظاهرة هذه قلوب يعمرها الإيمان والرغبة في العطاء والندم العميق على اي تهاون أو تفريط. ومن منا لم يسمع قصة الثلاثة المخلفين : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ؟ !

قال كعب بن مالك ، فيما رواه البخاري : ((لم أتخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ... حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم اقض شيئا ، فاقول في نفسي أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدّ ... ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل بي حتى أسرعوا ... وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فطفت بهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء)) ..

((فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي فطفقت اتذكر الكذب وأقول بماذا اخرج من سخطه غداً ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن اخرج منه ابدا بشيء فيه فأجمعت صدقه. وأصبح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاداما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى ، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال:

---

(٦٠٧) ابن هشام ، ص ٣٢٨-٣٢٩ ، الطبري ١٠٤/٢-١٠٥ ، الواقدي ٩٩٨/٣-٩٩٩.

(٦٠٨) ابن هشام ، ص ٣٣١ ، الطبري ١٠٧/٣ ، الواقدي ١٠٠٠/٣.

تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد لي فيه أني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك)).

((فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني ، فقالوا لي : والله ماكنا علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما أعتذر به المتخلفون .. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى كدت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي احدا ؟ فقالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما ماقيل لك. فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي)).

((ونهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن كلامنا من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت من نفسي الأرض فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكنا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، واما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الاسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ... حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس الي ، فسلمت عليه فوالله مارد عليَ السلام .. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا امشي بسوق المدينة إذا نبطي من انباط الشام – ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة – يقول :من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع اليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها ، وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ..)).

((حتى إذا كملت خمسين ليلة من حين نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن كلامنا ، وصليت الفجر ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، وقد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الارض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ ينادي بأعلى صوته : ياكعب بن مالك أبشر ! فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبي مبشرون .. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة .. حتى دخلت المسجد ، فلما سلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك. قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة الى الله ورسول الله ، فقال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت : يارسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث الا صدقا ما بقيت ، فوالله ما أعلم احدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى يومي هذا كذبا واني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ..))[٦٠٩].

وهنالك من ظلوا يتخبطون في بداية الطريق ، ولايقدرون على الخروج من حفره الضيقة: المعذّرون من الأعراب الذين جاءوا يلتمسون الأعذار من الرسول كيلا يذهبوا إلى القتال فلم يعذرهم الله ، والمنافقون الذين راحوا يروّجون شائعات الخوف والجبن والتردد ، ويهمس بعضهم في أذن البعض الآخر : لاتنفروا في الحر !! ولقد تحدث القرآن عنهم فيما بعد ، بضربات كاوية كجمرات جهنم : {**وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**}[٦١٠] ، وعندما انطلقوا مع زعيمهم عبد الله

---

(٦٠٩) البخاري : التجريد : ٢/١٠٠-١٠٤ ، الواقدي ، ١/١٠٤٩-١٠٥٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٢٣-٢٦.

(٦١٠) سورة التوبة ، (الآية ٨١).

بن أبي ، مالبثوا أن انقلبوا عائدين في أول الطريق[٦١١] وزعيمهم يردد ((يغزو محمد بني الأصفر ، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به ، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟! والله لكأني أنظر الى اصحابه غدا مقرنين في الحبال ...))[٦١٢]!! ضربة في الصميم من ضربات النفاق وهو يزحف في الظلمات بطيئا بطيئا ، ليلدغ على حين غفلة ، كما تلدغ العقارب والحيات[٦١٣].

انكسر تحدي الروم المعلن للدولة الإسلامية ، في أعقاب تبوك ، ولم يستطيعوا ولا حلفاؤهم من نصارى العرب أن يتحركوا أو يقوموا بعمل عسكري ، سيما وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أقام – بمحالفاته ومصالحاته مع القبائل النصرانية في الشمال – جدارا يصد العدوان ويكبته .. لكن بعض امراء العرب في الأردن وفلسطين ، من أجل ارضاء سادتهم ، راحوا يتحرشون بدعاة الإسلام ورجاله في المنطقة ويصدونهم عن أداء مهمتهم. وقد ذكر ابن سعد – على سبيل المثال – أن فروة بن عمرو الجذامي ، عامل قيصر على عمان من أرض البلقاء ، أعلن إسلامه ، رغم أنه لم يتلق كتابا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكتب الى النبي (صلى الله عليه وسلم) بإسلامه كتابا حمله رسولا من قومه يدعى مسعود بن سعد. فقرأ النبي الكتاب ورد عليه بكتاب من عنده ، وأجاز المبعوث بمبلغ من الدراهم ردا على الهدية التي تلقاها من الأمير العربي[٦١٤]. ولما بلغ أمبراطور الروم إسلام عامله دعاه وقال له : ارجع عن دينك بملكك. فأجاب فروة : لا أفارق دين محمد ، وإنك تعلم أن عيسى قد بشر به ، ولكنك تظن بملكك. فحبسه الامبراطور ثم أخرجه وصلبه[٦١٥].

---

(٦١١) ابن سعد ١٩/١/٢.

(٦١٢) الواقدي ٩٩٥/٣-٩٩٦ ، وانظر فصل (حركة النفاق).

(٦١٣) عن الآيات المتعلقة بغزوة تبوك وما رافقها من مواقف (بشرية) انظر سورة التوبة : (الآيات ٤٣-٤٩ ، ٥٢-٥٤ ، ٨١-٨٧ ، ٩٠-٩٤ ، ١١٧-١١٨ ، ١٢٠).

(٦١٤) الطبقات الكبرى ١٨/٢/١.

(٦١٥) المصدر السابق ٣١/٢/١.

[7]

في الفترة التالية انهمك الرسول (صلى الله عليه وسلم) باستقبال الوفود القادمة الى المدينة من كل مكان ، وكان من بينها وفد نجران النصرانية[٦١٦] الذي توجه الى المدينة في أعقاب كتاب بعثه إليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، جاء فيه : ((.. إني احمد إليكم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، أما بعد : فإني ادعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية وإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام))[٦١٧]. وكانت النصرانية تسود جنوبي الجزيرة كما تسود شماليها فرأى المسلمون وهم في حرب مع دولة الروم أن يحددوا موقفهم مع نصارى الجنوب خصوصا وان الروم كانوا يغدقون العطايا على مبشريهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس ، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة في هذه الأرجاء[٦١٨].

كان الوفد يضم أربعة عشر رجلا من أشراف النصارى ، دخلوا المسجد بأرديتهم الملونة الثمينة ، فسلموا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرد عليهم السلام ، ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم شيئا من القرآن ، فأبوا ودخلوا معه في مناقشات عقيمة تضيع في لجتها ملامح الحق البين الذي جاء به القرآن. من ذلك قولهم له وقد عرض (عليهم الإسلام) : إنا قد أسلمنا قبلك! فقال مخاطبا السيد والعاقب راهبي نجران : كذبتما !! يمنعكما من الإسلام ثلاث : أكلكما الخنزير وعبادتكما الصليب وقولكما لله ولد. قالا : فمن أبو عيسى ؟ فلم يجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إزاء ذلك إلا ان يوقف جدلا كهذا لا يوصل إلى نتيجة ، ويعرض عليهم – بدلا من ذلك – المباهلة التي حددتها آيات القرآن الكريم التي تنزلت لكي تحسم امرا لايحتمل مناقشة ولجاجاً : **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٥٩)الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ(٦٠)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**[٦١٩].

---

(٦١٦) انظر هامش رقم (٢) ، ص ٢٣٤ من هذا الفصل.

(٦١٧) اليعقوبي تاريخ ٢/٧٠ – ٧١.

(٦١٨) الغزالي فقه السيرة ، ص ٤٥٨.

(٦١٩) سورة آل عمران ، (الآيات ٥٩–٦١).

وكانت المباهلة تقضي بأن يجتمع الطرفان على صعيد واحد ويستنزلا لعنة الله وغضبه على الفئة الكاذبة. إلا ان رجال الوفد النصراني تخوفوا عاقبة الأمر وقال زعيمهم : ((إني أخاف أن يكون صادقاً)). ومما لاريب فيه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد تلا عليهم آيات آل عمران القوية النافذة ، وخاطبهم بما في نطاقها ، ودعاهم إلى ما أمر أن يدعوهم إليه من استنزال سخط الله على الكاذبين ، ومن ان يجتمع الطرفان ويعلنا معا أنهما لايعبدون إلا الله ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دونه فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو ، باسمه وباسم أتباعه ، ومضمون الآيات[٦٢٠] وروحها يلهمان أن النبي كان في موقف القوي المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه والمستعلي على مناظره بالحجة الدامغة والتحدي المفحم والدعوة التي لايردها إلا الممتري. وهنالك الكثير من الاضافات المناقضة للمعقول والمنقول ترد حول مسألة المباهلة (أو الملاعنة) رغم ان ابن هشام الذي انفرد بتفصيل خبرالمناظرة لم يذكر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استعد للمباهلة لأن اسلوب الآية لايقتضي ذلك ، وهو أسلوب تحدي واقحام[٦٢١].

وقد ارتأى الوفد النصراني أن يعرض على الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحكم فيهم بما يراه ، فصالحهم (صلى الله عليه وسلم) وكتب لهم عهدا يمثل قمة من قمم العدل والسماحة والحرية ، لم يفرض عليهم سوى جزية عينية قدرها الفي حلة في السنة وقد جاء فيه ((... ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم ، وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم ، لا يغيروا أسقفا عن أسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته ، وكل ماتحت ايديهم من قليل أو كثير ... ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ... ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم اخر ، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبداً حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا واصلحوا فيما عليهم ..))[٦٢٢].

---

(٦٢٠) سورة آل عمران ، (الآيات ٣٤-٥٧ ، ٥٨-٦٤).

(٦٢١) دروزة : سيرة الرسول ٢/٢٤٦-٢٤٨.

(٦٢٢) ابن سعد ١/٢/٣٦ ، ٨٤-٨٥ ، البخاري : تجريد ٢/٩٧-٩٨ ، البلاذري : فتوح ١/٧٦-٧٨ ، اليعقوبي: تاريخ ٢/٧١-٧٢ ، وانظر دروزة ٢/٢٣٧-٢٣٨ (بالتفصيل).

وقد دخل يهود نجران في هذا الصلح إذ كانوا كالاتباع لهم[٦٢٣].

وبتلك المعاهدة السمحة[٦٢٤] قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتنصرين وبين دولة الروم التي يشتبك معها في الحرب ، بعد ما ضمن الحرية الدينية لمن سالموه وكفوا عنه. ترى – يقول الغزالي – هل احترم أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل أنصفوا الدين الذي رعى ذمامهم ؟ كلا !! فإنهم سرعان ما راحوا يساعدون على إشعال الثورات في جنوب الجزيرة ، كما كاتبوا الأسود العنسي (المتنبىء) فسار اليهم في طريقه الى اليمن .. تماما كما فعل نصارى تغلب في تأييدهم مسيلمة الكذاب حين ادعى – هو الآخر – انه نبي !!

... ولم يكن الأمر إيمانا منهم بهذه النبوات الزائفة ولكنه الإعانة على حرب الإسلام بأي سلاح ومع أي حليف[٦٢٥].

[8]

وما أن أتم الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقاءته بالوفود العربية القادمة إليه من كل مكان ، وحج بأتباعه حجة (الوداع) ، حتى قام بتجهيز جيش كبير في مطلع السنة الحادية عشر للهجرة في أعقاب عودته من مكة ، وأمر عليه القائد الشاب أسامة بن زيد بن حارثة تقديرا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) للكفاءات الشابة ، ورفضا لسلم الطبقات الاجتماعية الذي لا يسمح لمن كان آباؤهم عبيدا يباعون ويشترون ، أن يتولوا قيادة السادة !! وردا عمليا على محنة المسلمين في مؤتة حيث كان زيد بن حارثة ، والد القائد الشاب ، قد شاط في رماح القوم !! وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) مولاه أسامة أن (يوطىء) الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

---

(٦٢٣) البلاذري : فتوح ٧٨/١ وقد ظلوا على ذلك طيلة عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلافة أبي بكر (رضي الله عنه) فلما استخلف عمر (رضي الله عنه) ((أصابوا الربا–الذي منعوا من التعامل به– وكثروا فخافهم على الإسلام)) فأجلاهم إلى العراق والشام (المصدر السابق ٧٨/١) ويبدو ان دورهم في إسناد حركة الردة لم يكن خافيا عليه ، ويتضح هذا من عبارة البلاذري الآنفة (فخافهم على الإسلام) وعندما التمسوا من علي (رضي الله عنه) في خلافته إعادتهم أجابهم ((أن عمر (رضي الله عنه) كان رشيد الأمر وأنا اكره خلافه)) : المصدر السابق ٨٠/١.

(٦٢٤) انظر عن نصوص المعاهدات المتعلقة بنصارى نجران : محمد حميد الله : الوثائق ١٧٥–٢٠١.

(٦٢٥) فقه السيرة ، ص ٤٦٣–٤٦٤.

وانطلق أسامة ومن ورائه زهرة قوات المسلمين ، لم يتخلف منهم أحد ، وعلى رأسهم المهاجرون الأولون[٦٢٦].

تقدم أسامة باتجاه الشمال وعسكر في (الجرف) على بعد فرسخ من المدينة ، ريثما يتم تجميع المقاتلين ، وهناك بلغته أنباء مرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتوقف عن المسير وظل معسكرا بجنده لينظر ما الله قاض برسوله (صلى الله عليه وسلم). ولم يطق المسلمون وقائدهم صبرا على البقاء والانتظار ، ورسولهم يعاني الآلام ، فهبطوا عائدين الى المدينة. ودخل أسامة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد عجز عن الكلام ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ويضعهما على أسامة .. وعرف أسامة أنه يدعو له[٦٢٧].

وعما قليل ، حينما لحق الرسول (صلى الله عليه وسلم) برفيقه الأعلى ، وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قيادة الأمة التي صنعها محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وتحركت بوادر الارتداد عن الطريق ((واشرأبت – كما تقول عائشة رضي الله عنها – اليهودية والنصرانية ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية)) [٦٢٨] ، أعلن أبو بكر أنه سيقف بوجه الردة وسيقاتلها ولو تخطفته الذئاب !! وأصر في الوقت نفسه على أن يمضي جيش أسامة إلى هدفه ، كما أراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وعندما أعترض عليه الصحابة بأن قاعدة الإسلام مهددة من كل جانب ، ولا جيش فيها ، قال خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((ما كنت لأرد جيشا جرده رسول الله (صلى الله عليه وسلم))) .. ومضى أسامة وأوطأ ، كما أمره رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، خيول المسلمين تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ووضع خطواته الاولى على الطريق التي سيجتازها الفاتحون عما قريب صوب بلاد الشام ، يحملون معهم تعاليم الإسلام ونداء رسوله الكريم ..

---

(٦٢٦) ابن هشام ، ص ٣٧٤ ، الطبري : تاريخ ١٨٤/٣ ، البلاذري : انساب ٣٨٤/١.

(٦٢٧) ابن هشام ، ص ٣٨٦–٣٨٧ ، ٣٨٨.

(٦٢٨) نفسه ، ص ٤٠٤.

الفصل التاسع

الصراع ضد اليهود

[1]

كما هو الحال بشأن النصارى ، فان العلاقات بين المسلمين واليهود ترجع في بداياتها الاولى الى السنين التي شهدت طفولة محمد صلى الله عليه وسلم ، بما تضمنته كتب اليهود ومصادرهم الدينية من تاكيد على النبوة الجديدة والأخيرة في تاريخ النبوات ، وان لم تصرح جميعا ماذا سيكون هذا النبي : يهوديا ام غير يهودي ؟.

عن زيد بن اسلم قال : بلغنا ان عبد الله بن سلام كان يقول ان صفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في التوراة : (يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين ، انت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخب بالاسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن اقبضه حتى اقيم به الملة المتعوجة بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا). فبلغ ذلك كعب الاحبار فقال : صدق عبد الله بن سلام الا انها بلسانهم : (اعينا عموميين واذانا صمومييين وقلوبا غلوفيين)[٦٢٩]. وفي البلاذري عن عبد الله بن سلام ان اباه كان يردد : ان كان النبي القادم الذي يجدون صفاته في كتبهم من ولد هارون اتبعته والا فلا[٦٣٠] ..

ونقرأ في التوراة سفر حجي ، الاصحاح الثاني ((٦) لانه هكذا قال رب الجنود هي مرة بعد قليل فازلزل السماولت والارض والبحر واليابسة (٧) وازلزل كل الامم ، وياتي مشتهى كل الامم فاملأ هذا البيت عدلا قال رب الجنود). وقد جاء في حاشية الاصل العبري (مشتهى كل الامم حمدوت ، اي الذي تحمده كل الامم). فالتوراة اذن صرحت باسم محمد (حمدوت) ، ولكن الترجمة ابعدت لفظة محمد لتضع مكانه مرادفا يصرف الذهن عن الاسم الحقيقي هو (مشتهى كل الامم). وفي سفر التثنيه ، الاصحاح ١٨ ، فقرة ١٥ نقرأ (يقيم لك – لموسى – الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلك له تسمعون) ، ويقول في الفقرة ١٨ : (اقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما اوصيه به) ، وهي عبارة مجملة فسرها اليهود بمجيء رسول منهم لا من ولد اسماعيل. وكأن الله تعالى جعل هذه العبارة مجملة والهمهم هذا التفسير ، حفظا لهذه البشارة ، لانهم لو عرفوا ان الرسول المبشر به سيكون من ولد

---

(٦٢٩) ابن سعد : طبقات ٨٧/٢/١ وانظر المصدر نفسه ، ص ٨٨–٨٩ ، للاطلاع على مزيد من الروايات بهذا الصدد.

(٦٣٠) انساب الاشراف ٢٦٦/١ ، وانظر المصدر نفسه ، ص ٢٨٦.

اسماعيل لأخفوها او محوها. وقد اثبتت الايام ان الرسول المبشر به هو محمد (صلى الله عليه وسلم)[٦٣١].

وورد في سفر التثنيه – ايضا – ٣/٣٣ (جاء الرب من سيناء ، واشرق لهم من سعير ، وتلالا في جبل فاران) ، وتلك هي الرسالات الثلاث لموسى والمسيح ولمحمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا مصداق قوله تعالى : {**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(١)وَطُورِ سِينِينَ(٢)وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**}.

لان منبت التين والزيتون مهجر ابراهيم ومولد عيسى (عليهم السلام) ، وطور سيناء مكان مناجاة الله تعالى لموسى ، وفاران في مكة مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) [٦٣٢].

هذا فضلا عن الروايات التاريخية العديدة التي تحمل ارهاصات مجيء الرسول الجديد وصفاته. فعن عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : (انما دعانا الى الاسلام ما كنا نسمع من يهود انه قد تقارب زمان نبي يبعث فيقتلكم قتل عاد وارم). وعن سلمة بن سلامة الذي شهد بدرا قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الاشهل ، اشار بيده الى مكة واليمن وقال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، قالوا : من يراه ؟ فنظر الي وانا من احدثهم سنا فقال : ان يستكمل هذا الغلام عمره يدركه. قال سلامة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا. وهذا ابن الهيبان من يهود الشام خرج من الشام الى الحجاز ، وحل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة بسنتين ، ولما شعر انه ميت لا محالة قال : يا معشر يهود ما ترون اخرجني من (الشام) الى اهل البؤس والجوع (الحجاز) ؟ قالوا : انت اعلم ، قال : انما قدمت هذه الارض اتوكف – اتوقع – خروج نبي قد اظل زمانه ، وهذه ارض مهاجره ، وكنت ارجو ان يبعث فاتبعه[٦٣٣].

من اجل ذلك راح اليهود يعلنون ، بين الحين والحين ، عن قرب ظهور النبي الاخير ، ويتباهون بذلك ، ويهددون بالانتماء اليه ، ويتوعدون مخالفيهم ، من اجل مزيد من السيطرة

---

(٦٣١) ابراهيم خليل احمد : محمد بين التوراة والانجيل والقرآن ، المقدمات ، ص ٢٢.

(٦٣٢) سورة التين (الآيات ١–٣). المرجع السابق ، ص ٢٦ – ٢٦ ، وانظر عن بشارات التوراة الاخرى بالتفصيل : نفس المرجع ، ص ٣٣ – ٤٣ وسفر اشعيا ، الاصحاح ٤٢ ، فقرة ١ وما بعدها وسفر التثنية ١٥/١٨و١٨/١٨. وعن اثار محمد واصحابه انظر : سفر المزامير ٢٢/١١/١ – ٢٣ وسفر دانيال ٣١/١ – ٤٥.

(٦٣٣) انظر : محمد رواس قلعجي : محمد في الكتب المقدسة (مجلة حضارة الاسلام ، عدد ١ ، سنة ٨) ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٨/٢–٢١٠ ، وابن هشام ٤٢ ، والطبري تاريخ ٢٩٥/٢ وانظر كذلك رواية حسان ابن ثابت في ابن هشام ، ص ٢٨.

والاذلال واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الالاف من العرب المحيطين بهم كجزيرة منقطعة[٦٣٤]. ولم يكن الكثيرون من احبار اليهود يتوقعون ان النبي الجديد سيجيء هذه المرة من سلالة اخرى غير السلالة اليهودية المعروفة ، وانه بانتمائه العربي سيشكل خطرا ماحقا على وجودهم المستغل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم واسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم.

وما ان حان الموعد ، وحل الاجل المضروب في التوراة والانجيل ، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم ، وولد محمد (صلى الله عليه وسلم) يحمل علامات نبوته المادية والادبية ، حتى بدا اليهود يتخوفون من ان تخطىء ظنونهم ، وان لا تكون النبوة فيهم فيصابون بخسارتين .. واصبح الطفل الذي سيبعث الى العالم في خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التي تتيح لهم اتخاذ اي اسلوب ، مهما كان دنيئا ، لوقف كل ما يتهدد مصالحهم ووجودهم ، حتى لو كان هذا الاسلوب القتل والغيلة. وهذا هو الذي يفسر لنا تحذير الراهب النصراني بحيرا لابي طالب (ارجع بابن اخيك الى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن راوه وعرفوا منه ما عرفت ، ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم) [٦٣٥].

ان قصة بحيرا ، اذا ما اسقطها النقد من الحساب ، فان دلالة واحدة فيها تظل باقية ، تلك هي (التحذير) مما قد يمكن أن يفعله اليهود ازاء اي مخلوق ليس منهم قد يظنون به النبوة.

[2]

وبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد اربعين سنة من ميلاده ، وخاض بدعوته ، في مرحلتيها السرية والعلنية ، جهادا قاسيا ضد الوثنية التي استخدمت كل اسلوب لوقف نشاطه وواد حركته. ورغم قلة الروايات وانعدامها احيانا ، فاننا نستطيع ان نجزم بان اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي ، الذي دام ثلاثة عشر عاما ، وراء قريش يتبادلون معها الوفود ويتصلون بها سرا من اجل ان يشددوا قبضتهم على النبي العربي ، وان يشلوا حركته قبل ان يشتد ساعدها وتغدو قادرة على اكتساح كل ما يقف في طريقها ، ليصدها عن هدفها المحتوم ، وثنيا كان ام يهوديا.

---

(٦٣٤) انظر الطبري : تاريخ ٢ / ٣٥٤.

(٦٣٥) ابن هشام ، ص ٣٩.

يذكر اسرائيل ولفنسون[٦٣٦] ان المراجع العربية لم تشر الى حركات يهود يثرب ونياتهم ازاء بيعة العقبة الكبرى ، كأن الدعوة الاسلامية لم تصل اليهم وكانهم لم يقفوا على شيء من اعمال البطون اليثربية العربية ، ونحن نرجح ان اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لانها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول .. ونحن نعلم ماكان بينهم وبين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعا .. ثم نعلم ان الاسلام لم ينشر خفية في يثرب ، وكيف ان مصعب بن عمير كان يدعو الناس الى الله ورسوله على مراى من جميع البطون .. ثم اننا نعلم ان عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج ، فمن البعيد اذن ان يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار .. وكانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك نفرض انه اذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط اعمال المسلمين في المدينة ، وكذلك كان ، فان الذي يتامل ما جرى بين كعب بن الاشرف زعيم بني النضير وبين الرسول يرى ان ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصلت ارض يثرب ، والعداء الذي استفحل امره بين الجبهتين يؤيد ما نقول.

الا ان محاولات الوثنية وحليفتها اليهودية اخفقت ، واعقب كفاح الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدائب وثبات اصحابه وصمودهم انتصارا عظيما تمخض عن الهجرة الى يثرب وانشاء دولة الاسلام فيها. ولم يكن يهود يثرب بقادرين – اول الامر – على اعلان مجابهتهم المكشوفة للدولة الناشئة ، واتباعها من عرب المدينة يزدادون كثرة يوما بعد يوم ، ولم يكن من مصلحتهم ايضا ان يتولوا بانفسهم كبر مقاومة الاسلام ، وقريش لا تزال على قوتها وقدرتها على الضرب. فلتلق تبعة الصراع اذن على قريش ، وليظل اليهود في المواقع الخلفية يشاهدون الصراع ويخططون على ضوء نتائجه المتوقعة ، حتى اذا ما وجدوا ثغرة لضرب الاسلام تسللوا منها لتسديد طعنة اليه ، او لمسوا ضعفا وانهاكا انقضوا يضربون ويطعنون .. وهكذا وافقت معظم القبائل اليهودية على الدستور الذي طرحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتنظيم الامور السياسية والمدنية في يثرب ودخلوا اطرافا فيه كي يتيحوا لانفسهم فترة من الوقت يستردون فيها انفاسهم ازاء السرعة التي كانت الاحداث تتحرك بها. ورغم ان هذا الميثاق كان ينص – فيما

---

(٦٣٦) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٠٦ – ١٠٨.

ينص عليه – على اسهام اليهود مع المسلمين في صد اي عدوان قرشي يقع على المدينة ، وتغطية النفقات المالية للقتال ، فان اليهود لم ينفذوا هذا البند ماليا ولا عسكريا .. ولم يشا الرسول صلى الله عليه وسلم ان يلح عليهم لتنفيذه ما دامت استراتيجيته في الصراع تقوم على عدم ضرورة فتح اكثر من جبهة والدولة الاسلامية لم يشتد ساعدها بعد. المهم ان يجمد اليهود نشاطهم ضد الاسلام كي يتفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم للمجابهة الحاسمة مع قريش. وهذا ما يفسر لنا جواب الرسول صلى الله عليه وسلم للانصار يوم احد عندما سالوه : يا رسول الله الا نستعين بحلفائنا اليهود ؟ فكان جوابه : لا حاجة لنا فيهم[٦٣٧].

كان الغرض الذي يرمي اليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وراء الصحيفة وما اليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب هو هدم النظام القديم وايجاد نظام جديد يمكن ان تتوحد به العناصر اليثربية ، وان تعود يثرب بعد فرقة احيائها مدينة واحدة. فقد كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر ، وكانت كل دائرة تابعة الى بطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين يشتمل القسم الاول منها على الاراضي الزراعية بمنازلها وسكانها .. ويشتمل ثانيها على الاطام (اي الحصون) التي كانت ملكا خاصا بالاسر العريقة ، وكان رئيس الاسرة صاحب السلطان في الاطم ، كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون[٦٣٨].

ويلاحظ ان الصحيفة قد ذكرت اليهود الموالين للبطون العربية واهملت ذكر القبائل الاخرى من اليهود وذلك يتفق تماما مع ما كانت عليه الحالة السياسية في يثرب ، فان البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت في احلاف مع الاوس او مع الخزرج وذلك بعد سيادة هؤلاء في يثرب. اما قبائل اليهود الكبرى الثلاث[٦٣٩] فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها، ثم انها ناوات الاسلام واظهرت عداءها. ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندا هاما لدخول اليهود في الدولة احتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل في النظام الجديد. وفعلا الحقت هذه القبائل بالدولة في محالفات ملحقة[٦٤٠].

---

(٦٣٧) ابن هشام ، ص ١٧٥-١٧٦.

(٦٣٨) ولفنسون ، ص ١١٦-١١٧ ، وعن الاطام انظر بالتفصيل المصدر نفسه ، ص ١١٦-١١٨.

(٦٣٩) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر : المحاضرة الثالثة من كتاب :

Margoliuth : The Relations between Aeabs and Israelites, Lec, 3.

(٦٤٠) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ص ٣٩٤-٣٩٥.

وقد أشار المؤرخون الى هذه المحالفات وان لم يذكروا نصها ، ويبدو ان نصوصها لم تكن تختلف عن الجوهر العام لنص الصحيفة ، والارجح ان هذه القبائل اليهودية لم تعاهد النبي في وقت واحد ، فقد ذكرت المصادر ان بني قينقاع حين اجلاهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد بدر كانوا هم اول من نقض العهد. ولعل المعاهدات التي وقعها النبي (صلى الله عليه وسلم) مع هذه القبائل لم تكن تشترط عليها ان تشارك معه في القتال ، وهذا امر طبيعي بعد ان فسدت الامور بين المسلمين واليهود ، فلم يكن النبي يثق باليهود حتى يشترط عليهم ان يشاركوا معه في الحرب ، والدليل على ذلك ان اليهود لم يشاركوا فعلا في حروب النبي ، وان النبي رفض الاستعانة بهم يوم احد كما رأينا. ونحن لا نوافق على ما ذهب اليه ولفنسون[٦٤١] وغيره من ان النبي قد غضب على بني النضير لعدم اشتراكهم معه في موقعة احد ، لان بني النضير كانت قد بدات منهم الخيانة وممالاة العدو قبل احد ، كما حدث في غزوة السويق ، فلم يكن النبي يقبل والحالة هذه ان يشاركوا في جيشه حتى لا يتعرض لخيانتهم في ميدان القتال[٦٤٢].

وفي اعقاب الهجرة ، ولفترة من الوقت ، سارت العلاقات بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) واليهود سيراً حسناً ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطمح من جهته ان يتفهم اليهود دوافع حركته الدينية واهدافها والعوامل المشتركة التي تربط الاديان السابقة ، بما فيها اليهودية ، بالاسلام ، لا سيما وانهم يرون بام اعينهم في صفحات كتبهم تلك التاكيدات المستمرة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ادى المصدر الواحد لكلا الدينين الى ان تمارس بعض الطقوس والشعائر الاسلامية وفق بعض (الاشكال) التي يمارسها اليهود ... وهذا امر منطقي بطبيعة الحال بالنسبة للدعوة الجديدة التي جاءت لتعلن اكثر من مرة انها ليست سوى امتداد على نفس الطريق للدعوة الدينية الكبرى التي بداها ابراهيم عليه السلام ونادى بها فيما بعد موسى وعيسى (عليهما السلام). ومن هنا يبدو الخطأ الساذج الذي وقع فيه عدد كبير من الكتاب والمستشرقين ، نذكر منهم على سبيل المثال بروكلمان الذي يقول : (تأثرت اتجاهات النبي الدينية في الايام الاولى من مقامه في المدينة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود ، واغلب

---

(٦٤١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٢١-١٣٥.

(٦٤٢) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٨٣-٤٨٤-٤٨٥.

الظن انه كان يرجو عقب وصوله الى المدينة ان يدخل اليهود في دينه ، وهكذا حاول ان يكسبهم عن طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي)[٦٤٣].

وقد امل اليهود ، في مطلع العهد المدني ، وقد راوا هذا التعاطف الاسلامي ازاءهم دون ان يفهموا اسبابه العميقة ، ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربما يقر بارجحية العقيدة التي يؤمنون بها ، وانه سيتركهم وشانهم مكتفيا بتشكيل وحدة يثربية تضم الطرفين وتحمي مصالحهما المشتركة بوجه العرب المشركين في الداخل والخارج ، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك وظنوا انهم ربما تمكنوا يوما من استمالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) اليهم وادخاله وصحبه في دينهم !! الا ان ظنهم سرعان ماخاب عندما ادركوا ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد كل اسلوب لتحقيق اهدافه ، وانما هو صاحب رسالة عظمى ازاء العالم كله .. رسالة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الاقليمية ليثرب ، او حتى الجزيرة العربية كلها ، باتجاه الانسان في كل مكان. وازداد الامر وضوحا عندما توالت دعوات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتأكيداته على ضرورة دخولهم الدين الجديد ، ان ارادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي حملها موسى الى بني اسرائيل ، وعندما راحت ايات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم وكتبهم من تزييف وتحريف من اجل ان يحموا مصالحهم ويضيفوا الى اموالهم اموالا. اضف الى ذلك ما كان يلقاه الاسلام من انتشار متزايد في يثرب واطرافها ، الامر الذي كان يعني عزل اليهود والحد من نشاطهم الديني والاقتصادي على السواء ، فضلا عن الوحدة العميقة التي انشاها الاسلام بين الاوس والخزرج وسد بها الطريق على اليهود واستغلالهم الفاجر للصراع الدامي بين الحيين.

وبدأ يتضح لليهود ، يوما بعد يوم ، المصدر الاساسي للخطر الذي تشكله الدعوة الجديدة بمواجهة اليهودية .. ان النبي يدعو الى (توحيد) غير الذي يؤمن به اليهود ، على اساس قومي استعلائي مغلق ، من ان الله الواحد هو اله اسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس ، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس وكانت امنيتهم دوما ان يجدوا من ياتي بما يهوون من سيطرة ونفوذ لا بما تتطلبه الدعوة من اصلاح وخير يعم الناس جميعا ، ومن اجل ذلك كذبوا انبياءهم وحاربوا المسيح عليه السلام وسعوا الى قتله ، فاذا ماجاء محمد فدعا الى هذا الاله الواحد للناس جميعا ، بغض النظر عن اجناسهم ، فانه بذلك يزيل عن بني اسرائيل هذه

---

(٦٤٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٧.

الميزة التي يستفتحون بها على الاخرين ، واذن فلا تهادن بينهم وبين محمد الذي يسعى الى تحطيم تلك القواعد المقررة التي سار عليها اليهود ، فقامت بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وسلم) محاجات ومجادلات ما لبثت ان اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة ، بل انهم اندفعوا في عدائهم فتورطوا في تفضيل الاصنام على التوحيد(٦٤٤).

ورغم ان ولفنسون اكد على خطورة مبدأ (التوحيد) الاسلامي وعالميته ازاء (العقلية اليهودية التي لا تلين امام شيء يزحزحها عن دينها ، وتابى ان تعترف بان يوجد نبي من غير بني اسرائيل) ، الا انه يقع في خطا القول بان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لو لم يكلف اليهود الاعتراف برسالته ، ولو وقفت تعاليمه عند حد محاربة الوثنية فحسب ، لما وقع نزاع بينهم وبين المسلمين ، ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولأيّدوه وساعدوه باموالهم وانفسهم حتى يحطم الاصنام ويقضي على العقائد الوثنية .. ويمضي ولفنسون الى القول بان هذه (المسألة) يجب الا تغرب عن الاذهان لانها اساس كل ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع ، ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف ، او لكان في الامكان ان يتلافى ما قد ينشا من ذلك. ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين انهم اهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن اسباب الخلاف بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) واليهود ، مع انه مما لا شك فيه انه اذا اهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع(٦٤٥).

وفاتت ولفنسون حقيقة على درجة كبيرة من الاهمية تلك هي ان طبيعة الدعوة الاسلامية المنفتحة على العالم ، وانتماء نبيها الى العرب ، وقيام دولتها في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود ونشاطاتهم المختلفة ، يشكل بحد ذاته خطرا كبيرا على اليهود في دينهم ودنياهم على السواء ، حتى لو لم يدعوا الى الاسلام ، لان نجاح الاسلام كفيل بحد ذاته بحصر اليهود وعزلتهم وكشفهم امام العالم ، ومن ثم ضرب وجودهم ومصالحهم في الصميم ، الامر الذي دفعهم ، بعد وقت قصير من ادراكهم ابعاد هذا الخطر ، الى ان يقفوا الى جانب الوثنية ويمتدحوا اصنامها بمواجهة التوحيد الذي جاء به الاسلام .. ومن ثم فان ولفنسون يناقض نفسه عندما يشير الى انغلاق العقلية اليهودية من جهة وسكوتها ، بل تعاونها – لو لم تدع الى

---

(٦٤٤) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤١٢–٤١٥.

(٦٤٥) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٢٢–١٢٣.

الاسلام – مع هذا الدين الذي جاء لكي (يفضح) المزاعم الدينية التحريفية التي مارسها اليهود طويلا ، ولكي ينفتح على الانسان والعالم ويقضي في طريقه على اسطورة (شعب الله المختار) وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مكاسب لا يحصيها عد[٦٤٦]!!

هذه هي في الحقيقة (النقطة الجوهرية) في البحث عن اسباب الخلاف بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) واليهود والتي اذا ما اهملت – دون غيرها – فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع !! وسيؤكد سياق الاحداث هذا الذي نذهب اليه.

ومن هذا الخطأ يجد ولفنسون وعدد من المستشرقين انفسهم مسوقين الى خطأ آخر ، وهو انه ما دام القتال قد نشب بين المسلمين واليهود في اعقاب بدر فان معنى هذا ان اليهود كان عليهم ان يندمجوا في الدين الجديد او ان يجابهوا (بحرب دموية) حتى يفنوا او يجلوا الى مكان بعيد .. وانه ما دام قد وقع قتال بين الطرفين فان معنى هذا (ان المهاجرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لان حالتهم كانت سيئة جدا ، اذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الانصار من الاوس والخزرج)[٦٤٧].

وفات هؤلاء المؤرخين ان طبيعة التعارض العقائدي بين الدينين اللذين يقوم احدهما على (الانفتاح الكامل) والآخر على (الانغلاق الكامل) كان لابد وان يؤول الى صراع حاسم من اجل انفراد احدهما بالكلمة العليا ، حتى لو كان المهاجرون يسكنون القصور الفخمة ويأكلون احسن الطعام !! وهل بالامكان – فوق هذا كله – ان يتناسى المؤرخ الجاد ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يشن حربا الا ضد الفئة اليهودية التي تبدأ بالعدوان ، او ان يتجاهل مغزى اصدار الدستور الذي منح اليهود حريتهم الدينية والمدنية الكاملتين دون قيد زمني مشروط ؟

---

(٦٤٦) ان المكانة الدينية – العلمية التي كان اليهود يتمتعون بها جعلتهم – كما يقول دروزة – في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي ، لسكان يثرب ، على ما تلهمه ايات عدة (انظر كتاب عصر النبي وبيئته للمؤلف المذكور) فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة والقوة النافذة والاثر في حل المشكلات وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد ارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة (سيرة الرسول ١٢٢/٢–١٢٣).

(٦٤٧) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ، ص ١٢٦–١٢٧.

[3]

بدأ النزاع بين النبي (صلى الله عليه وسلم) واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين ، فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصلون فيها الى حد التعنت ، وكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ، وكانوا يطالبون النبي (صلى الله عليه وسلم) بان ياتي اليهم بالمعجزات. ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم. **{وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}**[٦٤٨].

ثم ظهرت العداوة ، فاخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) يطعن في يهود يثرب ، واخذ اليهود يرمون الانصار بقوارص الكلم .. وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والانصار في الشوارع. ولم يمض ثمانية عشر شهرا على قدوم النبي (صلى الله عليه وسلم) الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر[٦٤٩].

وزاد الامر توترا انضمام المنافقين الى اليهود في حربهم النفسية مع المسلمين. ولقد جاء في الآيات الاولى من سورة البقرة ، التي هي اول السور المدنية في ترتيب النزول وبصدد الحديث عن المنافقين. **{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}** ، فقد قال جمهور المفسرين ان شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على ان اليهود هم الذين اغروا المنافقين بالنفاق او شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى ان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك[٦٥٠].

وبلغ الجدل بين محمد (صلى الله عليه وسلم) واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه ، فقد نزل احدى وثمانون اية من سورة البقرة ، وقسم كبير من سورة النساء وكله يذكر هؤلاء اليهود وانكارهم لما في كتابهم ويلعنهم ، لكفرهم وانكارهم ، أشد اللعنة[٦٥١].

---

(٦٤٨) سورة البقرة ، (الآية ١٠١).

(٦٤٩) تاريخ اليهود ، ص ١٢٣-١٢٥.

(٦٥٠) سورة البقرة ، (الآية ١٤). دروزة : سيرة الرسول ١٢١/٢.

(٦٥١) انظر : سورة البقرة ، (الآيات ٨٧-٨٩) ، تفسير الطبري ٣٣٣/٢.

ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والانصار ، وبين الاوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة ردهم الى الشرك ، دون تهويدهم ، وصدهم من يريد الاسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة محمد (صلى الله عليه وسلم) – كما رأينا – بإلقاء أسئلة محرجة عليه – مستعينين بما عندهم من علم الكتاب – كان القرآن يتصدى لدحضها او الاجابة عليها ، او فضح نواياها(٦٥٢).

وحين ضاق اليهود ذرعا بمحمد فكروا في ان يقنعوه بالجلاء عن المدينة كما اجلته قريش عن مكة ، فذكروا له ان من سبقه من الرسل ذهبوا الى بيت المقدس وكان مقامهم به .. لكن محمدا ادرك ما يرمون اليه ، واوحى الله اليه على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ان يجعل قبلته المسجد الحرام ، بيت ابراهيم واسماعيل(٦٥٣) ، فانكر اليهود ذلك وادركوا مدى خطورته ، اذ انه بادرة لتوحيد العرب وتجميعهم حول الدين الجديد ، وفرض مزيد من العزلة على اليهود ، لذلك انكروا هذا وحاولوا فتنة النبي مرة اخرى بقولهم : انهم يتبعونه ان هو رجع الى قبلته الاولى(٦٥٤). ويوما بعد يوم اشتد النفور بين الطرفين ، وكثرت بينهم المخاصمات ، وبدت الكراهية والبغضاء ، حتى نزل القرآن ينهى عن الاختلاط باليهود واتخاذ بطانة للمسلمين منهم. **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ(١١٨)هَاأَنْتُمْ أُوْلاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}**(٦٥٥).

ورغم هذه المواقف العدائية العامة التي صدرت عن الاكثرية الساحقة من اليهود فاننا نجد ثمة ايات تضمنت استثناء لبعضهم وتنويها بسلامة مواقفهم واعتدالهم ومنها ماتضمن اشارة الى ايمانهم واخلاصهم ، مما يدل – من جهة – على ان فئة من اليهود – وفيها فريق من العلماء – قد استطاعوا ان يفلتوا من المؤثرات العنصرية والاقتصادية والنفسية والانانية التي خضع لها اليهود ، فلم يسعهم الا ان يصدقوا بالنبي ويؤمنوا بالتنزيل ... ومن جهة اخرى على ان الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا اكراه فيها من بعض اليهود في العهد المدني ، بل

---

(٦٥٢) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٧٤–٤٧٩.

(٦٥٣) سورة البقرة ، (الآية ١٤٤).

(٦٥٤) سورة البقرة ، (الآيتان ١٤٢–١٤٣).

(٦٥٥) سورة آل عمران ، (الآيتان ١١٨–١١٩) ، الشريف : مكة والمدينة ٤٧٩–٤٨٣. وانظر بالتفصيل عن مواقف اليهود ازاء الدعوة ، ومجادلاتهم وحربهم النفسية والفكرية : دروزة : سيرة الرسول ١٣٠/٢–١٦٥. وعن دسائسهم وتآمرهم مع المنافقين والمشركين ضد المسلمين انظر : المصدر نفسه ١٦٦/٢–١٨٦.

عن اقبال قد يؤدي الى اذى المقبلين كما كان في العهد المكي .. وعلى ان مواقف الكيد والتامر انما كانت لاسباب لا تمت الى الحق والانصاف ، بل الى هوى الاحبار والزعماء واغراضهم. وهذا وذاك يدعم ماقلناه من انه لم تكن هناك اية فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين[٦٥٦]. ولقد قامت علاقة طيبة بين المهاجرين وبعض اليهود حتى ليغشون مجالسهم ويذهبون الى بيوت مدارسهم ، يتحدثون اليهم ويسالونهم ويسمعون منهم ، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة[٦٥٧]. ولن ننسى هنا اسلام الحبر اليهودي المعروف عبد الله بن سلام القينقاعي واهل بيته[٦٥٨] ، ومجابهته اليهود باسلامه ودعوته اياهم الى الدين الجديد[٦٥٩].

وبدأ الصراع المرير بين الاسلام وبين الوثنية العربية بقيادة قريش حروب عصابات وحصارا اقتصاديا اول الامر ، ومجابهات عسكرية نظامية حاسمة بعد ذلك .. وبدا يتضح لليهود – بعد الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر – ان بقاءهم ساكتين ازاء ما يجري من صراع سيمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تصفية اعدائه وتعزيز مركز الدولة الاسلامية في الجزيرة ، وسيجد اليهود انفسهم انذاك منفردين بمواجهة الاسلام ، مرغمين على قبول سلطته السياسية بشكل نهائي ، وهذا ما لا يمكن ان يتصوروه لانه يمثل خطرا على مصالحهم وانغلاقهم وتفردهم التاريخي الطويل بالسلطان. ومن ثم بدأوا يتحركون باتجاهات شتى لعرقلة الحركة الاسلامية ، ووضع المصاعب في طريقها وسحقها في نهاية المطاف ، ضاربين عرض الحائط بكل التزاماتهم تجاه الاسلام في الدستور الذي وقعوه مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يدع اليهود في تحركاتهم المضادة تلك ، اسلوبا الا اتبعوه تصعيدا للحرب النفسية والمطاردات الجدلية[٦٦٠] ، فتنة اجتماعية ، اغتيالا فرديا ، تحركا عسكريا ، خيانة في الاوقات الحرجة، وتاليبا للقوى المعادية للاسلام وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة ، الا ان من سوء حظ اليهود انهم لم يتحركوا مجتمعين ويقفوا صفا واحدا بمواجهة الاسلام ، الامر الذي مكن الرسول

---

(٦٥٦) دروزة : سيرة الرسول ٢٠٧/٢–٢٠٨ وانظر : سورة البقرة ، (الآيات ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ٨٣) ، وسورة آل عمران ، (الآيات ١١٣ – ١١٥ ، ١٩٩) ، وسورة النساء ، (الآية ١٦٢).

(٦٥٧) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٧٤ عن تفسير الطبري ٣٨١/٢–٣٨٤.

(٦٥٨) ابن الاثير : اسد الغابة ١٧٦/٣.

(٦٥٩) الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٧٤ فما بعد وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١٩٤/١–١٩٥.

(٦٦٠) انظر : الطبري ٤٠١/٢ ، ٤١٢ ، الواقدي ١٨٤/١–١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٤١٣ ، البلاذري : انساب ٢٨٤/١–٢٨٥.

(صلى الله عليه وسلم) من التصدي لكل منهم على انفراد ، وتصفيته واحدا بعد اخر. وربما فكر اليهود في هذا التحرك الجماعي المشترك لولا خوفهم العاقبة حيث سيؤدي ذلك الى كشفهم نهائيا وهم لم يعتادوا العمل المكشوف ، ومن ثم آثروا الاسلوب الاخر ، وهو ان تختار كل قبيلة منهم الفرصة المناسبة لضرب الاسلام واضعاف دولته.

[4]

كان اول صدام مبكر بين الاسلام واليهود هو ذلك الذي حدث في اعقاب معركة بدر .. بدأ اليهود الذين صدمتهم نتيجة المعركة التي لم يكونوا يتوقعوها يروجون الشائعات ضد المسلمين ويشنون حربا نفسية ضد رسوله ودعاته ، ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم الى قريش[٦٦١] ، كما انهم كانوا قد تلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتال الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٦٦٢] ، واظهروا للرسول ، كما يقول الطبري ، الحسد والبغي ، وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال احد ، واظهروا نقض العهد[٦٦٣] فجمعهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سوق بني قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود ، احذروا من الله (عز وجل) مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا ، فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد الله اليكم. قالوا : يا محمد ، انك ترى انا مثل قومك لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فاصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن انا نحن الناس[٦٦٤].

وازداد الموقف توترا في اعقاب الحادثة التي شهدها سوق بني قينقاع ، حيث كانت امراة عربية قد قدمت السوق ببضاعة تريد بيعها فيه ، وجلست الى صائغ هناك ، فتقدم اليها عدد من اليهود وطلبوا منها ان تكشف عن وجهها فابت ، فعمد الصائغ الى التحرش بها ، مما اضحك اليهود المجتمعين حولها ، فصاحت المرأة فما وسع رجل من المسلمين الا ان وثب على الصائغ

---

(٦٦١) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ٩٢.

(٦٦٢) محمد حميد الله : الوثائق ، ص ٦٦.

(٦٦٣) الطبري : تاريخ ٤٧٩/٢ ، البلاذري : انساب ٣٠٨/١ الواقدي ١٧٦/١.

(٦٦٤) المصادر السابقة ، نفس الصفحات.

اليهودي فقتله ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، واستصرخ اهل المسلم اتباعهم ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[٦٦٥].

وفي رواية للزهري ، يوردها الطبري ، ان جبريل نزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذه الاية : {**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**}[٦٦٦].

فلما فرغ جبريل من تلاوة الآية قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : اني اخاف بني قينقاع ، وسار لقتالهم[٦٦٧]. ومهما كان الامر فان يهود بني قينقاع قد تحدوه صراحة سواء في اقوالهم وحربهم النفسية ، ام في مواقفهم واعمالهم ، حتى ان الواقدي يذكر ان بني قينقاع اجتمعوا على الرجل فقتلوه ((ونبذوا العهد الى النبي صلى الله عليه وسلم وحاربوا وتحصنوا في حصنهم))[٦٦٨]. ومن ثم يبدو تهافت ما ذكره ولفنسون من ان الاسباب التي حملت النبي على البدء بمحاربة بني قينقاع – من بين جميع اليهود – ترجع الى ان بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة ، في حي واحد من احياء الاقوام العربية ، فاراد النبي (صلى الله عليه وسلم) ان يطهر المدينة واحياء الانصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه ، وغني عن البيان ان بني قينقاع كانوا اغنى طوائف اليهود في يثرب .. ثم كان عددهم غير كثير ، فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شافتهم[٦٦٩].

لم يقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ساكتا ازاء تحدي بني قينقاع ، وهم ينقضون صراحة بنود الدستور ، ويثيرون فتنة كان الدستور قد اكد على معاقبة مرتكبيها واعتبارهم ناقضين للعهد ، ومن ثم فرض الحصار على حصونهم الواقعة داخل المدينة ، في شوال من السنة الثانية للهجرة ، وقد استمر الحصار خمس عشرة ليلة وانتهى بنزول اليهود على حكم الرسول الذي قضى باجلائهم عن يثرب الى اي مكان يشاؤون[٦٧٠] ، دون ان ينزل

---

(٦٦٥) ابن هشام ، ص ١٧١ ، الواقدي ١٧٦/١ ، البلاذري : انساب ٣٠٩/١ ، جوامع السيرة ص ١٥٤ ، السمهودي : وفاء الوفا ١٩٧/١–١٩٨ ، ابن الاثير : الكامل ١٣٧/٢–١٣٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٤–٤.

(٦٦٦) سورة الانفال ، (الآية ٥٨).

(٦٦٧) الطبري : تاريخ ٤٨٠/٢ ، ابن سعد : طبقات ١٩/١/٢.

(٦٦٨) المغازي : ١٧٧/١.

(٦٦٩) تاريخ اليهود ، ص ١٢٨.

(٦٧٠) ابن هشام ، ص ١٧١–١٧٢ ، ابن سعد ١٩/١/٢–٢٠ ، الواقدي ١٧٧/١–١٨٠ ، البلاذري : انساب ١٠٩/١ ابن الاثير : الكامل ١٣٨/٢–١٣٩.

اية عقوبة – اخرى – بهم ، كي يجيء حكمه بمستوى الجرم الذي اقترفوه. وبخروجهم الى اذرعات من بلاد الشام تخلص المسلمون من واحدة من القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث المنتشرة – منذ زمان بعيد – داخل المدينة وخارجها ، فازدادت وحدة المدينة تماسكا ، وازداد اليهود ضعفا. ويظهر ان اجلاء بني قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود ، فقد امتنعوا في اعقاب ذلك عن المجادلة الدينية ، وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلم ، ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن قد دخلت في الاسلام ، وانفسح المجال امام النبي (صلى الله عليه وسلم) لنشر دعوته[٦٧١].

ولم يمض على ذلك كبير وقت حتى سدد الرسول (صلى الله عليه وسلم) لليهود ضربة اخرى بقتل كعب بن الاشرف ، احد كبار زعمائهم ، في ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة. وكان كعب قد صعد نشاطه ضد الاسلام في اللحظة التي قدم فيها الى المدينة مبعوثا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من معركة بدر ، زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة ، لاعلان بشرى انتصار المسلمين في لقائهم الحاسم مع المشركين. فقال كعب : ويلكم احق هذا ؟ اترون ان محمدا قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان وهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير لنا من ظهرها .. هؤلاء سراة الناس قد قتلوا واسروا ، فما عندكم ؟ قالوا : عداوته ما حيينا. قال : وما انتم وقد وطيء قومه واصابهم ، ولكني اخرج الى قريش فأحضّهم وابكي قتلاهم فلعلهم ينتدبون فاخرج معهم. وبعد ان تيقن من صحة الخبر غادر كعب المدينة متوجها الى مكة ونزل هناك على احد زعمائها ، وراح يحرض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وينشد الاشعار في هجائه ويبكي اصحاب القليب من قادة قريش الذين صرعوا في بدر ، وقفل عائدا الى المدينة لكي ينشد قصيدة يشبب فيها بامراة مسلمة تدعى ام الفضل بنت الحارث :

احدى بني عامر جن الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم

لم ار شمسا بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم !!

وتحول من ام الفضل الى نساء مسلمات اخريات مشببا بهن حتى اذاهن. وعند ذلك قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لاصحابه : من لي من ابن الاشرف ؟ فقال رجل من الانصار

---

(٦٧١) ولفنسون : تاريخ اليهود ، ص ١٣١.

يدعى محمد بن مسلمة : انا لك به يا رسول الله ، انا اقتله. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): فافعل ان قدرت على ذلك !!

توجه محمد بن مسلمة الى دار ابن الاشرف ، في بني النضير ، يصحبه اربعة من رفاقه. وعندما اقتربوا من داره بعثوا اليه احدهم ، ابا نائلة ، فجاءه فتحدث معه ساعة ، وتناشدا شعرا ، ثم قال ابو نائلة : ويحك يا ابن الاشرف ! اني قد جئتك بحاجة اريد ذكرها لك فاكتم عني. اجاب كعب : افعل. قال ابو نائلة : كان قدوم هذا الرجل (يعني محمدا صلى الله عليه وسلم) بلاء علينا ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الانفس واصبحنا قد جهدنا وجهدت عيالنا. فقال كعب : انا ابن الاشرف ، اما والله لقد كنت اخبرتك ان الامر سيصير الى ما كنت اقول. فقال ابو نائلة : اني قد اردت ان تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك. وطلب كعب ان يرهنوه ابناءهم فاقنعه ابو نائلة ان ذلك مما لا ترضاه العرب وان من الافضل لو يجعل الرهن سلاحا – وكان هدفه الا ينكر كعب وجماعته السلاح اذا جاءهم به – فوافق كعب على ذلك. وفي بقيع الغرقد اجتمعوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وتلقوا منه التعليمات وقال لهم : انطلقوا على اسم الله ، اللهم اعنهم. فاقبلوا حتى انتهوا الى حصن كعب وناداه ابو نائلة ، فنزل اليهم وتحدث معهم ساعة ، حتى اذا توغلوا بعيدا عن مساكن اليهود اخذ ابو نائلة برأسه وصاح : اضربوا عدو الله ، فصرخ كعب صرخة لم يبق من جرائها حصن يهودي الا اوقدت عليه النار ، وما لبثت سيوف المسلمين ان تناوشته واجهزت عليه ، وقفلوا عائدين بعد ان اصيب احدهم بجرح. وسرعان ما تبدت ردود فعل اليهود ازاء مقتل فارسهم وشاعرهم خوفا وجبنا ((فليس في المدينة يهودي الا وهو يخاف على نفسه))[٦٧٢]. ودفعهم الفزع الى مقابلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث قالوا له : قد طرق صاحبنا الليلة ، وهو سيد من ساداتنا ، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه. فاجابهم الرسول : انه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رايه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الاذى وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا احد منكم الا كان له السيف.

---

(٦٧٢) الطبري : تاريخ ٤٨٧/٢–٤٩١ ، ابن سعد ٢١/١/٢–٢٣ ، البخاري : التجريد ٧٩/٢–٨٠ ، الواقدي ١٢١/١–١٢٢ ، ١٨٤–١٩٣ ، ابن حزم : جوامع السيرة ١٥٤–١٥٦ ، ابن الاثير : الكامل ١٤٣/٢–١٤٤ ، المقدسي.

ثم ما لبث ان عرض عليهم ان يكتب بينهم كتابا ينتهون الى ما فيه ، فاجابوه الى ذلك حيث اصابهم الخوف والذل[٦٧٣].

[5]

وما لبثت هزيمة أحد ان افسحت لليهود مجالا ينفسون فيه عن احقادهم ويظهرون ضغائنهم على الاسلام ونبيه ، وراحوا يطلقون الاقوال السيئة ويقولون : ما محمد الا طالب ملك ، ما اصيب هكذا نبي قط ، اصيب في بدنه واصيب في اصحابه ، حتى ان ذلك استفز عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فاستاذنه في قتل الرؤوس اليهودية التي نفثت سمومها في قلب المحنة فاجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) : يا عمر ان الله مظهر دينه ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا اقتلهم[٦٧٤]. ولم يقف اليهود عند حدود الحرب النفسية بل انهم مضوا الى ابعد من ذلك مستغلين فرصة ضعف المسلمين وماساتي الرجيع وبئر معونة وتألب الاعراب الوثنيين ضدهم فقرر زعماء بني النضير[٦٧٥] التآمر على حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في السنة الرابعة للهجرة.

ذلك انه ذهب الى حصونهم ، بصحبة عدد من كبار اصحابه ، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، كان احد اصحابه قد قتلهما خطأً في اعقاب نجاته من مجزرة بئر معونة، وفق ما تقضي به المواثيق التي كان اليهود قد امضوها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم). وعندما عرض عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما جاء من اجله ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما احببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – وكان صلى الله عليه وسلم قد جلس يستريح اسفل جدار بيت من بيوتهم – فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : انا لذلك ، وصعد لتنفيذ المهمة ، فنزل الوحي الامين لكي يخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما اراد القوم ، فما لبث ان غادر المكان عائدا الى المدينة ، ولما

---

(٦٧٣) الواقدي : ١٩٢/١.

(٦٧٤) الواقدي : ٣١٧/١–٣١٨ ، المقريزي : امتاع الاسماع ١٦٥/١.

(٦٧٥) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر :

Margoliuth : The Relations between Arabs and Israelites, Lec, 3.

انتظره اصحابه طويلا ولم يعد ، قاموا في طلبه ، وفي الطريق لقوا رجلا مقبلا من المدينة اعلمهم انه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) داخلا ، ولما التقوا به اخبرهم بما اعتزمه اليهود من الغدر به. وارسل الى بني النضير ينذرهم بضرورة مغادرة المدينة خلال عشرة ايام وان من شوهد منهم بعد انتهاء المدة ضربت عنقه. لكن اليهود لم يستجيبوا للانذار وراحوا يهيئون انفسهم لحصار طويل ، وحينذاك اصدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) اوامره بالتهيؤ للمسير الى حصون بني النضير وقتالهم.

ما ان علم بنو النضير بتحرك المسلمين حتى لجؤوا الى حصونهم يحتمون بها ، ففرض المسلمون الحصار عليهم ، وامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقطع نخيلهم وتحريقها لارغامهم على التسليم وهم الحريصون على المال والمتاع ، فنادوه ان يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ فلم يلتفت الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمثالياتهم التي يعرف جيدا انهم اول الناس بتخطيها اذا ما تعارضت ومصالحهم ، فشدد الحصار عليهم. وراح بنو النضير يقاومون بانتظار النجدة التي وعدهم بها عبد الله بن ابي زعيم المنافقين، دون جدوى ، وبدا الرعب يدب في نفوسهم ، ثم ما لبثوا ان اعلنوا عن استسلامهم ، بعد خمسة عشر يوما من الحصار ، وموافقتهم على الجلاء اسوة برفاقهم من بني قينقاع ، على ان يحقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دماءهم ويسمح لهم بحمل ما تقدر ابلهم على حمله فيما عدا السلاح ، فاجابهم الى ذلك ، فحملوا ابلهم الكثير من الاموال والمتاع وانطلقوا شمالا حيث استقر بعضهم في خيبر وعلى راسهم زعماء بني النضير : سلام بن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب حيث دان لهم اهلها بالطاعة ، واستمرت طائفة اخرى في مسيرها صوب الشام. ووضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) يديه على ما تركوه من اموال ، فقسمها على المهاجرين الاولين الذين كانوا يعانون الفقر والجوع ولم يمنح للانصار شيئا سوى رجلين فقيرين منهم ، رغبة منه (صلى الله عليه وسلم) في اعادة التوازن الاجتماعي بين اصحابه ، وهي سابقة عملية اخرى ، لا تقل خطورة عن تجربة (المؤاخاة) في دلالتها الاجتماعية على رغبة الاسلام العميقة في تنفيذ التوازن الاجتماعي وتذويب الفروق الطبقية بين فئات

المجتمع الواحد ، واحلال التعاون والوفاق محل التقاتل والتحاقد والصراع[٦٧٦].

ولم يفلت عمرو بن جحاش من طائلة العقاب اذ سرعان ما امر الرسول ابن يامين بن عمير – الذي اعلن اسلامه خلال فترة الحصار – ان يدبر امر اغتياله فاجابه انا اكفيكه يا رسول الله ، وما لبث ان اتصل برجل من قيس واعطاه عشرة دنانير لقاء تعهده بقتل ابن جحاش ، فادى الاعرابي المهمة ، وعاد ابن يامين لكي يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقضاء على الخائن[٦٧٧].

وهكذا تم اجلاء طائفة اخرى من اليهود بسبب خرقها الميثاق وخفرها الذمة وخيانتها الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولقد جاء انتصار المسلمين هذا في اعقاب محنتهم في احد وفجيعتهم في حادثتي الرجيع وبئر معونة ، ومن ثم تولوا زمام المبادرة ثانية ، وتغير بانتصارهم هذا مجرى الاحداث ، ونزلت – بعد قليل – سورة باكملها هي سورة (الحشر) تعرض لظروف هذا الحدث الخطير ، وتعلق على مجرياته ونتائجه التي ما كانت لتحدث هكذا لولا ارادة الله : {**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللهِ فَأَتَاهُمْ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ(٢) وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ**}[٦٧٨].

وان كان ثمة شيء يزاد على روايات التاريخ فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الاية الرابعة من السورة الانفة : {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقَّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**}.

---

(٦٧٦) ابن هشام ، ص ٢٠٢–٢٠٥ – الطبري : تاريخ ٥٥٠/٢–٥٥٥ ، ابن سعد ٤٠/١/٢–٤٢ ، الواقدي ٣٦٣/١–٣٨٠ ، اليعقوبي ٤٠/٢ ، ابن الاثير : الكامل ١٧٣/٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ١٨/١–١٩، انساب ٣٣٩/١ ، ابن حزم : جوامع السيرة ، ص ١٨١–١٨٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧٤/٤–٨٠ ، المقدسي ٢١٢/٤–٢١٣.

(٦٧٧) الواقدي : ٣٧٣/١–٣٧٤.

(٦٧٨) ابن هشام ، ص ٢٠٥ ، الواقدي ٣٨٠/١–٣٨٣ وعن الآيات المتعلقة باجلاء بني النضير ، انظر سورة الحشر : (الآيات ٢–٧–١١–١٧).

اذ يصح ان يقال ان محاولة بني النضير اغتيال النبي انما كانت سببا مباشرا ، وانه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من اجلها التنكيل[٦٧٩].

[6]

لم يشأ زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر ان يظلوا ساكتين ازاء هزيمتهم وامتداد الاسلام الى كل مكان ، وتدارسوا الامر فراوا ان احد اكبر الاسباب في الهزائم التي مني بها اعداء الاسلام من الوثنيين واليهود هي قتالهم المسلمين كل على انفراد ، الامر الذي مكن هؤلاء من تصفية خصومهم وتحقيق الانتصارات المتتالية عليهم ، واذن فان خير اسلوب لتفادي الهزيمة كرة اخرى هي ان يسعوا لتشكيل حلف قوي يضم كافة القوى الوثنية واليهودية وتوجيه ضربة مشتركة للاسلام لا تقوم له بعدها قائمة. وسرعان ما انطلق نفر منهم على راسهم سلام بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب وكنانة بن ابي الحقيق ، وغيرهم للاتصال بقريش وغطفان وبقية القبائل الوثنية الكبرى واقناعهم جميعا بالفكرة التي توصلوا اليها. وعندما قدموا على قريش ودعوها الى حرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : انا سنكون معكم حتى نستأصله ، ارادت قريش ان تستوثق من خطة اليهود فسالت حييا عن قومه من بني النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تاتوهم فتسيروا معهم الى محمد واصحابه. فسألوه عن بني قريظة فقال : اقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تاتوهم فيميلوا معكم. وتساءل بعض رجالات قريش : يا معشر اليهود ، انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، افديننا خير ام دينه ؟ اجاب اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه. كان اليهود مستعدين لان يزيفوا كل شيء ويتجاوزوا منطقهم الديني نفسه في سبيل التودد الى الوثنية وتحريكها لضرب الاسلام. ولقد نجحوا في هذا السبيل ، بعد ان اتصلوا بالقبائل العربية الاخرى ، ، وانطلق الاحزاب في هجوم شامل على المدينة لاستئصال الاسلام[٦٨٠].

ولقد ادرك زعماء بني النضير ان هدفهم لن يكسب ضمانه النهائي الا باقناع يهود بني قريظة في يثرب ، اولئك الذين كانوا لا يزالون ملتزمين بميثاقهم مع الرسول (صلى الله عليه

---

(٦٧٩) دروزة : عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ١٩٨/٢.

(٦٨٠) ابن هشام ، ص ٢١١-٢١٢ ، الواقدي : ٤٤١/٢-٤٤٢ ، وانظر : الشريف : مكة والمدينة ، ص ٤٥٥.

وسلم) ، بالتمرد على التزامهم والانضواء الى صفوف الاحزاب ، والعمل سوية على توجيه الضربة القاصمة للعدو المشترك. فانطلق حيي بن اخطب[٦٨١] ، وقد حوصرت المدينة ، الى حصون بني قريظة القابعة الى الجنوب منها ، وقصد زعيمها كعب بن اسد. فلما سمع هذا بقدوم حيي اغلق دونه باب حصنه تجنبا للمشاكل والتزاما بعهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فاستاذنه حيي بالدخول عليه فابى ان يفتح له ، فناداه حيي محاولا اقناعه بما جاء من اجله : ويحك يا كعب .. افتح لي. اجابه كعب : ويحك يا حيي ، انك امرؤ مشؤوم واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه الا وفاءً وصدقاً. قال حيي : ويحك افتح لي اكلمك. اجاب كعب : ما انا بفاعل. قال حيي مستفزا رفيقه : (والله ان اغلقت الحصن دوني الا على جشيشتك[٦٨٢] ان اكل منها معك) فاضطر كعب الى ان يفتح له.

وما ان دخل زعيم بني النضير حتى بادر رفيقه قائلا : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ويبحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بجانب احد ، وقد عاهدوني وعاقدوني على ان لا يبارحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه. اجابه كعب وهو يخمن المصير الذي ينتظره وقومه اذا ما تمردوا على العهد : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد اهراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي فدعني وما انا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يخاتله ويراوغه ويمنيه حتى اجابه كعب بعد ان شرط عليه انه اذا ما عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا دخل معه حصنه حتى يصيبه ما اصابه. وعند ذلك قام كعب بنقض العهد واعلن براءته مما كان بينه وبين محمد (صلى الله عليه وسلم)[٦٨٣].

عندما بلغت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انباء نقض بني قريظة عهدها معه بعث سعد ابن معاذ سيد الاوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج واخرين وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا احق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ام لا ؟ فتوجه هؤلاء الى حصون قريظة وسالوهم عما بلغهم عنهم ، فما كان جوابهم الا ان قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وعندما

---

(٦٨١) يذكر ابن سعد ٤٨/١/٢ بان أبا سفيان هو الذي دس حييّاً الى بني قريظة كي ينقضوا عهدهم ، ويذهب الواقدي الى ما ذهب اليه ابن سعد : المغازي ٤٥٤/٢-٤٥٥.

(٦٨٢) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظا.

(٦٨٣) ابن هشام ، ص ٢١٤-٢١٥ ، الطبري : تاريخ ٥٧١/٢-٥٧٢ ، الواقدي ٤٥٤/٢-٤٥٧.

عنفهم سعد بن معاذ شتموه ! وعاد الرجال لكي يخبروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن صحة ما ورده من انباء زادت المسلمين بلاء على بلاء[٦٨٤].

وسرعان ما همت بنو قريظة في القيام بهجوم ليلي على قلب المدينة ، وارسل زعماؤها حيي بن اخطب الى معسكر قريش لكي ياتي بالفي رجل منها ومن غطفان يستعينون بهم على هذا الهجوم ، الامر الذي دفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى تجريد كتيبتين من خمسمائة فارس لحراسة المدينة والطواف في احيائها ورفع معنويات اهاليها. ويحدثنا ابو بكر الصديق (رضي الله عنه) فيقول : ((لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة اشد من خوفنا من قريش وغطفان .. فكان مما رد الله به بني قريظة عما ارادوا ان المدينة كانت تحرس))[٦٨٥]. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يبعث العيون من جهته الى بني قريظة لكي يجيئوه باماكن خللهم ونقاط ضعفهم[٦٨٦] وقد تمكن عشرة من اشداء اليهود من التسلل يوما الى اطراف المدينة فتصدى لهم نفر من المسلمين واشتبكوا معهم في قتال بالنبال اسفر عن تراجع اليهود واحتمائهم بحصونهم ، وسيطر الرعب عليهم ((فلم يقدروا ان يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفا شديدا))[٦٨٧].

وصمد المسلمون لمحنة (الاحزاب) وتمكنوا من دحر اخطر هجوم في تاريخ دعوتهم ، فتفككت عرى الاحزاب وقفلت عائدة الى ديارها ، وحان الوقت لانزال العقاب العادل بالجماعة اليهودية التي نقضت العهد في اخطر ساعة عاشها المسلمون. جاء جبريل (عليه السلام) الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسأله : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ اجاب الرسول : نعم. فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الان الا من طلب القوم. ان الله (عز وجل) يأمرك يا محمد بالمسير الى بني قريظة ، فاني عامد اليهم فمزلزل بهم. فامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) موذناً يؤذن في الناس (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببني قريظة)[٦٨٨] ، اسراعا بالمسلمين الى هدفهم واستنهاضا لهم بعد الجهد والعناء الذي اصابهم خلال ايام الحصار الشاقة.

---

(٦٨٤) ابن هشام ، ص ٢١٥ ، الطبري : تاريخ ٥٧٢/٢ ، الواقدي ٤٥٧/٢-٤٥٩.

(٦٨٥) الواقدي ، ٤٦٠/٢.

(٦٨٦) المصدر السابق ، ٤٦١/٢-٤٦٢.

(٦٨٧) المصدر السابق ، ٤٦٢/٢.

(٦٨٨) ابن هشام ، ص ٢٢٣ ، الطبري : تاريخ ٥٨١/٢ ، ابن سعد ٥٣/١/٢-٥٥ ، الواقدي : ٤٩٦/٢-٤٩٩، البلاذري : انساب ٣٤٧/١-٣٤٨.

لقد ادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) بثاقب فكره اهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال ، فلو انه ابطأ في حركته هذه لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائهم ، او اقناع اليهود الاخرين بمعاونتهم ، او التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتدعيهم قوتهم ، ولكان بامكانهم اكمال قضاياهم الادارية التي يحتاجونها في القتال حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم اطول مدة ممكنة. ولكن اسراع الرسول لتطويقهم حال بين اليهود وبين كل ذلك ، اذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الاكيد لانسحاب الاحزاب ليسبقوا النظر في اعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين ، بل ان حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافي لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم ، كما لم تترك لهم الوقت الكافي لتنظيم اي خطة على الاطلاق .. كما ان حركة المسلمين مبكرا شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم(٦٨٩).

ومما يزيد في قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الاحزاب ، لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم مدة حوالي شهر في موقف عصيب يحطم اعصاب الشجعان ، وكان الطقس باردا وقد تحملوا البرد في العراء وقتا طويلا اثناء حصارهم فلما انسحبت الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة. وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ماهي امكانيات اعاشتهم مثلا وهي اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ ان عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الاسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعو الى الاعجاب والتقدير(٦٩٠).

استمر الحصار خمسا وعشرين ليلة وبدأ الرعب يتسرب الى قلوب اليهود ، وادركوا الا قدرة لهم على الصمود حتى النهاية. ولما ايقن زعيمهم كعب بن اسد ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) غير منصرف عنهم حتى ينزل بهم عقابه ، عرض على قومه حلولا عدة علها تخلصهم من المأزق الذي اوقعوا انفسهم فيه فقال : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الامر ما ترون ، واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا ايها شئتم. قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم انه نبي مرسل ، وانه للذي تجدونه في كتابكم ، فتامنون على دمائكم واموالكم وابنائكم ونسائكم قالوا : لا نفارق حكم التوراة ابدا ، ولا نستبدل به غيره. قال : اذا ابيتم علي هذه فهلم فلنقتل ابناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد واصحابه رجالا مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا

---

(٦٨٩) شيت خطاب : الرسول القائد ، ص ١٦٧.

(٦٩٠) المرجع السابق ، ص ١٦٨.

نخشى عليه ، وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والابناء. قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟ قال: فان ابيتم علي هذه فان الليلة ليلة السبت ، وانه عسى ان يكون محمد واصحابه قد امنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد واصحابه غرة. قالوا : نفسد علينا سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت ، فاصابه ما لم يخف عليك من المسخ؟ وقال نباش بن قيس ، احد زعمائهم : وكيف نصيب منهم غرة وانت ترى امرهم كل يوم يشتد ، كانوا اول ما يحاصروننا انما يقاتلون بالنهار ويرجعون بالليل ... فهم الان يبيتون الليل ويظلون النهار ، فاي غرة نصيب منهم ؟ قال كعب : ما بات رجل منكم ، منذ ولدته امه ، ليلة من الدهر حازما. ومن ثم اعلن اليهود نزولهم على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم[٦٩١].

عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى سعد بن معاذ ، زعيم الاوس ، وقد كان بنو قريظة مواليهم ، باصدار الحكم. وكان سعد آنذاك يمرض من جراحه التي اصابته في معركة الخندق تشرف على تمريضه في المسجد امراة تدعى رفيدة كات تداوي الجرحى ، وتتولى رعاية من لا أهل له من المقاتلين. فجاء به قومه يحملونه وهم يقولون : يا أبا عمرو احسن في مواليك، فان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما الحوا عليه قال : لقد ان لسعد الا تاخذه في الله لومة لائم ، ثم اصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين ، وتقسيم الاموال ، وسبي الذراري والنساء ، فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا ان قال له (لقد حكمت فيهم بحكم الله – من فوق سبع سماوات – وحكم رسوله)[٦٩٢]!!.

لم يكن رجال بني قريظة سوى مجرمي حرب ، وفق قوانين القتال المعاصرة ، نقضوا العهد ، وانضموا الى الاعداء والحرب قائمة بين المسلمين والاحزاب. فكان نقضهم خيانة عظمى، ولم يكن عقابهم العادل المكافىء لفعلتهم سوى القتل. وقد انزلوا من حصونهم مقرنين في الاصفاد ، وحفرت لهم الخنادق ، ثم جيء بهم فوجا فوجا حيث لاقوا مصيرهم ودفنوا هناك ، وبلغ عددهم بين الستمائة والسبعمائة رجل فيهم سيدهم كعب بن اسد وحيي بن اخطب ، زعيم بني النضير الذي كان لجأ الى حصون بني قريظة بعد انسحاب الاحزاب ، وامراة كانت قد ألقت

---

(٦٩١) ابن هشام ، ص ٢٢٥ ، الطبري : تاريخ ٥٨٣/٢–٥٨٤ ، الواقدي ٥٠١/٢–٥٠٣ ، ابن الاثير : الكامل ١٨٥/٢–١٨٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ٢١٨/١–٢٢٠.

(٦٩٢) ابن هشام ، ٢٢٦–٢٢٨ ، الطبري : تاريخ ٥٨٦/٢–٥٨٨ ، ابن سعد ٥٤/١/٢ ، الواقدي : ٥١٠/٢–٥١٢ ، اليعقوبي ٤٣/٢ ، البلاذري : فتوح ٢٣/١–٢٤ ، انساب ٣٤٧/١ ، البخاري : تجريد ٨٢/٢–٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٦/٤–١٢٦.

– خلال الحصار – رحى على مسلم يدعى خلاد ابن سويد فقتلته. وما ان تم تنفيذ الحكم برجال بني قريظة حتى انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدا[٦٩٣] بعد ان استجاب ربه لدعائه يوم جرح في معارك الخندق ((اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فابقني لها فانه لا قوم احب الي ان اجاهدهم من قوم اذوا رسولك وكذبوه واخرجوه. اللهم وان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة))[٦٩٤].

وبفتح حصون بني قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية في المدينة اختارت بنفسها – كسابقاتها – ان تقف من الاسلام موقف الحقد والعداء ، وان تنقض ميثاقها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليستخدم اسلوب العقاب الجماعي ازاء اليهود الذين لم يروا منه – كما قال سيدهم كعب بن اسد – الا وفاء وصدقا. فكان لا يعاقب الا القبائل التي نقضت عهدها معه تاركا القبائل الاخرى تمارس حريتها الدينية والمدنية كاملة مادامت على عهدها. وهكذا لم تؤد حادثة سوق الصاغة الا الى اجلاء مسببيها من بني قينقاع ، كما لم تؤد محاولة اغتياله الا الى طرد القائمين بها من بني النضير ، ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ، ولم تمارس خيانتها الخطيرة في معركة الخندق لكان لها شان اخر غير المصير الذي انتهت اليه ، هذا فضلا عن ان العقاب الذي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينزله بخصومه اليهود كان يجيء دوما مكافئا لحجم الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية ، اذ سمح لكل من بني قينقاع وبني النضير بالخروج الى اي مكان يشاؤون داخل الجزيرة ام خارجها ، بعد ان حقن دماءهم ولم يستخدم اسلوب القتل الا ازاء اولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب وتعاونوا مع الاعداء ، وهو العقاب الذي تمارسه جميع القوانين. اما اليهود ، كافراد لا ينتمون الى هذه الكتلة وتلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري ، فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسول بدليل انه توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند واحد من هؤلاء!!

---

(٦٩٣) ابن هشام ، ص ٢٢٨–٢٢٩ ، ٢٣٢ ، الطبري : تاريخ ٢/٥٨٨–٥٨٩ ، ٥٩٢ ، الواقدي : ٢/٥١٣–٥١٨ ، السمهودي ، وفاء الوفا ١/٢٢٠–٢٢٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٤/١٢٦–١٣٠.

(٦٩٤) الطبري ، تاريخ ٢/٥٧٥ ، ابن سعد ٢/١/٥٦ ، الواقدي ٢/٥١٢ ، ٥٢٥.

[7]

راح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينتظر الفرصة المؤاتية لضرب التجمع اليهودي السياسي الاخير في خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارسه ضد الاسلام. فمنها انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين ، ومنها خرج حيي بن اخطب ودفع بني قريظة الى الانتفاض في اللحظات العصيبة. وقد غدت خيبر بمرور الايام ملجا ياوي اليه اليهود المبعدون عن المدينة ، يبتظرون الفرصة للانتقام من الاسلام ، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها ، وقد اتضح هذا في الايام القلائل التي اعقبت هزيمة بني قريظة ، اذ بلغت خيبر انباء هزيمة قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسالوه الراي فاجابهم : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ، ولا نستعين باحد من العرب ، فقد رايتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب .. ثم نسير اليه في عقر داره. فقالت اليهود : هذا الرأي[٦٩٥]. ولكن بعض الزعماء عارضة في الاقدام على مجازفة كهذه غير مامونة النتيجة. وفضلا عن هذا كله فان يهود خيبر كانوا السبب في خروج سرية يقودها علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) اواخر العام السادس الهجري ، كانت وجهتها فدك حيث يقطن حي من بني سعد بن بكر كانوا قد سعوا الى مد ايديهم لاولئك اليهود لقاء ان يمنحوهم جزءا من ثمار خيبر[٦٩٦].

وها هم الآن يتحالفون مع غطفان في محاولة جديدة ضد المدينة. وقد علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما يدور في خلدهم فاخذ يتهيا لقتالهم ويمهد لذلك بارسال مجموعات من فدائيي الانصار لاغتيال بعض قادة اليهود هناك كسلام بن ابي الحقيق واسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول اهل خيبر في حرب مع المسلمين[٦٩٧]. ويحدثنا عبد الله بن عتيك امير السرية الانصارية ذات الرجال الخمسة والتي كلفها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهمة قتل الزعيم اليهودي فيقول : ((لما

---

(٦٩٥) الواقدي ، ٢/٥٣٠-٥٣١.

(٦٩٦) الطبري ، تاريخ ٢/٦٤٢ ، ابن سعد ٢/١/٦٥.

(٦٩٧) ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٥٧-١٥٨.

دنونا من الحصن وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قلت لاصحابي : اجلسوا مكانكم فاني سانطلق واتلطف الى البواب لعلي ادخل)) ..

ثم اقبل حتى اذا دنا من الباب تقنع بثوبه كانه يقضي حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : ان كنت تريد ان تدخل فادخل فاني اريد ان اغلق الباب .. فتناول المفاتيح التي كان البواب قد علقها على وتد هناك ثم اتجه الى حيث يقيم سلام بن مشكم الملقب بابي رافع .. ((كان ابو رافع يسمر في علالي ، فلما ذهب عنه اهل سمره صعدت اليه ، فجعلت كلما فتحت بابا اغلقته علي من داخل .. حتى انتهيت اليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا ادري اين هو من البيت ؟ قلت : ابا رافع ؟ قال : من هذا ؟ فاهويت نحو الصوت اضربه بالسيف ، فما اغنى شيئا وصاح ، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت اليه وقلت : ما هذا الصوت يا ابا رافع ؟ قال : لامك الويل ، ان رجلا بالبيت ضربني بالسيف ، فانقضت عليه ووضعت حد السيف في بطنه حتى اخرجته من ظهره ، فعرفت اني قد قتلته وجعلت افتح الابواب بابا فبابا ، حتى انتهيت الى الارض ، فوقعت فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامتي ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت : والله لا ارجع الليلة حتى اعلم اقتلته ام لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور ينعي ابا رافع ، فانطلقت الى اصحابي وقلت : النجاء .. قد قتل الله ابا رافع)) .. وقفل عبد الله بن عتيك ورفاته عائدين الى المدينة ليخبروا الرسول بالمهمة التي انجزوها[٦٩٨]. وبعد ابي رافع جاء دور اسير بن رزام حيث ندب له الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثين رجلا بقيادة عبد الله بن رواحة ، فاستدرجوه وعددا من اصحابه واحتالوا عليهم وقتلوا اميرهم اسير ومعظم اصحابه. ثم قفلوا عائدين الى المدينة دون ان يفقدوا احدا[٦٩٩]!!

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد عقد صلح الحديبية مع قريش في اواخر السنة السادسة للهجرة وامن – بموجبه – جانبها ، ووجد الفرصة سانحة لتوجيه نشاطه صوب الشمال حيث يقبع الخطر اليهودي الذي لا يكف عن التامر والعدوان متمثلا بخيبر والمواقع المجاورة ،

---

(٦٩٨) انظر بالتفصيل الطبري ، تاريخ ٤٨٣/٢-٤٩٠ ، الواقدي ٣٩١/١ ، ابن سعد ٦٦/١/٢ ، البلاذري : انساب ٣٧٦/١ ، البخاري : تجريد ٨٠/٢ ، ابن الاثير : الكامل ١٤٦/٢-١٤٨ ، ابن حزم : جوامع السيرة ، ص ١٩٨-٢٠٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٤-١٤٠ ، ويلاحظ ان هذه المصادر لا تتفق في تحديد تاريخ هذه الحادثة فبعضهم يجعلها قبل الخندق وبعضهم الآخر يجعلها بعدها الا ان المرجح – كما يبدو من سياق الاحداث – ان ذلك حدث بعد معركة الخندق.

(٦٩٩) ابن سعد ، ٦٧/١/٢.

وما لبث (صلى الله عليه وسلم) بعد اسابيع من عودته الى المدينة ان انطلق (مطلع السنة السابعة) ، صوب خيبر على راس حملة استنفر لها الراغبين في الجهاد فحسب دون الغنائم. ذلك ان يهود خيبر كانوا اقوى الطوائف اليهودية باسا واعظمها دربة على القتال ، ولذلك وقفت شبه الجزيرة كلها متطلعة الى هذه الغزوة. وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين[٧٠٠]، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يدرك انه لو فشل امام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة اعادت لاعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله ، وحالت دون اتمام الوحدة التي يعمل لها النبي ويسعى اليها ، لذلك كان يريد جيشا مؤمنا باهدافه مقدرا للظروف .. يريد سيوفا تحركها قوة النفس لا جشعها ، وكان جيش محمد كما اراده ، قليلا بعدده كثيرا بايمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لاهدافهم[٧٠١]. ويذكر المقريزي ان عدد المسلمين الذين توجهوا الى خيبر كانوا الفا واربعمائة مقاتل يصحبهم مائتا فرس[٧٠٢] ، ربما اعتمادا على عددهم يوم الحديبية القريب ، كما اسهم في الخروج عدد من النسوة ، خرجن ليداوين الجرحى وينسجن الملابس ويهيئن الطعام.

جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) هدفه اول الامر السيطرة على الطريق الواصل بين خيبر وغطفان ليحول بين هؤلاء وبين ان يمدوا حلفاءهم في خيبر. وكان بنو غطفان ، لدى سماعهم بتوجه الرسول الى خيبر ، قد خرجوا ليساندوا اليهود ضده لقاء نصف ثمار خيبر لذلك العام ، فاضطرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) للعودة الى ديارهم بعد ان اوهمهم ان هجومه متجه اليهم ، ومن ثم انفرد بخيبر وباغتها فجرا حيث كان اهلوها ورجالها قد خرجوا الى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما راوا الرسول (صلى الله علي وسلم) يقود جيش المسلمين تمالكهم الخوف ونادوا (محمد والخميس) وهربوا لائذين بحصونهم ، وهيؤوا انفسهم لحصار طويل ، فنادى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ملقيا مزيدا من الرعب في قلوبهم : (الله اكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[٧٠٣].

كانت خطة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الاستيلاء على حصون اليهود المنيعة في خيبر تتلخّص بمشاغلة بعضها بقوات صغيرة ، وتركيز الهجوم على حصن واحد بقواته

---

(٧٠٠) انظر ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٦٢.

(٧٠١) الشريف ، مكة المدينة ، ص ٤٩٥-٤٩٨.

(٧٠٢) امتاع الاسماع ، ٣٢٧/١.

(٧٠٣) ابن هشام ، ص ٢٥٩-٢٦١ ، الطبري تاريخ ٩/٣ ، ابن سعد ٧٧/١/٢ الواقدي ٦٣٤/٢-٦٤٣.

الرئيسية حتى يتم له الاستيلاء على الحصن ثم ينتقل بهجومه المركز الى حصن اخر ، كما انه قسم قواته الى اقسام بالنسبة الى قبائلها وبطونها ، وجعل لكل قسم قائدا حتى يشتد التنافس بين القوات ولكي يقوم بعضها بالمشاغلة بينما ياخذ الباقي قسطا من الراحة ليستانف القتال مرتاحا عند الحاجة. ان هذه الخطة تتفق مع احدث الخطط العسكرية الحديثة في قتال المدن والاحراش، ولو انه قام بالقتال باسلوب الكر والفر او باسلوب الصفوف في مثل هذا الموقف لما كتب للمسلمين النصر[٧٠٤].

وبدأ الهجوم ، وراحت حصون خيبر الممتدة في المنطقة على شكل سلاسل والمنقسمة الى ثلاث مناطق هي : النطاة والشق والكتيبة[٧٠٥] يدافع عنها زهاء عشرة الاف مقاتل[٧٠٦] تسقط بأيدي المسلمين حصنا بعد حصن ، وكان اولها سلاسل حصون ناعم والقموص ، وراح عدد من المدافعين يتسللون هاربين من حصونهم ، واتصل بعضهم بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ودله على نقاط الضعف في مواقع اليهود. ومن اجل ان يعجل الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب المعركة حض اصحابه على الجهاد واخبرهم ان اليهود قد اسلمها حلفاؤها وهربوا ، وانها قد تجادلت واختلفت فيما بينها فزاد من ثقة المسلمين بالنصر. وكان اخر الحصون مقاومة للمسلمين سلاسل الوطيح والسلالم وقلعة الزبير حيث عصى اليهود وظلوا يقاومون بضعا وعشرين ليلة جرت خلالها مبارزات فردية بين فرسان الفريقين وهجمات عديدة قادها كبار الصحابة وسقط فيها ما يقرب من مائة قتيل يهودي وخمسة عشر مسلما ، حتى اذا ايقن المدافعون بالهلكة سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يجليهم عن المنطقة وان يحقن دماءهم فاجابهم الى طلبهم ، فلما نزلوا اليه عرضوا عليه ان يبقيهم في ارضهم لقاء ان يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم فوافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) على العرض تقديرا منه لامكاناتهم الزراعية ورغبة منه في الافادة من اية طاقة في اعمار الاراضي واستثمارها الا انه بين لهم ان موافقته هذه غير

---

(٧٠٤) شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٧٠٥) انظر ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١٩٦.

(٧٠٦) يخطىء اليعقوبي ، ٤٦/٢ في جعلهم عشرين الفا وهو يمارس المبالغة وعدم الدقة في اكثر من موضع.

ملزمة الى الابد (فانا ان شئنا ان نخرجكم اخرجناكم) لما يعرفه عن طبع اليهود من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز اية فرصة تسنح للغدر والخيانة[٧٠٧].

ويزيد ولفنسون مسألة معاملة يهود خيبر وضوحا فيبين ان خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها من الحدائق والمزارع ما يحتاج للايدي الكثيرة التي مارست اشغال الزراعة والفلاحة ، ولم يكن من العرب من مارس ذلك الا النزر اليسير. وفوق ذلك لم يرض الرسول ان يترك من انصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها لاحتياجه اليهم في الاعمال الحربية ، ولم يكن في الامكان ترك هذه الارض الخصبة بورا لا تنتج زرعا ولا ثمرا والدولة الاسلامية الناشئة كانت في اشد الحاجة الى الاموال الكثيرة ، فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الارض وينتجوا منها الزرع والثمر ، ولذا كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين اكثر منها في جانب المغلوبين ، وما دامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في اراضيهم[٧٠٨].

وهناك امر يستوقف النظر وهو انه كان بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها امر النبي بتسليمها لهم. ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبي بالبنان حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة. ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على اورشليم وفتحوها سنة (٦٠ ب.م) اذ احرقوا الكتب المقدسة وداسوها بارجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حين احرقوا ايضا صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام[٧٠٩].

لكن اليهود تناسوا ، بعد قليل ، هذه المواقف السمحة ، العادلة ازاءهم ، وسعوا الى الثأر لأنفسهم كلما سنحت الفرصة لهم بذلك. كانت اولى المحاولات ما تم على يد زينب ابنة الحارث، زوجة سلام بن مشكم ، اذ اهدت للرسول شاة مشوية نثرت فيها السم ، فلما مضغ من ذراعها

---

(٧٠٧) ابن هشام ، ص ٢٦١-٢٦٤ ، الطبري : تاريخ ٣/١٠-١٥ ، ٢٠-٢١ ابن سعد ٢/١/٨٠ الواقدي ٢/٦٤٣-٦٧٧ ، ٦٩٠-٦٩١ ، البلاذري : فتوح ١/٢٥-٢٦ ، انساب ١/٣٥٢ ، وانظر المقريزي : امتاع الاسماع ١/٣١٠-٣٣٢.

(٧٠٨) تاريخ اليهود ، ص ١٦٩.

(٧٠٩) نفسه ، ص ١٧٠.

مضغة لم يسغها ولفظها قائلا : ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم. وكان بشر بن البراء قد اكل هو الاخر فمات بعد قليل ، وجيء بالجانية فاعترفت وقالت للرسول (صلى الله عليه وسلم) : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها الرسول[٧١٠] وقيل انه قتلها[٧١١]. ويذكر الواقدي[٧١٢] وعدد اخر من المؤرخين ان وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي جاءت بعد ثلاث سنوات كانت بسبب السم الذي دس له يوم خيبر[٧١٣] ، وهو احتمال ضعيف بعد مرور هذه المدة الطويلة.

بعد فترة قصيرة قام يهود خيبر باغتيال عبد الله بن سهل الانصاري ، الا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبا بكر (رضي الله عنه) ، من بعده ، ابقياهم على ما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد اشترط عليهم ، سيما وانهما – كما يقول ابن سعد – لم يكن لهما من العمال ما يكفون عمل الارض[٧١٤]. وعندما تولى عمر (رضي الله عنه) الخلافة وبلغته انباء اغتيال المسلم من قبل يهود خيبر واعتدائهم على عبد الله بن عمر ، وكثر عمال المسلمين وتقووا على استثمار الارض ، وتنفيذا لحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم وفاته : الا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، اصدر انذاره الى يهود خيبر ((ان من كان عنده عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلياتني به انفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء)) ، ومن ثم قام باجلاء عدد من يهود خيبر وقسم اموالهم على المسلمين[٧١٥].

---

(٧١٠) ابن هشام ، ص ٢٦٤–٢٦٥ ، الطبري : تاريخ ٣/١٥ – ١٦ ، الواقدي ٢/٦٧٧–٦٧٩.

(٧١١) ابن سعد ، ٢/١/٧٨.

(٧١٢) المغازي ، ٢/٦٧٨–٦٧٩.

(٧١٣) انظر المسعودي : الاشراف والتنبيه ، ص ٢٢٣–٢٢٤.

(٧١٤) الطبقات الكبرى ، ٢/١/٨٢–٨٣.

(٧١٥) الواقدي ، ٢/٧١٣–٧٢١ ، ابن سعد ٢/١/٨٣ ، الطبري : تاريخ ٣/٢٠–٢١ ، البلاذري : فتوح ١/٢٥، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ، ٤٠. ويذكر ولفنسون (تاريخ اليهود ص ١٨٣) ان عمر (رضي الله عنه) لم يتعرض ليهود وادي القرى وتيماء بسوء وانه يؤخذ من هذا ان اهاليها كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة باخراجهم من بلادهم. كما يذكر انه بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادي عشر ، وكذلك وجدت طوائف منهم في جهات تيماء في الثاني عشر ... اما في بلاد اليمن فقد بقي اليهود طوال العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من اطراف الجزيرة الى ايامنا هذه (المصدر السابق ص ١٨٦) وعن فتح خيبر ومسالة اخراج اليهود من الجزيرة انظر كذلك كتاب الخراج لابي يوسف ، ص ٢٩ وكتاب الاموال لابي عبيد ، ص ٩٩ وابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٨١–٢٢٠.

ونحن لا نستطيع ان ندرك مغزى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا اذا عدنا باذهاننا الى الوراء ، الى السنة التاسعة للهجرة ، حيث نزلت آيات براءة تعلن انهاء الوجود الوثني في جزيرة العرب. وقلنا هناك ان الضرورتين الاستراتيجية والحضارية هما اللتان دفعتا الى اتخاذ هذا الموقف ، ومن ثم يجيء تأكيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أخريات حياته (ألاّ يجتمع دينان في الجزيرة) ، ضمانة اخرى بصدد تعزيز الاستراتيجية الاسلامية التي رسمها (صلى الله عليه وسلم) واستهدف منها جعل جزيرة العرب قاعدة اسلامية خالصة مهياة لانطلاق اتباعه برسالته الى العالم كله ، وهم قد امنوا على ظهورهم من طعنات اتباع الديانات الاخرى في قلب بلادهم ، ومن السموم التي يمكن ان تنفثها جيوبهم المنبثة هناك ، والتي لم تكن حركات الردة والتنبؤ باقلها خطرا .. وهذا الموقف لا يتعارض مع بقاء بعض التجمعات اليهودية المسالمة التي لا تملك تاثيرا كبيرا في بعض مناطق الجزيرة والتي كانت تربطها مع الرسول صلى الله عليه وسلم عهود خاصة.

لما سمع يهود فدك ، القرية اليهودية المجاورة ، بما حل برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة بعثوا الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة اراضيهم[٧١٦]. اما وادي القرى فقد ظلت عاصية ، فتوجه اليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفرض الحصار عليها ، ودعا اهاليها الى الاسلام ، واخبرهم انهم ان اسلموا احرزوا اموالهم وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله ، ولكنهم ابوا واصروا على القتال ، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة ، والرسول يعرض عليهم الاسلام وهم يابون مما دفعه الى تشديد الحصار عليهم حيث تمكن بعد قليل من فتح بلدهم عنوة ، وبقي هناك اربعة ايام قسم خلالها الغنائم على اصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها. ولما بلغت يهود تيماء انباء الانتصارات الاسلامية صالحوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الجزية واقاموا في بلدهم[٧١٧].

[8]

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية اخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الاسلام وخصومته ، ووضع العوائق في طريقه ، وحبك المؤامرات ضده ، وقضى قضاء تاما

---

(٧١٦) الواقدي ، ٧٠٦/٢-٧٠٧ ، البلاذري : فتوح ٣٣/١ خليفة بن خياط : تاريخ ٤٧/١-٤٨.

(٧١٧) الواقدي ، ٧٠٩/٢-٧١١ ، البلاذري : فتوح ٣٩/١-٤٠ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ٢٢٤-٢٢٥.

على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز ، وغدت كلمة الاسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية ، وكبتت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسد هذه الدولة التي يحيط بها الاعداء من كل مكان.

ويذكر ابن سعد ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) نشط في نفس العام (٧هـ) في الكتابة الى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في اقصى الشمال لتحديد موقفها من الاسلام. فبعث الى بني جنبة بمقنا القريبة من ايلة على خليج العقبة (أما بعد ، فقد نزل علي رسلكم ، راجعين الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم امنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى ، وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه .. وان عليكم .. ربع ما اخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم وانكم برئتم – بعد – من كل جزية او سخرة. فان سمعتم واطعتم فان على رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .. وان ليس عليكم امير الا من انفسكم او من اهل رسول الله ...) ، وكتب لجماعة اخرى من اليهود تدعى بني غاديا (.. ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ..) كما كتب لبني عريض كتابا اخر يحدد فيه ما عليهم ان يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم اياهم[٧١٨].

وكتب لاهل جرباء واذرح من اليهود ، (انهم آمنون بامان الله وامان محمد ، وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجا اليهم من المسلمين)[٧١٩]. وبذلك تمكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تحويل هذه التجمعات اليهودية في اقصى الشمال الى جماعات من المواطنين في الدولة الاسلامية ، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية او عينية ، ، ويحتمون بقوتها وسلطانها ، ويتمتعون بعدلها وسماحتها.

ولقد ظل اليهود بعدئذ ، كمواطنين وليسوا كتلا سياسية او عسكرية ، يمارسون حقوقهم في اطار الدولة الاسلامية ، لا يمسهم احد بسوء ، وعاد بعضهم الى المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة ابن هشام وفي مغازي الواقدي. وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر

---

(٧١٨) الطبقات الكبرى ، ١/٢/٢٨-٣٠.

(٧١٩) المصدر السابق ، ١/٢/٣٧-٣٨.

بروح التسامح ، حتى انه اوصى عامله معاذ بن جبل (بالا يفتن اليهود عن يهوديتهم). وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين ابائهم .. واهم من كل ذلك تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لال بني حنينة الخيبرية واهل مقنا كما منح الرسول اسرا غير قليلة من اهل خيبر حقوقا لم يمنحها لبقية اليهود ، ما عدا الاقرار على الاراضي وابقاءه لهم نصف الثمار – فان هذا كان من حق كل يهود خيبر – وقد نص على ذلك ابن هشام والبخاري(٧٢٠).

ومضت السنون الاخيرة من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشارا ، لكنه ما ان توفي (صلى الله عليه وسلم) حتى وجد اليهود المبعثرون في الجزيرة وبلاد العراق والشام بغيتهم المنشودة والتقوا بيومهم الموعود ، فراحوا يتكالبون ، كما تكالب غيرهم من اعداء الاسلام ، ضد الدولة التي مات قائدها ومؤسسها ، فليس من طبع المنهزمين عامة ، واليهود على وجه الخصوص ، ان يسكتوا على هزائمهم وهم لابد ان يسعوا معتمدين اي اسلوب ، لا سترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردوا منها ، وليس ادل في هذا المجال من حديث عائشة رضي الله عنها حيث تقول : (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على ابي بكر)(٧٢١).

ومن ثم فان لنا ان نتصور – رغم قلة الروايات وانعدامها احيانا – حجم الدور اليهودي في حركات الردة والتنبؤ في عهد ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) .. وفيما بعد في (الفتنة) التي زعزعت اركان الخلافة الراشدة ، والتي لعب ابن سبا فيها – واخرون غيره لم تتكشف اسماؤهم بعد – دورا خطيرا.

---

(٧٢٠) ولفنسون : تاريخ اليهود ، ص ١٧٥–١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ، ١٨١ ، وانظر البلاذري : فتوح ٦٦/١، ٨٥ ، ٩١ وانظر كذلك هامش رقم (٦) في ، ص ٢٩٤.

(٧٢١) ابن هشام ، ص ٤٠٤.

الفصل العاشر

حركة النفاق في العصر المدني

[1]

لا يمكـن ان نـتفهم حركـة النفـاق جيـدا الا اذا ادركنـا بعـديها النفسـي والاجتمـاعي. فامأ بعدها الاول فيتمثل في ان عددا من الناس ، على مدار التاريخ ، يسوقهم تكوينهم النفسي – الـذي هـو حصـيلة المـؤثرات البيئيـة والوراثيـة – الـى اتخـاذ (مـوقفين) ازاء القضـية الواحـدة ، احدهما ظـاهر والاخـر بـاطن ، فيعلنـون غيـر مـا يكتمـون ، ويقولـون غيـر مـا يفعلـون ، ويـدفعهم الخـوف الـذي يتصـورونه جاثمـا علـيهم فـي كـل لحظـة ، الـى تغطيـة بـواطنهم باسـتار ظاهريـة يختبئون خلفها علها تحميهم من الانكشاف ، وهم اذا ما خلوا الى نفوسهم ، وشعروا انهم غدوا بمنأى عما يخيفهم ، دفعوا الاستار جانبا وظهروا على حقيقتهم.

ويبدأ هذا الازدواج والقلق والثنائية في اتخاذ المواقف بسيطا غير معقد هدفه تحقيق مصلحة فردية او جماعية ، او دفع اذى ، الا ان ممارسته طويلا تقود الى استمرائه واعتياده ، وسرعان ما يغدو جزءا اصيلا من التكوين النفسي للانسان. ويتطرف الازدواج لدى البعض احيانا حتى يغدو ظاهرة مرضية يسميها علماء النفس (انفصام الشخصية) حيث تنقطع الخيوط كلية بين الظاهر والباطن ، وتزول عوامل الارتباط في كيان الانسان ، وتتفكك الذات المتوحدة الى شخصيتين او اكثر ، ويفقد الفرد كلية القدرة على تحديد موقفه ازاء مجريات الاحداث التي لا تكف عن التمخض والحركة ، ويغدو – بتعبير الرسول صلى الله عليه وسلم – (أمعة. يقول : انا مع الناس ان احسن الناس احسنت وان اساءوا اسأت).

ويقودنا البعد الاجتماعي لظاهرة النفاق الى طبيعة تكوين المجتمع العربي في العصر الذي بعث فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم). مجتمع قبلي لا يعرف الوحدة والتماسك والنظام، ولم يعتد الانقياد لسلطة موحدة أو الالتزام بشعائر واخلاقيات وعلاقات ثابتة دائمة ، وقد علمته تقاليد وممارسات قرون طويلة من التسبب والانفلات التمرد على اية محاولة للضبط والتنظيم. والعربي ، فضلاً عن هذا ، لا يعرف انتماء لغير قبيلته وخضوعا لغير مشايخها وانقيادا لغير مواقفها التي تحددها مصالحها القبلية وحرصها على السيادة والاستعلاء بين القبائل.

ولقد جاء الاسلام دعوة إلى الانضباط والالتزام والنظام بوجه الفوضى والتسيب والانفلات ، التي ألفها العربي ، كما انه جاء لكي يصهر الوحدات القبلية في اطار مجتمع موحد متماسك ، تذوب فيه الاحساسات القبلية والرغبات الجزئية الموقوتة في السيادة والاستعلاء ، ووجد العربي في هاتين الدعوتين خروجا على تقاليده وممارساته وأعرافه ، ولم يكن من السهل

عليه تجاوزها جميعا الى آفاق الاسلام ونظامه الشامل لكل فاعليات الحياة اليومية والذي يحتم عليه الانضباط والالتزام في كل خطوة يخطوها وعمل يمارسه وتجربة يعانيها ، فضلاً عن انه يدعوه إلى التخلي عن احساسه القبلي وكسر الاطار الذي اعتاد التحرك داخله إلى المجتمع الشامل الموحد الذي تتلاشى فيه الحساسيات والاعراف القبلية ويخضع فيه الجميع لسلطة واحدة ودستور واحد يصدر عن مشرع واحد هو الله (سبحانه وتعالى).

إن سببا من اهم الاسباب التي جعلت الاسلام يعاني هذا العناء الصعب ازاء الجاهلية ويكافح هذا الكفاح الطويل لتطويعها والغائها ، يعود إلى هذا البعد الاجتماعي الذي قاد إلى حركة المقاومة الوثنية الصريحة لدعوة الاسلام ، كما قاد إلى حركة النفاق داخل الصفوف المسلمة وسنراه يقود – فيما بعد – إلى حركتي (الردة) و(الفتنة) في عصر الراشدين.

وهكذا كان هذا العائق الاجتماعي يقف امام امتداد الاسلام في يثرب نفسها التي اتخذت نواة لدولته الناشئة ، حيث ظل عدد كبير من العرب الوثنيين يقاومون الدين الجديد ويعلنون عن رفضهم الانتماء اليه والخضوع لسلطته التي حددها ميثاق المدينة الذي اصدره الرسول (صلى الله عليه وسلم) اثر دخوله يثرب. ولما لم يكن وجود المسلمين في المدينة قد تمركز بعد ، سيما وانها ملأى بالجيوب اليهودية والوثنية ، ولما كان الصراع مع قريش لم تتحدد خطوطه بعد ، حيث بدا انها سوف لا تدع المسلمين يقر لهم قرار ، وانها ستظل تقاتلهم حتى تقضي على دعوتهم الجديدة ، فان عرب المدينة الوثنيين وجدوا انفسهم في مأمن في حالة اعلان رفضهم للاسلام وعدم قبول سلطته اسوة بقريش زعيمة الوثنية ، واغلب الظن انهم كانوا على اتصال بقريش لتنسيق العمل بين الطرفين ووضع الاسلام في شقي الرحى ، الامر الذي دفع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان ان يؤكد في ميثاقه على منع أي اتصال من قبل احد من المدنيين بقريش او التعاون معها في السلم والحرب. ويذكر محمد حميد الله في (مجموعة الوثائق) ان كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن ابي بن ابي سلول ، ومن كان يعبد معه الاوثان من الاوس الخزرج، قبل وقعة بدر ((انكم آويتم صاحبنا ، وانا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنسيرن اليكم باجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم)). ولكن لم يؤثر تهديد الكفار ولا ترغيب المنافقين في مسلمي الانصار[٧٢٢].

---

(٧٢٢) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ٦٦.

وجاءت معركة بدر ايذانا بانتصار الدولة الناشئة على القيادة الوثنية المتمثلة بقريش. يقول الواقدي : ((لما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم بالاسرى اذل الله بذلك رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق الا خضد عنقه لوقعة بدر)) [٧٢٣] [٧٢٣]. وكان مشركو يثرب قد منوا انفسهم بهزيمة المسلمين ، فقال رجل منهم لبعض المسلمين ، وهو يرى اسامة بن زيد قادما من ساحة القتال : ((قتل صاحبكم ومن معه)) وقال آخر : ((قد تفرق اصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده ، وقتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب))[٧٢٤].

ولكن الحقيقة سرعان ما فرضت نفسها على الجميع ووجد العرب الوثنيون في المدينة انفسهم في وضع حرج ، فهم اما ان يبقوا على كفرهم فيعرضوا انفسهم للعقاب واما ان ينتموا للدين الجديد ، وهم لم يألفوا الانضباط والانقياد ، ولا وجدوا في انفسهم انفتاحا على تعاليم الاسلام والزاماته ومبادئه بدافع من تكوينهم الاجتماعي القبلي ، وسرعان ما وجد زعيمهم عبد الله بن ابي بن ابي سلول – الذي كان قد رشح لتتويجه ملكا على عرب المدينة قبل هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبدأ الصناع بنسج تاجه[٧٢٥] – ان خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو ان يعلن هو واتباعه اسلامهم ظاهرا ، ويبقوا على اعتقاداتهم وعلاقاتهم وممارساتهم الجاهلية باطنا ، وبهذا ينجون من شبح العقاب ، ويحتفظون في الوقت نفسه بمعطياتهم الجاهلية، فضلا عن ان تلبسهم بالاسلام وتسربهم في صفوف الجماعة المسلمة سيتيح لهم فرصة اوسع لتخريب المجتمع الجديد من الداخل ، والتنفيس عن حقدهم وهزيمتهم ، فاستجابوا لنداء زعيمهم وملكهم المنتظر الذي قال لهم في اعقاب سماع نبا الانتصار الحاسم لجيش الاسلام في بدر : (هذا امر توجه فلا مطمع في ازالته) فانضووا الى الدين الجديد.

ومنذ ذلك الحين برزت الى الوجود قوة جديدة في مواجهة الحركة الاسلامية ، سببت لها الكثير من المتاعب والمحن ، ووضعت في دربها الكثير من الحواجز والعقبات ، ومارست ازاءها من الداخل عمليات تخريبية لا حصر لها. وكان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يصارع هذه القوة فضلا عن صراعه مع القوى الخارجية : الوثنية واليهودية والنصرانية. الا ان

---

(٧٢٣) مغازي رسول الله : ١٢١/١.

(٧٢٤) البلاذري : انساب الاشراف ، ٢٩٤/١.

(٧٢٥) انظر صحيح البخاري : ١٨٥/٧–١٨٦ (بشرح فتح الباري) ومسلم ١٨٢/٥–١٨٣ ، واحمد ٢٠٣/٥.

مشكلة هذا الصراع تكمن في ان هذه القوة المعادية غير واضحة الابعاد ، منسربة في صفوف الجماعة الاسلامية ، قديرة على الاستخفاء في اعقاب اي تخريب تمارسه .. ثم ، وهذا هو الانكى ، لم يكن بامكان الرسول صلى الله عليه وسلم ان يعاقب على التهمة وياخذ بالظنة وينفذ اسلوبا (روبسبييريا) في حصد مئات الرؤوس التي يشك انها تتامر على سلامة الدولة وزعيمها ، وحاشا للانبياء ان يفعلوا ذلك.

لذا نجده يرفض مرارا وتكرارا عروضا من صحابته الكرام بقتل رؤوس المنافقين وقطع رقابهم بمجرد ان يوافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لكنه لم يوافق حتى النهاية على قتل رجل يشهد في ظاهره بشهادة الاسلام. وهنالك حادثة ذات دلالة في هذا المجال : عندما دخل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحا امر قادته الا يقاتلوا .. لكنه طلب منهم في الوقت نفسه ان يقتلوا عددا من المكيين سماهم لهم ، حتى ولو تعلقوا باستار الكعبة ، وجيء باحدهم ، وكان قد اسلم ثم ارتد الى الوثنية ، وبعد فتح مكة توسط لدى عثمان بن عفان رضي الله عنه في طلب الامان. فصمت الرسول طويلا ثم قال (نعم) فلما انصرف عنه عثمان قال لمن حوله من اصحابه : لقد صمت ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الانصار : فهلا او مات الي يا رسول الله ؟ قال : ان النبي لا يقتل بالاشارة[٧٢٦].

(ان النبي لا يقتل بالاشارة) .. هذا ازاء رجل كان قد ارتد وجاء يطلب الامان ، فكيف برجال يشهدون خمس مرات في اليوم بشهادة الاسلام ؟ انه كان بامكانه صلى الله عليه وسلم ان يحصدهم في غداة واحدة ، الا ان مقياسا دقيقا لمعرفة ايمان كل منهم لم يكن بيديه ، وانما توكل السرائر لله ، ويحاسب الناس باعمالهم الظاهرة .. وهؤلاء منافقون وظاهرهم المكشوف ظاهر اسلامي ، على خلاف مع باطنهم ، فكيف يعاقبهم ؟ وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدرك ، فضلا عن هذا البعد الاخلاقي ،ان ممارسة القتل الجماعي او الفردي تجاه اناس من اتباعه ، محسوبين على معسكره ، سوف يعطي لاعدائه في الخارج سلاحا دعائيا ممتازا لمهاجمة الاسلام ، وقد ادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، وقال لاصحابه معترضا على الحاحهم عليه بممارسة هذا الاسلوب تجاه المنافقين (فكيف بالعرب اذا قالت ان محمدا يقتل اصحابه ؟) ، وهذا حق ، فهم على المستوى السياسي والقانوني من اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) وما دام اي منهم لم يمارس عملا (جرميا) محددا فان من الصعوبة بمكان عزله او قتله..

---

(٧٢٦) ابن هشام ، ص ٢٨٩.

وخلال العودة من تبوك ، حين اراد بضعة عشر منافقا ان يمكروا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ويطرحوه من عقبة في الطريق ، وعرض عليه بعض اصحابه ان يقطعوا رؤوسهم اجابهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : اني اكره ان يقول الناس ان محمدا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل اصحابه. وعندما قال له أسيد بن حضير : يا رسول الله فهؤلاء ليسوا بأصحاب ، اجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) : اليسوا يظهرون شهادة ان لا اله الا الله ، اليسوا يظهرون اني رسول الله ؟ قال : بلى ولا شهادة لهم ، قال : فاني نهيت عن قتل اولئك(٧٢٧).

وكان بديل هذا الاسلوب ، شيئا نادرا في تاريخ الدعوات. تتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة ، ولم يحدد اسلوبا (ثابتا) في مجابهة مواقفهم (المتلونة) (المتغيرة) ، وانما راح يضع لكل حالة خطة تتناسب تماما وحجم المحاولة التخريبية ، وتكبتها قبل ان تجيء بثمارها المرة ، وقبل ان تزرع شوكها في طريق الدعاة .. ومن وراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) آيات القرآن الكريم تتنزل من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، محللة التكوين النفسي للمنافقين ، مشخصة نماذج (منهم) نكاد نلمسها بأيدينا وهي تتلى علينا ، فاضحة خططهم اللئيمة قبل ان تقع ، منددة باساليبهم المرذولة وهم يعملون في الظلام دسا ووقيعة ، صابة عليهم غضبها المخيف في اعقاب اية محاولة يستهدفون

(٧٢٧) الواقدي ، ٣/١٠٤٢-١٠٤٤ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٣٦.

من ورائها فتنة ، او خديعة او مكرا[٧٢٨].

وهكذا نجد ظاهرة النفاق ، رغم كونها ظاهرة مرضية في حدودها النفسية والاجتماعية ، الا انها في اطار الدعوة الاسلامية تبدو ظاهرة صحة وعافية اشبه بالامصال المخففة التي تحقن في دم الانسان لمقاومة مرض من الامراض وتمكينه من مجابهته وقد عرف طعمه ولونه وقدرته على الفتك واستعد لذلك كله. لقد ادى وجود المنافقين في صفوف المسلمين الى ان يكونوا حذرين دوما ، يقظين ابدا ، لا يغفلون ولا ينامون ولا يلدغون من جحر مرتين. وبسبب هذا الحذر واليقظة والسهر المستمر ، تمكن المعسكر الاسلامي ليس فقط من الانتصار على اعدائه في الخارج بل – وهذا هو الاهم – تعزيز وحدته الداخلية ورص صفوفه ، وتذويب الاجسام الغريبة او شلها وتكييسها اوطردها كي لاتدمر المجتمع الجديد وتنخره من الداخل .. انها حكمة الله في ان يوجد في كيان المسلمين ما يتحداهم من الداخل دوما ويدفعهم الى الاستجابة والابداع .. وحكمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي تتسع وتتسع حتى تشمل كل حالة وتجابه كل وضع بعيدا عن الجمود على وضع واحد يصل الى هدفه من اقصر طريق ، لكنه ارخص طريق واكثرها استحقارا للدم الانساني ، طريق الاعدام بالجملة ، وحصد رؤوس مئات من الاتباع والمنتمين لمجرد تهمة تدور حولهم ، بمقصلة تنزل وتصعد ، او سيف يضرب يمينا وشمالا ، او اشارة صامتة تعقبها انهار من الدماء ..

---

(٧٢٨) عن المواقف القرآنية ازاء المنافقين ، انظر البحث القيم لمحمد عزة دروزة (سيرة الرسول) الجزء الثاني فصل (المنافقون في العصر المدني) ، ص ٧٣–١٢٠ ، وانظر في (صفات المنافقين واقوالهم) سورة البقرة : (الآيات ٨–١٦–٢٠٤–٢٠٦) ، سورة النساء ، (الآيات ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢–١٤٣ ، ١٤٥–١٤٦) ، سورة التوبة ، (الآيات ٥٦–٥٧ ، ٦١–٦٢ ، ٦٧–٦٨ ، ٧٣–٧٧ ، ٨٤–٨٥ ، ٩٧–٩٨، ١٠١) ، سورة محمد : (الآيتان ٢٩–٣٠) ، سورة الحديد ، (الآيتان ١٣–١٤) ، سورة المنافقون ، (الآيات ١–٨) ، وانظر في (مواقفهم الكيدية والساخرة) ، سورة النساء ، (الآيات ٦٠–٦١ ، ١٣٨–١٣٩، ١٤٠–١٤١) ، سورة التوبة ، (الآيات ٥٨ ، ٦١ ، ٦٤–٦٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٧–١١٠ ، ١٢٤–١٢٧)، سورة المجادلة ، (الآيات ٨–١٠) ، سورة البقرة ، (الآيات ١١–١٤) ، سورة الانفال ، (الآية ، ٤٩) ، سورة النور ، (الآيتان ٦٢–٦٣ ، سورة الاحزاب ، (الآيات ٥٧–٦١ ، ٦٩–٧١) ، سورة محمد ، (الآيات ١٦ ، ٢٥–٢٦) ، سورة المائدة ، (الآيات ٥٠–٥٣) ، سورة المجادلة ، (الآيات ١٤–١٦) ، وانظر في (مواقفهم من الجهاد ووقائعه) : سورة آل عمران ، (الآيات ١٥٦ ، ١٦٦–١٦٨) ، سورة النساء ، (الآيات ٧١–٧٣ ، ٧٧ ، ٨١) ، سورة التوبة ، (الآيات ٤٢–٤٩، ٥٠–٥٣ ، ٨١–٨٣ ، ٨٦–٨٧ ، ٩، ٩٣–٩٦) ، سورة محمد ، (الآيات ٢٠–٢٣ ، سورة الاحزاب ، (الآيات ٩–٢٠) ، سورة الحشر ، (الآيتان ١١–١٢).

[2]

كان المنافقون يتمثلون في طائفة من عرب المدينة من الاوس والخزرج ومن بعض المتهودة من رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة ، وقد التفوا حول زعيمهم عبد الله بن ابي كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين. وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيرا ما ظل اليهود في المدينة ، اذ انهم كانوا على صلة دائمة بهم ، بل ان اليهود هم الذين شجعوا النفاق في المدينة فلما تم تطهيرها من اليهود ضعف امر النفاق واصبح النبي لا يخشى خطر هذه الطائفة(٧٢٩) ، حيث اخذ صوتها يخفت ، ونشاطها يخمد ، وعددها يقل ، وتزلفها يشتد ومداراتها تزداد ، وخوفها يبدو واضحا. وربما ندم كثير من المنافقين فعادوا الى حظيرة الاسلام الصحيح فكانت هذه الظواهر مما ثبت الرسول على خطته في عدم اخذهم بالعنف ، ورای فيها الصواب والمصلحة سيما وانهم كانوا يرتبطون مع كثير من المخلصين بروابط القربى والرحم ، وان اخذهم بالعنف – فضلا عن الاسباب التي ذكرناها – قد يفتح في صفوف المسلمين ثغرات واسعة ويثير ازمات داخلية حادة ، وهو الذي كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي واظهار دينه على الدين كله(٧٣٠).

ولعل من الدلائل على ارتباط حركة النفاق بالنشاط اليهودي ضد الاسلام ما ورد في الايات الاولى من سورة البقرة ، التي هي اول السور المدنية في ترتيب النزول ، فقد جاء فيها بصدد المنافقين :

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)}(٧٣١).

فقد قال جمهور المفسرين ان شياطينهم هم اليهود ، ولم يغب ذلك عن النبي والمسلمين(٧٣٢).

ان الآيات الواردة في حق المنافقين تلهم ان حركة النفاق انما قام بها وتولى كبرها افراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلا او كثيرا ، بل اننا نكاد نقول ان معظم افراد هذه الفئة

---

(٧٢٩) ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ٤١٥–٤١٨.

(٧٣٠) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ٧٨/٢ – ٧٩.

(٧٣١) سورة البقرة ، (الآية ١٤).

(٧٣٢) دروزة : المرجع السابق ١٢١/٢.

كانوا من تلك الطبقة ، وانه اذا كان اندمج فيها اناس من العامة فانهم لم يكونوا كثيرين وانما انساقوا فيها بتاثير اولئك من ناحية زعامتهم وعصبية الارحام التي تربط بينهم ، ومن ناحية الاغراء والمنفعة ، وهذا طبيعي لانه ليس لافراد من العامة مناواة حركة اندمج فيها غالب قومهم .. كما انه قلما يكون في هؤلاء من يظن انه اعقل من ان يندمج في حركة اندمجت فيها الكثرة الكبرى ، وان الذين اندفعوا في مناواتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لا يمكن ان يكونوا الا افرادا من البارزين الذين يمكن ان يتوهموا فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصلحتهم ، وان يانفوا هذه الحركة. فالذين اخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة لا يمكن ان يتصلوا بشانها الا مع امثال هؤلاء كما لا يخفى(٧٣٣).

اتخذت اساليب المنافقين اشكالا شتى ، بعضها مخطط مدروس وبعضها عفوي مرتجل، وهي في كلتا الحالتين جاءت تعبيرا عن التكوين النفسي والاجتماعي لشخصية (المنافق) واستهدفت وضع الحواجز والعوائق في طريق الحركة الاسلامية .. وسنتتبع هنا اساليبهم هذه وفق مجراها الزمني منذ ظهور هذه الكتلة في اعقاب بدر حتى وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

عندما حاصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بني قينقاع ، اول قبيلة يهودية كبيرة تنقض عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ونزلوا عند حكمه ، بعد ان راوا الا فائدة من المقاومة ، وجد عبد الله بن ابي ان انتصارا آخر – بعد بدر – سيحرزه المسلمون في داخل المدينة هذه المرة ، وان هذا ربما سيستفز اعداء الاسلام : عربا ويهودا ، ويؤلبهم على المسلمين، وان هؤلاء ربما وجدوا انفسهم في موقف لا يحسدون عليه .. فليتحرك زعيم المنافقين بسرعة اذن وليقف الى جانب بني قينقاع مدافعا عنهم ازاء هجوم المسلمين ، على الدائرة تدور على هؤلاء فيكون ابن ابي قد اوجد لنفسه ولاتباعه ثغرة ينفذون منها بجلودهم ، سيما وان يهود بني قينقاع كانوا مواليه في الجاهلية فلا يعقل ان يسلمهم لمصيرهم دون ان (يظهر) على الاقل اسناده في محنتهم.

تقدم الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) متوسلا : يا محمد احسن في موالي. فلم يجبه الرسول فاعاد : يا محمد احسن في موالي. فاعرض عنه ، فادخل يده في جيب درع الرسول وراح يكرر توسلاته ، فرد عليه الرسول ، وقد كست وجهه ملامح الغضب : ويحك ارسلني ، فاجاب

---

(٧٣٣) دروزة : سيرة الرسول ٢/٨٠.

ابن ابي : لا والله لا ارسلك حتى تحسن في موالي اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الاحمر والاسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ اني والله امرؤ اخشى الدوائر. ويبدو ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما كان ليريد انزال عقاب بهم ، بل ان يغادروا حصونهم الى حيث يشاؤون ماداموا قد نزلوا عند حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذا اجاب عبد الله : هم لك ! ثم التفت الى اصحابه قائلا : خلوهم ، لعنهم الله ولعنه معهم !!

ونزلت آيات القرآن منددة بهذا الموقف المنافق ، المتارجح بين ولاية الاسلام وولاية اعدائه : {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١)فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**}[٧٣٤].

وفي حصار بني النضير ، القبيلة اليهودية الثانية التي طردت من المدينة في اعقاب تامرها على حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في السنة الرابعة للهجرة ، اعاد ابن ابي وكبار المنافقين (تمثيل نفس الدور) الذي مثلوه مع بني قينقاع ، اذ بعثوا الى بني النضير ، وهم يعانون من حصار المسلمين وقبضتهم المحكمة ان (اثبتوا وتمنعوا ، فانا لن نسلمكم. ان قاتلتم قاتلنا معكم ، وان اخرجتم خرجنا معكم) ، الا ان المنافقين الذين كانوا (يقولون ما لا يفعلون) مع المعسكر الاسلامي ، كانوا يقولون ما لا يفعلون مع كل معسكر يظهرون له الود والاخلاص ، ذلك ان ايا منهم لم يكن شخصية واحدة تتخذ موقفا موحدا ازاء القضية ، وانما شخصيتين. ولقد ظل بنو النضير ينتظرون نجدة رفاقهم دونما جدوى حتى سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) الجلاء عن ديارهم ، بعد ان سدت كل المنافذ .. وبعد قليل جاءت ايات القرآن ، فاضحة منددة كاشفة : {**أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**}[٧٣٥].

وعندما سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبا تحرك قريش بقواتها التي تفوق المسلمين بكثير ونزولها في أحد لقتال المسلمين انتقاماً لما لحق الكفار في بدر ، ومحاولة للقضاء على

---

(٧٣٤) سورة المائدة ، (الآيتان ٥١ و ٥٢) ، ابن هشام ، ص ١٧١-١٧٢ ، الطبري ، تاريخ ٢/٤٨٠-٤٨١ ، البلاذري : انساب ، ٣٠٩/١ ، الواقدي : ١٧٧/١-١٧٨.

(٧٣٥) سورة الحشر ، (الآية ٨٨) ، ابن هشام ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، الواقدي ٣٦٨/١-٣٧٢.

الدولة الجديدة ، وطرح رايه بقتال قريش في المدينة نفسها ، قتال الشوارع والحارات، وافقه عبد الله بن أُبي على رايه هذا وألح على ضرورة تنفيذه قائلا ((يا رسول أقم بالمدينة ، ولا تخرج اليهم، فوالله ما خرجنا الى عدوً لنا قط الا أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا اصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن اقاموا اقاموا بشر محبس وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا))[٧٣٦] ، وربما حرصاً من زعيم المنافقين على الظهور بمظهر المتحمسين لتنفيذ رأي رسولهم ، سيما بعد ان رأى أكثرية المسلمين تطالب بموقف آخر هو الخروج والقتال في الارض المكشوفة ، وهو من خلال حرصه وإصراره سيزيد – حسب اعتقاده – شقة الخلاف بين الطرفين ، وليكن بعدهما ما يكون .. وربما رأى – وهو الارجح – ان قتال المسلمين لأعدائهم داخل المدينة سيمكن المنافقين من الاختباء وسيتيح لهم التسلل من سوح القتال وطلب النجاة بأنفسهم دون ان تلحظهم عين ، وهم في مخابئهم تلك سيعرفون لمن سترجح الكفة ، فيتسللون ثانية الى معسكرات المنتصرين ، فإن كانوا من المسلمين قالوا : الم نكن معكم ، اولم تكن فكرتنا في القتال داخل المدينة أصوب وأحسن؟ وان كانوا من المشركين بينوا لهم انهم هم الذين ألجؤوا المسلمين الى أنتظار اعدائهم لكي يقضى عليهم في المدينة ، وأنهم انسحبوا من القتال وفتُّوا في عضد اتباع محمد (صلى الله عيله وسلم) ومن ثم ستكون لهم الحظوة على أي حال سيؤول اليها القتال.

الا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يشأ الا ان يأخذ برأي أكثرية اتباعه الراغبين الخروج الى القتال ولم يتح للنقاش ان يتطور الى انشقاق عميق بين وجهتي النظر ، فدخل بيته ولبس عدة القتال وانطلق بأصحابه صوب أحد. ولم يمض على مسيرهم بعض الوقت حتى انسحب ابن أبي بثلث المقاتلين وقال مبررا موقفه ((اطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل انفسنا ها هنا ايها الناس !)) ، ولقد لحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام وسعى الى اقناعه بالرجوع والانضمام الى اخوانه ، وراح يقول للمنسحبين ((يا قوم أذكركم الله الا تخذلوا قومكم ونبيكم ..)) فأجابوه : ((لو نعلم انكم مقاتلون لما اسلمناكم ولاكنا لا نرى ان يكون قتال)) فلما أستعصوا عليه وابوا الا الانصراف والعودة قال : ((ابعدكم الله اعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه)).

---

(٧٣٦) ابن هشام ، ص ١٧٤–١٧٥.

وهذا الاسلوب الذي اتبعه المنافقون في المسير مع المسلمين ثم الانسحاب في اللحظات الحرجة يتكرر مرة أخرى في غزوة تبوك التي لا تقل خطورة عن معركة احد ، اذ انطلق ابن أُبي في اعقاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) على رأس جماعته ، وما ان اجتاز المسلمون مسافة قصيرة صوب هدفهم حتى تخلف المنافقون وقفلوا عائدين الى المدينة[٧٣٧] ، واذا كان لهم عذر في ذلك اول مرة أعلنوه تبريرا لانسحابهم ، فإنهم قد إفقدوا الاعذار هذه المرة ولم يقولوا شيئاً!! الا ان الموقف في كلا الحالتين هو نفس الموقف : عدم ايمان بالهدف الذي يتحرك اليه المسلمون ، وخوفا من الموت في سبيل قضية لا يؤمنون بها ، وتخذيل للمسلمين في اللحظات الحرجة علهم يجابهوا بهزة خطيرة تقضي عليهم وتعيد المنافقين الى حياة التسيب القديمة ، ويرجع لابن أُبي حِلمه القديم في ان يكون ملكا على قومه!!

ولقد ورد في سيرة ابن هشام ، بصدد موقف المنافقين في محنة تبوك ((ان عبد الله بن أبي ، كبير المنافقين ، ضرب عسكره باسفل عسكر النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان فيما يزعمون ، ليس باقل العسكريين ، فلما سار رسول الله تخلف عنه فيما تخلف من المنافقين وأهل الريب)) ، فتمسك بهذه العبارة المستشرق كايتاني وأخذ يعظم من شان وعدد المنافقين ويشكك في عدد الجيش المرويّ . غير ان هذا وذاك في غير محلهما ، فالآيات القرآنية صريحة بان المتخلفين من الاعراب والمنافقين كانوا من الاغنياء وأولي الطول ، وهؤلاء دائما محدودو العدد ، وعبارة ابن هشام تحمل الشك الصريح في المدى ، وقد روى في الوقت نفسه ان عدد المتخلفين من المنافقين كان بضعة وثمانين رجلا ، وفي سورة التوبة آيات تحكي ما كان من شدة خوف المنافقين واعتذارهم وتزلفهم وايمانهم ، بما فيه الدلالة القوية على ما صار اليه شأنهم من ضعف، وعددهم من قلة : **{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(٥٧)}**[٧٣٨].

وقد وجد المنافقون في هزيمة المسلمين باحد ميدانا فسيحا لاظهار احقادهم وشكوكهم والكشف عن موقفهم الصريح من الاحداث. يقول الواقدي : ((جعل ابن ابي والمنافقون معه يشتمون ويسرون بما اصاب المسلمين – في احد – ويظهرون اقبح القول. ورجع من رجع من

---

(٧٣٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٧–٣٢٨ ، الطبري : تاريخ ١٠٣/٣.

(٧٣٨) سورة التوبة ، (الآيتان ٥٦–٥٧) ، وانظر الآيات ، (٦٢–٦٦ ، ٧٤) من نفس السورة ، دروزة ٢٦٤/٢–٢٦٥.

الصحابة وعامتهم جريح ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن ابي وهو جريح ، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، وجعل ابوه يقول : ما كان خروجك معه الى هذا الوجه براي !! عصاني محمد واطاع الولدان ، والله لكاني كنت انظر الى هذا. فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير ... وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويامرونهم بالتفرق عنه ، ويقولون لاصحابه : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، حتى سمع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذلك في اماكن ، فمشى الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليستاذنه في قتل من سمع ذلك منه من المنافقين ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ان الله مظهر دينه ومعز نبيه ، اليسوا يظهرون شهادة ان لا الله الا الله واني رسول الله ؟ قال : بلى يا رسول الله ، وانما يفعلون ذلك تعوذا من السيف ، فقد بان لك امرهم وابدى الله اضغانهم عند هذه النكبة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهيت عن قتل من قال لا اله الا الله وان محمدا رسول الله يا ابن الخطاب ! ان قريشا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن)[٧٣٩].

ويحدثنا ابن هشام كيف ان عبد الله بن ابي كان يتمتع بشرف في نفسه وفي قومه ، وكيف انه كان يجلس على راس قومه ، كل جمعة في المسجد ، وكيف كان ينتهز فرصة جلوس الرسول (صلى الله عليه وسلم) بين الخطبتين فيقوم ويقول : ((ايها الناس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهركم اكرمكم الله واعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له واطيعوا)) ثم يجلس. وكيف انه عندما اراد تمثيل نفس الدور في الجمعة التي اعقبت هزيمة احد اخذ المسلمون بثيابه من كل مكان وصاحوا : اجلس !! أيّ عدوّ الله لست لذلك باهل وقد صنعت ما صنعت ! فيخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكانما قلت بجرا[٧٤٠] ان قمت اشدد امره !! فلقيه رجل من الانصار يردد هذه العبارة فقال له : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فاجابه عبد الله : والله ما ابتغي ان يستغفر لي))[٧٤١]. وقال ابن اسحاق: ((كان يوم احد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحص به المنافقين، ممن كان يظهر الايمان بلسانه ، وهو مستخف بالكفر في قلبه))[٧٤٢].

---

(٧٣٩) الواقدي ، ٣١٧/١ – ٣١٨.

(٧٤٠) البجر : الشر.

(٧٤١) ابن هشام ، ص ١٩٣–١٩٤ ، الواقدي ، ٣١٨/١–٣١٩.

(٧٤٢) ابن هشام ، ص ١٩٤.

ومن اجل التعويض عن خوائهم الروحي وتغطية دورهم السلبي في حركة الدعوة ، وملء الفراغ الذي يعانونه ، كانوا يظهرون بين الحين والحين بمظهر الناصحين ، الحريصين على مصير الدعوة وحياة اصحابها. قال رجال منهم ، تعقيبا على ماساة الرجيع التي ذهب ضحيتها سبعة من الدعاة : ((يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا في اهلهم ولا هم ادوا رسالة صاحبهم)) ، لكن القرآن الكريم ما لبث ان فضح ازدواجيتهم هذه ، ومزق عن وجوههم اقنعة الحرص والاهتمام : **{وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ(٢٠٤)وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ(٢٠٥)وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}**[٧٤٣].

في معركة الخندق حيث المحنة التي كشفت عن صفوف المنتمين الى معسكر الاسلام وسلطت وهجها اللافح على اعماق سرائرهم ، وقف المنافقون في اخر الصفوف يثيرون شائعات الخوف والهزيمة ويطلقون سخرياتهم بوجه الجد الصارم الذي كان يدفع المؤمنين الى العمل والسهر المتواصل ليل نهار ، قبل ان يفلت الزمام من ايديهم ويصبحوا خبرا من الاخبار.

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجابه حملاتهم النفسية الخفية هذه بروح الامل ينفخها في قلوب اتباعه ، ويحدثهم بيقين ثابت طموح ، وهم يعملون في الخنادق محاطين بالظلام من كل مكان ، بان مفاتيح الكعبة ستسلم اليه عما قريب وان خيولهم ستطا في السنين القادمة عواصم كسرى وقيصر ، وتسقط عروشهم واحدا بعد الاخر. وكما كان المنافقون ينسحبون من المعركة قبل ان تلتمع السيوف ، كما حدث في موقعتي احد وتبوك ، فانهم الان يظهرون للمؤمنين انهم يعملون معهم في حفر الخندق ، و(يمثلون دورهم هذا) وكلما وجدوا فرصة سانحة تسللوا من الخندق دون اذن من قائدهم ، ولاذوا باهليهم ، بينما كان المؤمنون لا يغادر احدهم موقع عمله الا ان يستاذن الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولقد تحدث القرآن الكريم بعد قليل عن هؤلاء وعن هؤلاء .. وشتان !!

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٦٢)لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ

---

(٧٤٣) سورة البقرة ، (الآيات ٢٠٤-٢٠٦) ، المصدر السابق : ١٩٨.

بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(٧٤٤).

وعندما احاطت الاحزاب بالمدينة ، وانتقض يهود بني قريظة ، وعظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف ، تصاعدت حملات المنافقين ، واسفر بعضهم عن شخصيته المخفية ، وقد ظنوا ان الاسلام قد فقد قدرته كلية على الرد ، وقال قائلهم : كان محمد يعدنا ان ناكل كنوز كسرى وقيصر واحدهم اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط !! وراح اخرون يقولون للرسول (صلى الله عليه وسلم) : يا رسول الله ان بيوتنا عورة من العدو ، فاذن لنا ان نخرج فنرجع الى دارنا فانها خارج المدينة .. ولكن المحنة انجلت ، وتفتتت جيوش الاحزاب ، واعدم مجرمو الحرب من يهود بني قريظة ، وعاد الاسلام اقوى مما كان ، ونزلت ايات القرآن تصفع المنافقين الذين لم يكونوا بقادرين على ان يتجاوزوا رؤية الحدث الى ما يمكن ان يتمخض عنه :

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا(١٢)وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا(١٤)وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً(١٥)قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٦)قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٨)أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً}(٧٤٥).

---

(٧٤٤) سورة النور ، (الآيتان ٦٢ ، ٦٣) ، ابن هشام ، ص ٢١٣ ، الطبري : تاريخ ٥٦٧/٢.

(٧٤٥) سورة الاحزاب ، (الآيات ١٢-٢٠) ، ابن هشام ، ص ٢١٦-٢٣١ ، الطبري : تاريخ ٥٦٠/٢ ، الواقدي ، ٤٥٩/٢-٤٦٠.

[3]

لما فشلت محاولات المنافقين (التخذيلية) وخابت امالهم في هزيمة المسلمين عبر صراعهم الطويل مع الوثنية واليهود ، وحقق الرسول (صلى الله عليه وسلم) انتصارات متتالية حاسمة على كلتا الجبهتين ، راى المنافقون ان يبحثوا عن (أسباب) اخرى لاضعاف جبهة المسلمين وتفكيكها ونشر الفوضى فيها ، لكي ينفذوا م خلال ذلك الى اهدافهم ومطامحهم ، فلجؤوا الى اسلوب التخريب الداخلي ونشر الشائعات الهدامة ، معتمدين على تسربهم في صفوف المؤمنين واحتكاكهم المباشر بهم وقدرتهم على التخفي والانزواء. وفي اعقاب غزوة بني المصطلق[٧٤٦] اطلق المنافقون على يد زعيمهم ابن ابي وعدد من رؤوسهم سهمين فتاكين الى قلب المجتمع الاسلامي كادا ان ينزفا الكثير من دمه ، احدهما باتجاه الحس القبلي الذي لم يكن قد استؤصل بعد ، والاخر باتجاه القيم الخلقية التي تميز المجتمع المسلم عن سائر المجتمعات ، فيما عرف بـ (حديث الافك). فلقد حدث – حينذاك – ان ازدحم على بئر هناك غلام من بني غفار لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع غلام جهني من يثرب ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني: يا معشر الانصار ، وصرخ الغفاري : يا معشر المهاجرين !! الا ان احدهما ما لبث ان عفا عن الاخر واصطلح الطرفان في اعقاب وساطة عدد من المهاجرين والانصار[٧٤٧] [٧٤٧]. وراى عبد الله بن ابي ان ينتهز الفرصة فاظهر غضبه وقال بعصبية : (او قد فعلوها ؟! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما اعدنا وجلابيب قريش الا كما قال الاول (سمن كلبك يأكلك)!! والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) ثم اقبل على من حضر من قومه – وفيهم زيد بن ارقم ، وكان غلاما حدثا – فقال لهم : ((هذا ما فعلتم بانفسكم، احللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم اموالكم ، اما والله لو امسكتم عنهم ما بايديكم لتحولوا الى غير داركم))[٧٤٨].

توجه زيد بن ارقم فورا الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبره الخبر ، فقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، الذي كان يقف الى جواره : مر عباد بن بشر فليقتله. فاجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) : اذن لا رعدت له أنف بيثرب كثيرة .. وكيف يا عمر اذا

---

(٧٤٦) اختلفت الروايات في تحديد زمن هذه المعركة هل وقعت قبل الاحزاب ام بعدها ؟ ويمكن الاخذ برواية الواقدي (٤٠٤/١) الذي يجعلها في مطلع شعبان عام (٥هـ) نظرا لدقته في تثبيت التواريخ.

(٧٤٧) ابن سعد ٤٦/١/٢.

(٧٤٨) ابن هشام ، ص ٢٣٧–٢٣٨ ، الطبري : ٦٠٥/٢ ، ابن سعد ٤٦/١/٢ ، الواقدي ٤١٥/٢.

تحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه ؟ لا ولكن اذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها. فتحرك المسلمون ، وعندما سمع ابن ابي ان امره قد انكشف مشى الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) متوسلا وحلف بالله : ما قلت ما قاله زيد ولا تكلمت به !! فقال عدد من الانصار عطفا على ابن ابي لمكانته في قومه : عسى ان يكون الغلام قد اوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ! وعندما سمع اسيد بن حضير ، احد كبار الانصار ، الخبر من الرسول (صلى الله عليه وسلم) وان ابن ابي زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل قال اسيد : فانت يا رسول الله الاعز والله تخرجه منها ان شئت ، هو والله الذليل وانت العزيز. وما لبث اسيد ان تذكر الظروف التي احاطت بزعيم المنافقين ودفعته الى اتخاذ موقفه الحانق هذا على الاسلام ورسوله فقال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى انك قد استلبته ملكا[٧٤٩]!!

انطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمسلمين يومهم ذاك حتى امسى ، وليلتهم حتى اصبح ، وصدر يومهم التالي ، حتى اذنتهم الشمس بالمغيب ، فعسكر بهم ، وما ان وجدوا مس الارض حتى وقعوا نياما. ولقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حكيما في معالجته (الموقف) بهذا الاسلوب العملي. انه موقف (نفسي) يتوغل بعيدا في مسارب النفوس والاعصاب، ومجابهته بالكلام والاقوال قد لا تجدي ، وربما تزيده تعقيدا ، فليكن الامر اذن (عملا) مجهدا يوازي في حجمه حجم الموقف نفسه ، ويمتص كل ما يمكن ان يغرزه في نفوس المسلمين من سموم ، وسيتكفل التعب والنسيان بعد ذاك بالاتيان على بقاياه !! ومن اجل ذلك يقول ابن هشام : ((وانما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالامس من عبد الله ابن ابي))[٧٥٠] ، ويذكر الواقدي بان الناس راحوا يتحدثون بمقالة ابن ابي وما كان منه ، فما هو الا ان اخذهم السهر والتعب بالمسير ((فما نزلوا حتى ما يسمع لقول ابن ابي في افواههم ذكر))[٧٥١].

وعندما بلغ ابن عبد الله بن ابي ما كان من ابيه ، قال للرسول (صلى الله عليه وسلم) : يا رسول الله انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن ابي فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا

---

(٧٤٩) ابن هشام ، ص ٢٣٨-٢٣٩ ، الطبري ٢/٦٠٥-٦٠٦ ، الواقدي ٢/٤١٧-٤١٩.

(٧٥٠) ابن هشام ، ص ٢٣٩ ، الطبري ٢/٦٠٦-٦٠٧ ، الواقدي : ٢/٤٢٢.

(٧٥١) مغازي رسول الله : ٢/٤٢٢.

فمرني به فانا احمل اليك راسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها من رجل ابر بوالده مني ، واني اخشى ان تامر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي انظر الى قاتل ابي يمشي في الناس ، فاقتله ، فاقتل رجلا مؤمنا بكافر فادخل النار. فاجابه الرسول (صلى الله عليه وسلم) : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا!![٧٥٢].

جعل ابن ابي – بعد موقف الرسول المتسامح ذاك – اذا احدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه وياخذونه ويعنفونه ، وحينئذاك قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : كيف ترى يا عمر ؟ اما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ، لا رعدت له انف لو امرتها اليوم بقتله لقتلته ! اجاب عمر : قد والله علمت ، لامر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اعظم بركة من امري[٧٥٣]!.

أما السهم الآخر الذي وجهته حركة النفاق الى قلب الجماعة الاسلامية ، متمثلا بزوجة نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وابنة صديقهم ابي بكر (رضي الله عنه). فلنستمع الى عائشة نفسها وهي تحدثنا : كيف انطلق ، واين استقر ، ومن الذي اطلقه ، وكيف تم انتزاعه بعد ما نزف من دماء!!

قالت عائشة : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد ان يخرج سفرا اقرع بين ازواجه فايتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فاقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما انزل الحجاب ، فانا احمل في هودج وانزل فيه. فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، اذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين اذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شاني اقبلت الى الرحل فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. فاقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي اركب وهم يحسبون اني فيه ، وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يثقلهن ولم يغشهن اللحم ، وانما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج .. وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا. فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه احد ، فاممت منزلي الذي كنت فيه وظننت انهم سيفقدوني فيرجعون الي ، فبينما انا جالسة غلبتني عيناي ، فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش

---

(٧٥٢) ابن هشام ، ص ٢٣٩–٢٤٠ ، الطبري : تاريخ ٦٠٨/٢ ، الواقدي : ٤٢٠/٢–٤٢١.

(٧٥٣) ابن هشام ، ص ٢٤٠ ، الطبري : ٦٠٨/٢–٦٠٩.

فاصبح عند منزلي ، فرأى سواد انسان نائم فاتاني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين اناخ راحلته فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى اتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة فهلك من هلك!!

((وكان الذي تولى الافك عبد الله بن أُبي بن أبي سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون في قول اصحاب الافك ، ويريبني في وجعي اني لا ارى من النبي (صلى الله عليه وسلم) اللطف الذي كنت ارى منه حين امرض ، انما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم ؟ اشعر بشيء من ذلك ، حتى نقهت ، فخرجت انا وام مسطح (في حاجة لنا) فعثرت في مرطها فقالت : تعس مسطح !! فقلت لها : بئسما قلت ، اتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت : الم تسمعي ما قالوا ؟ فاخبرتني بقول اهل الافك فازددت مرضا على مرضي.

((فلما رجعت الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي الى ابوي ، وانا حينئذ اريد ان استيقن الخبر من قبلهما ، فاذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتيت ابوي فقلت لامي ما يتحدث الناس به ، ، فقالت : يا بنية هوني على نفسك الشان ، فوالله لقلما كانت امراة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا اكثرن عليها ، فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا))؟

((فبت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقا لي دمع ولا اكتحل بنوم ، ثم اصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن ابي طالب واسامة بن زيد حين استلبث الوحي ، يستشيرهما في فراق اهله ، فاما اسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم ، فقال : اهلك يا رسول الله ولا نعلم الا خيرا. واما علي فقال : يا رسول لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك ؟ فقالت : لا والذي بعثك بالحق ، ان رايت منها امرا انكره عليها قط اكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتاتي الداجن فتاكله. فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من يومه فاستعذر من عبد الله بن ابي بن ابي سلول فقال : من يعذرني من رجل بلغني اذاه في اهلي ، فوالله ما علمت على اهلي الا خيرا وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما كان يدخل على اهلي الا معي ..)).

((وبكيت يومي لا يرقا لي دمع ولا اكتحل بنوم فاصبح عندي ابواي ، وقد بكيت ليلتين ويوما حتى اظن ان البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي وانا ابكي اذ استاذنت امراة من

الانصار فاذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينما نحن كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها ، وقد مكث شهرا لا يوحى اليه في شاني بشيء. فتشهد ثم قال : يا عائشة لقد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت المممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقالته قلص دمعي حتى ما احسن منه قطرة ، وقلت لابي : اجب عني رسول الله (صلى الله عليه وسلم). قال : والله ما ادري ما اقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقلت لامي : اجيبي عني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما قال. قالت : والله ما ادري ما اقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم). وكنت جارية حديثة السن لا اقرا كثيرا من القرآن ، فقلت : والله لقد علمت انكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في انفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم اني بريئة – والله يعلم اني لبريئة – لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بامر – والله يعلم اني لبريئة – لتصدقنني ، والله ما اجد لي ولكم مثلا الا ابا يوسف اذ قال : {**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**}(٧٥٤).

((ثم تحولت على فراشي وانا ارجو ان يبرئني ، ولكن والله ما ظننت ان ينزل في شاني وحيا يتلى ، ولانا احقر في نفسي من ان يتكلم بالقرآن في امري. ولكن كنت ارجو ان يرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج احد من اهل البيت ، حتى انزل عليه الوحي ، فاخذه ما كان ياخذ من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات ، فلما سري عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يضحك، فكان اول كلمة تكلم بها ان قال لي : يا عائشة احمدي الله فقد برأك الله. فقالت لي امي: قومي الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت : لا والله لا أقوم اليه ، ولا احمد الا الله. فانزل الله (عز وجل) : {**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}(٧٥٥) ..

---

(٧٥٤) سورة يوسف ، (الآية ١٨).

(٧٥٥) سورة النور ، (الآية ١١).

((وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سأل زينب بنت جحش عن امري فقال : يا زينب ما علمت مما رايت ؟ فقالت : يا رسول الله احمي سمعي وبصري ، والله ما علمت الا خيرا ، وهي التي كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع)) [٧٥٦].

[4]

ظل المنافقون يعملون ضد الاسلام ، من داخل صفوفه ، منتهزين اية فرصة لتحقيق اهدافهم وللتعبير عن قلقهم وازدواجيتهم ، وليس ادل في هذا المجال من حادثة (مسجد الضرار) التي اعقبت عودة المسلمين من تبوك. ويتبدى مغزى الحادثة من الاسم الذي اطلقه القرآن الكريم عليها وعلى اصحابها : **{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٠٧)لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ(١٠٨)أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩)لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}**[٧٥٧].

ويروي الطبري ان الذين بنوه اثنا عشر رجلا على راسهم خذام بن خالد ، احد بني عمرو بن عوف ، الذي تبرع باخراج المسجد من داره ، ثم جاؤوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز لغزوة تبوك ، فقالوا : ((يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وانا نحب ان تاتينا فتصلي لنا فيه)) ، فاجابهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (اني على جناح سفر. ولو قدمنا ان شاء الله اتيناكم فصلينا لكم فيه). لكنه ما ان فقل عائدا من غزوته تلك ، واصبح على مقربة ساعة من المدينة حتى جاءه الوحي الامين بحقيقة ما كان يرمي اليه اولئك الرجال المنافقون في بناء مسجدهم ذاك ، ودعوتهم الرسول

---

(٧٥٦) البخاري ، التجريد ٢/٢ – ٦ ، ابن هشام ، ص ٢٤٢–٢٤٩ ، الطبري : تاريخ ٦١١/٢–٦١٨ ، ابن الاثير : الكامل ١٩٥/٢–١٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٠/٤–١٦٤ ، الواقدي : ٤٢٦/٢–٤٣٤.

(٧٥٧) سورة التوبة ، (الآيات ١٠٧–١١٠).

(صلى الله عليه وسلم) لمباركته !! فما لبث (صلى الله عليه وسلم) ان استدعى اثنين من اصحابه وقال لهما : (انطلقا الى المسجد الظالم اهله فاهدماه وحرقاه) ، فخرجا مسرعين حتى دخلا المسجد وفيه اهله ، فحرقاه وهدماه حتى تفرق عنه اصحابه[٧٥٨].

وقد سئل عاصم بن عدي : لم ارادوا بناءه ؟ فقال : كانوا يجتمعون في مسجدنا ، فانما هم يتناجون فيما بينهم ، ويلتفت بعضهم الى بعض فيلحظهم المسلمون بابصارهم ، فشق ذلك عليهم ، ، وارادوا مسجدا يكونون فيه ، لا يغشاهم فيه الا من يريدون ممن هو على مثل رايهم. فكان ابو عامر يقول : لا اقدر ان ادخل مربدكم هذا ، وذاك ان اصحاب محمد يلحظونني وينالون مني ما أكره قالوا : نحن نبني مسجدا تتحدث فيه عندنا[٧٥٩].

ويروي البلاذري عن سعيد بن جبير ان بني عمرو بن عوف ابتنوا مسجدا في (قباء) فصلى بهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه ، فحسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف فقالوا : لو بنينا ايضا مسجدا وبعثنا الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي فيه كما صلى في مسجد اصحابنا ، ولعل ابا عامر – الذي كان قد فر من الله ورسوله الى اهل مكة ثم لحق بالشام فتنصر واقسم ان يحارب الرسول اينما وجد فرصة لذلك – ان يمر بنا اذا اتى من الشام فيصلي بنا فيه. فبنوا مسجدا وبعثوا الى رسول الله يسالونه ان ياتي فيصلي فيه. فلما قام رسول الله لينطلق اليهم ، اتاه الوحي بالآية السالفة[٧٦٠].

ويبدو من دراسة هذه الحادثة ان حركة النفاق كانت قد حذقت ، خلال سني الدعوة الطويلة ، مزيدا من الاساليب لتخريب المجتمع الاسلامي من الداخل ، بعد أن أعيتها كل الحيل السابقة ، وها هي الآن تسعى في ظاهر الامر الى مزيد من الاندماج في المجتمع الاسلامي والى اعتماد مؤسساته نفسها كالمسجد الذي هو رمز العبادة الاسلامية وحرمها للوصول الى اهدافها بضمان اكبر ، حيث سيحقق لها ذلك العمل خفاء اكثر ويظهر من نياتها واعمالها ماهو طيب مقبول ، ولكنه سيؤدي في الوقت نفسه الى تمزق وانشقاق في قلب المجتمع الاسلامي ، وفي اي شيء ؟ في المسجد الذي هو مركز الجماعة الاسلامية ومنطلق نشاطاتها المختلفة ، وقلبها الذي لا يكف عن الخفقان!!

---

(٧٥٨) الطبري ، تاريخ ١١٠/٣–١١١ ، الواقدي ١٠٤٥/٣–١٠٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/٥–٢٢.

(٧٥٩) الواقدي ، ١٠٤٨/٣–١٠٤٩.

(٧٦٠) فتوح البلدان ٢/١/١ ، انساب الاشراف ٢٨٢/١–٢٨٣ ، وانظر السمهوري : وفاء الوفا ١٦/٢–١٧.

ومن هناك ، وبعد المباركة التي سيمنحها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مسجدهم هذا ، سينطلق المنافقون ، وقد ابدوا نية حسنة وبنوا مسجدا جديدا ، لاستقطاب العناصر القلقة في المجتمع الاسلامي وضمها الى صفوفهم ، وتوسيع قواعدهم بين المسلمين ، واطلاق الشائعات وبذل نشاط واسع من هذا المسجد ، بقيادة زعيمهم الذي كان قد لحق بالشام وتنصر !! للاتصال بغير المسلمين كذلك لرسم الخطط وتحديد اساليب العمل ، وهم في حماية من غضبة المسلمين وفي امان من الانكشاف ، ما داموا يمارسون نشاطاتهم تلك من قلب المسجد الذي باركه الرسول صلى الله عليه وسلم. والذي يؤكد هذا ، ان تصاعد نشاط المنافقين في اقوالهم واعمالهم ، والذي رافق محنة تبوك – كما راينا – جاء موازيا لبناء هذا المسجد الذي تم انشاؤه قبيل التجهز لغزو الروم. وعندما هرع مبعوثا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتهديم بؤرة النفاق هذه وجدا في باحتها اولئك الذين اقاموها .. وربما كانوا يمارسون من هناك نشاطهم المسموم. وهذا الاسلوب في العمل التخريبي ، وهو اعتماد قيم ومؤسسات مجتمع او عقيدة ما لتخريب اسس ذلك المجتمع وعقائدياته وتدمير معنويات اصحابه ، معروف على مر العصور ، وليست هذه التجربة التي فضحها القرآن الكريم الا علامة تحذير دفعت المسلمين الى مزيد من الحذر واليقظة !!

[5]

وكما حدث بالنسبة لليهود ، مضت المراحل الاخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشارا ، وزعماء القبائل العربية وامراؤها ينهالون على المدينة معلنين اسلامهم ومبايعين رسولهم الكريم. ولم يجد المنافقون منفذا يتسللون منه لتسديد ضربة مؤذية او تنفيذ مخطط تخريبي جديد ، سيما وان زعيمهم عبد الله بن ابي كان قد توفي في اواخر السنة التاسعة[٧٦١] ، وكانت الايات القرآنية قد نزلت – اخيرا – تندد بما فعل ويفعل اولئك المنافقون ، وتمزق – بشكل نهائي – الاستار التي يتوارون خلفها. وكانت الاعيبهم قبل تبوك وبعدها هي النهاية الحاسمة للسماحة التي مرحوا في سعتها طويلا ولم يقدروها حتى قدروها ، وامر النبي (صلى الله عليه وسلم) ان يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ، وكلف الا يقبل

(٧٦١) الطبري : تاريخ ١٢٠/٣.

منهم ولا يصلي عليهم[٧٦٢] ، بل اعلم ان استغفاره لهم لن يجاب ، ثم طولب المسلمون كافة ان يقاطعوهم[٧٦٣].

الا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما ان توفي حتى وجد المنافقون المنسربون في حنايا المجتمع الجديد ، والذين ازداد عددهم كثرة في اعقاب انتصار الاسلام الحاسم وتفرده بالسلطان ، حيث انتمى اليه الكثيرون من العرب رغبا ورهبا ، وهم لا يزالون يحملون عاداتهم وممارساتهم القديمة وتسيبهم وانفلاتهم الجاهلي المعروف ، وجدوا فرصتهم السانحة فراحوا يتكالبون ، كما تكالب غيرهم من اعداء الاسلام ضد الدولة التي مات قائدها ومؤسسها ، وليس ادل في هذا المجال من حديث عائشة (رضي الله عنها) حيث تقول : (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على ابي بكر)[٧٦٤]. ومن ثم فان لنا ان نتصوّر حجم الدور الذي مارسه المنافقون في حركات الردة والتنبؤ في عهد ابي بكر .. وفيما بعد ، في الفتنة التي زعزعت اركان الخلافة الراشدة ، وهو ولا ريب دور كبير وخطير بمجرد ان نطلع على التكوين القبلي للمنتمين الى الفتنة وعلى اسماء قادتها وزعمائها!!

---

(٧٦٢) سورة التوبة ، (الآية ٨٤).

(٧٦٣) الغزالي : فقه السيرة ، ص ٤٤٨. وانظر دروزة ٨٢/٢.

(٧٦٤) ابن هشام ، ص ٤٠٤.

الخاتمة

عندما حان موعد الحج من العام العاشر للهجرة ، اعلن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه سيحج بنفسه في الناس هذا الموسم ، وامر بالتجهز للذهاب الى مكة ، ثم ما لبث ان غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة. وانهال المسلمون على مكة من كل مكان لكي يشهدوا اول حجة على الطريقة الاسلامية التي لا دخل فيها من طقوس وثنية ، وليلتقوا برسولهم الكريم ويقبسوا عنه مزيدا من التعاليم.

وبدأت مراسيم الحج فانطلق آلاف المسلمين ، القدماء والجدد ، وراء نبيهم ومعلمهم وهو يريهم مناسكهم ويعلمهم سنن حجهم. ورأى ان يفيد من فرصة التجمع الكبير هذه فيلقي في اتباعه خطابا جامعا يؤكد فيه القيم والتعاليم التي بعث من اجلها ، وكانه كان يدرك ، باحساسه العميق ، ان هذه هي اخر فرصة يلتقي فيها بحشد كبير من اتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم ، فوقف بين ايديهم في عرفات ، وشفق المغيب يلقي على جبهته مزيدا من النور والمهابة والجلال، وراح يلقي كلماته التي سميت فيما بعد بخطبة الوداع ، ومن ورائه رجل جهوري الصوت يصرخ بكلمات الرسول ليسمعها الوف الحجيج : (ايها الناس ، اسمعوا قولي فاني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا. ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسالكم عن اعمالكم – وقد بلغت – فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها. وان كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله انه لا ربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وان كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان اول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (الذي قتلته هذيل) فهو اول ما ابدا به من دماء الجاهلية ... ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد بارضكم هذه ابدا ، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك ، فقد رضي به مما تحقرون من اعمالكم فاحذروه على دينكم. ايها الناس : **{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}**[٧٦٥].

---

(٧٦٥) سورة التوبة ، (الآية ٣٧).

أيها الناس ان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، واستوصوا (بهن) خيرا فانهن عندكم عوان (اسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما اخذتموهن بامانة الله .. فاعقلوا ايها الناس قولي فاني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا ، امرا بينا كتاب الله وسنة نبيه. ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن انفسكم. اللهم هل بلغت ؟) اجابه المسلمون جميعا : اللهم نعم ، فقال (اللهم اشهد)[٧٦٦]. وبعد ذلك بقليل ، قال الرسول للوفود المحتشدة حوله عند جمرة العقبة ، ما يشعر بحلول الاجل القريب (خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا احج بعد عامي هذا)[٧٦٧].

***

في مطلع ربيع الاول من العام التالي (١١هـ) خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى بقيع الغرقد حيث تنتشر مقابر اهل المدينة ، فناداهم واستغفر لهم (السلام عليكم اهل المقابر ليهنا ما اصبحتم فيه مما اصبح الناس فيه ، اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع اخرها اولها ، الاخرة شر من الاولى ..) ورجع الى اهله. وحينذاك بدا وجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي انتهى بانتقاله الى الرفيق الاعلى. عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : (رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من البقيع فوجدني وانا اجد صداعا في راسي ، وانا اقول : واراساه ! فقال : بل انا والله يا عائشة وا رأساه ...) وراح يدور على نسائه ، واوجاعه تزداد وطأة ، حتى غلبته على نفسه فاستاذن ازواجه ان يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فاذن له. وخرج يمشي بين رجلين من اهله ، علي والفضل بن عباس ، عاصبا راسه ، تخط قدماه ، حتى دخل بيت عائشة[٧٦٨].

---

(٧٦٦) ابن هشام ، ص ٢٧٢-٢٧٤ ، الطبري ١٤٨/٣-١٥٢ ، ابن سعد ١٢٤/١/٢-١٣٦ البخاري : تجريد ٩٨/٢-٩٩ ، اليعقوبي ، تاريخ ٩٩/٢-١٠٢ ، المسعودي : مروج ٢٩٠/٢ ، التنبيه ، ص ٢٣٩-٢٤٠، ابن الاثير : الكامل ٣٠٢/٢-٣٠٣. وعن نص الخطبة انظر : حميد الله : الوثائق ص ٣٦٠-٣٦٢ ابن حزم ، جوامع ٢٦٠-٢٦٢. وعن تفاصيل حجة الوداع انظر : ابن كثير : البداية ١٠٩/٥-٢١٤.

(٧٦٧) الغزالي ، فقه السيرة ، ص ٤٩٠.

(٧٦٨) ابن هشام ، ص ٣٧٧-٣٧٨ ، ٣٨٥ ، الطبري ١٨٨/٣-١٨٩ ، ابن سعد ٩/٢/٢-١١ البلاذري ، انساب ٥٤٣/١-٥٤٥.

اخذت الحمى تزداد شدة ، حتى ان الرسول طلب من اهله ان يريقوا عليه (سبع قرب من آبار شتى) ، ولما راحوا يصبون عليه الماء طفق يقول (حسبكم حسبكم) وعندما احس ببعض الارتياح خرج الى المسجد عاصبا راسه حتى جلس على المنبر فكان اول ما تكلم به انه صلى على اصحاب احد واستغفر لهم ثم قال : (ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله). فهم ابو بكر مغزى كلام الرسول وعرف انه يريد نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بانفسنا وابنائنا ، فاجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (على رسلك يا ابا بكر) ثم التفت الى من حوله وقال : (انظروا هذه الابواب اللافظة في المسجد فسدوها ، الا بيت ابي بكر ، فاني لا اعلم احدا كان افضل في الصحبة عندي يدا منه .. ولو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صحبة واخاء وايمان حتى يجمع الله بينا عنده) ... وعاد الى بيته ودهمته نوبة الحمى والالم مرة اخرى(٧٦٩).

طلب الرسول – بعد ان اعجزه المرض عن اداء مهامه – ان يامروا ابا بكر ليصلي بالناس ، فقالت عائشة : يا نبي الله ان ابا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرا القرآن.

قال : فمروه فليصل بالناس .. وكانت عائشة ترمي من وراء ذلك الا يدفع ابوها الى موقف يؤدي الى تشاؤم الناس منه : (لان الناس لا يحبون رجلا قام مقام نبيهم ابدا) .. فصلى ابو بكر بهم ثلاثة ايام(٧٧٠).

وفي يوم الاثنين الذي توفي في ضحاه (١٢ ربيع الاول) خرج (صلى الله عليه وسلم) لكي يلقي نظرة على اصحابه ، وهم يقفون صفوفا يؤدون الصلاة ، وما ان رفع الستر واطل على المسلمين حتى كادوا يفتنون في صلاتهم برسول الله حين راوه فرحا به ، وانبسطت سرائرهم فاشار اليهم ان اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم سرورا لما راى من هياتهم في صلاتهم. ونكص ابو بكر الى الوراء اعتقادا منه ان الرسول سيؤم بنفسه المسلمين في صلاتهم هذه ، الا ان الرسول تقدم اليه ودفعه في ظهره قائلا : صل بالناس ، وجلس الى جنبه ، وصلى قاعدا عن يمين ابي بكر.

---

(٧٦٩) ابن هشام ، ص ٣٨٥-٣٨٦ ، الطبري ٣/١٩٠-١٩١ ، ابن سعد ٢/٢/٢٥-٢٦ ، البلاذري ، ١/٥٤٦-٥٤٧.

(٧٧٠) ابن هشام ، ص ٣٨٨ ، الطبري : ٣/١٩٦ ، ابن سعد : ٢/٢/١٨ ، ٢٠-٢١ البلاذري : ١/٥٥٤-٥٥٧.

فلما فرغوا من الصلاة راح الرسول يتحدث اليهم رافعا صوته ، حتى ظن اصحابه ان قد زال ما به من وجع واستاذنه ابو بكر في الذهاب الى اهله بالسنح ، احدى ضواحي المدينة ، وسال الناس عليا : يا ابا الحسن كيف اصبح رسول الله ؟ فقال : اصبح بحمد الله بارئا[٧٧١]!!

لكن تلك الاشراقة لم تكن سوى صحوة الموت ، ولنستمع الى عائشة رضي الله عنها وهي تحدثنا عن اللحظات الاخيرة من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (رجع الي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجري ، فدخل علي رجل من آل ابي بكر وفي يده سواك اخضر ، ، فنظر رسول الله اليه في يده نظرة عرفت انه يريده فقلت : يا رسول الله اتحب ان اعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم. فاخذته فمضغته حتى لينته ثم اعطيته اياه ، فاستن به كاشد ما رايته يستن بسواك قط ثم وضعه. ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت انظر في وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول : (بل الرفيق الاعلى من الجنة) ، فقلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق ! وقبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [٧٧٢] وهو يقول : (قاتل الله قوما اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) ويردد (الصلاة وما ملكت ايمانكم) حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه))[٧٧٣].

انقض نبأ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على اصحابه المتجمهرين في الخارج انقضاض الصاعقة ، وراح عمر بن الخطاب يقول : (ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد توفي وان رسول الله ما مات ، وكلته ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد ان قيل : قد مات. والله ليرجعن رسول الله

---

(٧٧١) ابن هشام ، ص ٣٨٩-٣٩٠ ، ٣٩١ الطبري ، ١٨٧/٣ ، ١٩٨-١٩٩ ابن سعد ، ١٧/٢/٢-١٩ ، البلاذري : انساب ٥٥٧/١-٥٥٨ ، ٥٦١.

(٧٧٢) ابن هشام ، ص ٣٩١-٣٩٢ ، الطبري ١٩٩/٣ ، ابن سعد ٢٧/٢/٢-٢٨ ، ٣٠ ، البلاذري ، انساب ٥٤٩/١ ، البخاري : تجريد ١٠٥/٢-١٠٦.

(٧٧٣) ابن ماجه ، ١٥٥/٢ ، احمد ١١٧/٣ وانظر الحديث الذي اخرجه احمد (/٣٤٦) : (اللهم لا تجعل قبري بعدي وثنا يعبد). وانظر : ابن هشام ، ص ٤٠٤ ابن سعد ٤٧/٢/٢ البلاذري ، انساب ٥٥١/١.

(صلى الله عليه وسلم) كما رجع موسى ، فليقطعن ايدي رجال وارجلهم زعموا ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم مات)[٧٧٤].

واقبل ابو بكر – حين بلغه الخبر – حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس فلم يلتفت الى شيء حتى دخل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية البيت .. فأقبل حتى كشف عن وجهه وقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، اما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا. ثم رد الغطاء على وجه رسول الله ثم خرج ، وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر ، انصت !! فتجمهر حوله الناس ورنوا اليه ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ايها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ثم تلا :

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}[٧٧٥].

قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : فوالله ما هو الا ان سمعت ابا بكر تلاها فدهشت وتحيرت ، حتى وقعت الى الارض ما تحملني رجلاي ، وعرفت ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد مات[٧٧٦]!!

---

(٧٧٤) ابن هشام ، ص ٣٩٢ ، الطبري ٢٠٠/٣ ، ابن سعد ٥٣/٢/٢–٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، البلاذري : انساب ٥٦٥/١–٥٦٧.

(٧٧٥) سورة ال عمران ، (الآية ١٤٤).

(٧٧٦) ابن هشام ، ص ٣٩٣ ، الطبري ٢٠٠/٣–٢٠١ ، ٢٠٢–٢٠٣ ، ابن سعد ٥٢/٢/٢–٥٣ ، ٥٤–٥٧ البلاذري : انساب ٥٦٦/١.

قائمة باهم المصادر والمراجع

المصادر (القديمة)

- القرآن الكريم.
- اسفار : اشعيا ، التثنية ، دانيال ، المزامير.
- اناجيل : متى ، يوحنا ، برنابا.
- **ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي الجزري (ت ٦٣٠هـ).**

اسد الغابة في معرفة الصحابة ، جمعية المعارف ، (مصر-١٢٨٥هـ).

الكامل في التاريخ ، دار صادر - ودار بيروت ، (بيروت-١٩٦٥-١٩٦٧م).

- **البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).**

انساب الاشراف ، الجزء الاول ، تحقيق محمد حميد الله ، معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية ودار المعارف بمصر ، (القاهرة-١٩٥٩م).

فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة-١٩٥٦-١٩٥٧م).

- **ابن حزم : ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ).**

جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الاسد ، دار المعارف ، سلسلة تراث الاسلام ، رقم ٢.

- **الحلبي : علي بن برهان الدين الشافعي (ت ١٠٤٤هـ).**

انسان العيون في سيرة الامين المأمون (المعروف بالسيرة الحلبية) ، المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة-١٩٦٢م).

- **ابن خياط : ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابي هبيرة (ت ٢٤٠هـ).**

تاريخ خليفة ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، (النجف ١٩٦٧م).

- **ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ).**

كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق ادور سخاو ورفاقه ، طبع مصورا عن (طبعة ليدن-بريل-١٣٢٥هـ) (مؤسسة النصر-طهران).

- **السمهودي : ابو الحسن علي نور الدين بن عبد الله (ت ٩١١هـ).**

وفاء الوفا باخبار دار المصطفى ، مطبعة الاداب والمؤيد ، (القاهرة–١٣٢٦هـ).

- **الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).**

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، (القاهرة–١٩٦١–١٩٦٢م).

- **القلقشندي : ابو العباس احمد (ت ٨٢١هـ).**

صبح الاعشى في صناعة الانشا ، (المطبعة الاميرية القاهرة–١٩١٣م).

- **ابن كثير : ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ).**

البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، (القاهرة–١٩٣٢م).

تفسير القرآن العظيم ، المطبعة التجارية ، (القاهرة–١٣٥٦هـ).

- **ابن المبارك : ابو العباس زين الدين احمد الزبيدي (ت ٧٣٥هـ).**

التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح ، لابي عبد الله بن اسماعيل البخاري ، الطبعة الثانية ، دار الارشاد ، (بيروت–١٣٨٦هـ).

- **المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ).**

التنبيه والاشراف ، دار التراث ، (بيروت–١٩٦٨م).

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق اسعد داغر ، دار الاندلس ، (بيروت–١٩٦٥م).

- **المقدسي : المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥هـ).**

كتاب البدء والتاريخ المنسوب لابي زيد بن سهل البلخي ، تحقيق كلمان هوار ، (باريس–١٨٩٩م).

- **المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).**

امتاع الاسماع بما للرسول من الاتباع والاحوال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمود محمد شاكر ، (القاهرة–١٩٤١م).

- **ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ).**

تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية الحديثة ، (القاهرة–١٩٦٤م).

- **الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ).**

كتاب المغازي ، تحقيق : مارسدن جونس ، (مطبعة جامعة اكسفورد–١٩٦٦م).

- **اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب المعروف بابن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ).**

تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، (النجف–١٩٦٤م).

المراجع (الحديثة)

- **احمد : ابراهيم خليل (سابقا : القسيس ابراهيم خليل فيلبس).**

محمد في التوراة والانجيل والقرآن ، الطبعة الثانية ، مكتبة الوعي العربي ، (القاهرة–١٩٦٤م).

- **ارنولد : سير توماس و.**

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة–١٩٧١م).

- **بخيت : عبد الحميد.**

عصر الخلفاء الراشدين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، (القاهرة–١٩٦٥م).

- **بروكلمان : كارل.**

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس والبعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، (بيروت–١٩٦٨م).

- **الجندي : انور.**

الاسلام وحركة التاريخ ، مطبعة الرسالة ، (القاهرة–١٩٦٨م).

- **حميد الله : محمد.**

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة السادسة ، دار النفائس ، (بيروت–١٤٠٧–١٩٨٧م).

- **خطاب : محمود شيت.**

الرسول القائد ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ، (بغداد–١٩٦٠م).

- **درمنغم : اميل.**

حياة محمد ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية ، (القاهرة–١٩٤٩م).

- **دروزة : محمد عزة.**

سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم ، الطبعة الثانية ، مطبعة عيسى البابي ، (القاهرة–١٩٦٥م).

- **دوزي : رينهارت.**

تاريخ مسلمي اسبانيا ، الجزء الاول ، ترجمة حسن حبشي ، المؤسسة المصرية العامة – دار المعارف ، (القاهرة–١٩٦٣م).

- **دينيه والجزائري : اتيين دينيه (ناصر الدين) وسليمان ابراهيم الجزائري.**

محمد رسول الله ، ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم ، الطبعة الثالثة ، الشركة العربية ، (القاهرة–١٩٥٩م).

- **الشريف : احمد ابراهيم.**

مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، (القاهرة–١٩٦٥م).

- **عثمان : محمد فتحي.**

دولة الفكرة ، الدار الكويتية ، (الكويت–١٩٦٨م).

- **علي : جواد.**

تاريخ العرب في الاسلام (السيرة النبوية) ، الجزء الاول ، بغداد ، (مطبعة الزعيم – ١٩٦١م).

- **العلي : صالح احمد.**

محاضرات في تاريخ العرب ، الجزء الاول ، الطبعة الثالثة ، بغداد ، (مطبعة الارشاد–١٩٦٤م).

- **عنان : محمد عبد الله.**

مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الخانجي ، (القاهرة–١٩٦٢م).

- **الغزالي : محمد.**

فقه السيرة ، الطبعة السادسة ، دار الكتب الحديثة ، (القاهرة–١٩٦٥م).

- **فلهاوزن : يوليوس.**

تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادي ابي ريدة ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة–١٩٦٨م).

- **كشك : محمد جلال.**

الحق المر ، مكتبة عمار ، (القاهرة–١٩٦٨م).

- **وات : مونتغمري.**

محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت.

- **ولفنسون : اسرائيل.**

تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، مطبعة الاعتماد ، (القاهرة–١٩٢٧م).

المراجع الاجنبية :

Bell :

- The Qur'an, trnslated with a critical (Ne-arreangement of the surahs). 2 Vol. (Edinbourg 1937-1939).

Margoliuth:

- The Erly Development of Mohammedanism. (London, 1914).
- Mohammed and the Rise of Islan. (London. 1905).
- The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam. (London, 1924).

Miguel, Asin:

- Islam and the Divine Comedy. Tr.H. Sunderland. (London, 1926).

Muir: William

- The Caliphate, its Rise. Decline and fall, (London, 1891).
- Life of Mahomet, (London, 1858-61).

Tor Andrae:

- Mahmet, Sa Vie et Sa Doctrine, (Paris, 1945, Tra. London, 1936).
- The Encyclopeadia of Islam, (London and ieyden 1913).
- Islamic Qurterly, (London, Vol. VIII).
- Jewish Qurterly Review, (London, 1903).